أميمة الخميس

مسرى الغرانيق في مدن العقيق

رواية



دار الساقي

مسرى الغرانيق
في مدن العقيق

اللهم أنزل على قبرها الضياء والنور
والفسحة والسرور
اللهم اقبلها في عبادك الصالحين
واجعلها من ورثة جنة النعيم

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

أميمة الخميس

مسرى الغرانيق
في مدن العقيق

مكتبة | 352



الطبعة الأولى 2017

ISBN 978-614-03-2065-9

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033—6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

 @DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى السُّراة الغرانيق

من

واصل بن عطاء

إلى

محمد عابد الجابري

مآلات العقل الحبيس

الفصل الأول

قوافل يقصيها القحط... ويدنيها الحنين

السبت ٤ شعبان ٤٠٢ للهجرة

١ آذار ١٠١٢ للميلاد

أقصد مدينة القدس ولست نبياً ولا قديساً ولا مبشراً.

ولست مريداً في مرحلة أولى من معراج السؤال، كي أنقب عن جوابي في حلقات الجوامع، ووحشة الصوامع، ولكنني محض تاجر كتب في زمن الفتنة والاحتراب وشهوة إحراق المدونات والمخطوطات وتطهير الذنوب بجمرها.

خلفنا بلدة عين التمر، وننحدر غرباً نحو بصرى الشام. أرضنا سهلية منبسطة عدا بعض الهضاب وممرات الأودية، وكثبان الرمل تنقطع وتعود لتتصل ويظهر لنا فجأة بينها قمم صخرية شاهقة مسنونة كأنها مردة مصطفون متأهبون لأمر جلل. يستدير أسفل تلك القمم وبين منحنياتها غدران كالمرايا لامعة الحصى عذبة الماء، تشتبك أشجار نخيل وطلح حولها، ويندرج بين صخورها أسراب من طير الحجل الحذرة وخلفها أفراخها، مسبحة دقيقة الحبك.

نتوقف ونقيل تحت كتف الجبل، ونطبخ طعامنا ونطعم دوابنا، وفي

المساء، يرقى بعضنا إلى الكهوف كي تحتضنه عن لفح الهواء البارد. نوقد ناراً صغيرة داخل الكهف فترتجف ظلالنا على جدرانه، ولكن حين نحدق بالظلال نعرف أنها ليست ظلالنا، بل هي لأقوام لا نراهم، يتناولون عشاءهم بوجوم وصمت. نحييهم فلا يردون، بل تندفع ريح باردة من مدخل الكهف، فنبسمل ونمضي ليلتنا هناك كقطيع ذئاب بعين مغمضة وأخرى مفتوحة، قبل أن نعاود النزول عند الفجر في دروب الجبال الوعرة إلى القافلة التي تتأهب للمسير.

رغبت بعدها عن النوم في الكهوف، كما أنني كنت أفضل أن أبقى إلى جوار صندوق الكتب خشية أن يثير فضول بعضهم فيتلصصون على ما فيها.

قبل شروق الشمس يهب علينا هواء شامي مثلج يقرص أطرافي، يمر بشجيرات العشرق الجافة في دربنا فترتعش وتصفر، وأنتظر الشمس أن تتوسط السماء لتدفئنا قليلاً، تحت سماء شديدة الزرقة لا يفكر حتى الذباب بالطيران فيها.

يأمر صاحب القافلة حادي الإبل أن يرفع صوته بالحداء لعلّ الإبل تنشط ونحن نقترب من واحة تشتي حولها بعض بطون قبيلة كلب بن وبرة.

تنيخ الإبل على ضفاف حمى القبيلة لبضعة أيام، وقبل أن نواصل السير، يطلب منهم صاحب القافلة قاص أثر يرافقنا ويقودنا إلى درب قصيرة نقطع عبرها وادي سرحان، وتنحدر بنا على بصرى الشام مختصرة أربعة أيام من المسير.

أحكم عمامتي على رأسي وأغطي طرف أرنبة أنفي المثلج، وأخرج من كمي كتاب جالينوس عن الطب، هو الوحيد الذي غامرت وأبقيته

خارج الصندوق، فأغرق داخل وصفات لا متناهية: اختلال توازن الأخلاط في الجسد ما بين يبوسة ورطوبة وحرارة وبرودة، تتنازعها القوى الجاذبة، والممسكة، والهاضمة، والدافعة، وكل ما يجعله جالينوس سبباً للأمراض.

خشيت على توازن أخلاطي وقد تثلجت أطرافي، أحكمت عباءتي النبطية حولي، مبطنٌ داخلها بصوف طلي صغير وخارجها نسيج صوفي مخطط متين محبوك الأطراف بزخارف كأنها رؤوس هداهد.

فإذا هبت ريح الصبا من الجنوب الشرقي، صار للهواء أكف صغيرة تربت على أطرافي المثلجة بحنو، ولربّما إذا أصخت السمع إلى النسمات الجنوبية، سمعت ضجيج وجلبة قوافل العرب المستعربة، تخلف أطلالها في جزيرة العرب لتطرق درب الفياض الشمالية.

مئات القوافل الضاعنة يلاحقها الحنين، وينفيها القحط، فتقصد مرابع الخصب، حيث أنهار جرت، وهضاب أربعت، وحقول أثمرت، في حين أنه في أعماق كل منهم أعرابي يشجيه حلم العودة.

***

تاجر كتب... قد تكون هذه صنعتي حقاً، أو لربّما أستتر خلفها بمنجى من الريبة والشك بين مسافري قافلة العطور المتجهة من بغداد إلى القدس.

أتجنب مسامرتهم، ولا ألتقط الحبال التي يرمونها لاستدراجي إلى حلقة أحاديثهم. أحاديثي قصيرة ومقتضبة، تحركاتي سريعة ومرتبكة، هل سيفطنون أنني هارب مذعور؟ لا ينقل كتب الفلاسفة والمهرطقة

فقط، بل أيضاً وصايا أهل العدل والتوحيد، ولا يعلم إلى أيهما يصير، فهو ما برح روحاً معلقة في منزلة بين المنزلتين، تجسدت في هذا العصر الذي يسمونه زبدة الحقب.

أنا مزيد الحنفي، ولد لعبد الله ثاقب الحنفي، وشما الوائلية.

كلُّ ما معي شحيح ضئيل، حتى الشحم فوق أضلع ناقتي المكتهلة شبرا، وأسميتها شبرا عملاً بنصيحة الأعرابي الفزاري الذي ابتعتها منه أسفل السور الجنوبي لبغداد، بعد أن قال لي إن شبرا هو اسم جنية عظيمة تقطن الصحراء، فإن لقبت ناقتي باسمها استُحضرت، فتتلبسها لتصبح خفيفة نشيطة تتخطفها الرياح كقرينتها، عندئذٍ ستقطع بي المفازات والصحارى شبراً شبراً ولا تعصي لي أمراً!

لكن يبدو أن الجنية عندما وصلت ناقتي عافت نفسها أن تدخل هذا الهيكل المشعث بعظامه الناتئة وشفريها المتدليين وأخفافها المشققة، فتسير بصعوبة متقهقرة عن القافلة، وتكابد صندوق الكتب فوق كفل يضمر وتتآكله المسافات، أتراه لثقل كتب الفلاسفة والملاحدة فوق ظهرها؟

قبل ما يزيد على عامين حين مررنا بقبر أبي طاهر الجنابي القرمطي في الأحساء، أخبرنا سدنة الضريح أن الناقة التي حملت الحجر الأسود الذي انتزع من الكعبة المشرفة إلى الأحساء، أربعت وسمنت وصارت تتئم كل عام بحوارين. حكايات عجيبة كثيرة حدثنا بها سدنة الضريح، منها أن جسد حمدان القرمطي لم يبلَ في قبره لأن الدود حجب عن جسده المقدس، وأن هناك رجالاً طوالاً بأثواب خضراء يطوفون حول الضريح ليلاً مسبحين... بينما كتب الفلاسفة على كفل شبرا تقرضها فرسخاً تلو آخر.

***

كنت قد أزمعت أن تكون دمشق هي مقصدي بعد بغداد، مساجدها، شيوخها مكتباتها... تخبّئ لي الكثير. دمشق معاوية، أتخيله دوماً بتاج قيصر وليس بعمامة، يتبختر مسبلاً عباءة حمراء حريرية يجرها خيلاء، مع عينين براقتين تختزلان الدهاء وشهوة ملك عضوض.

جدي شيخ وإمام المسجد الجامع في حصن بني الأخيضر في حجر اليمامة وسط جزيرة العرب، يدعو فوق المنبر لآل البيت العلوي عقب كل صلاة بطول العمر والتمكين والاستخلاف بالأرض، فتؤمّن بعده اليمامة جميعها.

لكنه لم يلعن معاوية قط، كان يقول فقط: شيعة أهل البيت لهم مع الشام خلاف مرده المنازعة على الحكم، ومعاوية بذلك باغ؛ لكن لما استتب له الأمر وذهب خصومه، أصبح خليفةً عادلاً صاحب جيش وفتوحات هي في صحيفة حسناته.

وعندما ولدت، سماني مزيد على اسم جده، فتحلق حوله رجالات قلعة بني الأخيضر، وقالوا له: ما مزيد إلّا أحرف يزيد بن معاوية عليه من الله ما يستحقه، فكيف تسمي حفيدك بهذا الاسم؟

فلم يبال بهم وأبقاني مزيداً، ودعا الله أن يزيد في عمري ورزقي وعلمي.

***

يقول القادمون من دمشق إن النسخة الأصلية الوحيدة الباقية من مصاحف عثمان التي وزعها على الأمصار موجودة في مكتبات الجامع الأموي، ووريقات ذلك المصحف ما برح عليها آثار دمه. يتندر الورّاقون في سوق بغداد من هذه الحكاية وينعتون راوتها بالمدلسين، فعثمان قتل

في المدينة ومصحفه في الشام... والحكاية ما برحت تدور في العراق!

لهفي على مكتبات القساوسة السريان في دمشق، الذين لم يدعوا كتاباً لأمة اليونان دون ترجمة.

لكن جميع القوافل التي تنطلق من بغداد باتجاه القدس ترفض المرور بدمشق ذلك العام؛ تقول الأخبار إن ملك الروم (باسيل) وإنْ كان قد عاهد الفاطميين لعشر سنين، فإن بعض عصابات مرتزقة من جيشه يتنكرون بزي قوافل للتجار العرب، أو على هيئة حجاج ذاهبين إلى القدس، حتى إذا ما اقتربوا من قوافل دروب الحرير القادمة من فارس محملة بالزعفران وحجر اليشب، أو من العراق وعُمان محملة بالعطورات واللبان، انتهبوها واستلبوا حتى أردية التجار، وحموا صليباً نارياً وكووا به ظهورهم وفرّوا.

الوالي الفاطمي في دمشق يغض عنهم الطرف متعذراً بأن حفنة الجنود في حاميته لا قِبل لهم بمواجهة عصابات الإفرنج، وإن كان في حقيقته لا يبالي ولا ينصت إلى الشكاوى التي تصله ما دامت تلك القوافل المتحدرة من بيزنطة وبلاد الروم قد دفعت له مكوس الحج إلى إيليا القدس.

***

مخيّر لا مسيّر

بفؤادي جمرات شجن لم تترمد، ركلتني بغداد خارجها ولم أغادرها طوعاً، مغوية بغداد ومتوحشة، كفاتنة تسللت إلى خبائها ورشفت ينابيعها وقطفت ثمارها، وفي الفجر طلبت مني بشراسة المغادرة.

بها تكشف لي السر الأعظم، ونفخ أهل التوحيد في روحي رسالتهم؛ رحيلي عن بغداد جعلني مضطرباً مشتتاً كأن تحتي الريح.

***

هل أنا مخيّر أم مسيّر؟ ففي ذلك اليوم الذي اكتملت فيه مشيئة الرحيل عن بغداد، انتصف النهار وأنا ما برحت أطوف مناخ القوافل بحثاً عن قافلة، بعضهم أشار علي بالذهاب إلى الأنبار، فهناك سأجد الكثير من القوافل أصحابها هم الأمهر في القيافة ومعرفة بالدروب، في حين أن القوافل التي تصل بغداد أصحابها مصابون بالجشع، بل إن بعضهم يقسم أنهم يتوازعون أموال قوافل التجار مع لصوص متربصين في الدرب.

أقلب عيني في الوجوه والسمات، واللص لن يأتي ليقول لي: أيها الأخ الكريم مزيد: أنا لص، فلطفاً لا تَستقل قافلتي.

عادة أصحاب القوافل ينادون على وجهاتهم ومقاصدهم، لكن تزامن وصولي إلى السوق ووصول قوافل من الصحراء محملة بأسراب من صيد الصحراء قطاً وعصافير وسلالاً من الكمأة والحنظل الذي يحرص عليه أهل بغداد كمطهر لأمعائهم، فالتف حول قوافل الصحراء أهل السوق ولم يبال بي أحد.

واصلت سيري حتى شارفت على ضفاف النهر، وبدأت أسمع صياح أصحاب المراكب والسيمريات يصلني مخلوطاً مع رغاء الإبل ورائحة ندى التربة النهرية المشبعة برائحة سعف نخيل محترق.

فجأة استرعى انتباهي رجل يقف مجاوراً لناقة وضحاء هائلة تربض ككثيب وفوق رحلها أرفف متدرجة من خشب، في حين أن الرجل يسقط بعناية داخل تلك الأرفف قوارير صغيرة متجاورة مصطفة بدقة،

كل قارورة بلون مختلف عن الأخرى. لم أشهد قط ما يوازي جمال ألوان تلك القوارير ولطافة زخارفها ودقة نمنماتها، إحداها زعفرانية والأخرى لازوردية والثالثة فيروزية... وأغطيتها جميعاً قرمزية مورقة ومزخرفة بلون الصندوق نفسه الذي تدس فيه. كتب على بعضها نيلوفر ونرجس وكارده، والآخر سوسن وزنبق ومارسين، والثالث مرزنجوش وبادرنك ونارنج، والرابع قضب ريحان وند، وحين انتهى الرجل من صفها داخل صناديقها، أخذ يغطيها بقماش من الكتان وخلفه غلام نحيل يخيط أطراف الكتان فوق الصناديق بمهارة، كأن يده ولدت وهي تحمل هذا المخيط الضخم.

تأملي الطويل له جعل الرجل يلتفت إليّ بابتسامة مستفسرة، كانت ملامحه حادة وخطوط وجه عميقة ولحيته المهذبة قد خطها الشيب، لكن كتفيه شاسعتان، وجسده مفتول بعنفوان الجنود الذي لا يتواءم مع خطوط وجهه المكتهلة المجهدة، ولم يبد تذمراً من تحديقي الفضولي، بل قال لي بلكنة الديلم وبألفة كأنه يستأنف حديثاً طويلاً بيننا: هو كذلك العطر، كشفاه العذراء، وجناح الفراشة، يفسده الهواء والضوء، ولاسيما المسك، لذا لا بد أن يحجب، فالرحلة طويلة.

تلطّفه شجّعني على سؤاله بلهفة: إلى أين؟ أجاب الديلمي بلا تردد: إلى بُصرى الشام.

وقلت متوسلاً: لعلك ستمر بدمشق؟

فأجابني بنبرة ساخرة: وأنت لعلك تشتهي وسماً في ظهرك، ثم انطلق يقص الحكايات المتداولة بين الناس حول هجمات العصابات البيزنطية المتخفية بزي التجار، ولمّا انتهى إلى الوسم المحمي الذي يلسعون به الظهور، نادى على رجل يتنقل بمقربة منا يعلف الجمال: ياهلال... تعالِ هنا!

كان هلال هلالاً آفلاً طويلاً نحيلاً هزيل الوجه يلتف على ساعده مجموعة من الحبال. قال له الديلمي بنبرة متهكمة: اكشف لنا عن وسمك، وبعد تردد، استدار هلال ذليلاً منكساً، فتح جيبه مظهراً لوح كتفه وهو يقول: لعنة الله عليهم كتفوني بعد أن أرديت ثلاثة منهم!

فإذا بنا نرى وشم صليب ندبته تنغرز عميقاً في ظهره، ما برحت لم تلتئم، بل ينز طرفها بالقيح. قبل أن أتألم لمشهده، رفسه الديلمي على مؤخرته قائلاً له بسخرية فاجرة: امضِ أرجو أن يكون كتفك فقط الذي لسعه الروم وليس أي مكان آخر.

جفلت من قسوته على انكسار وكهولة هذا الرجل، رغم هذا، كان الديلمي خياري الأخير في الرحيل لذلك اليوم.

هو من أولئك الناس الذين تشعر أنك تود الانضمام إلى ركبهم، يشعرك بالسطوة والقدرة وأنه خير ملاذ بعد رحلة منهكة. قرار صوته العميق، رائحة العطر تفوح من عباءته، ورشاقة يديه وهيبته عند عماله... بائعٌ يستطيع أن يفكك خيوط المقايضة، ويدهن المسافات المشدودة ببلسم الحكايات. سمسار ماهر يستطيع الاصطفاف مع المشتري، حتى يشعره أنّهما سيبتاعان السلعة معاً. ما طلبه مني يزيد عن معظم ما طلبه أصحاب القوافل، وأيضاً هو الذي دلّني لاحقاً على الفزاري الذي ابتلاني بشبرا، لكن عين العقل اطمأنت إليه. الصوت الهامس الذي في صدري يقول: لا تزعم أنك مخير ولا تعارك المشيئة، فحتماً ستر ديك، ادرج داخل الدرب التي أشرعتها أقدارك فقط.

وقتذاك عرفت أن الله يحجبني عن دمشق، وأنني سأرافق هذه القافلة إلى بصرى، ومن هناك حتماً سأجد سبيلي إلى مدينة الأنبياء.

وهرعت وقتذاك إلى معلمي الهاشمي أخبره أن ما من سبيل إلى

دمشق، وأن محطتي الأولى بعد بغداد ستكون القدس.

***

صناديق بجكم

لم يبقَ لنا الكثير على بصرى الشام. صاحب القافلة الديلمي لا ينفك يحذرنا إذا توقفنا من فتح صناديق قد سفتها الرمال في الصحراء، فنظن أنها صناديق كنز، في حين أنها أحد صناديق القائد بجكم التركي وزير الخليفة الراضي، الذي يقال أنه انتهب أموالاً طائلة من بيت المال، وخشي أن تسترجع منه بعد موت الراضي، فكان يجمعها في صناديق ويذهب إلى الصحراء وأحد عبيده، فيطلب من العبد أن يحفر حفره عميقة ويضع عليها علامة، وحين يدفن الصندوق يقتل العبد حتى لا يشي بمكان الكنز ويضعه في صندوق فارغ آخر جوار الكنز، ثم يقفل راجعاً. ويقال أن في هذه الدرب الموحشة ما يقارب من الأربعين صندوقاً، ولأن لصوص القوافل سرقوا صناديق الكنز على مرّ الزمان، لم يبق إلّا صناديق العبيد المغدورين، وأرواحهم ستفتك بمن يفتح الصناديق.

***

عمامتي لا يتجاوز طولها ثلاث أذرع أتغطى بها عندما أنام، وأغطي بمعظمها نصف وجهي كي لا يطيل التفرّس بي أحد من القافلة ويعرفون هويتي، أم هي طمأنينة اللثام التي اعتدتها منذ طفولتي؟

وحده صندوق الكتب مكتنز ضخم تنوء به الناقة، فأسير جوارها حيناً وأجلس على كفلها الأيمن حيناً أخرى، أنا ووصايا السراة، وزادي،

ومجموعة مقتنياتي.

صنعة الصندوق المتقنة وخشبه الثمين يجعلانني أذري عليه بعض التراب كلما توقفنا، فمنظره العريق لا ينسجم مع هيئتي البسيطة التي تقترب من الرثاثة.

سأتخلص من قدر كبير منه في القدس؛ قيل لي أن علماء القدس، ولاسيما أساقفتها، شديدو الشغف بالعلوم والمعارف، ويتفاخرون بها في مكتبات كنائسهم، ويحرصون على تلك الكتب التي تحوي أسرار كتب الإغريق وسر تحويل المعدن الخسيس إلى ثمين، ومن الممكن أن يدفعوا ثمناً لها زاد شهر في سبيل أن يضيفوا كتاباً ثميناً إلى كنائس بيت المقدس، وغرف كنزها. فإذا قلت لهم إن هذه هي الكتب التي كانت تقايض بعد ترجمتها بالذهب داخل بيت الحكمة في بغداد، فحتماً سيلهفون عليها، وأكون وقتئذ قد نشرت كتب العقل والفلاسفة بين المكتبات وحلقات العلم، وأيضاً سأنال أثماناً مرتفعة لا تغطي مصاريف ترحالي فقط، بل تسمح لي بحفظ بعض دنانير الذهب حول وسطي، ولا أدري حقيقة هل هذه الكتب حقاً التي كانت تقايض وريقاتها بالذهب في دار الحكمة أم لا، أو لربّما نسخ منها؟

فما أنا إلّا محض تاجر، يحق لي استجلاب بعض الأكاذيب الصغيرة أثناء تسويق بضاعتي كالأكاذيب التي ساقها الأعرابي عندما باعني شبرا.

خِمار برائحة تلال الربيع

أنا مزيد النجدي الحنفي، ولدت في حجر اليمامة، أمي شما الوائلية. شما غدائرها طويلة تسمع وسوسة حلي الفضة فيها أينما سارت، وخمارها له

رائحة التلال في الربيع.

وحيدها الذي لم تكن تكتفي في طفولتي بتغطية وجهي حذار أعين الحي والجيران فحسب، بل كانت تجده من بهاء ووضاءة في ملامحي، ولكنها أيضاً كانت تزرع لي في كل غرفة ومنعطف في الحي جنياً تخوفني به، حتى لا أبتعد في اللعب أنا والصغار، فيقطف الصبية الكبار الورد من وجنتي. تتبعني بين الغرف وتقف بعتبة الباب تتأملني وأنا صاعد الدرج قابضاً على يد جدي باتجاه حصن بني الأخيضر، أو لعلها ذريعة تسوقها لتنقلها الدائم بين الأروقة والممرات حتى لا يجمعها مجلس بأبي؛ نادراً ما شهدتهما يتحدثان بود وألفة. يقف بباب الدار ويناديها بالوائلية ويوبخها على أمور غامضة بينهما، فتذهب إلى أقصى الدار وتأخذ بالنشيج وتذكر أهلها في الأفلاج الذين يبعدون عن حجر اليمامة مسيرة أربعة أيام بلياليها.

أبي كان تاجراً للإبل بأكتاف شاسعة وهامة عظيمة ولحية سوداء كثة تصل منتصف صدره. إحدى عينيه دائماً حمراء دامعة، وفي آخر سنواته، سالت عينه من محجرها إلى يده فأصبح أعور.

كان جدي يقطن خضرمة، ثم انتقل واستقر في حجراليمامة بعد أن أصبح إماماً لمسجد حكامها داخل حصن بني الأخيضر من سبط الحسن عليه السلام.

يروي شيوخ اليمامة عن أجدادهم أنه مع قدوم السلالة الطاهرة أسباط خير البرية، أعشبت بلدات اليمامة لهم وأغدقت ينابيعها، ونبت الزرع وتكاثر الضرع منذ حلولهم، فهم الذين أوعدهم الله الحوض عندما يأتون غرّاً محجّلين يوم القيامة.

***

حجر هي قلب اليمامة، ومقصد لمن جاورها من البلدات والضيع، وممر لقوافل الحج، وسوق كوّنت لأبي مضماراً ابتاع فيها وقايض وسلف بالأجل، فتراكمت الدراهم في صناديقه، والدنانير حول حزامه، وتوالدت قطعانه واحتاز ضياعاً كل واحدة منها ببئر خاص بها يسقي حقول القمح والنخيل وكروم العنب. صوامعه وغلاله وقطعانه مكنته الزواج بأي فتاة تصل إلى متكئات اليمامة أخبار حسنها، ولو كان الوصول إليها يتطلب مسيرة أربعة أيام إلى قرية الأفلاج.

أمي شما رقيقة بضة لها ملامح طفلة منعمة، وخداها باستدارة نصف قمر. تسميها النساء طير القطاة لخطواتها المتتابعة الغنوج، في صوتها رخاوة وليونة كانت على الغالب تغيظ أبي، فيبدي تذمره من التلكؤ في نبراتها، ومن تربيتها لي كأنني بُنية، ومن فرارها منه، وتذرعها بملاحقتي، فيما كنت أفر من مشاحناتهما إلى جدي.

***

خجلي ورقّة فؤادي جعلاني ألتصق بجدي، أرافقه في غدوه ورواحه بين البيت والمسجد الجامع، وألج وإياه بوابته الكبيرة، أجلس إلى جواره في المحراب وهو يرتل قرآن الفجر منتظراً دخول وقت الصلاة، فيما يستغرقني تأمل انسكاب الضوء عبر مثلثات ودوائر تعلو قبة المحراب، إلى أن يرفع المؤذن الأذان: "الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلّا الله، أشهد أن محمد رسول الله... حي على الصلاة حي على خير العمل"، فيقيم جدي بعدها الصلاة: "حي على الصلاة، محمد وعلي خير البشر".

ويطلب مني جدي أن أتقهقر إلى الصفوف ولا أقلب رأسي في السقف والمصلين، بل أطأطئ خاشعاً في حضرة الرحمن وأنظر موضع

السجود، لكن لا أبالي بما يطلب مني وأمضي وقتي أثناء الصلاة في تأمل العصافير التي تطل علينا عبر المثلثات والدوائر، وأتساءل هل تشاركنا الصلاة أم تتأملنا لتشي بنا إلى لصوص الصحراء؟

المسجد الجامع أبهى معمار في اليمامة، شُيِّد بالحجر وليس من اللبن الطيني، جدرانه الداخلية مغلفة بالجص، مورقة باللون الأزرق، ورؤوس أعمدته قد طوقت بزخارف الجير الأبيض.

فرش المصلى والمحراب بقطع سجاد فارسي تدغدغ باطن قدمي فأشعر بنشوة عندما أسير فوقها حافياً. يجاور المحراب أرفف خشبية مغروسة في الجدار ومطعمة بالصدف ومؤطرة بالخشب المحفور، وقد رصفت عليها بعض المصاحف وكتب الأدعية. ناحيته الجنوبية فيها مقاصير وخلوات مؤثثة بزرابي أعجمية ووسائد صوفية للمعتكفين، يجاورها متكئات من وسائد ديباج محشو بقش، لحلقات الدرس، إضافة إلى أباريق نحاسية صفت بجانب المدخل للوضوء.

جميع ذلك جلبته قافلة عظيمة بأمر من أم الأمير يوسف (قوت القلوب)، أم ولد رومية حظيت بمكانة خاصة لدى مولاي أحمد، وبعد إنجابها يوسف مرض رضيعها بالمرض الذي يصيب جلّ صغار بني الأخيضر عند ولادتهم ويموتون سريعاً إثره.

شارف الرضيع على الهلاك، فنذرت قوت القلوب عند الله إن شفاه، لتأثثن بيته، ونامت تلك الليلة وصغيرها يوسف ينازع الروح، وأنفاسه تتساقط فوق مخدته، فما لبثت بين غبش الصبح وتكبير المآذن أن لمحت سيد الأنام – صلى الله عليه وآله وسلم – جده الأعلى، قد حضر وبيده قطعة حرير بيضاء يتقاطر منها ماء، قال لها إنه ماء الكوثر لحبة قلبي، ومسح رأس يوسف وخده وصدره بقطعة الحرير، فانطفأت الحمى مع

شروق الشمس. مع أذان الظهر، جلس يوسف في مرقده متعافياً وطلب الطعام، فلم تعطه الطعام، بل هرولت إلى المسجد وافترشت حصباءه ساجدة بنشيج مرتفع لم تكد جواريها أن يرفَعنَها منه، ويقال من ذلك اليوم إن المسجد ينال عناية خاصة منها.

***

حصن بني الأخيضر العارم تعشش النسور فوق أبراجه الشرقية الشاهقة المرتفعة بخمسة طوابق، وتحيط الأبراج بوابتان تنفتحان على مزارع النخيل، على يمينها من الداخل مساكن الجند ومهاجع الحرس، في حين أن جزأه الشمالي المطل على وادي بني حنيفة يقطنه مولاي السيد أحمد بن الأخيضر ونساؤه وخاصته وخدمه. نراهن في صلاة الأعياد ينزلن مجللات بالخز والديباج. تتجاوب الأروقة مع أصوات حفيف أثوابهن، ووسوسة الخلاخل في أرجلهن، وتنشر النسائم أرج الورد المعصفر في ثيابهن، فيعبق بها الدرب إلى المسجد. تنصب حواجز خشبية مزخرفة لهن آخر المصلى، في حين أن بعض الأميرات الصغيرات ينطلقن من خلف الحواجز الخشبية بوجوه كالأقمار تتبعهن الجواري، وأيديهن الرقيقة منقوشة محناة، وأصوات زقزقتهن تملأ باحة المسجد.

***

الحصن قلعة هائلة يرمق حجر اليمامة من علّو، ويرمقه أهلها بتبجيل، ونرقى إليه بدرج حجري عجيب منحوت في الجبل كل درجة بحجم الأخرى تماماً، ويقال أن الذي نحته الرّيح سخّرها النبي سليمان لقبيلتي طسم وجديس سكان اليمامة الغابرين.

أرافق جدي عبره لنصل إلى المسجد لإقامة الصلاة، وفي منتصفه نبدأ سماع صوت أهازيج الجند وقعقعة سلاحهم وهم يتقافزون ويهدرون ويتريضون قبل صلاة الظهر: لا فتى إلّا علي، ولا سيف إلّا ذو الفقار.

زوجة سيدي أحمد، حفظها الله، قوت القلوب، أجزلت راتب جدي الذي لم يكن يقيم الصلوات في المسجد فقط بل كان أيضاً يمتلك مدونة كبيرة مغلفة بجلد كاغد ثمين وحافته نحاسية بقفل، يدون فيه عقود البيع والتداين والوصايا والزواج، ثم يغلق المدونة بمفتاح معلق في صدره.

ساحة حجر اليمامة السفلية تطوقها أروقة تحتضن حوانيت الأبازير، واللحامين، والبزازين، إلى جوار دكاكين التجار والصناع، فيما أُفرد جانبها الشمالي لمناخ القوافل، ومن هناك يتصعد إلى جدي التجار المتداينون والصناع المتشاكلون والأُجراء المظلومون.

يقفون بباب جدي صائحين: يا أبا عبد الله، ياثاقب، فيفرد لهم جدي وقتاً يمتد من الضحى حتى صلاة الظهر. أما بعد صلاة الظهر، فقد يأتيه الأزواج المتباغضون والأيتام المأكولة حقوقهم، والإخوة المتنازعون على إرث.

وما بين صلاة العصر والمغرب يتركها لحلقات الدرس، فيرقى من جديد إلى المسجد متأبطاً إمّا مصحفاً بغطاء جلدي سميك ومزخرف بالصدف، وإما مجلدين ضخمين مصنوعين من رق جلد الغزال، الأول **طبقات فحول الشعراء** لأبي سلام الجمحي، والآخر **سيرة ابن هشام**، تلك الكتب التي دوماً يردد أنها كلفته ادخار عامين أثناء زيارته الوحيدة إلى بغداد.

فإذا أمطرت، حفظها داخل صناديق خشبية، ثم يخرجها ويمرر صفحاتها على دخان حطب شجر السمر حتى تجف فلا يقرضها الفأر، ثم ينقلها بحرص إلى جراب من الديباج.

ولكن ولهي بتلك الكتب لم يجعل للفأر لها سبيلاً، فهي لا تكاد

تسقط من يدي، ولولا خوفي من حنق جدي لتوسدتها ونمت، وإن كانت بقية الكتب في مكتبته قد ابتاعها من قوافل الحج التي تنزل عادة في اليمامة لثلاث ليال. وكانت أحياناً تمر سنوات دون وفود قوافل الحجيج علينا خوفاً من لصوص الصحراء الذين كانوا يخطفون الحجاج ويبيعونهم عبيداً، أو خشية تربص القرامطة.

لحسن حظي ذلك العام، ٤٠٠ للهجرة، الذي أزمعت فيه السفر إلى بغداد، أناخت باليمامة جماعات هائلة قد قفلت من الحج وقد وصلتنا بأمان، لتخبرنا أن الخطبة ذلك الحج كانت للحاكم الفاطمي من آل البيت الكرام - عليهم أفضل السلام - فضجّ عندها حصن بني الأخيضر بالتكبير والتهليل.

***

قلم يجاور العرش

عندما كان جدي يعلمني حمل القلم، كانت يداي الصغيرتان دائماً دبقتين بدبس التمر، فلا يكتفي جدي بغسلهما، بل يجب أن أتوضأ لأن القلم موجود أسفل العرش، منزه عن الدنس، فلا بد أن نتوضأ قبل أن نلتقطه.

يقول الألف باسقة كنخلة، الباء كموقد تحته نار صغيرة... لكنني كنت أحب الراء لأنها هلال رمضان وأول العيد.

في غرفة جدي دائماً هناك خبز حنطة ورطب وقلال ماء عذب بنكهة لقاح البلح، كانت أمي تقول إنها حينما حضرت من الأفلاج عروساً صغيرة كانت خائفة تبكي، فناولها في كفها قطعة من المن والسلوى قال: امتصيها ببطء فهي ترفو ثقوب القلب.

تقول أمي: لم أعتد أن أسأله من أين جلبها، فغرفته دائماً مليئة بالزاد الطيب، حتى لو اشتهى الرطب في الشتاء لجلب له. حضرته الجليلة وغرفته دائماً زكية الرائحة، ومكتظة بمن نراهم وبمن لا نرى.

وأذكر وقتذاك أنني أحكمت رقابتي على جدي لا أفارقه، في غدوّه ورواحه نومه وصحوه. في الليل، أجاهد نعسي كي ألمح من يجلب أمانيه وحوائجه، فيما يستغرقه ركوع وسجود. كنت والنوم يهطل كثيفاً فوق أهدابي أسمع بوضوح حفيف الأجنحة، فأغمض عيني سريعاً، فلا أود أن أرى مخلوقاً عجيباً يحلق في ظلمة الغرفة حتى لو كان ملاكاً، وكنت أسأله: جدي، من الذي يجلب لك الرطب في الشتاء، فيرد وهو ساهم يتأمل نقطة غامضة أمامه: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾.

***

درب متعرجة متصعدة تتخلل مزارع النخل وسواقي الماء تفصل وسط بلدة حجر اليمامة عن الحصن ومساكننا. التصاقي بجدي أبعدني عن رعونة الصبيان وعبثهم، والتقافز بين سواقي الماء، ومسابقات تسلق النخيل، أو ملء أحواض الماء للمزارعين مقابل حفنة تمر وقطعة مضير.

وفي الأعياد والاحتفالات، كان الصبية يتدافعون ليسمح لهم القبض على رؤوس الأكباش وليّها، كي يجز رأسها الكبار، فيما يفوزون بقطعة كبدة أو شحم من الذبيحة، والأخيرة كانت أقساها وأفظعها على فؤادي.

لأنني ولد لعبد الله الثاقب، لا بد أن أحدق في المشهد والسكين تحز عروق الطلي، والثغاء الذي يقطع نياط القلب ولا تطرف لي عين، وسيكون عاراً عليّ إن أدرت وجهي أو أغمضت عيني عن هذا المشهد.

علمني هذا لطمةٌ على فكي من يد أبي الضخمة، عندما طلب مني

وأنا في السادسة أن أقبض على جدْي صغير لذبحه، والجدي لم يكن سوى رفيقي شقران! له شعر ذهبي لامع وغرة شقراء في مقدمة رأسه، ماتت أمه بعد ولادته ولحق بها توأمه جائعاً، فلم يبق سوى شقران! لازمته وأصبحت أبلّ خرقة بلبن النعاج وأرضعه وأسقيه الماء بكفي، وأرقدته جواري، إلى أن نشط واستوى وتقافز ليتابعني في كل أنحاء البيت. كبر وأصبح لعوباً نطاحاً، ولكن لم أتوقف عن إرضاعه بالخرقة أثناء سويعات اللعب والوداد بيننا، وعلى غفلة مني، كانت عين أبي الحمراء الدامعة ترصد كل هذا بوجوم وتضمر أمراً.

أمسكت شقران ولويت رقبته، كانت عيناه تتوسلان ببعض الدهشة من اللعب العنيف، فبكيت ورفضت، لكن اللطمة جلبتني مرة أخرى إلى المذبح، ولويت رأس شقران وحزه القصاب وهو يقهقه، وأكمل أخي سلخه وسط تضاحك الصبيان على دموعي المتساقطة، واستيقظت في اليوم التالي محموماً بكومة كوابيس مرتعداً، وكان حزني طويلاً على الأرض بطول ظلي.

***

لم يكتف أبي بهذا، بل اختارني دوناً عن جميع إخوتي الذكور من نسائه الأخريات، لفقء عين فحل قطيع إبله، فقد كانت عرب اليمامة إذا وصل عدد قطيعها المئة، فقؤوا عين فحلها لترتد العيون عن القطيع...

من ذلك اليوم، تعلمت حيلة الستار الأسود!

البصر حاضر ولكن البصيرة غائبة... ذلك الستار الذي أسدله على وجداني وقلبي وفوائدي فتظل عيناي مفتوحتين دون خدش أو كوابيس ليلية، ثم أهرع عن هذا كله إلى جدول ماء في نخل اليمامة أغطس فيه إلى

أن يتوقف جسدي عن الارتعاد. عندئذ أخرج وألوذ بروضة جدي، نتلو الآيات ونرتلها ويقول جدي: "القرآن كعقد الدر يتفلت من الذاكرة، فلا بد أن نتلوه كل يوم ليرسخ في القلب، وأحياناً ننشد قصيدة معاً، وكي أحفظها طلب مني جدي خطها بالجير على لوح أسود صغير خصصه لي".

يلذ له ترديد قصائد الأعشى الحنفي، يتلوها ويطلب مني تردادها، وعندما يصل بعض الأبيات يستخفه الشجن، فيعلو صوته بالنشيد:

ألم تروا إراماً وعاداً — أودى بها الليل والنهار
وقبلهم غالبت المنايا — طسماً ولم ينجها الحذار
وحل بالحي من جديس — يوم من الشر مستطار

أطالع الكتب وأستزيد، وألتهم البلح في مواسم الحصاد بشهوة، فأنمو وأشق الحجب التي تطوقني في حجر اليمامة، وأعرف أن النجوم فوقنا تبزغ على كثير من البشر والأهوال قبل أن تصل إلينا متثائبة تشعر بالنعاس.

كُتُب جدي ورفقته صنعت جبلتي وأثرت في طبعي. بدايتي كانت مع تلك الكتب المتهرئة لكثرة التقليب، التي كان جدي يرصفها فوق أرفف مضافته الصغيرة.

مضافة جدي تحتل جناحاً من منزلنا، بابها يتخلل شقوقه الضوء وينفتح على مزرعة نخيل، ويتوسطه حلقة حديدية يتدلى منها كف صغيرة معروقة كنت أظنها كف شيطانة قزمة، تعاقب الصبيان الأشقياء الذين يقرعون الباب ويفرون.

يستقبل فيها رواده أو خاصته أو بعض طلابه، ويحفظ فيها مدونته الشهيرة التي فيها ذاكرة اليمامة.

***

كان يمر بنا في موسم الحج كثيرون من الحجاج والقاصدين مكة للعلم والمجاورة، ولم يكن كلهم يحملون وقار العلماء أو هيبتهم، بل كانت غالبيتهم من العجم أو الحمقى، أذكر أحدهم قال إنه قادم من الموصل ويرتدي عباءة حمراء عجيبة عليها أحرف وأرقام. كان يسرد الكثير من القصص والحكايات، ويزعم أنه من خاصة الله اصطفاه بعلمه ومعرفته، وأنه يعرف اسم العجل الذي عبده القوم، واسم الذئب الذي أكل يوسف... فعندها باغته جدي ساخراً: لكن يوسف لم يأكله الذئب، فتلعثم وقال: أقصد الذي كان سيأكله.

كان جدي يرفض أن ينال أجراً أو أعطية مقابل ما يفعله، إنما وضع جرة داخل كوة النافذة يلقي فيها زواره ما تجود به أنفسهم عند الخروج، ومعظمهم يكتفون بالدعاء لجدي، ولا يملأ تلك الجرة إلّا سيدتي قوت القلوب، والدة الأمير الصغير يوسف.

فإذا امتلئت الجرة، كان جدي ينزل إلى ساحة سوق اليمامة، فأرافقه ملتفين بين النخيل نماشي السواقي حتى نصل وسط الساحة، فنشتري صاعاً من حنطة، وسلة زبيب، وسراجاً صغيراً، ونمر بالنجار نبتاع وعاءً خشبياً منحوتاً بمهارة للثريد، ونمر بحوانيت النساء فنبتاع بساطاً أو عباءة صوفية من نسجهن. وقبل أن نقفل عائدين إلى قمة الحصن، يكون جدي قد وزعها هبات وعطايا للمتسولين المتربصين بأوبة جدي من السوق، فنرجع بأيدٍ خالية وجرة خاوية، في حين أن شما الوائلية على رأس الدرج الحجري تُقلب يديها قلقاً على تأخرنا.

دارتنا من القلائل في اليمامة التي رفعت أسسها فوق قواعد من حجر؛ تسامقت لثلاثة أدوار تنتهي بأجنحة علوية واسعة للنساء. جنباتها تتخطفني فلا أشعر داخلها بالملل، فقد أكتشف في زاوية

مهملة قطة وجراءها، أو جارية تزخرف أكمام ثوب، أو أكتشف في ركن من سطح المنزل بيضتين في عش طائر، فأكمن جوارهما أنتظر الطائر الذي أمن جوارنا إلى أن يقيم جدي صلاة العصر في مسجد البلدة فأهرول إليه.

***

أدس رأسي في رقائق جلد الغزال وأغيب عن منهم حولي، الجمحي صيّر أعشى حنيفة إلى الطبقة الأولى لفحول الشعراء... لله دره صناجة العرب، كليل البصر، عبثت به الخمر وعشق النساء وما برحت اليمامة تتناقل أبياته، بل تناقلت اسمه البلدات والغيوم، وغنته الجواري وردده الرواة.

حتى أمي أسمعها تهمس:

عُلقتها عرضاً وعُلّقت رجلاً غيري، وعلق أخرى غيرَها الرجلُ

فكلنا مغرمٌ يهذي بصاحبه ناءٍ ودانٍ، ومخبولٌ ومختبلٌ

وسوسات أمي الدائمة بالعشق وصبوات الفراق، بالتأكيد لم يكن أبي أحد أبطالها.

***

غرفات جدي مغارة، وهو يصر على أن خير طريقة لحفظ القصائد إنشادها، فالرأس الطّرِب كالأرض العطشى تشرب كل ما انسكب فيها، ثم لا يلبث أن يصدح بمعلقة صاحبه الأعشى:

ودع هريرة إن الركب مرتحل

وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

غراء فرعاء مصقولٌ عوارضها

تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل

تسكن مخلوقات المزرعة منصتة إلى أصواتنا، تتوقف عن الثغاء والخوار والطنين، والنحل يأز مقترباً ويبدأ بناء خلاياه جوار النافذة، فيما يلوح النخل بسعفه طرباً.

أصواتنا تسوق أبي إلينا، فيقف في باب الغرفة حاجباً الضوء طويلاً مهيباً بلحية سوداء كثة وعمامة هائلة... بغزوات وبطولات وقطعان إبل وزرع وضرع، ومجموعة نساء وأولاد يُقال أنه لم يحب منهن سوى شما الوائلية... ولم تحبه.

ويهز رأسه هازئاً آسفاً ويقول: "من فاتته الفروسية والبطولات، لاذ بالدين والقصيد".

فيرد عليه جدي من الفور بنبرة ساخرة وهو مطأطئ دون أن يرفع عينيه عن كتابه: تركناها لك... ويستمر في التدوين مشيراً إليه بيده أنِ اخرج.

***

نجد السفلى ونجد العالية

أنا مزيد النجدي الحنفي قادم من نجد، بلاد خير، ذات زرْع وضرع وماشية، بقرى عامرة، وعيون جارية، ونعم سارحة. اليمامة تفصلني عنها الآن بيد وقفار وتلال وجبال.

لواعج صبا بلاد العرب، وفغم قوارير عطور التاجر الديلمي، كلما

جفت قطعة القماش التي تغطيها، بللها برفق وحنو، وكلما مررنا بصناديق تسفها الرمال، يعاود تحذيره من بجكم وصناديقه أو الاقتراب منها، فالأرض حولها مسكونة خفيفة وغضبى.

لكن الصبا تستمر تملأ صدري فأهزج همساً:

وأنجدتُمُ من بعد اتهامِ داركم

فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

***

فوق ناقتي شبرا دريهماتي قليلة كسنواتي التي أمضيتها في هذه الدنيا، وبقجة الثياب التي ترافقني، صدري نفث فيه السر الأعظم، وتحت كمي وصايا السراة السبع.

لا أشارك رفاق القافلة الطعام وأفضل أن أكل وحيداً، فيما لم يبق لرمضان سوى أيام قليلة. أستل كتاب جالينوس وأقلب أوراقه بحرص شَغِف. أخرج من مزودتي بعض التمر المكنوز وأقط المضير وأقرضها بهدوء كجربوع مذعور، وأتحسس صندوق الكتب. أرفع غطاءه بحرص، أخطف نظرة حذرة، فتظهر لي مقابسات التوحيدي والإمتاع والمؤانسة، وكتب **الأغاني** للأصفهاني، رصفت بها وجه الصندوق، فمقابسات وثرثرات جلساء وندماء السلاطين لا تثير الشك والريبة، رغم أن حراس القافلة يرمقونني بريبة لنزوعي إلى الوحدة وكلماتي القليلة المقتضبة.

دعاني صاحب القافلة الديلمي مرة في بداية رحلتنا لمشاركته طعامه، لكنني تعذرت بأنني صائم، فلم يكرر دعوته إثرها، وأعلمته بأنني طالب

علم أقصد القدس، وحرصت على سد الشقوق التي تطل منها الأعين الفضولية المستريبة من صندوق ثقيل ينهك سير راحلتي.

الليلة أكمل ٢٩ ليلة منذ غادرت بغداد. ظللت أتلفت نحوها عندما مضت بنا القافلة، وظل ضوؤها يلتمع في الأفق مشرباً بحمرة مدينة يصطبغ هواؤها بنكهة عذوق البلح ولواعج العشاق وشجار الفقهاء، وتنابز حلقات المساجد. أوحلت بالدماء دروبها حتى تبدت في الأفق كالعقيق.

***

مشارف بيت المقدس وجبل الزيتون تلوح لنا.

بغداد حوّلتني، أنا مزيد طالب علم رقيق الحال يثني الركب في حلقات الجوامع ويقلب النظر في قراطيس الوراقين، إلى غرنوق هارب من بغداد وفي معيتي صندوق كتب الفلاسفة، والمناطقة، وأصحاب الجدل.

رغم هذا، رحلتي هذه لم تكن بوجع رحلتي الأولى التي أخذتني عن اليمامة في مطلع محرم بعد ٤٠٠ للهجرة.

الفصل الثاني

درب بنات نعش

٤ ـ ١ ـ ٤٠٠

٢٨ ـ ٨ ـ ١٠٠٩

كنا ثلاثة رفاق، جمعتنا القافلة التي ماشت قوافل الحجيج العائدين، منطلقين من لبثهم القصير في حجر اليمامة قاصدين البصرة.

قال لي صاحب القافلة إن المسافة بين حجر اليمامة والبصرة طويلة مئتا فرسخ، وهي رحلة طويلة ومكلفة، والدفع سلفاً، فالْتهم معظم ما كان بحوزتي من دريهمات، وفوقها أردب من التمر قطفته بيدي من نخيلنا ومنحته له.

غادرنا وقتها اليمامة مع المساء توقياً لجمارة القيظ، فسارت القافلة تلاحق نجوم بنات نعش في طريق مستوية تندر الجبال فيها أو المرتفعات. يفري كبدي نشيج الوائلية. وحشتي من القادم، وخوفي من ظلمة الطريق، جعلاني أتعالق بمسلمة وصخر التميميين، فتيان من تميم يرافقاننا ليلحقا بأبناء عم لهما في العراق. متطابقان وإن كان أحدهما أقصر من الآخر، لكن كليهما بجدائل طويلة ونظرات متخاطفة سريعة، أصواتهما مرتفعة وخطواتهما رشيقة وثابة. ورغم بعض الرثاثة في

هيئتهما والخشونة في مسلكهما، فإنهما يتقنان إشعال الحطب وإعداد الطعام في هنيهات قصيرة، ومن الممكن أن يصطادا أرنباً ويسلخانه ويهيئانه مع ثريد للعشاء. كنت أشاركهم الطعام، فأشعر أنهما دروع ستصد عني أنصال الغربة.

ولم يحلّ اليوم الثالث لمسرانا حتى التففنا، أنا ومسلمة التميمي وابن عمه صخر، كرفاق رحلة، تجمعنا اليفاعة ووحشة الطريق وحداء للإبل.

التميميان هما جزء من بيوتات وأفخاذ قبائل كبيرة ظعنت من نجد والبلدات الصغيرة التي تحتضنها جبال العارض قاصدة أرض العراق، بعد أن أوعدهم المعز لدين الله البويهي تملّك الأرض التي يحيونها ويزرعونها في العراق، فيمنحهم قطيعة أو طعمة، فكانوا يحصلون عليها وفق ولائهم وقربهم من كتبة الديوان أو القائمين على مال الخراج.

القطيعة تقتطع له يحييها ويعمرها ويؤدي عشر محصولها لبيت المال، وتبقى لأولاده من بعده، أو يمنحهم طُعمة يعمرها ويزرعها وتستردها الدولة بعد وفاته فلا تصير لورثته.

وعم التميميين يملك طعمة سبق أن نالها من ديوان بختيار بن معز الدولة البويهي حاكم بغداد.

***

صوت حادي الإبل من اليمامة إلى البصرة كان يشبه العواء، يسكب المزيد من القاتم في قاع روحي، فأخذت أتحين صمته لأرفع صوتي بإحدى القصائد التي كنا ننشدها، أنا وجدي، في نخل اليمامة، فهرع بعدها إلي صاحب القافلة ورجاني أن أكون في المقدمة لأرجز للإبل وأنشد.

القافلة تنسكب فوق كثبان صحراء الدهناء نحو العراق بتؤدّة. راق لمسلمة وصخر المكانة المتميزة التي نلتها كراجز القافلة، فرافقاني إلى المقدمة وعندما كنت أتوقف عن الحداء منهكاً، كانا يتناوبان تلاوة بعض السور القصار أو سورة الرحمن فتعود الجمال إلى السُرى بخبب فوق الكثبان، مستضيئة بنجوم بعيدة واهنة، أو قمير لا يبتعد كثيراً عن الأفق.

ضريح القرمطي

القوافل قلقة متوجسة عندما أشرفنا على أرض هجر التي يقطنها القرامطة، يقال أنهم يطرحون الحنظل في آبار لتعطش القوافل وتنهك، فيهجمون عليها ويسبون الحجاج ويبيعونهم كرقيق، أو يجعلونهم رعاة للغنم، حتى إذا ما استطاعوا أن يفتدوا أنفسهم بعد سنين عمل طويلة، عادوا إلى بلادنهم ليجدوا أنه قد قسمت تركاتهم وتزوجت نسائهم.

أمرنا قائد القافلة بعدد من الأوامر التي يجب أن نتقيد بها، منها ألا ندخل هجر إلّا جماعات، وألا نظهر أياً من مظاهر النعمة، وألا ندخل مع أي أحد منهم في جدل.

وصلنا إلى هجر ليلة جمعة وفغم النخيل يملأ الأفق، وأصوات السواقي تهدر بالماء، فأنيخت الدواب وأعلفت، وأوقدت النيران وطبخ العشاء.

اليوم التالي قصدنا سوق البلدة، واليمام يلطف قيظ الضحى بالهديل. صلينا الجمعة في المسجد الجامع الذي يتوسط البلدة، وفي طريق عودتنا إلى مناخ القافلة، اخترنا درباً يمر بحديقة مسورة معشبة غناء، لمحنا قبة هائلة تتوسطها مزخرفة بالفسيفساء ويطوقها سور حجري منخفض رصفت حجارته بعناية على شكل سعف نخيل، وتعلوه أحواض نعناع

وريحان. نوافذ القبة صنعت من خشب مطلي بالأخضر المزين بالزرود الحديدية، فيما يقف خارج بوابة السور المنخفض فرس سوداء هائلة صاهلة تهز رأسها بعنف لتدفع عنها الذباب.

لم نجرؤ على دخول السور أو الاقتراب من القبة كثيراً لأنها كانت تبدو مبجلة وأثيرة للهجريين، وجميع من يخرج من المسجد يرفع يده ويحييها، وبقيت غامضة لم نعرف سرها إلّا عند أطراف البلدة عندما استعلمنا عنها بائع بلح.

الباعة خير من يشي لك بالأسرار في سبيل أن يصرف بضاعته بين ثنايا الحديث، فهمس لنا أن هذه القبة مبنية فوق قبر سيده ومولاه: حمدان قرمط، والفرَس بسرجها ولجامها لا تغادر مكانها ليلاً ولا نهاراً؛ تنتظره فقط ليبعث من قبره ويركبها، وينطلق ليملأ الأرض عدلاً بعد جور.

عندما أبرقت نظرات السخرية في عيني مسلمة وصخر، وبدآ يطلقان النكات التهكمية، ويقولان بعربدة وهما يتراكضان حول بائع البلح: أنا حمدان قدّس الله مقامي، ويصيحان صيحات عربدة في وجه بائع البلح الساذج، الذي خدشت صيحاتهم الجلال والتخضع الذي كان يحكي به حكاية قبر القرمطي، أنقدته بضع دريهمات، وطيبت خاطره بالدعاء للقرمطي بالرحمة والمغفرة، وهرعت خلف صخر ومسلمة، وتقاسمنا عذوق البلح التي ذابت بين أسناننا عذوبة وحلاوة.

أتغاضى عن شراسة طباعهما وفظاظة سلوكهما، فهما يوقظانني لصلاة الفجر بالنخز بعصا في كتفي، ويطيلان النظر في نسوة القافلة بشبق عارم، ويأكلان بنهم وجشع، فيسخر منهما صاحب القافلة قائلاً: ما حدُّ الشبع؟ فيرد صخر مغمغماً وقد امتلأ فمه: أن أكبو على وجهي نائماً.

ولكن الرفيق هو قنديل الطريق ولم أحاول في ذلك الوقت أن أفرط بهما.

عين الدنيا

وضعنا الشمس فوق حاجبنا الأيمن ومضينا إلى أن أشرفنا على موقع لا يبعد سوى فرسخ عن سوق المربد.

ورغم أنّنا وصلنا قبل مغيب الشمس بقليل، ولكن ما إن أنخنا الرحال، حتى احتشد الأفق بغبار عربات تسحبها الحمير والبغال ويمتطيها تجار البصرة. كانت لهم أعين البازي الذي يترقبُ الفريسة، لم ألمح ما يختلف في أرديتهم عن أهل اليمامة، عدا أنها أكثر اعتناء بلف العمامة على رؤوسهم، وجعل لونها يتواءم مع لون العباءة. يشرئبون برقابهم كي ينالوا أفضل ما هو مجلوب من عمق الصحراء، من عباءات صوفية سميكة مصنوعة من وبر البعير، وأبسطة ملونة، ودهن محفوظ في قلال القرع المجفف، وأقط المضير. وكانت هناك بعض القرب حرص الحجاج على ألّا تمس طوال رحلتنا، أخذ أصحابها يسوقونها قائلين: "ماء زمزم لما شرب له... ماء زمزم لما شرب له".

فصيل من القوافل انفصل عنّا وواصل إلى الكوفة. رأيت قوافلهم وهي تضعن الشمال، وتمنيت أن أرافقهم لزيارة مرقد عليّ عليه السلام، فهتف بي مسلمة: أمسك عليك لسانك، من أراد الشهادة فليذهب إلى دار البطيخ (الكوفة) فإذا صليت على الرسول وترضيت على صحابته سيقطعونك إرباً، ولا يعمل فيها من السنة سوى في الكناسة.

بقيت واجماً أمام مقولة مسلمة وصخر، فكيف تيقّنا أنني لست من

شيعة آل البيت، لأنني صديقهم فقط؟

قوافل الحجاج حينما كانت تمر بنا في اليمامة تسألنا: هل تشيّع بنو حنيفة بعد حكم بني الأخيضر؟ فالناس على دينٍ ملوكهم؟ فيرد عليهم جدي: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾، فيزداد الأمر غموضاً بالنسبة إليّ.

كان جدّي يصلي ويؤمّ الجماعة، وكنّا نصوم لرؤية الهلال ونفطر لرؤيته، وعندما عاد جدي من العراق، أضاف إلى دعائه الدعاء لآل البيت وتضرع إلى الله لإعادة الحق إليهم ممن ناصبهم العداء، لكنه كان غاضباً من أفاعيل القرامطة ولجاجهم وسرقتهم الحجر الأسود من مكة ونصبه في هجر الأحساء؛ كان يقول: هم ليسو إلّا سرّاقاً شذاذ آفاق.

وحينما توفّي جدي، تغيرت الكثير من الأمور. رفض مولاي أحمد بن الأخيضر جميع من تقدم ليحل محله، وأتى بعده شيخ قادم من البصرة نحيل ضيق الجبهة وأقنى الأنف حاد النظرات وغاضب، وصل اليمامة في يوم جمعة، فأمضى أسبوعاً وهو طريح محموم، وفي الجمعة التي تليها، لمح شجرة غرقد في إحدى الباحات المحيطة بالقصر، فأمر بقطعها من الفور لأن آخر الزمان اقترب، وفيه ينتصر المسلمون على اليهود؛ فإن اليهودي إذا تخبأ وراء أي شجرة ستفضحه وتقول ورائي يهودي إلّا الغرقد! وهي الشجرة التي صاحت بيزيد في منامه: "أدرك ثأرك من أهل المدينة قتلة عثمان"، فكانت موقعة الحرة.

كنت أظن أن غضب ذلك الإمام على معاوية ويزيد جزء من طبعه الغاضب، ومحاباة لسيد الحصن، ولم أكن في ذلك الوقت قد سمعت منابر الكرخ تفحش في لعنهم كل جمعة.

***

البصرة يسمونها عين الدنيا وأم العراق وابنة دجلة الأثيرة. يقولون لو حملت حفنة من طميها في كفك لنبتت داخلها نخلة.

نمضي معاً، أنا ومسلمة وصخر، يمر بنا تجار البصرة فتتقحمنا العيون لثيابنا الرثة وشعورنا المشعثة. لم يكن لدينا ما نقايضه فقد نفد زادنا، ولا تكاد لدينا سوى درهيمات معدودة لا نعلم هل تكفي لتأخذنا إلى بغداد مع قافلة أخرى.

اقترحت المكوث في البصرة لبعض الوقت نعمل أجراء لدى أصحاب الحوانيت أو في جني المحاصيل داخل الضيع والمزارع حتى نجمع ثمن مواصلة الرحلة، وهي فرصة ثمينة لنكتشف مساجدها وجوامعها وحلقات العلم فيها قبل أن نقصد بغداد. فصمت رفيقاي ولم يبديا أي استجابة، بل تبدت فوق وجهيهما نظرة خبث ساهمة. ولأننا ابتعدنا عن سوق المدينة وبدأنا التوغل في مزارع النخيل هناك، خشيت أن نثير الريبة والتساؤل، فطلبت منهما الرجوع، فقال لي مسلمة: ارجع وسنلحق بك.

ولا أدري في ذلك الوقت كيف حدست أنّهما قد أضمرا أمراً. كنت منهكاً مستوحشاً تسكنني اللواعج. انهمرت رائحة طلع النخيل في عروقي، واستكنت لصوت الهواء وهو يمشط اكتناز العذوق، وبت أسمع سواني اليمامة في أذني، وذهبت لأغفو في مسجد طيني صغير لمحته في مدخل دربنا. كانت نوافذ المسجد مرتفعة تقترب من سقفه. تكورت في ركن مظلم بارد، وكان مصلو العشاء قد بدؤوا يغادرون المسجد، ولم يظل داخله سوى شيخ بعمامة سوداء وقد تحلق حوله بعض المزارعين والصبية وهو يحدثهم قصة البومة!

وبين منام ويقظة كنت أسمعه يكرر بوعظ يغلب عليه السأم كأنه ألقى هذا الدرس مئات المرات، فيقول: "هذا الطير حزن على استشهاد الإمام

الحسين، وكانت حاله مثل بقية الطيور يغدو صباحاً يبحث عن رزقه ويعود في المساء إلى عشه وصغاره لينام، وبعد استشهاد سيد شباب الجنة الحسين، آلت البومة على نفسها أن تصوم النهار، وتبكي الليل، وفي النهار تصوم وفي الليل تنوح على سبط الرسول عليه وعلى آله أفضل التسليم".

لا أدري هل كانت هذه الحكاية للمسامرة أو الوعظ، وأخذت عيناي تطبقان وأنا أسمعهم، ولا أدري متى غادروا، ولكن بقيت أسمع نواح البومة يصلني من نوافذ المسجد العلوية طوال الليل.

نخزة العصا في كتفي استحضرتني من حلم عميق اختزنته جميع حواسي: سماوات بيضاء، ورائحة مطر، وكنت أطير، أحلق وسط سرب من طيور الغرانيق كانت عيوننا مسمرة على قمة جبل مضيئة نمضي إليها.

عادت النخزة إلى كتفي أشد قسوة. ورغم نعاسي، تبينت وسط غبش الفجر وجه مسلمة التميمي بجدائله الشعثاء ولحيته الكثة ووجناته بارزة العظام. قال لي بصوت خافت لكنه فظ: استيقظ لصلاة الفجر، فأجبته بتثاقل: لم يقم الإمام بعد. عاد ينخزني في كتفي قائلاً: قم أريدك في أمر مهم أنتظرك عند بوابة الجامع.

استيقظت بتثاقل وذهبت إلى الميضأة وتوضأت ليذهب عني ثقل النوم، فلمّا خرجت، كان مسلمة وصخر يقفان بشكل موارب جوار البوابة الشرقية بانتظاري، ويتلفعان بعباءتيهما الصوفيتين، ويتلفتان حولهما بقلق، وقد بدأت أطياف المزارعين تخرج من ظلمة النخيل وتهرول باتجاه المسجد.

أشارا إلي أن اتبعنا، فذهبت خلفهما مطرقاً بجهد أحاول ملاحقة خطواتهما العجلى. سرنا بموازة السور مسافة طويلة حتى أغبش الصبح

إلى أن أشرفنا على حائط مهجور في طرف غابة نخيل كثيفة، وفي ذلك الغبش، تبين لي رأس جَزُور مجزوز وملقى إلى جوار السور، وجلده المسلوخ، وأكوام لحمه متناثرة جوار بركة من الدماء. طار مني كل النعاس واتسعت عيناي دهشة، وأشرت إليهما: ما هذا؟

قال مسلمة: وجدناها هائمة، والهائمة لقيا واللقيا هبة... وذبحناها وشبعنا من لحمها، ثم أردف مشيراً: سنوقد ناراً الآن لشيها فتأكل منها أيضاً.

قلت وقد تدلى فكي: هل سنأكل كل هذا؟

قال صخر: بقية لحمها وجلدها سنضعها في هذه السلال ونغطيها بسعف النخيل وستتسلل بها لنبيعها في سوق البصرة، ونبتاع لنا أردية جديدة وراحله نشيطة نتناوب ركوبها، ونرافق قافلة تقلنا إلى بغداد؛ لا نريد أن ندخل بغداد ونقصد بيت عمنا ونحن بثيابنا الرثة وهيئتنا المزرية.

فأجبتهما مذهولاً وذباب الصباح أخذ يتجمع فوق رأس الجَزُور: لكن وما أدراكما أنها هائمة، الواجب أن تدورا في الأسواق عدة أيام أدناها ثلاثة تناديان على صاحبها، فإذا لم يجبكما أحد، تصبح لقيا... هتف صخر: بل هي لقيا. هتفت متعجباً: شرط الضالة ثلاثة أيام، وأنت لم تصل البصرة إلّا أمس.

فقال مسلمة بصوت فيه تهكم: ولا ندري عن دينكم يا حضر اليمامة، كيف تحرفون فيه وتلوون أعناق النصوص.

ثم هتف صخر وهو نزر الكلام دوماً يترك الحديث والقرارات لابن عمه مسلمة، ولكنه فجأة قال بانفعال تبدى في صوته المرتجف ويده التي يهزها في وجهي: هي لقيا ألا تفهم، فادنُ وكل من كبدتها المشوية الشهية، فإذا وصلت أمعاءك، غطها ببعض هذا البلح البصراوي الشهي

الذي قطفناه من الحائط المهجور خلفنا...

أجبتهما بتهكم: هل هذا البلح أيضاً هائم؟ قالا بعبث: لا، ولكن الحائط مهجور ولا يقوم عليه أحد وغالب الظن أنه أوقف للعابرين وأبناء السبيل من أمثالنا، فقد سمعنا عن كرم أهل البصرة، فهم لا يرفعون من تمورهم ما أسقطته الريح، فيأخذه غير أصحابه، فإذا كثرت الريح يعلمون أنه يصير إلى الضعفاء والمساكين وبني السبيل.

استدار مسلمة نحو الغرب وكبّر قائلاً: لنصلِّ الفجر هنا قبل أن يفوتنا الوقت. اصطففنا خلف مسلمة عندما أقام الصلاة وكبر، وكان أزيز الذباب يرتفع حول رأس الجزور، ورائحة الدم تحيطنا. هبطت بعض العصافير والطيور تنقر في البقايا. استرقت النظر إلى الطيور، بالطبع، ليس بينها البومة، لأنها صائمة تستعد للنواح طوال الليل على الحسين، يا للعمر الذي يتفتت ما بين صوم ونواح.

نركع ونسجد خلف مسلمة الذي شدا بسورة الكوثر بعذوبة، وتواعدنا أن ألتقيهما غداً لأخبرهما ما عزمت عليه بشأن مرافقتي إياهما إلى بغداد.

***

طوال الطريق كنت أسير منكساً مستريباً خشية أن يفطن بعضهم إلى كبدة الجزور التي في بطني.

الضحى يتغشى شجر النخيل فتضج عصافيرها بالبهجة، كم أود أن أمضي نهاري متبرداً داخل السواقي أغسل روحي من دماء الجزور. كنت أظن أن الغرباء يسيرون جوار الحائط وجلين ويكادون يستأذنون حتى على الهواء الذي يتنفسونه، ولكن مسلمة وصخر جعلاها أرض غنيمة كر وفر.

تبدت لي جدران المسجد الطيني ونوافذه المرتفعة الذي بت فيه البارحة، فلمّا دنوت منه، صادفت على بوابته الشيخ سارد حكاية البومة. كان وجهه في ضوء الصبح أكثر نضارة، بجسم قصير مدملج، وبطن كبيرة.

فسألني: من أي العرب أنت؟ فلمّا أجبته أنني حنفي من اليمامة، قال دام عز بني الأخيضر من آل البيت، غُصبوا ملكهم، ولكن الله بالغ أمره، ثم استطرد قائلاً: رأيتك البارحة تقصد المسجد وتنام، ولم أشأ أن أوقظك فقد كنت متعباً، أنا الشيخ ذاكر إمام هذا المسجد.

فأجبته: ٢٠٠ فرسخ بين اليمامة والبصرة أخذت مني كل مأخذ، وأقصد بغداد لكنني أنوي أن أمكث قليلاً في البصرة قبل أن أواصل إلى بغداد. لم أخبره أنني معدم خاوي الوفاض، ولكن يبدو أن ذلك ظهر واضحاً له، فما لبث أن سألني: أنت ابن اليمامة فبإمكانك أن ترقى النخل، وتجني العذوق، وتكرب جذوع النخيل، وتقص سعفه الجاف، مقابل درهم وقبضة من ثمر كل نخلة.

وافقت بلا تردد، فقد بدأ عرض الشيخ ذاكر هبة ثمينة، ولاسيما أنه سيخلصني من مسلمة وصخر.

قابلتهما صباح اليوم التالي قرب المسجد. كانا قد بدّلا ثيابهما، وابتاعا عباءات تشبه تلك التي جلبتها القوافل، ولكن ما برحا حفاة بشعور مشعثة، وألحّا علي بمرافقتهما إلى دارة عمهما الذي يعمل في تجارة الإبل بين بادية السماوة وبغداد، وهو على علاقة وثيقة بالكاتب الفارسي الذي يقوم على بيت المال، وقالا بفخر إنه سيضعهما على قائمة أعطيات دار الخلافة وهباتها، فيصبح بوسعهما المكوث في بغداد والتمتع بأنهارها، ومبانيها، وجسورها، وحدائقها، والتطريب بسماع

رنين الخلاخل في أقدام جواريها المتبذلات دون أن يضطرا إلى الذهاب أربعين فرسخاً شمالاً نحو أرض يحيونها، تمنح لهم خمسة أعوام إن لم يحيوها استردوها منهما، فقالا بمكر: سنذهب لنزور الأعطية في آخر كل عام فقط، أو نضع عليها أجيراً يحييها.

تعذرت بأنني ما زلت منهكاً من السفر. وأحتاج المكوث بضعة أيام في البصرة، وحضور بعض حلقات شيوخها، والمرور على مكتباتها. حرصت على وداعهما في موضع بعيد عن المسجد الطيني وانسللت مستغرباً كيف بديا عند الوداع شديدي الرقة هشّين، وطفرت دمعة من عيني صخر كأنّهما ليسا اللذين جزّا رأس الجزور في غبش الفجر، وأكلا كبدته نيئة.

مضيا وهما يلوحان بيديهما ويؤكدان لي لقاءهما في حال وصولي بغداد. أخبراني أن اسم عمهما هو قتيبة التميمي، يعرفه كل تجار بغداد... فتمتمت لنفسي: ولكنني لا أود أن أعرفه!

قفلت عائداً إلى المسجد لإحضار بقية حوائجي التي تركتها فيه، وطفقت أبحث عن الشيخ ذاكر، إمام المسجد، الذي وعدني بعمل وقارب يحملني إلى بغداد.

***

كانوا قد فرغوا من صلاة العصر والمصلون يغادرون وينتشرون في الحقول. دخلت المسجد لأجد غلاماً أعجمياً لا يتقن العربية يطوي الحصائر بعد مغادرة المصلين ويترنم بنشيد غامض الكلمات، في حين أن الشيخ ذاكر جلس وراء المحراب يقلب كتاباً بين يديه.

لمحني بطرف عينه وأنا أقترب منه، فأغلق كتابه واستدار بجلسته

متمتاً: حيّا الله الحنفي...

جلست بقربه وأنا أطقطق أصابعي قلقاً: باستطاعتي أن أبدأ العمل من اليوم.

فأمال رأسه ورمقني بشك: هل جربت كرب النخل سابقاً؟

وأردف بتهكم: الحبال قد تترك أثراً في يديك، كما أن الحبال التي يمنحونها للأجراء ليست متينة دائماً ودوماً هوت بهم من أعالي النخيل. هذا الحقل الذي خلفك التهم سبعة رجال. لذا، يسمون هذه المزرعة "ذات الرجال"، لكن بعد أن التهمت غدراً سبع رجال، أوقف صاحبها ريعها لحلقات العلم في البصرة بجميع ما فيها من عبد وأمة وثور ودابة.

كتمت أنفاسي؛ كيف عرف أنني لم أكرب نخلة في حياتي؟

لا أود من خزعبلات هذا الشيخ أن تثنيني عن المسير إلى بغداد وقد أمضيت طوال الليل أرصف أموري وأرتبها على مئة درهم أزمعت جمعها من قطاف النخيل، حتى إن كنت فاشلاً فيه وفي نخل اليمامة. كان الفلاحون الأجراء لدى والدي يفعلون ذلك بدلاً مني. قلت له بعجل: لا تشغل فكرك سأؤدي عملي كما يجب.

طأطأ ولم يبد أنه كان مقتنعاً بكلامي ونبس: هل تجيد مهنة أخرى؟

وأسقط في يدي، لا لعناد هذا الشيخ صاحب الرأس المتحجر فحسب، بل أيضاً لأنني اكتشفت أنني لا أجيد شيئاً أو تحديداً مهنة داخل مزرعة نخيل على حافة نهر. حتى ذبح الخراف الصغيرة كان تجربة مريرة، كرهت أبي عقبها إلى الأبد.

وقبل أن يسمع جوابي، قال: ماذا كنت تعمل في اليمامة؟ كيف تمضي وقتك؟

قلت بعد تردد: أساعد والدي في تجارة الإبل، ثم نبست بصوت

خافت: وجلّ وقتي كنت أقرأ!

فاتسعت عيناه بعدما كان قد ضيّقهما بتهكم طوال حديثي معه، واكتشفت لحظتها أن لونهما أخضر كعيني قط، ولكنه لم يلبث إلّا أن ناولني الكتاب الذي بين يديه وقال: إذن اقرأ أسمعنا.

فتحت على صفحة وقرأت: "وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ، مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى!".

قال متعجباً وهو يهز رأسه: "والله يا فتي إنك كنت تقرأ طالعك، إنما هي إشارات ولمح، وها هو رزقك يتبعك".

***

ولم أمكث طويلاً قبل أجد نفسي جالساً وراء منضدة خشبية مستديرة بأرجل قصيرة وبين يدي مدونة بغلاف من جلد ماعز، وعدة صفحات من ورق كاغد صقيل مع أقلامها وأحبارها، أدون أسماء جميع من سيعمل في حقول مزرعة "ذات الرجال" شمال البصرة لذلك اليوم، جميع أولئك الذين كنت سأصطف معهم أجيراً بيوميتي، ولكن، كل قُدّر له رزقه.

أعداد كبيرة من الرجال تقاطرت إلى "ذات الرجال"، جلهم غرباء عن المدينة ويتعالمون في السوق عن موارد الرزق، عرب حطوا رحالهم في البصرة قدموا من اليمن والحجاز وعمان وعالية نجد، يقصدون البصرة وأعينهم شاخصة نحو بغداد.

وبت بعد صلاة الفجر أذهب وأقيد أسماء من حضروا ذلك اليوم وأصنفهم، فمن يجني العذوق ويكرب النخيل ويقطع سعفها الجاف يوميته درهمان، أما من يعمل في قطع الحشائش وشق السواقي، فيوميته

درهم، حتى إذا ما انتهيت، كتبت أسماءهم في نسخة أخرى، وناولتها فلاحاً ضئيلاً قميئاً نحاسي البشرة ويرتدي سروالاً وقميصاً قصيراً بلا ثوب، وكان طوال الوقت يحمل في يده سوطاً، لم يكن يلسع به أحداً سوى الذباب، ولكن يبدو أنه كان يلوح به ليضفي هيبة على قصر قامته وقمأته.

أما النسخة الأولى، فأهرع بها إلى قائم المزرعة الذي يقطن أحد البيوت الطينية التي تجاور الحظائر، وكان يطلب مني أن أساعده في وضع الدراهم بجوار كل اسم، فإذا ما انتهينا، وضعها في صرة وأدخلها في حزام جلدي يستدير حول بطنه. عندئذ، يتوارد علينا أذان الظهر من عدة مآذن، فنصلي معاً ويطلب مني أن أشاركه طعامه.

الوقت الوحيد الذي يتسنى لي لدخول البصرة والتجول بين أسواقها ودكاكينها هو بعيد العصر، فإذا دنا المغيب، أخب سريعاً عائداً إلى "ذات الرجال" كي أشرف على توزيع الأجور على العمال وأطابق بين أسمائهم ووجوههم، فالصفوف الطويلة من الممكن أن يندس فيها أي من الماكرين والمتطفلين، فيزعم أنه عمل في "ذات الرجال" ذلك اليوم.

في هذا الوقت، يخرج من البيوت الطينية للمزرعة بعض الخدم يحملون لفائف وأواني، ويتعاونون على حمل سلال كبيرة مليئة بأقراص قمح منتفخة ساخنة خرجت للتو من التنور. فيفرشون الحصائر تحت النخيل ويوزعون فوقها الرقائق وأطباقا فيها دبس التمر، وطاسات من الحليب يصطف حولها العمال جوعى منهكين، فما يقومون عنها إلّا وقد كادوا أن يلتهموا الأواني والبسط.

أعود إلى المسجد مزهواً بلذة عجيبة لم آلفها، زهو من يولّى ويُسأل وتلتف الأمانة على معصميه، وتتطلع الوجوه إلى ما ستنبس شفتاه،

ويؤوب في المساء وقد تصادحت الدراهم في جيبه.

في اليمامة، كنت دوماً تحت جناح، جناح شما الوائلية، وجناح جدي، وجناح صيت أبي الواسع وجناح قلعة بني الأخيضر الهائلة... كنت في ذلك الظل أرى ولا أرى، فقط عينان تستديران بدهشة الكون التي لا تنفد.

رغم عبق المساء الحار ووهن أطرافي، فإن شوقي إلى الكتب لم يخفت وألح علي لدرجة جعلتني أتجاوز حدود أدب الغريب وأتقدم من إمام المسجد قبل أن يبدأ درس المساء.

رغم عينيه الخضراوين المستريبتين دوماً، اقتربت منه بخطى صغيرة، وقفت فوق رأسه، كان قد نزع العمامة ووضعها جواره. وتبدت رأسه الصلعاء المدببة، ومد ساقيه واتكأ بظهره على الجدار وذهب في هواجس بعيدة.

نبست بصوت وجل: هل بإمكاني مطالعة بعض الكتب التي على أرفف الخزانة؟

رمقني وصمت لوهلة حتى كدت أتقهقر إلى الوراء، لكنه سرعان ما أخذ يلملم ساقيه لينهض. مددت يدي لأساعده، لكنه تجاهلها، فتمتمت مرة أخرى كأنني أعتذر منه عن مشقة سببتها له: سألقي عليها لمحة فقط، وأطالعها على عجل... ثم أردفت لتأكيد حسن نيتي: فقط... وأنا واقف جوارها.

سار بخطى متعثرة إلى الخزانة الخشبية التي يحفظ فيها الكتب، وأخرج مفتاحها المعلق في صدره، ثم وارب لي مصراعيها، وبسرعة خاطفة، مددت يداً والتقطت أول كتاب وقع تحت يدي. خشيت أن يبدل رأيه أو يحدد لي ما أطالع. ولسوء حظي، كانت مخطوطة ببضع

وريقات فقط. قبض على معصمي وقرأ عنوان المخطوطة: **تأثير الأنغام على أرواح الحيوانات** لأبي علي الحسن بن الهيثم، هتف قائلاً: آآآه ابن الهيثم، لكن احذر، فأحاديث أبو علي قد تطيش بلبّك، وتبلبل فكرك بالهواجس، والكل غاضب منه، ويقال أنه قد وقّف في أحد مساجد بغداد رجل يدعى ابن المارستانية، رافعاً في يمينه كتاب **هيئة العالم**، أحد كتب الفلك التي ألفها ابن الهيثم، وأخذ يؤلب البسطاء والعامة ضده ويتهمه بالكفر والزندقة، ويشير إلى دوائر موجودة في الكتاب على أنها طلاسم سحرية قائلاً: "هذه دوائر رجل يزعم رجماً بالغيب، يا للداهية الدهياء والنازلة الصماء"، والعامة والدهماء حوله يكبرون ويهللون، ثم لم يلبث إلّا أن أشعل بالكتاب النار وسط باحة المسجد.

ثم هز الشيخ ذاكر رأسه بألم وحسرة وأردف: "كانت الدهماء تلاحق ابن الهيثم وكادوا يفتكون به، قبل أن يدعوه الخليفة الفاطمي ليشرف بصحبته في مصر وينجو بنفسه".

وضعت على وجهي علامات الاهتمام والتحسر على مصير ابن الهيثم، وأنا أنتظر الشيخ أن يصمت لأخلو بالمخطوطة.

كتاب من عدة وريقات اسمه **تأثير اللحون الموسيقية في النفوس الحيوانية**، وجدت أن هناك من سطّر على غلاف الكتاب تحت العنوان: "سعيت دوماً نحو المعرفة والحقيقة وآمنت أنني لكي أتقرب إلى الله ليس هنا طريقة أفضل من أن أبحث عن المعرفة والحقيقة" – ابن الهيثم.

هرولت إلى متكأي الذي اعتدت أن أرقد فيه، ركن معتم يحجبه عن باحة المسجد عمودان، يضعون فيه بعض البسط والوسائد الزائدة التي تفرش لصلاة الجمعة. توسدتها مصطحباً مصباح ذؤابته تكاد تنطفئ ولكنني رحت أتقافز بين الأسطر رغم رداءة الورق والأحرف المتآكلة،

لكن ذلك لم يزدني إلّا شوقاً كفاتنة تتمنع. والتقطت بعض الأسطر التي تتحدث عن أن الحداء يؤثر في سرعة الإبل بين الزيادة والنقصان، وأن الموسيقا تدر الحليب في ضروع الشياه، وتخرج الحرباء لتتشمس، وتكثر طلع النخيل، وتتئم الشياة.

وباغتني النعاس قبل أن تنطفىء ذؤابة الفانوس، وشاهدت في حلمي رجلاً قصيراً أسمر اللون بشارب خفيف ولحية مهندمة قد زارنا في مضافة جدي في اليمامة يحمل في كمه كتاباً، فانضم إلينا وأخذنا نصدح بمعلقة صناجة العرب الأعشى، فسكتت الخيل والطير وهي تستمع لنا، فيما ظلت البومة أعلى نافذتي تنوح وتتفجع على الحسين.

الطيارات

سبحت في سواقي اليمامة وغطست في ينابيعها بحثاً عن صغار السمك والضفادع، وتراشقت وصبيانها بالماء، لكن ركوب الماء فكرة أصابتني بالفزع.

استغرق العمل في موسم الحصاد ثلاثة أسابيع، وفي اليوم الذي انتهي فيه العمل في حقول "ذات الرجال"، نفحني القائم عليها ديناراً ذهبياً فوق مرتبي، ودعا لي بالتوفيق. وكان قبلها يلح علي أن أبقى، فحتماً هناك الكثير من يريد كاتباً صامتاً قليل الطعام والثرثرة بخط جميل مهندم، ولكن لم أتوقف عند عرضه كثيراً، تبدى لي أنه يقولها من باب الاعتذار المو ارب لضآلة مكافأتي، ولم يلح، ولم آخذها على محمل الجد، لربّما هو أن تكون البصرة دار مرور فقط، باتجاه بغداد دار السلام.

وهو أيضاً الذي نصحني أن أكتري أحد المراكب النهرية لبغداد، وقال

لي: ”الوصول إلى بغداد عبر النهر سيختصر لك عدة أيام ستستغرقها القافلة، إذا رغبت أعطيتك اسم أحدهم موصوف بالمهارة في ركوب النهر والسيطرة على مراكبه، كما أنه حسن السيرة“. كان واضحاً أنه يبيع الأعرابي الغر الغريب لأحد المراكبية، ولكن لا بأس سأذهب إلى حيث أشار وأرى وأتلمس، وفي النهاية سيد قومه المتغابي.

ذهبت إلى البطائح الموضع الذي وصفه لي. لم يكن الكثير يقصدونه. سألت أحد عمال المراكب بأنني أرغب أن أدوّن اسمي ضمن مسافري الغد، فقالوا لي لست بحاجة؛ كل يوم يبحر عدد من المراكب رغم انخفاض مستوى الماء في النهر لهذا العام. تعال هنا غداً فقط، بعد صلاة الفجر، وحتماً ستجد لك مركباً يقلك على متنه.

وعندئذ أرتجف قلبي، هل هو لركوب الماء، أم للاقتراب من بغداد. أخبرت الإمام ذاكر بنيتي الرحيل غداً، فهز رأسه مطأطئاً وفوجئت به بعد صلاة العشاء يجلب لي كتاب ابن الهيثم هدية. شكرته وهجمت عليه لأقبل رأسه، ولكنه كفكفني، وهو يضحك قال: ”هوّن عليك لقد وضعت هذا الكتاب في أشرف موضع فبدلاً من أن تتآكله العتة، فهو وقع في صدرك، ولن يندثر... خذه واستنسخه، فإنه والله النسخة الأصلية التي خرجت من يد أبي علي نفسه“، ولم أكن أعلم وقتذاك أنني سألعب ذات يوم مع أبي علي لعبة الضوء والظل.

***

ومع غبش الصبح والبخار المتصاعد بين قصب النهر، ركبنا إحدى المراكب الضيقة، طولها عشرون ذراعاً ويسمونها الطيارات، كي تنقلنا إلى السفينة التي لا تستطيع الوصول إلى عمق البصرة، لأن المجرى

النهري من البصرة إلى مدينة واسط التي سنمر بها يتشعب ثلاث شعب، والماء القادم من أعالي النهر يصب جميعه قبل أن يصل البصرة في مستنقعات وآجام تسمى البطائح. وكانت السفن إذا وصلت إليها ألقت ما تحمله إلى زواريق تجتاز هذه المنطقة، فتجري في شبه أزقة مائية يحيطها نبات القصب، وبين هذه الأزقة أكواخ للحراس تشبه بيوت النحل ليست لها شبابيك.

لم أبحث عن الرجل الذي رشحه لي وقاف المزرعة، واستقللت زورقاً صاحبه يبدو أنه نبت من وسط قصب النهر، جسمه قصير نحيل مفتول، وحركته سريعة، يتقافز فوق المركب بمهارة يعسوب يبني عشه، لكن مركبه كان ضيقاً ولا يكاد يفي بحجمي فوضعت أمتعتي في قاع المركب أسفل قدمي. ناولنا صاحب المركب مجدافاً، مع الرجال العشرة الذين اعتلوا المركب، وقال جدفوا بهدوء ولين حتى لا تنهكوا، واحتفظوا برباطة جأشكم حتى إذا ما صادفنا سراق أو لصوص، جدفوا بسرعة وأنتم تصيحون ألا لعنة الله على الكافرين بصوت مرتفع ليسمعكم الحرس ويهرعوا لنجدتنا.

ونحن ننساب بين القصب لم يكف عن الثرثرة، فكان يخبرنا عن متانة مركبه، وجودته المصنوع من البردي الجيد المقصوص في شهر آب الحار، وهو سر صنعة توارثتها عائلته منذ الأزل إلى أن أفضى بنا إلى السفينة الشراعية التي ستأخذنا إلى بغداد.

السفينة الشراعية كانت تربض على طرف الأباطح بهيبة كخيمة شيخ قبيلة، وإلى جوارها مركب صغير فوقه فتيان متشابهان كأنّهما فلقتا نبات يقطين، ضخما الرأس فظان، يطلبان استلام كامل الأجرة إلى واسط أولاً ثم بغداد قبل أول خطوة للمراكب.

كان الذي يصعد إلى السفينة أمامي رجل قادم من اليمن، سمعته يشتمهما بصوت منخفض يقول: "تباً لهما يريدان قبض الثمن سلفاً حتى لو قذفا بنا للسمك ودوّامات النهر أثناء الرحلة، لكن هذا الغضب لم يكن يتبدى على وجهه فشفتاه الرفيعتان مطبقتان بحذر، عدا ابتسامة واهية منحها لهما عندما ساعداه على الصعود إلى وسط السفينة.

جلسنا في زاوية من سطح المركب وكان الهواء هناك عليلاً منعشاً وكأنّا ارتقينا طبقة هوائية عليا تختلف عن تلك اللزجة التي كانت تضرب وجوهنا ونحن في الأسفل بين القصب النهري.

تأخر المركب ولم يقلع حتى شارفنا المساء، ورغم فظاظة البحارة فإن غلاماً صغيراً قدم إلى المسافرين أعواد قصب السكر، وبعض القثاء في نوع من الضيافة، وأخبرنا القبطان في النهاية أنه لن يستطيع أن يبحر ليلاً وسنقلع مع الفجر، فتصايح به بعض الركاب متذمرين: "في الصبح يحمد القوم السُرى وسنقطع مسافة طويلة إذا سرنا في الليل"، فأجابهم: "ذلك في الصحراء يا أعزة، عندما نتقي اللوافح والحرارة، ولكن في النهر يختلف الأمر، فلا بد أن نرى دربنا، ونتقي الدوّامات وتشابك آجام القصب".

لم يزعجني هذا الموضوع بعكس رفيقي اليمني الذي بدأت تظهر عليه أعراض غثيان الماء. كان اسمه حزقيال، استعجبت اسمه قبل أن يخبرني أنه من أصحاب شريعة موسى، قال إنه سينزل في واسط ليلحق بأهله هناك ويعمل في سك النقود بعد أن بار سوقها في اليمن، وأصبحوا يخلطون الدنانير الذهبية والدراهم الفضية بالزئبق، فتوزنها لكن لا يتغير وزنها، فهي محشوة بالزئبق، ولكن مغشوش ذهبها. يعرفها التجار الحصفاء ويسمونها المزبقة، ولا تعرف إلّا بثنيها بأسنانك، وأصبحت

قوافل التجارة تعزف عن إحضار الفضة والذهب من اليمن لوعورة الطريق وامتلاء البحر بالقراصنة والنقود المزبقة. لذا، كسد سوقها في اليمن، فيما ازدهرت في واسط.

تذكرت وقتذاك خال شما الوائلية الذي كان قد غادر إلى العراق وقطن سواد واسط، وعمل في مزرعة اقتطعها له كانوا يسمونها في اليمامة قطائع العجم. هل أتوقف في واسط مدينة الحجاج وأمضي أياماً هناك، وأصل رحمي بزيارة خالي؟

لكن يبدو أن الدراهم لدي لا تسمح بهذا الترف.

وفي عصر اليوم التالي، لاحت واسط لنا من بعيد، فقال المراكبي: "ها هي واسط سنرسو في جزئها الغربي، ومن أراد جزءها الشرقي (بكسكر) فليكتر زورقاً آخر".

كان ميناؤها يزدحم بالسفن والمراكب التي تحمل البلح والقرع والرمان، فتمضي به شمالاً إلى بغداد، أو تتقهقر به إلى البصرة.

غادرنا حزقيال بوعد مني بزيارته في واسط، وعاد الفتيان فلقتا ثمر اليقطين يمارسان فظاظتهما على الركاب القادمين من واسط، والإصرار على أخذ الأجرة مقدماً قبل أن يلتقط الركاب أنفاسهم ويضعوا صناديقهم ومتاعهم أرضاً.

لهم دار السلام

تلك الليلة جعلت سوق الكرخ خلفي وغادرت باتجاه المدينة المدورة، بعد أن حظيت بغريفة اكتريتها في خان الهاشمي بُعيد وصولي بغداد بأيام، وهو أمر نادر الحدوث للغرباء، لكن مرّ طائر السعد بسمائي

وأسقطها لي، وهو عادة لا يكثر التردد علي، ولكن نسّاج الأقدار ينسج خطوطه بسرية.

هذه الغرفة قادتني إليها سلسلة من الحوادث التي لا يمكن أن أعزوها إلى المصادفات، فقد شكلت حياتي وما تبقى لي من عمري وما أضمرته لغدي، فلا أدري عندها أمسيّر أم مخيّر؟ يظل الجواب يتفلت مني ولا أظن أنني سأستطيع له سبيلاً إلى أن أُدس في لحدي.

***

بغداد المدورة تتماهى في دورانها مع الأفلاك وتبزها بحلة من ضوء، إن كنت تروم مجداً أو تتصيد جاهاً فالتقطه هنا، من مساجدها، ودور وراقيها، وطرقاتها، وما لم تسكبه في كأسك لن يكون لك في مدينة أخرى.

مدينة تدور حول نفسها، وقلبها كعبة قصور الخلافة، بينها وبين بقية أحياء المدينة ثلاثة أسوار.

مكتظة ضاجة، تتلامس الأكتاف في دروبها، أنا المعتاد المساحات المنداحة بلا حدود، وأفقاً صحراوياً ينبلج شاسعاً موحشاً قبل أن يلوح فيه قادم.

هي مقصد طلبة العلم ومحج القوافل، ومن العسير أن تجد مكاناً يؤوي طالب علم مغامر لم يتدفأ حزامه بصرة دنانير. لذا، باتت الأماكن المتاحة لسكنتي محدودة.

لكن مؤذن المسجد الجامع هو من دلني عن هذا الخان، ولعله طرد مهذباً لي ليتخلص من مباتي كل ليلة في إحدى زوايا المسجد أو تحت سلم المئذنة.

كنت أسمع من جدي دوماً أن خير مكان يقصده الغرباء هو بيت الله، الجامع، فهو سرة المدينة، وموضع كنزها، وفيه تصب أحوالها، ومنه تنبع قوانينها، ولكن مؤذن المسجد لم يسمع كلام جدي، ولم يكن ودوداً مع الغرباء.

أثناء مبيتي في المسجد، ترافقت مع أربعة إخوة من بلوشستان حجوا ذلك العام وقفلوا عائدين مخلفين أخاً لهم مجاوراً في مكة. كنا ننام تحت درج المئذنة، وفي كل ليلة، يسردون لي القصة العجيبة لأخيهم الذي خلفوه في مكة. فيقولون إن أخاهم كان فارساً مغرماً بالصيد يمضي به جل وقته ويوليه كل اهتمامه، وترك رعي القطعان والمواشي وزراعة الحقول لهم، وانغمر بملاحقة الطرائد.

ويوماً ما، بينما هو في إحدى رحلاته فوق جبل مرتفع عسير الدروب ناتئ الصخور، لمح غزالاً أبيض لطيف الهيئة محجل الأقدام بأعين براقة وأهداب كثيفة مشرعة قد اقترب بخطمه الرقيق من ينبوع ماء بحذر ليشرب، فما كان من أخينا إلّا أن عاجله بسهم استقر في قلبه، وهوى صريعاً. عندئذ تجاوبت أنحاء الجبل بصيحات ندب وولولة تساقط إثرها ورق الشجر وحجارة الجبل، فالغزالة لم تكن سوى ابنة شيخ الجبل، التي تصورت في هيئة غزال وتسللت لتشرب من الينبوع على غفلة من حراسها، ومتحدية نبوءة جاريتها العجوز التي قالت لها: "هناك سهم سيشق فؤادك، أرجو أن يكون سهم العشق لا سهم الموت".

ورغم أن أخانا استطاع أن يفر من انتقام شيخ الجبل بعد أن قتل ابنته الأثيرة جيلان، ذلك الشيخ المهيب الذي تسخرت له ريح وحجارة وكهوف ذلك الجبل، فإنه عاد إلينا مشتت الذهن زائغ النظرات قد غادره نشاطه وتوثبه، يتأملنا فجأة ثم ينخرط في بكاء مرتفع، أو يستيقظ في

منتصف الليل زاعقاً منادياً: جيلان. وبعد أن أعيا داؤه الحكماء والأطباء، قررنا أن نحج به الديار المقدسة، وعندما وصلنا مكة، تعلق بأستار الكعبة ولم يغادرها، وظل يبكي واصلاً ليله بنهاره إلى أن سقطت عليه رقعة قد كتب فيها: "من العزيز الغفور إلى عبدي الصادق، انصرف مغفور لك ما تقدم من ذنبك وتأخر".

وكان هذا عين سؤلته التي حج لها: غفران ذنوبه!

ولطالما طلبنا منه أن يغادر الحرم ويؤوب إلى خيامنا فكان يرفض، لكن بعد أن سقطت عليه الرقعة أتانا وقد عاد لونه واستقرت عيناه وقال: "كنت أنتظر الأمر من ربي ليأذن لي بالانصراف، وها هو أذن لي، ودفع إلينا بالرقعة، وقرر بعدها أن يجاور في مكة إلى ما شاء الله، بعد أن منّ الله عليه بالصحة والعافية وراحة البال، بعد طول بلبلة".

ظلّ البلوش يرددون قصة أخيهم ويتذاكرونها بإعجاب ودهشة، ثم لا يلبث أن يتمتون: "إذا أراد - سبحانه - أمراً، قال له كن فيكون".

لم أكن أناقشهم في تفاصيل حكاياتهم كثيراً رغم أنهم كل يوم يروونها بطريقة مختلفة، وأحياناً يصححون لبعضهم بعضاً، أو يتذاكرون أحداثها بلغتهم الأعجمية، حتى بتّ أذكّرهم ببعض التفاصيل التي نسوها حول شجاعة أخيهم، وأسهمه الحادة المسنونة، وتساقط ورق الشجر مع عويل شيخ الجبل.

ولأنّهم كانوا يغيبون جل النهار في طلب الرزق، فإن الدراهم التي كسبتها في مزرعة "ذات الرجال" أتاحت لي بعض الدعة للتنقل في بغداد وتقصي أحوالها، فكنت أسير في أزقتها لمسافات طويلة، وأجعل أقدامي تقودني كيفما تبدّى لها. أريد أن أتشرب هذه المدينة: جوامعها، حلقات علمائها، أسواق الوراقين، غنج فتياتها المتبخترات حول النهر.

في المساء، أحرص على الأوبة إلى المسجد لأن أصحاب الشرطة والعسة كانوا يجوبون الأزقة والميادين من بعد صلاة العشاء، وقد علقوا على حزام يلتف على خصورهم سكيناً طويلة تسمى الطبرزين، وعلى رؤوسهم عمائم خضر قد رشق أوسطها بقطعة نحاس عليها رسم الخلافة، فيما تقدح أعينهم شرراً.

مكثت هكذا بضعة أيام قبل أن يأتني مؤذن المسجد مهرولاً حاملاً بشارة عثوره على غرفة لي في خان أبي الحسن الهاشمي.

خان أبي الحسن الهاشمي

أبو الحسن الهاشمي، من وجهاء بغداد، صيته ذاع كعاشق للعلوم والمعارف، يمضي معظم أيام العام مترحلاً ما بين بغداد، والسند، والثغور الشمالية على حدود بلاد الروم.

بنى خانا كبيراً في محلة الشرقية قريباً من ضفاف دجلة، وسخر له أمهر الحرفيين وأكثر البنائين والصناع جودة لينشئوا الخان المسقوف من ثلاثة طوابق، حتى جعلوه تحفة المعمار، فيبز ما يجاوره من منازل وديار، فلمّا استتم حسنه وبهاؤه، أوقفه للعلم وطلابه.

هذا ما قاله لي المؤذن أبو قنديل، ولأنني كنت أعرف أنني يجب أن أزيل نصف ما ذكر كونه يريدني خارج مسجده، فإن النصف الباقي ما برح مغرياً لي أيضاً للمغادرة إلى هناك، ومجرد وجود مكان شاغر لي هو نعمة تستحق الحمد.

استرسل أبو القنديل: "خان الهاشمي جعل شطر منه للصناع والشطر المقابل للبائعين، دوره الثاني لبعض الحوانيت والورّاقين والخطاطين،

وقد أوقف بعض غرفات الخان لطلبة العلم القادمين إلى بغداد من أصقاع الأرض مقابل بعض الخدمات اليسيرة التي يقدمها الطالب إليه وتسيير مصالح الخان في غيابه. ولأنه يغيب طويلاً لأشهر عدة، اذهب هناك وقل: أنا قدمت من طرف المؤذن أبي القنديل، وقد ضمنت لك بهذا غرفة هناك تؤويك... بإذن الله".

ومن دون أن ينتظر وقوفي مشدوهاً أتأمله، وضع يده على كتفي وخرج بي من البوابة الشرقية للمسجد، ثم أشار إلى قناة مائية مرصوفة بالحجارة تهدر بالماء، وقال لي، "سر مجاوراً لهذه القناة المائية التي يدعونها قناة الدجاج، اتجه شرقاً صوب النهر، وستجده هناك، واسأل إذا تهت فالجميع سيعرفون موضعه".

***

حماسة المؤذن تقترب من الطرد فشعرت بالإهانة. لملمت حاجيتي وأنا أضمر أنني لن أدوس عتبته مرة أخرى، ولكنني سرعان ما تمتمت ساخراً، لربّما هذه غاية مراده، ويجب أن تعتاد فظاظة أخلاق الغربة حيث لا خمار الوائلية يغطيك، ولا ترنيمات جدك المجدولة برائحة نخيل اليمامة.

أتجه شرقاً أماشي قناة الدجاج، يطفو فوقها بعض أوراق الشجر والقش وثمر يابس، وعلى يساري جدار المدينة المدورة عالياً هائلاً يقولون إنه يرتفع ٣٥ ذراعاً بحجارة مسبوكة متداخلة كالنسيج المتماسك. لم يكن يسمح الدخول إليها إلّا للراجلة، وكان يمنع دخول الدواب إلى المدورة إلا تلك التي للخليفة وخاصته ورجال القصر.

تقودني رائحة النهر باتجاه مقصدي. تتغير الرائحة هنا في بغداد

عنها في البصرة؛ النهر يخص كل مدينة بهواء ومزاج ورائحة، وعلى حين في البصرة تصلك النسمات يخالطها رائحة القصب الكثيف، فإنها هنا تصلك مغمسة بأصوات! ما بين هدير وثرثرة وصهيل، وترتفع أصوات الطيور قرب ضفة النهر، وتزدحم الدروب ما بين راجلة، ومارة، ومهرولين يحملون في أعطافهم خبراً مهولاً، وكلما اقتربت من النهر، زادت كثافة النخيل حولي.

فجأة أشرفت على ميدان واسع مستدير تصب فيه عدد من الدروب، وقد نصب في وسطه منصة خشبية تجمهر الناس حولها شاخصي الأنظار صامتين. توقفت أرقبهم بفضول وهم يتهامسون ويتلفتون صوب أحد الأزقة.

ولم أمضِ كثيراً من الوقت قبل أن يظهر من ذلك الزقاق مجموعة من الجند يدفعون رجلاً منكساً يصيح ويحاول أن يتملص منهم. حينما مروا بالقرب مني لمحت أن أسيرهم له هيئة أهل اليسار، ويحمل قسمات القصور المنعمة، فعليه حلة فاخرة، ومركوب جلدي ثمين، وحينما صعدوا به إلى المنصة، أركعوه ونزعوا عمامته فانتثر شعره على أكتافه لامعاً مرجلاً. كنت من موضعي ألمح حبات العرق على جبينه المتسع بأنفة النبلاء.

جعلوا يداه خلف ظهره وربطوها بحبال القنب، فيما قيدوه بأحد أعمدة المنصة. فجأة لمحته ينتفض من مكانه ويبصق في وجه أحد الجنود، فلطمه الجندي وركل ما بين رجليه، فانكفأ وبدأ القيء.

عندئذ ارتعشت عظامي، وبدأت أشعر بالغثيان، وبدأ المتجمهرون بعضهم يصفقون وبعضهم يصفرون، وبعضهم الآخر يدمدمون: الطمه فهو يكنز المال ولا يخرج حقوقه.

ثم ما لبث أن أحضر أحد الجند جردلاً خشبياً فيه سائل أسود لزج ثقيل تطفو فوقه مغرفة، وأخذ يسكبه على شعر الرجل المرجل الطويل وعلى عباءته الثمينة، والناس تهلل وتصفر وتحصبه بالحصى.

أخذ الرجل المقيد يصيح: "يا تجار بغداد أقرضوني قرضاً كي أمنح هؤلاء الزبانية، جميعكم يعلمون من هو أبو محمد بن عمر، ونزاهته في السوق، أقرضوني أو أخبروا هؤلاء الزبانية أن يمهلوني خمسة أيام كي أبيع عقاراً وأسدد لهم ما يزعمون أنها أموال بيت المسلمين، لكنها سحت تدخل بطون الفرس"، عندما نبس بجملته الأخيرة، لم يكن من الجندي إلّا أن كفأ الجردل على رأسه، فأخذ يتخبط بشهقات يكاد يموت منها، فيما تصيح به الجماهير: أيعوزك ربع العشر زكاة أموالك؟ وبدؤوا يرجمونه بالقشور وروث الحيوانات.

كأن بغداد تستل مني تلك النشوة التي اكتنفت أوصالي وأنا أماشي قنواتها وأستمتع بنسائم النهر التي تتغشى صدري. بزغ لي أحد وجوهها المتجهمة التي سيتكشف لي لاحقاً الكثير منها.

***

كان أبو القنديل محقاً؛ لم أحتج أن أنشد ماراً عن خان الهاشمي، فهو ينهض كطود باذخ على حافة القناة، ولا يبتعد عن دجلة إلّا تقريباً بمئة ذراع. يصطخب بالخارجين والداخلين، ومداخن تتصاعد من زواياه. الواجهة الشمالية الخارجية كانت لدكاكين الصناع ورؤوس يستغرقها الطرق والحفر ونمنمة الحافات.

ورغم ازدحام الوجوه والألسن، فإنهم سرعان ما لمحوا وجه الغريب، فالتفتوا يتفرسون بالمتلكئ حول الخان. ومداراة لحرجي اقتربت من

صاحب دكان حدادة كان واقفاً ببابه، كان ملطخ الوجه بالهباب غليظ القسمات، لكن بعد أن رأيت أن ملامح وجهه قد لانت برؤيتي، سألته عن اسم مسؤول الخان.

فأشار لي إلى المدخل، قائلاً: "هناك في نهاية الخان، قرب الدرج الذي يأخذك إلى الطابق الثاني، غرفة ذات باب خشبي أخضر... هو الوحيد في الخان بهذا اللون، وهو أيضاً الذي ستجد فيه الرجل الذي تبحث عنه".

عرفت من لكنته بأنه أعجمي، وقبل أن يطلب المزيد من التفاصيل شكرته، وغادرت وأنا أشعر أن عينيه تتسمران في أكتافي.

***

يرتفع سقف الخان شاهقاً، فيما يمتد طويلاً بشكل أسطواني لا تكاد تلمح مخرجه المقابل يومض عن يساري كضوء بعيد. الدور الأرضي تطوقه الأروقة وأعمدة خشبية متجاورة بأصول رخامية خضراء. رائحة بهار لاذعة وعطر مكثف يعبق في المكان.

توغلت فيه عن يميني: بائعو البهارات والعطور، وكانت حوانيت الخزافين والبزازين وبائعي السجاد عن يساري. مشدوها باحتدام الألوان والروائح والأصوات كأنني اختطفت إلى أسواق الجن، قبل أن أصل إلى الغرفة ذات الباب الخشبي الأخضر التي وصفها لي الحداد.

طرقت الباب للمرة الأولى ومكثت لوهلة قبل أن أطرق الثانية فلم يجبني أحد، وعندما هممت بالانصراف، سمعت صوتاً مخنوقاً بالداخل يقول: من؟

هرولت عائداً، وفتحت الباب، وأطللت برأسي، كانت هنا ظلال

كثيفة ورائحة ورق وأحبار حجبت عني الداخل. لذا، أشرعت الباب إلى أقصاه لأتبين مع الضوء صاحب الصوت، فوجدته رجلاً ضئيلاً كالوزغ بأنامل رفيعة وبشرة باهتة وعينين محمرتين، كان يجلس خلف منضدة قد تكوم فوقها الأوراق والأحبار والأضابير والرقاع، ويبدو أن جرأتي في إشراع الباب أزعجته، فقال: ما خطبك، ماذا تريد؟

أجفلتني لهجته الساخطة رغم صوته الرفيع الذي يشبه الصرير.

قلت: "السلام عليك، جئتك من طرف أبي القنديل المؤذن...".

قاطعني: "عليه لعنة الله، لا ينفك ينثر علينا الرعاع والسقط..."، ثم لم ينتظرني أرد وأسترسل، وبطريقة متبرمة: "انظر يا فتى، هذا الخان، خان السيد الهاشمي ليس مشرعاً لإيواء كل ضال متسكع، هو للنجباء من الطلبة فقط، الذين يمتلكون من القدرات والملكات التي تخدم وتُخدم، وقيمة المرء ما يحسنه، فمن أين أنت؟ وماذا تحسن؟".

ويبدو أن تجربتي في البصرة كانت تمهدني لهذا الموقف، فجعلتني أكثر تماسكاً لرده الفظ. خطوت خطوة باتجاهه، وتناولت الريشة من المحبرة، وفوق رقعة جلدية كانت أمامه. كتبت بخطي المجود: أنا من بلد من قال شاعرها:

كَنَاطِحٍ صَخرَةً يَوْماً ليوهنها فَلَمْ يَضِرْها وَأوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

ثم قال بنبرة تهكمية: "أليس بيتاً للأعشى؟"، وانبرى يقول لي: "لا تنفكون أهل نعرات وشوكة يا أحناف اليمامة، تتحدثون عن القرون، يا أهل مسيلمة، لا غرابة، فمنكم سيظهر قرن الشيطان".

ولمّا شعر أنني وجمت وقد احتقن وجهي بالغضب، وأنني في طريقي إلى الشجار معه، وقف ناظر وقْف الهاشمي من مقعده على عجل، وفتح صندوقاً خشبياً صغيراً في أحد زوايا غرفته وأخرج منه مفتاحاً، ونادى

فتى صغيراً كان يقف بباب الغرفة اسمه ميسرة، وطلب منه مرافقتي إلى الغرفة السابعة، ثم انبرى بملل ملتفتاً إليّ: "اخرج وأطبق الباب خلفك، وغداً احضر بين يدي بعد صلاة الظهر، لأعطيك المهام الموكلة إليك".

أشباح الغرفة السابعة

رغم أن الغرفة كانت ضيقة متقشفة الأثاث، ولا تحوي سوى بساط ممحل وفراش مطوي في زاويتها، ونافذة علوية ضيقة تقترب من الكوة، على حافتها فانوس، لكنني وجدتها قصراً في موازاة حيّزي تحت درج المسجد. أيضاً كانت مؤنسة، ليست لها سمة تلك المنازل الموحشة لطول الهجران، التي تطالعك جدرانها بريبة وبرودة، بل إن أوراق بعض المتسلقات الصغيرة في الخارج تدب متبرعمة وتلتف على على حافات كوتها.

سلمتُ على الغرفة حين دخلت، ما جعل الصبي ميسرة ينظر إلي باستخفاف وهو يسلمني المفتاح.

***

تبدّى لي أن خان الهاشمي من معالم بغداد البارزة، فهو قريب من سور المدينة المدورة في منطقة تطل على دجلة اسمها باب الحديد، وتزدان بالضيع ومزارع النخيل.

تَجاور الحوانيت أسفل الخان جعل دربه لا تهدأ طوال النهار، وضمن له رواداً من سكان المدينة المدورة، بل من جميع أحياء بغداد، وذلك لجودة بضاعته وندرتها.

غرف الطلاب كانت ليست وقفاً خالصاً، لكن يقولون إن الهاشمي

يقي الطلاب فيها ذل اليد السفلى، ويعوّدهم الأنفة والكدح، فهو يطالبهم ببعض الخدمات مقابل إيوائهم، كالمساهمة في ترميم واجهات الخان ولاسيما الشرقية التي توالي النهر، والتي ترطبها وتشققها فيضانات النهر المتوالية، ودجلة قد يفيض أحياناً عارماً إحدى وعشرين ذراعاً، فيصل ماؤه أرضية الحوانيت، وتلوذ بجدران الخان الخارجية مخلوقات النهر اللعوب، وتنمو فوقها المتسلقات وتعشش في شروخها الطيور، فتحتاج ثقوبها إلى ترميم دائم، وإعادة طمس.

عندئذ يتكاتف الطلبة قاطنو الخان بإشراف بعض البنائين النبط، وسرعان ما يعاد ترميم الجدران، ويعاد رصف الدرب التي تفضي إلى النهر ودهن بعض نوافذ واجهة الخان بطبقة من القار ثم تزين بالجص الملون.

أيضاً قد يشارك الطلبة في مواسم الحصاد وخراف التمر للضيع التي يمتلكها أبو الحسن الهاشمي في أوقات فراغهم.

وقد يوكل إلى بعض المتمكنين من القراءة والكتابة متابعة حسابات حوانيت الخان أثناء غيابه، وهذا كان نصيبي من العمل، الذي أديته بصدق وإخلاص وحرص لافت أفضى بي إلى قدر الغرانيق!... في حكاية فيها هول وعجب وأقدار ماكرة.

***

كان للغرفات جارية تعنى بشؤونها اسمها جمرة، توزع علينا طعاماً كل صباح: خبز ناشف كيديها المعروقتين، نغمسه بسويق تمر، رغم أن الوشم يبرقش وجه جمرة، وحاجباها مشعثان كالدمى التي تخيف الطيور. رغم هذا، ألمح بعض سكان الغرف من الطلبة يتغامزون أنها

تؤدي بعض الخدمات السرية مساء في حالة طلب ذلك، لكنها كانت سيئة الخلق والخلقة ولا أدري كيف يستطيع أحدهم أن يتودد إليها، وإن كانت بعض الأَحيان تخصني ببعض ثمر الرمان، أو التفاح، أجده قد وضعته على نافذة غرفتي.

من يقطن الغرفة المجاورة لي في الخان شاب من مصر اسمه حسن مستدير الوجه باسمه بلحية خفيفة حول عارضيه، ورأس ضخم كثير الحركة والتلفت. تاجر متعثر قدم من مصر ليبيع بضاعته من أوراق البردي، وجلب كميات كبيرة صقيلة جميلة لامعة، وسعى إلى بيعها في بغداد ولكنها لم تلق الرواج الذي كان يحلم به، فاكتفى الوراقون باستعمالها لأغراض الرسم وصناعة زخارف تزيين جدران الدور وأغلفة الكتب، لأن أوراق البردي لم تعد مطلوبة بل استبدلوها بتلك الرقائق الورقية التي يصنعها مصنع الورق البرمكي في بغداد، أو تلك الرقيقة القادمة من فرغانة في الصين، أو كاغد خرسان، التي تكتسح أسواق الوراقين الآن، في حين أن الرق الجلدي الذي يغلفون به الكتب أخذوا يستبعدونه عن صناعة الكتب، لأن الجلود جافة الحجم ثقيلة الوزن إذا ابتلت استرخت وتشوهت الكتابة فوقها، فإذا جفت، تغضنت وأنتنت رائحتها، فتسارع إليها الفئران.

كساد بضاعة حسن جعله يعمل معلماً للصبيان، فإحدى زوايا الخان أوقفت كمدرسة صغيرة لجماعتين: صباحية لفقراء صبية الكرخ، ومسائية تكون للأعاجم الراغبين في تعلم لغة القرآن. وفي كل الأوقات، تكون المدرسة ضاجة: توبيخ المعلمين وصياحهم، وتلاعب الطلبة ومشاكساتهم.

***

ظُرف جاري ولطافته زادا ألفتي للخان وسكانه. حسن المصري ودود بذاكرة حادة، ويحفظ العديد من أبيات المتنبي وتجري على لسانه بفصاحة، فإذا وبخته جمرة على تأخره في غرفته باكراً ليتسنى لها تنظيفها، وعاقبته بحرمانه إفطاره، كان يقهقه ويضع يده على صدره وينحني أمامها متأسفاً متهكماً: ماذا أصنع بك يا جمرة، يا من شفتاها كسلافة الخمرة، وسلطانك نخضع لأمره... رغم هذا، تعود لسانك السلاطة وسوء المنطق... و

لكل امرئ من زمانه ما تعوّدا

وعادة سيف الدولة الطعن في العدى

لم يكن يحفظ شوارد المتنبي فقط، بل يقول إنه يحفظ العديد من المتون النحوية والفقهية. وعندما أطلب منه أن نتحافظها معاً، أو يسردها أمامي كي أدونها وأحفظها، فإنه كان يهز رأسه ساخراً ويقول متهرباً مراوغاً: من حفظ المتون، حاز الفنون.

لم أكن حريصاً على إخبار حسن الكثير عن سيرتي، ليس لأنه ثرثار فقط، بل كونه صاحب أطوار عجيبة، تتخطفه ما بين بهجة المزاح والضحك، وتوزيع ما بيده من فواكه أو حلوى على الطلاب، نزولاً إلى طفرات قتامة وغضب عنده لا يكاد يتمتم برد السلام وهو يمر جواري.

دوماً تتكور بجانب باب غرفته قطة شيرازيه جميلة، تزوره وتموء عند بابه فيحنو عليها ويطعمها وتلوذ بغرفته نائمة طوال النهار، وترفض محاولة استدراجي لها أو تقديم بعض الطعام إلى أن يحضر حسن ليطعمها، كان يناديها: مرجانة، ويقول معابثاً: مرجانة خليلتي تتحول في الليل إلى جنية باهرة الجمال، وتبقى برفقتي إلى أن يبزغ الضوء، وعندئذ تهرع لارتداء ثوب القطة...

وكنت أسخر منه وأقول له: لم لا تجعلها تطرق بابنا بدلاً من محاولاتنا تسول جمرة العجفاء؟ فيجيبني بتخابث: "ولا يلقاها إلّا الذين صبروا، ولا يلقاها إلّا ذو حظ عظيم".

وأذكر أنني مرة قد استيقظت فجراً وخرجت لأقضي حاجتي، فكأنني لمحت معطفاً من فرو مرقط معلقاً على باب حسن، فالتهب عقلي، لعل الآن مرجانة بين يديه.

***

يتردد كثيراً اسم الهاشمي في الخان حتى بات شاسعاً متسعاً في رأسي، وعجزت أن أرسم له صورة واضحة في مخيلتي، فقط أراه عن كثب لمحات خاطفة عندما يمر بمكتبة الخان يحفه خاصته ومريدوه.

يقول لي حسن إنه حاول كثيراً أن يكتري من الهاشمي قطعة أرض صغيرة بجوار النهر ليزرع عليها نبت البردي ثم يستثمرها في صناعة الورق، ولكن الهاشمي وفق حسن دوماً يبدو ذاهلاً منشغلاً مشتت الذهن ولم يفطن لأهمية هذا المشروع، أو لربما يخشى بتقريبه لي ودعمي في مشروع زراعة البردي أن يثير الشك والريبة بأنه على علاقة بالمصريين أو بعرش مصر، وأنه يسعى إلى دعم شوكة بني فاطمة، ولاسيما أن الخليفة العباسي المقتدر بالله لم يستطع أن يدفع قيام الدولة الفاطمية، وكل ما فعله أنه أصدر منشوراً بالطعن في نسب المهدي الفاطمي الذي يزعم أنه حفيد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، فمنشور المقتدر يؤكد أن العبيديين حكام مصر منسوبون إلى ديصان ابن سعيد الخرمي، أي أدعياء خوارج، لا نسب لهم إلى أولاد علي بن أبي طالب.

واسترسل حسن وهو مطرق كأنه يذيع سراً: ومهما قيل في نسب

الفاطميين، فقد استطاعوا أن يحيوا مجداً وأن يبنوا نهضة وأن يرفعوا منارة.

***

جميع هواة درب الوراقين في بغداد باتوا يقصدون مكتبة أبي الحسن الهاشمي أيضاً، الذي أفرد لها مكاناً شاسعاً في الخان لم تكن للبيع والتجارة إنما أوقفها لطالبي العلم، فينقل إليها بعض الكتب التي تضيق بها مكتبته الخاصة، وتفيض عن حاجته في منزله الذي يصفه حسن بمقاصير السلاطين، وهو يقبع في الرصافة على الضفة الأخرى لدجلة.

أذكر في اليمامة أن آل البيت يرون أنه من مخارم المروءة عمل أحدهم في حرفة أو تجارة، فآل البيت حسبهم أموال الخمس، وشرف أنسابهم وغلة ضياعهم. يتعففون عن مزاحمة العامة في تجارتهم ومد أيديهم إلي قصعة المساكين.

ربّما لهذا أسس الهاشمي هذا الوقف، وجعل له هذه المكتبة التي طاشت بصوابي لكثرة كتبها وتنوع عناوينها.

المكتبة تحتل الزوايا الشرقية للخان، ويطل شطر من نوافذها على النهر. تسللت إليها في اليوم الثاني لنزولي الخان، ولم أستطع التريث ليألف صدري هواء الخان أو ليطمأن أهل المكان لوجهي، حتى إن الحداد الذي في واجهة الخان أخذ يرمقني وأنا أتجه بخطى سريعة إلى بوابة المكتبة وفي عينيه نظرة غامضة مستغرقة عجزت أن أفسرها آنذّاك.

كان للمكتبة بوابة من داخل الخان لكنها مقفلة، فدخلتها من البوابة الخارجية التي على الطريق. استوقفني عند مقدمتها شجرة دردار هائلة بجذع كبير وأغصان وارفة يلامس بعضها نوافذ الخان، وعلق عليها

أقفاص طيور متفاوتة الحجم. كان في أحدها مجموعة من البلابل صدورها صفراء مغردة متقافزة، والآخر كان لعندليب صامت واجم، وثلاثة أقفاص لطيور ملونة ضخمة كأنها النسور أخذت تتأملني بريبة حين أخذت أتأملها. ثنى أحدها رقبته وصاح بجملة غريبة، تراجعت خائفاً، فلأول مرة أسمع كلام الطيور.

تلفت حولي مستفسراً، فوجدت الفتى ميسرة الذي قادني إلى غرفتي البارحة يكنس الفضلات وينظف أقفاصها، فسألته: بفضول: ماذا يقول؟

قال متبسماً بمكر: منزلة بين المنزلتين...

استفسرت بدهشة: ماذا يقصد؟

فلم يجبني بل قال: هذه الطيور وضعها هنا سيدي الهاشمي، وكلما أكمل أحد الطلاب قراءة مجموعة كتب يحددها قائم المكتبة، وأدى اختبار الكفاءة فيها، أنعم عليه بخلعة وأطلق طيراً من طيور القفص كناية عن تحرر الطالب من قفص الجهل.

تبسمت لطرافة الفكرة وغرابتها، ماذا هنالك بعد يا بغداد من العُجيب المعجب؟

مقدمة المكتبة ردهة صغيرة يحفها بعض المقاعد الخشبية، بسقف شاهق تعلوه قبة زجاجية أفضت بي إلى قاعة مستديرة واسعة معتمة قليلاً، وبأرفف من الجص ترتفع حتى تلامس السقف. جميعها مكسوة بالكتب والمخطوطات والمدونات المرقمة المصنفة. تبادرك عند دخولها رائحة جلد نفاذة يخالطها عبق دخان ورق الشجر العطري، الذي لا ينفك مشرفو المكتبة على إحراقه، حتى يطردوا بدخانه العتة والقوارض عن الكتب.

أكملت تجوالي في المكتبة، وفي أوصالي تنسكب نشوة غامرة وشوق لالتهام أوراقها كأنني مؤمن يطوف لأول مرة مقاصير حورياته في الجنة.

لفت نظري جزء يقع في أقصاها جعل كغرفة بلا باب يجلس داخله على مناضد متجاورة نساخ وكتبة، بينما رصفت حولهم صناديق تحوي أنواع الورق والأحبار وأدوات الكتابة. يستغرقهم عملهم حتى أنهم لم يمنحوا حضوري سوى طرفة عين، ثم عادوا ينكسون رؤوسهم فوق الورق. بين أيديهم ورق صقيل لامع تنزلق عليه أقلامهم بيسر وسهولة، فخمنت أنه الورق الفرغاني. يقومون على أعمال النسخ والتصحيح، وليس إعادة جمع وتجليد ما تلف من الورق فقط، بل كانت هناك ثلاثة منهم أصابعهم رقيقة طويلة، وأقلامهم مرهفة مسنونة، يقومون على التوريق، والتذهيب، وزخرفة الهوامش والأغلفة، حتى إذا ما انتهوا منها ناولوها لرجل يجلس في زاوية الغرفة يغلي أمامه بوتقة من الشمع المذاب، وينتظره يفتر ليدهن وجه الصفحة بطبقة رقيقة من الشمع كي لا تفسد الأوراق.

***

يقول لي حسن وهو يشهد شغفي بمكتبة الهاشمي وترددي عليها إن الخطاطين هم أحفاد أولئك الذين جلبهم الوزير الفضل البرمكي عند تأسيس صناعة الوراقة في بغداد فتوارثوا المهنة.

لم تستوقفني تلك المعلومة، لأنني بت أستطيع أن أغربل أكوام الحكايات التي يضعها حسن بين يدي محدثه، لكن استوقفني ما أخبرني عنه بصوت هامس وهو يدني رأسه مني: لدى الهاشمي عدة

نسخ ثمينة من مترجمات بيت الحكمة التي باتت تباع بالسر خشية حرقها بتهم الهرطقة، ويقال أن السريان وقساوستهم يدفعون باهظ الأثمان لجعلها ضمن مقتنيات كنائسهم، ناهيك عمّن يذهب بها إلى الأندلس، وقرطبة تحديداً، فيتلقفها أهل قرطبة بشغف. وصمت لوهلة ثم أردف: ولا أعلم الآن عن قرطبة بعد الفتنة، هل تحمل الشوق القديم للكتب والمكتبات التي يقال أن نيران فتنة البيت الأموي قد حرّقت الكثير منها؟

وكنت أنا أنصت إلى حسن أشعر بالحسرة لأن تلك الكتب المترجمة تبعثرت بين الأمصار دون أن أراها. استرسل هامساً: "أبو الحسن شُغوف بالعلوم، دارته في الرصافة قبلة للكثير من الأدباء والشعراء، ولكنه لا يمكث كثيراً في بغداد، دوماً في حل ومرتحل خشية أن يثير حفيظة بيت الخلافة وشكوكهم، حول مطامع له مضمرة بالحكم لكثرة تردد الناس على قصره".

هتفت به: "لكن هذا الخليفة ضعيف لم يستطع حتى أن يدفع صولة الفاطميين عن الحجاز، والخطبة في الحج هذا العام أيضاً كانت للمصريين، والبويهيون يقبضون على تلابيب المكان".

همس حسن: "أو تظن أن أحداً يحتاجه أو ينصت إليه، إنه الخليفة الدمية، فرس بني بويه قد استلبوا منه سلطانه، فهو لا يدعو للنفير ولا يسيّر الجيوش، ولا حتى يختار ولاية عرشة، يصكون النقود باسمه وباسمهم، وفقط خشية من ثورة الناس ضدهم يدعون له في الجوامع في خطبة الجمعة، وعدا ذلك فهو مكبل، ولولا سلالته العباسية وخوف الفرس أن تثور عليهم العامة، لخلعوه".

العام الماضي سرت شائعات قوية أنهم سيخلعونه وسيجعلون الخليفة

الفاطمي بدلاً منه، لكنهم لم يجزموا، وترددوا خشية أن يكون فوق العرش خلفاء من آل البيت لهم عليهم حقوق الطاعة، فينازعونهم القرار والحل والعقد.

***

حانة إسحاق الواسطي

بدأ ينتظم نهاري في بغداد، ويتقسم ما بين حلقات الجامع، ومكتبة الهاشمي، وفي المساء أحاديث حسن المتعددة الطويلة المنسابة المؤنسة. يتمدد صمتي ويتمطي بحضرته فلا أحتاج أن أدفع نفسي إلى الكلام لمنادمة جليسي.

بعد استقراري في الخان بعشرة أيام، أخبرني أنّ قريباً له تاجر قادم من مصر ويقصد البصرة، ويريد أن يستضيفه على العشاء، ثم غمز بعينيه بخبث وقال: "سنذهب إلى حانة إسحاق الواسطي... أعرف قريبي صاحب مزاج، يهتز طرباً على اهتزاز خصور القيان".

لم أكن لأرفض عرضاً كهذا، فهو حيز من مدينة أمضيت جلّ عمري أترقبها. لم أذق الخمرة طوال حياتي، لا لشيء سوى أنها لم تكن متاحة في اليمامة، وعلى الأقل في بيتنا، وإن كان هناك تاجر أبازير في سوق اليمامة كان ينتبذها ويبيعها خلسة. وعندما مات، حار أهل اليمامة هل يدفنونه في مقابر المسلمين أو أنه من مرتكبي الكبائر؟

جدي حسم الموضوع ولم يحاججهم بجدال، فذهب إلى بيته وشارك أبناءه الذين كانوا صبية صغاراً في غسله وتجهيزه، ثم أمر بحمله على النعش وسار به إلى المسجد، فتبعه فقط بعض الجياع الذين وعدهم

جدي بطعام الوضيمة بعد دفنه.

***

قريب حسن لا يشبهه، ولا يمتلك ذلك التوقد والنباهة في رأس حسن الكبير كثير التلفت، كأنه حدأة ترقب صيداً، أما قريبه، فكهل منكس يرتدي عباءة تقترب من الرثاثة، وحذاء تبدو سيوره تتشابك مع قدمه كأنه لبسه منذ ولادته. لا يمتلك ظرف المُجان وقيافتهم، فهل هو قريبه أم حلقة الوصل بينه وبين الفاطميين؟ أيضاً لماذا جعل تكريمه في حانة الواسطي؟

يبدو أن من يريد أن يطرب ويهتز على وقع خصور القيان هو حسن نفسه لا هذا القريب المتهدم.

***

حانة إبراهيم الواسطي لم تكن قريبة من الخان، فاكترينا إحدى السميريات المصطفة على الشاطئ بكثافة مقابل درهمين لكل واحد منا، وانتقل بنا صاحبها إلى حيث موقع الحانة على النهر متوارية تحفها أشجار الفواكه والنخيل والكافور وتخفيها نوعاً ما عن المارة، فلا يعرف موضعها عدا قاصدوها.

لم أكن قد دخلت حانة في حياتي. لذا، دخلتها برجلي اليسري كأنني أدخل بيت الخلاء، وهو الأمر الذي وجدته لاحقاً ساذجاً وطفولياً، فالرجل يحسم أمره: إما أن يرفض الدخول، وإما يقدم وقد اكتمل عزمه.

الحانة كانت دارة وليس كما كنت أتخيلها مغارة معتمة! سقفها من القرميد وجدرانها حجرية متينة تبدو كأنها دير عتيق قد تم تجديده.

بابها الخارجي يفضي إلى غرفة مستطيلة كبيرة. يطل بابها الخلفي على حديقة خلفية مطوقة جدرانها بمتسلقات الياسمين. تتوسطها نافورة يصب الماء فيها من جرة تحملها فتاة حجرية، فيما يتجاور روادها حول مناضد بأرجل خشبية قصيرة قد زخرفت بالصدف، ويطاف عليهم بمشروبات لم تفقدهم لبهم، ولكنهم باتوا يتحدثون بأصوات عالية، ويصدرون قهقهات مرتفعة. وفي أحد أركانها عازف عود يعزف لحناً شجياً متأوهاً، الكل كان منغمراً بجليسه، وأدهشني كهول بلحى بيضاء يغطسون شواربهم في كؤوس الجعة الفضيةن ثم يلعقون شفاههم بنشوة.

يبدو أن الجميع كانوا يعرفون حسن، فتقدم منا فور دخولنا مرحباً ساقٍ يافع بوجه أسود بشوش وثياب نظيفه مهندمة، فقال له: محمد، بأنفةٍ، مصطنعاً لهجة النبلاء: "خذني إلى كرمة ابن هانئ".

فأحنى رأسه متبسماً وسار أمامنا بخطى سريعة ونحن نهرول خلفه، ودخلنا رواقاً يطل على الحديقة مسقوفاً بجريد النخل، وتحفه أصص الفل الفارسي، ويرتفع بدرجتين عن الأرض، وهو مفروش بالبسط الملونة وأرائك عليها رسومات صيادين يلاحقون غزلاناً.

ونحن نشرع في الجلوس، هتف حسن بالساقي: "أسرع علينا بالنواسي، وداوني باللتي كانت هي الداء". محمد يختال مزهواً بتحية الرواد له، ونحن نتبعه كفراخ مبهورة بديكٍ حسن الصوت، ولم أشأ أن أعابثه قائلاً: "إن معرفة رواد حانة أمر لا يدعو إلى الزهو!".

وضع أمامنا خواناً مستديراً، ولم يلبث أن حضر الفتى الأسود البشوش وبين يديه صينية كبيرة فوقها أطباق فيها الباقلي والبسر المقلو، ومملوح البندق، ومقشر الفستق، وقصب السكر المقطع والمغسول بماء الورد.

وصبَّ لنا حسن من دروق تحفه كؤوس قائلاً: ذق هذا، ينبذونه من

التمر التوحيدي في البصرة وهو في غاية اللذة. قلت بسذاجة: هل هو مسكر؟

وقتذاك كان حسن قد بدأ يسترخي وينشرح ويدندن مع عازف العود، فقال وهو يقهقه: "لله در الأعاريب الذين ما ينفكون في خيامهم يستدلون على الله جل شأنه بالمجسد والمحسوس فيقولون: والبعرة من البعير، والأثر من المسير، يا مزيد اليمامة تفطن، قال تعالى اجتناب فقط... رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه، ولم يقل حرمت عليكم الخمر... بل لحم الخنزير".

ثم استوى في جلسته وبدا أكثر جدية وقال: "فتوى أبي حنيفة عن الخمر أين ذهبت؟ وسفيان الثوري الذي أفتى أن المحرم من سائر الأنبذة المسكرة هو نبيذ العنب إضافة إلى حرمانية السُّكر نفسه لا العين من الخمرة، وما يحرم منه هو المسكر إذا بلغت حافة السكر".

هتف ضيف حسن وكان صوته قراراً عميقاً كخوار العجل، وابتسامته شاسعة رغم أسنانه المصفرة: "يا حسن لا تثقل على الرجل في دينه، بل دعه يختار ما يشاء، أو لتكن حكايته كحكاية القاضي الذي قصد أحد منازل الوجهاء، وكان عطشاناً فطلب من أحد الخدم مشروباً يبل به ريقه، وكان نادلاً ماكراً فجلب له قارصاً، فسأله القاضي وقد استراب من طعمه: أهو خمر؟ فرد لا، بل هو القارص، وهكذا مكث يقول له تارة هو المُدام، بل هو صفراء، وتارة خندريس، وظل القاضي يعب الكؤوس، حتى تبطح في المجلس، ولف في طيلسانه وحمل إلى منزله".

قهقه حسن ملقياً برأسه إلى الخلف حتى وقعت عمامته وهو يشير إلي قائلاً: "سنرى الليلة إن كنا سنلف هذا الأعرابي في طيلسانه ونعود به؟".

كانت الموسيقا تتصعد، ونسائم نهرية تصلنا، وأبو حنيفة قد أجاز

يوماً جوار هذه الضفاف الخمر ما لم تفض إلى سُكر، كيف لي أن أعرف حدود السكر المحرم؟ هل أشبرها بيدي؟ كنت غراً ولكن في الوقت نفسه بشوق عارم للمعرفة، وأسلمت نفسي لنشوة تدب في عروقي.

رائحته وطعمه لاذعان لم أستطبهما، فكنت أدنيه من فمي وأبعده، وما لبثنا هنيهة حتى هتف ضيف حسن بلسان ثقيل: "أين الوز السمين؟". كان بدوره قد نزع عمته وبدأ يقلب عينيه في من هم حوله، اكتشفت آنذاك أنه من حين خروجنا من المنزل لم نحادثه أو نلاطفه كجزء من الضيافة.

فعاد يقول بصوت خوار العجل: "هل بجانب هذه الخمارة مكان للهو مع ظبي أو ظبية غريرة، فقد سمعت أن قاصدهم لا يدفع إلّا درهمين في الليلة".

فهتف حسن: "حانة إسحاق الواسطي لعلية القوم وصفوتهم، وليست للرعاع والسفلة وطالبي الظباء والوز، اجلس في ركنك... إذا اقتربت منك وزة أو أشارت إليك، فذلك متاح الليلة... أو التزم مكانك قبل أن يقذفوك خارجاً، ويقذفوا حذاءك خلفك".

ولأنني استغربت هذه الطريقة الموبخة القاسية على لسان حسن، الذي يبدو أن النواسية تظهر الكثير مما يخفي، قلت مخففاً ملطفاً عنه: "ماذا عن وراقي مصر، هل سوقهم رائجة؟".

فأجابني وقد التفت بكل جسمه إليّ وأعطى حسن ظهره محاولاً أن ينجو من كرة تنابز أخرى معه: "حركة النشر ضعيفة نوعاً ما بحضور هذا الفتى المجنون على عرش مصر، فهو يستريب ويحرق، ويشك. لذا، الناس هناك منشغلة برزقها ومصائبها قبل أن تتصدر للكتابة والتأليف، وإن كنت قد سمعت أن في الأزهر مكتبة عظيمة".

ثم أحنى رأسه وهو يهزه بأسى وقال: "قبل أن أحضر من مصر بعدة أيام ضجت القاهرة المعزية بما فعل الحاكم، فقد كان يسير بالسوق، فمر جوار حمام للنساء وسمعهن يغنين ويطقطقن ويقهقهن بصوت مرتفع ماجن، فما كان منه إلّا أن أمر أن يغلق عليهن الباب ويبنى بالطوب، فمتن داخل الحمام اختناقاً".

وعندما شاهد محمد فكيّ يشرعان بالدهشة ووجهي تغير بالألم، تدارك كلامه قائلاً بنبرة خبث: "ههها على رسلك فما برح هناك في مصر ما يستحق أن يزار، وإن كان ذكر مصر في بغداد هذه الأيام يعتبر منكراً، والخليفة القادر لا ينفك عن التأليب والتحشيد ضد حاكم مصر، وكل من يأتي ويذهب من مصر يدخل في نطاق العيون والجواسيس".

هتف ضيف حسن: "حتى إنهم قد بالغوا في أخذ المكوس مني، ولم أكن بتاجر، ولكنني حملت فقط بضع من القفاطين القطنية الثمينة المشغولة لأتاجر بها، لكنهم رفضوا أن يصدقوا أنها ضمن ثيابي ومقتنياتي وأنني سأرتديها، كانت عيون الجند تتقحمني كأنهم يقولون: كيف لرجل رث مثلك أن يحمل هذه القفاطين المصرية الفاخرة".

تنهد حسن وأخذ يقول: "فوق رأس هذه الأمة ثلاثة خلفاء، كل احتكر مآذنه لتدعوا له بغداد والقاهرة وقرطبة، ولا ندري أي دعوة ستسبق إلى السماء كي نصطف خلفها، لكن على كل حال، إذا تنافروا وتشاجروا، فهم كالأفيال سيدهسوننا، ونحن من سيدفع الأثمان الغالية من قوتنا ومائدة طعامنا، وها هي الأسعار ترتفع في بغداد بعدما أصبحت طرق التجارة صعبة ومرصودة وباهظة المكوس".

كل التجارة كسدت حتى الكتب، وهناك الكثير من المخطوطات القديمة موجودة لدى سيدي أبي الحسن الهاشمي مثلاً، يحفظها في

قصره داخل ضيعته بالرصافة، مخبأة في حرز مكين، لا يطلع عليها سوى خاصته، ولا يستطيع أن ينقلها إلى دكاكين الوراقين.

أخذت أسخر من هذه الحكمة التي باغتت حسن فجأة، وكان دوني ودون تلك الكتب لحظتها ما بين نجمي سهيل اليماني والثريا الشامية.

راجلة الحنابلة

٢ - ٣ - ٤٠١

١٤ - ١٠ - ١٠١٠

أسير على ضفاف حلقات العلم في المساجد بحذر وأرقبها عن كثب، وأنصت إلى مقال شيوخها قبل أن أصطفي عدداً منها وأعكف عليه ليجيزني. أخشى أن تقتنصني وتستغرقني إحدى الحلقات فلا أستطيع فكاكاً، فبغداد فيها الكثير من الأعاجيب ينتظرني... أذكر في الأسبوع الأول لوصولي كنت والإخوة البلوش نبحث عن مسكن لنا، عندما أذنت المنابر لصلاة المغرب ورفعت الإقامة، فهرولت إلى بوابة مسجد قريب على يميننا، فشدني بقوة من ثوبي أحدهم قائلاً: "على رسلك، لا تذهب إلى الصلاة خلفهم في هذا المسجد فهم مشبّهة"، تملصت منه وأنا أقول: "وما الضير في ذلك؟ وما أدراكم؟".

فهتف بي: "تمهل أيها الفتى واحذر الحنابلة".

فرددت بحنق: "وما مثالبهم؟".

اقترب مني وهمس: "نحن نعرفهم، ولمرورنا الكثير ببغداد في ذهابنا وإيابنا من الحج بتنا نستطيع اجتنابهم، انظر ليس من شخص في الكرخ يذهب لمسجدهم، فهم مشبّهة ومعبودهم صورة ذات أعضاء وأبعاض

إما روحانية وإما جسمانية، ويجوز عليه الانتقال والنزول والصعود في السماء والاستقرار والتمكن... اسأل مؤذن مسجدنا عنهم، فهو يعرف هرطقتهم جيداً".

حماستهم وأشداقهم المنتفخة جعلتني أرضخ لمطالبهم مندهشاً مستفسراً عمّا ليس لي به علم. شاركتهم الصلاة في مسجد اختاروه، دون أن أخبرهم أنني حين أدعو ربي فإنني أتخيله على عرشه يحفه الضوء والملائكة، يده معروقة بيضاء تشبه يد جدي، حيناً يضعها بوقار فوق مسند عرشه، وحيناً أخرى يحمل قلماً يخط به أقدارنا.

حيرتي وتلامز أهل الكرخ حول المشبهة لم تثنيني عن الالتحاق بحلقة الفقيه الحنبلي محمد التميمي. كان صيته قد وصل اليمامة، وأذكر مسلمة وصخر التميميين، كانا يلهجان باسمه وعلمه، وإن كنت أعرف أنهم لم يطرونه إلّا لشوكة تميم لا عن خبرة ودراية وشغف بالعلم.

بدا لي الشيخ محمد التميمي في حلقته مهيباً جليلاً كثير الأتباع، وعلى وجهه سيماء أب يعظ أبناءه رغم أنه فقد سنيه السفلين فامتد حنكه السفلي إلى الأمام قليلاً، لكن هذا لم يؤثر في صوته الهادر ونضارة بيانه وجزالة ألفاظه. لحيته البيضاء تتصل بعمامته البيضاء، وتطوقان وجهه فيضيء. عباءته من الصوف الرقيق التي يرتديها غالبية وجهاء اليمامة، وحلقة العلم حولة تتسع لتستوعب عدة صفوف، ومريدوه ينصتون إليه بتبجيل حابسين أنفسهم كصيادين متربصين بقطيع ضباء نافرة، وإن كنت أسمع بعضهم يتهامسون ويتلامزون كونه قد بنى بصبية يمانية في سنواته الأخيرة، فإن كانت ليلته عندها، جاءهم في حلقة الصبح متهللاً مستبشراً أسرف وأسهب وتجلى واستطرد في كلامه، وإن كانت ليلته لدى زوجته الأولى، جاء متبرماً حانقاً ضيق الصدر، فإياك أن تقصده في حاجة أو

تستفسره ما غمض عليك.

ولا أدري لم التزمته: هل لحديث التميمين عنه، أم لأنني رأيت في منامي ليلة أزمعت الالتحاق بحلقته عقاباً كبيراً قد وقف بنافذتي وكان له وجه يشبه وجه الشيخ التميمي... أم ساقتني تلك اللكنة في لسانه التي تقترب من تتابع الأحرف على لسان جدي، فلذت بجنابه؟

***

مع بواكير الربيع قد تكفهر السماء في بغداد، فتعصف ريح شديدة تلقي وحلاً أحمر في الطرقات، ورياح باردة تحمل ذرات من رمل وغبار، وتجعل فوق السماء غلالة بلون الزعفران.

الجامع الذي أقصده يقابل باب الكوفة في المدينة المدورة، خرجت منه أماشي السور فيما كانت روحي قلقة ومشوشة، ويقولون لي إن حلقات المسجد باتت للكر والفر والكلمات المتراشقة التي تكاد أن تقول لصاحبها دعني. كنت قد صففت أكواب روحي لتنهل من علوم بغداد، حيث التفاسير والسير وبليغ البيان وسحر الشعراء، منقباً عن قصائد شعراء نجد وتميم، الذين كان جدي يقول إن اللغة والصرف قد تقعّدا من قصائدهم، بعد أن رصفها سيبويه في كتابه **نزهة للنفوس الظمأى**.

فلا أجد سوى حلقات المسجد وقد باتت مضماراً للتنابز، أخرج من حلقة الجامع وأنا أشعر بطعم الغبار الأحمر تحت أضراسي، كنت أشاور نفسي هل أمر بالسوق لابتاع لي طعاماً أم لعلي أجد في الخان لدى جمرة ما يقيتني؟

فجأة سمعت دمدمة وهمهمة وطرق نعال لجماعة كبيرة هادرة تقترب مني؛ أوجست خيفة، فرغم أنه لم يدخل وقت صلاة العشاء بعد، فإن

الغبار الأحمر جعل العتمة دامسة تحجب ضوء قناديل الشارع. كانت رائحة قناة الدجاج منذ فيضان دجلة تزكم الأنوف: عطن روث وفضلات طعام قديمة. وفي مكان يضيق ما بين سور المدينة المدورة والقناة، تبدّى لي على مسافة أذرع مني رهط من الرجال يقارب عددهم الثمانية يهللون ويكبرون، كانوا ضخام الأبدان عظام اللحى بعمائم ينحدر من أطرافها جدائل مشعثة، كأنها لم ترجل أو يطاولها دهن منذ عام، حفاة ويحملون عصياً غليظة في أيديهم.

فلمّا مروا بي، نظروا إليّ بعين الريبة، فقلت: "السلام عليكم"، فردوا جميعهم السلام بما يشبه الهمهمة، ثم اقترب أحدهم مني إلى درجة كادت أرنبة أنفه تلامس وجهي، وشممت رائحته التي تشبه رائحة تيس يريد أن ينزو على ماعز، ثم تقهقر لاحقاً بجماعته، لماذا يشمني؟

هل كان يبحث في أنفاسي عن رائحة المسكر؟ اِلتقطت بعض أحاديثهم وهم يبتعدون، كانوا يقولون إن الغبار الأحمر الذي كسا بغداد هو غضب من الله بسبب توزير الرافضة، واستكتاب النصارى والصابئة للعمل في الدواوين.

أبطأت خطوي متلفتاً نحوهم بعد أن عادوا للتوقف والتفوا حول شاب يماشي غلاماً صغيراً، كانوا تحت أحد قناديل المدينة المدورة التي تقدح. لذا، استطعت أن أتبين الشاب يصيح بهم وقد انتفخت عروق رقبته: "هذا الصبي أخي قبح الله وجوهكم السمجة"، فأجاب أحدهم: "وما يدرينا أنه كذلك، فربّما أنت تصطحبه لمآرب خبيثة تُزلزل عرش الرحمن، فيزداد سخط الله علينا؟".

التف حول الجلبة بعض المارة فيما أخذ الشاب يتلفت حوله صائحاً: "يا صاحب الشرطة، يا جند هلمّوا إلى هؤلاء الرعاع يريدون خطف أخي".

عندئذ انفضّوا عنه وهم يدمدمون، فيما أخذ الشاب يصيح: "يا صاحب الشرطة، يا عميد الجند، أينكم؟".

دخلت الخان وصدري مختنق، وهرولت إلى غرفتي فوجدت طبقة رقيقة من مسحوق الأحمر تنتثر فوق فراشي وكتبي، ولكن هذا لم يمنع جمرة عن رصف ثلاث ثمرات من الرمان على حافة النافذة من جديد، التهمت إحداها، وذهبت بالأخرى إلى حسن فالضوء من شقوق بابه يشي أنه ما زال مستيقظاً.

والحمد لله أنني وافقت مزاجاً طيباً لدى حسن، فكان مستحماً يرتدي قفطانا حريرياً جديداً، فخمنت أنه هدية من قريبه التاجر، فهش بي وطلب مني الدخول، وحينما أخبرته عن جماعة الأوباش الهادرة في الطرقات، بصق على يمينه قائلاً: "آآه، لا بد أنهم راجلة الحنابلة".

وسألته مشدوهاً: "ما راجلة الحنابلة؟". فأجابني ممتعضاً: "هم أذناب لفقيههم البربهاري الحنبلي، يسمون أنفسهم راجلة الحنابلة، يدورون في الأسواق كمحتسبة فيتلصصون على أصحاب الحوانيت في البيع والشراء، ويضيقون على المشاة من رجال رافقتهم نساء أو صبيان، ويهجمون على الحانات، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنيّة ضربوها وكسروا آلة الغناء، ودوماً كانت حانة إسحاق الواسطي هدفاً لغزواتهم، هذا قبل أن يعقد إسحاق اتفاقاً مضمراً مع صاحب الشرطة ومجموعة من الجند، يوفرون له الحماية مقابل ما يجبونه منه سراً".

لطالما بطش بأولئك الراجلة صاحب الشُّرطة، ومنعهم ألا يجتمع منهم اثنان، ولا يتناظرون في مذهبهم، ولا يصلّي منهم إمام إلّا إذا جهر "بسم الله الرحمن الرحيم" في صلاة الصبح والعشاءَين، كونهم لا يجهرون بها، ثم أردف حسن بحنق: "فلم يُجدِ ذلك، بل زاد شرّهم وفتنتهم".

الحديث مع حسن يذهب وحشة الفؤاد، ويهدئ النفوس، ويستل السخيمة من الصدر. التهمنا الرمان، واستقر اضطراب وجداني، واستأذنته للإيواء إلى غرفتي، فقال لي وأنا ممسك بالباب أهم بالخروج: "من أين لك هذا الرمان اللذيذ"، فقلت له: "لا أدري، لكن جمرة تضعه على نافذتي".

فطالعني وعيناه تبرقان بالسخرية: "تضعه، أم يضعونه لها؟".

تسمرت مكاني وقلت: "من هم؟".

أجاب بلا مبالاة: "سكان الغرفة...".

قلت له ساخطاً: "عليك من الله ما تستحق... لا يطيب خاطرك قبل أن تتبول في بركة ماء الورد التي منحتني".

ونمت تلك الليلة نوماً قلقاً مضطرباً، وبين إغماضة وإفاقة، كنت ألمح رهطاً من الرجال قد يبلغ عددهم ثمانية قد اصطفوا على الجدار أمامي.

رقيب عتيد

في نهاية رمضان، تتقلص أعداد الطلبة حول الشيخ، وفي العيد، تكاد تتلاشى؛ جلّهم يذهبون للتريض مستقلين المراكي والسميريات النهرية إلى شمال البلاد. وحدي بقيت أرتاد الحلقة واقترب من الشيخ التميمي حتى بات باستطاعته أن يلمح انحنائي الحريص على أوراقي، وأنا أحاول أن أتابع ما يقوله عن مقدار زكاة الفطر، ولا أدري، هل حسن خطي أو قربي من موضعه وحرصي على تدوين كل ما ينطق، جعل الطلبة يعابثونني ويتندرون على حرصي وهم يتداولون الأوراق التي أدونها، فيقولون: "ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد!".

جميع هذا جعل الشيخ محمد يأمرني أن أجاوره وأدون عنه كل ما يقول، فهو يريد أن يجمعه ويجعله في كتاب لاحقاً.

***

مجلس أملاه الشيخ محمد زيد التميمي في جامع والدة السلطان المتوكل - رحمها الله - في يوم الثلاثاء ٤-١٠-٤٠١ / ١١-٥-١٠١١. أكتب وشيخي زيد التميمي يقول وغضب في قاع صوته: "يزعمون بتشيعهم لآل البيت، وهم يكفرون ويفسقون عامة الصحابة، ويقولون بالرجعة والبداء، رغم أن النصوص واضحة كالشمس أمامهم، ولا اجتهاد في نص".

كنت أكتب صامتاً مطأطئاً إلى أن أستطيع أن أحدد من هو مزيد الحنفي؟

لم أختل بقلبي كي أستفتيه، فبغداد أسواقها مشحونة باللغط، ولا تستقل غمامة سوداء عن حلقة المسجد حتى تحل أخرى. حول حلقات شيخي التميمي، في الأمس، أقبل ثلاثة فتية لم آلف وجوههم، استداروا حول الحلقة بتنمر في ميعة الشباب. ثيابهم من الخز والديباج، وأيديهم رخصة لينة كأيدي الجواري المنعمات لم تلمس فأساً أو تحمل مطرقة قط، يبدو في أعينهم الوقاحة والتربص.

يتهامس حولهم بعض مريدي الشيخ في الحلقة بأنهم أبناء تجار فرس يقطنون الرصافة امتلأت حواصلهم وفرغت أوقاتهم، فملؤوها بعلم الجدل والكلام وبقايا من زندقة الفرس، وأتوا ليشاكسوا حلقات علماء أهل السنة والجماعة وشيوخها الأجلاء وفقهاءها.

وبعضهم يقولون إنهم من أحفاد الصحابة لكن ابتلاهم ربهم بالجدل

والهرطقة، فأمسوا أتباعاً سريين من حواريي ومريدي أهل العقل الذين ما برحوا يضمرون فكر المعتزلة، ولكنهم يلزمون التقية ويسرون النجوى ولا يفصحون عن سريرتهم.

ولم أعرف تحديداً من هم. فبغداد كل يوم تريني وجهاً غريباً لها، ويبزغ من أحيائها مفارقة تجعلني أجفل متأملاً. كنت أحدس دوماً أنه سيحدث لي أمر عظيم هنا، لكن لم أكن أعلم حين ذاك أنه بات خلف بوابة غرفتي.

***

لماذا ينبت أعداء الشيخ محمد التميمي من كل منعطف؟ حتى الرجل السحلية المشرف على غرفات الخان، الذي بات ودوداً ويردّ سلامي، ولاسيما عندما شاهد اعتكافي وملازمتي المكتبة، كنت إذا مررت به ناداني لأخط له غلاف مدونة يكون قد أعدها، وأحياناً يمرر لي بعض الأوراق لأستنسخها له.

اليوم عندما ناداني وكنت مهرولاً إلى الخارج، وددت أنه لم يفعل، فالشيخ التميمي ما إن يسلم من صلاة العصر حتى يهرع إلى إلقاء درسه، ولا أريد أن يسلم من صلاته ولم أعد أوراق وأدوات التدوين.

هتفت بتحرج ونفس ثقيل: "لبيك".

قال بصوته نبرة الوالد الناصح: "مزيد، سعيد بأنك وجدت عملاً".

فطالعته باستغراب وأجبت: "لم أجده... بل أحتاجه".

قال بتهكم وقد أمال جانب فمه الأيمن بشبه ابتسامة، وهي الحركة التي تجعله يشبه السحلية تماماً، "ماذا عن كتابتك للتميمي؟".

فأجبت بكلمات مقتضبة خشية أن يتسع النقاش: "استكتبني، ولم

أتمكن من رده، ولكنه لا ينقدني إلّا درهمين".

فهتف وقد احتد صوته: "لا تكن ساذجاً أيها الفتى، ولا تدع أذناب البربهاري يستغلون طيبتك ومهارتك في الخط، عليهم من الله ما يستحقون، فما هم سوى جهلة تقتحمهم العين هجنة وقماءة، أكلوا رقاع الكتابة في يوم ما يظنونها خبزاً، وهم كثرة يتناسلون كالذباب في بغداد، منذ زمن شيخهم المشبه البربهاري، الذي يقال أنه اجتاز دجلة إلى الجانب الغربي فعطس وشمته أصحابه فارتفعت ضجتهم حتى سمعها الخليفة وهو في روشنة فسأل عنهم؟ وعندما أخبروه عنهم... استهولهم"، ثم هز رأسه مؤكداً: "أرأيت؟ حتى الخلفاء يستريبون منهم".

رفعت حاجبي بدهشة، وكنت أود أن ألتقط المحبرة وأكفأها على رأسه لسماجته وفظاظته، لكنني لم أكن أملك وقتاً أو جسارة على هذا. بدلاً من هذا، أبديت فائق اهتمامي ودهشتي، فلا بد أن يشعر الرجل السحلية أن نصيحته محل اهتمامي، وأنه أسدى إليّ معروفاً، فالأرض بيني وبينه لا بد أن تبقى خضراء عامرة، فهو الذي أنزلني مجاناً في هذا الخان.

فقلت متمماً لكلامه: "كفانا الله شرهم، وحمانا الله من المشبهة، وصلى الله وسلم على محمد وآل بيته الأطهار"؛ ظننت أنني بهذه الدعوة لآل البيت أنني سأنال استحسانه، ولم أعرف أنه من الصابئة إلّا قبل مغادرتي بغداد بثلاثة أيام.

فتنة الغرباء

بدأ موسم الحج وبدأت قوافل الحجاج القادمة من بلاد العجم والهند تصل إلى بغداد، ولكن لم يحج أحد منهم ذلك العام لخطورة الدرب

واحتشادها باللصوص والقرامطة، فأمضوا أيام الحج في بغداد. فانتعشت الأسواق وازدحمت، وبات كل ذي بضاعة مجلوبة يخرجها ويعرضها: جرار الزيوت، صناديق التمر المجفف، دمى صغيرة مصنوعة من خشب وبعضها من قماش، أوانٍ قديمة، بعض التماثيل الصغيرة التي يجدونها قرب خرائب الأمم السابقة ويقولون لهم إنها لبشر تبعوا سحر هاروت وماروت فسخطهم ربهم أصناماً.

حتى حانة إبراهيم الواسطي كانت تنشط في زمن الحج، الحجاج الصينيون يفدون إليها، فيشربون بعض منقوع الزبيب، ويستمعون إلى الموسيقا، فتضيق عيونهم نشوة حتى تكاد تختفي دون أن يفقدوا سمتهم وحذرهم، ثم لا يلبثون أن يغادروا متتابعين مهطعين بعد أن ينقدوا النُدل هبة سخية.

قلبي ضاق واكتنفته الهموم؛ تذكرت أنه مر عام على مغادرتي اليمامة، كيف تفلتت أيامه من بين يدي بهذه السرعة؟ عام كامل لم تخالط صدري نسائم اليمامة وأرج نخيلها ونداوة سواقيها. لم أشاهد طلوع نجم سهيل اليماني وابتراد آخر الليل، ولا طلة شماء الوائلية وحفيف ثوبها. أرسلت إليها رسالتين مع قوافل ذاهبة إلى هناك، كما أنني التقيت خالها عندما زار بغداد، وهو الذي أقطعه العجم البويهيون أرضاً في واسط، فقال لي إنهم بخير، لكن أمي تشتاقني وتطلب مني العودة، فقد وجدت لي زوجة صغيرة فاتنة.

لله درك شما الوائلية، ما برحت تغري الصبي الصغير كي ينصاع لأوامرها تماماً كما كانت تغريني بحبات التمر المغطسة بالدبس.

***

ما برح الفتية الغرباء يترددون على حلقة التميمي مجرجرين ثيابهم الحريرية المسبلة. لم أعرف من هم؟ لكن الذي أعيه حقاً أنهم لا يطيقون شيخي ويستدرجونه دوماً، ولأن سمعي ما برح يحتفظ برهافته ونقاوته الصحراوية، سمعتهم يوماً ما وهم يقتربون من حلقتنا يتمتمون: سنرى ماذا سيصنع هذا الشيخ الخرف وجماعته اليوم؟

جفلت من مقدار النقمة في أصواتهم، فتلوت بصوت مرتفع مع اقترابهم: "وما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد".

ولكنهم لم يبالوا. رمقني أحدهم بنظرة متفحصة ثم شمخ بأنفه وأشاح بوجهه. البقية لم يلتفتوا إلي رغم جلوسي بالقرب من شيخي.

وبينما نتهيأ للدرس هرول فجأة باتجاهنا صبي المسجد الذي أراه يملأ أباريق الوضوء، وألقى وسط الحلقة برقعتين ملفوفتين بعناية هاتفاً: "للدعاء..."؛ كل يوم تمرر رقعة أو اثنتان فيها أسماء مرضى أو متوفين للدعاء لهم.

مرّرنا الرقعتين إلى شيخنا التميمي وفتحهمَ واستقبل القبلة قائلاً: "أذهب البأس ربّ النّاس، واشفِ وأنت الشّافي، لا شفاء إلّا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً، بيدك الشّفاء، ولا كاشف له إلّا أنت يا ربّ العالمين، اللهمّ إنّي أسألك من عظيم لطفك، وكرمك، وسترك الجميل، أن تشفي"... ثم نظر في الورقة ليتأكد من اسم المريض، ثم قال: "أن تشفي فاطمة بنت حماد وتمدّها بالصّحة والعافية...".

أمّنت الحلقة جميعها بصوت هادر، فتذكرت عندها تشميتة عطسة البربهاري التي كانت تصل رواشن الخليفة. وحده هدير الآمين من الشفاه ينفخ عباءات الفقهاء ويورم عمائمهم ويطمأنهم إلى رضوخ أتباعهم.

على عجل، فتح الشيخ التميمي الرقعة الثانية وقال: "اللهمّ أبدل

يوسف بن نور داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وأدخله الجنّة، وأعذه من عذاب القبر، ومن عذاب النّار. اللهمّ عامل يوسف بن نور بما أنت أهله، ولا تعامله بما هو أهله. اللهمّ أجزه عن الإحسان إحساناً، وعن الإساءة عفواً وغفراناً... آمين". فتجاوبت أرجاء المسجد بآمين هائلة، حسبت بعدها أن يوسف بن نور سيخرج من قبره حياً.

اكتملت الحلقة، وبتنا نسمع تمتمة الحلقات الأخرى في طرف المسجد وقد شرع شيوخها في إلقاء دروسهم.

أصلح شيخنا التميمي عمامته، ثم ما لبث أن انبرى هادراً ويبدو أنه قد لمح تربص الفتية به وتنمرهم حوله.

بيدي القلم، وعلى يميني المحبرة، أحاول أن أتابع تقاذف الكلمات من فمه، وأدوّن بعض ما يذكره في باب العقيدة حول مظاهر الشرك وسبل الخلوص منها وإخلاص العبادة لوجه الله تعالى.

فجأة هتف أحدهم مقاطعاً: "يا شيخنا أريد أن أستدرك على درس قيل لي أنك ألقيته البارحة...".

وجم شيخي، واشرأبت الأعناق باتجاه صاحب الصوت؛ كان أحد الفتية الغرباء بشارب خفيف دون لحية، وعمامته الحريرية البيضاء تتقهقر إلى منتصف رأسه. عيناه البنيتان المتسعتان بأهداب طويلة ذابلاتان كما لو أفناهما في ليالي القراءة، ولكن بشرته النضرة تشي بأرائك النعيم التي قدم منها.

هتف وفي قاع صوته نبرة تهكم: "يا شيخ محمد، أنتم تصرون على استواء الله فوق العرش وتلحون حول تجسيم الخالق، لذا هلّا أخبرتنا على أي هيئة نزل البارحة في الثلث الأخير من الليل؟ وحين يتجسد لا يصبح واحداً بل هناك منه كثر ينتشرون في الأمصار، لذا من حده فقد

عده، وهذا شرك بواح ضد عقيدة التوحيد؟".

تلى هذا السؤال حالة وجوم وصمت أطبق فوق دوائر الحلقة بين تلاميذ ومريدي شيخي، وكنت أستطيع أن أفرق بين التلاميذ والمريدين بالمحبرة، فالتلميذ دائماً تجاوره المحبرة، ويكتفي المريد بالإنصات المتبت.، ورغم التملل وقدح بريق الغضب والشر في الأعين، أطرق شيخي قليلاً وصفق بيديه طالباً السكوت وهو يزدرد ريقه بصعوبة.

***

تلك الليلة، عندما عدت إلى غرفتي راجعت بهدوء ما دونته تلك اللحظة حينما ارتفعت الأيدي تلوح بالمحابر تريد أن تشج رأس الغرباء.

وجدت أنني كتبت كمقدمة لجواب شيخي على الفتى المتمنطق: "ما ضيع أهل الكتاب إلّا اللجاجة وكثر التنطع، وقد جاء في مسند ابن حنبل: إن الله خلق آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلمّا خلقه، قال: اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس"، ثم سطر فارغ... يبدو أنه صمت ثم وجدت أنني كتبت فقال أحد تلاميذ الشيخ التميمي: "من تمنطق فقد تزندق".

وتركت سطراً وعدت أكتب قال الشيخ التميمي: "هلك المتنطعون، والعبرة في الأحكام بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإن من تغلغل كتب الفلاسفة، وتبع غلاة المعتزلة في تصرف العقل، فقد تبعهم بما صادموا به قواطع الشرع، ما أتوا به إلّا من خبث الضمائر، وضعف إيمانهم. أما إجابتنا عن سؤالك، فقد كان الشيخ البربهاري - رحمه الله - يذكر فيه أن الله يقعد النبي - صلى الله عليه وسلم - معه على العرش، وأن الكرسي هو موضع قدمي الله - سبحانه وتعالى - والله أعلم".

لم أقوّس في ذلك الوقت حديثه، لأن المسجد هاج وماج حولنا.

عندئذ، كبر السائل وتبعه رفاقه، وأخذوا يرددن: "لا إله إلّا الله جعلوا لله أقداماً وهو ليس كمثله شيء! هلك الحنابلة"، ثم قال أحدهم: "إن من أثبت لله معنى أو صفة قديمة فقد أثبت إلهين، والمتغير العالم لا يصدر عن غير المتغير الله". وصاح آخر: "إن الله يجل عن أن يكون له صورة أو مثال".

ثم ما لبث واحد منهم أن هرول إلى المنبر ووقف عليه كأنه يؤذن وصاح: "الله واحد ليس كمثله شيء، ليس بجسم، ولا شبح، ولا جثة، ولا صورة، ولا لحم، ولا دم ولا شخص ولا جوهر، ولا عرض، ولا بذي لون ولا طعم، ولا رائحة..."، ومن حول الحلقة، أخذ أصحابه يذكرونه ويتصايحون: "ولا برودة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض... ولا بذي يمين وشمال وأمام وخلف، ولا والد ولا مولود... وكل ما خطر بالبال وتصور به الوهم فغير مشبه له".

هرول شيخ الحلقة المجاورة إلينا حافياً متطلعاً مستفسراً يطل من فوق رؤوسنا وخلفه تلامذته، فلما سمعوا التراشق والتلويح بالمحابر، سمعته يقول مبتعداً: "لعنة الله عليهم جميعاً، المشبه الحنبلي عندما يجعل لله أبعاضاً إنما يصف صنماً، والمعتزلي عندما يجعل الله فوق المعاني والأوصاف فهو يصف عدماً...".

فسأله أحد تلامذته: "من منهم على حق وأيهم قد نجا يا شيخي؟"، فحوقل شيخه وهو يهز رأسه قائلاً: "وما أحسب إلّا أن كليهما في النار".

لم أعد أكتب بعد هذه النقطة، وما أنقله إليكم هنا من الذاكرة، فبعد أن كبر وهلّل الشيخ التميمي وتبعه جمع كبير ممن هم حوله واشرأبت رقبته، وبرز عرقان أخضران فيها كنت أراهما وهو على المنبر يخطب

ليوم الجمعة، قال بصوت قد اهتز قاعه: "يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وهذا ما قام به المهرطقة والزنادقة... لقد أتى نبي هذه الأمة بالمحجة البيضاء لا يتركها إلّا هالك... والجدل واللجاجة بحجة إعمال العقل هو خروج عن سنته... فإن كل انحراف وشبهة سببه إعمال العقل، فشبهة إبليس - لعنه الله - مصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختياره الهوى في معارضة الأمر".

أذكر في تلك اللحظة أن أحد الفتية الغرباء قد أمسك بيد فيها محبرة كانت في طريقها لشج رأسه، قفزت عندها، وهرولت خارج المسجد لعلي أحظى بجندي أو قائد الحراس يتداركهم عن الاشتباك، ويبدو أن أحدهم قد سبقني إليهم، فما كدت أقترب من البوابة حتى كانت الجند قد ولجت المسجد، كبيرهم دخل باحة المسجد ممتطياً حصانه، فيما تبعه أربعة من حملة السيوف الراجلين وخلفهم اثنان من حملة النبال، وصهلت الفرس بصوت مرتفع، فزمزمت جنبات المسجد بها ولزم الجميع الهدوء، وهدر قائدهم الذي فوق فرسه فتجاوبت مع صوته أركان المسجد: "من الذي يدنس بيوت الله بالجدل والتنطع؟ هل عدتم إلى القياس والجدل... ألا لعنة الله عليكم"، ثم انبرى يستشهد بقول الشاعر:

كنّا من الدين قبل اليوم في سعة   حتى بلينا بأصحاب المقاييس
قوم إذا اجتمعوا وضجوا كأنهم   ثعالب نبحت بين النواويس

عجبت من قائد الجند الفصيح، فمنذ حضرت بغداد لم أعهد جندها إلّا أعاجم أجلاف. وعاد يصيح: "والله إن مولاي أبا غالب بن خلف، فخر الملك وعميد الجيوش، قد أوصانا بحفظ الأرض والعرض، وضرب الرؤوس وتعليق المشانق لمثيري الفتنة بين المسلمين، وأنتم يا

شيوخ الفتنة ومنبع النقمة لا تنفكون في غيكم سادرين، والله لن أغادر مكاني هذا إلّا بصحبة مثيري الشغب، أسوقهم كما تساق الدابة بالحبل حول أعناقهم".

ارتجفت عظامي وقتها، واستعجبت أن أياً من المتشاحنين لم ينبس ببنت شفة، ولم يبادر بشكوى الآخر؛ كانوا يعرفون جديته، وأن رأساً يُعلق في أحد الساحات سيضمن له على الأقل هدوءاً في الكرخ لمدة شهر.

عاد يزأر فيهم: "من مهيج الغوغاء في بيت الله؟"، ثم تلفت وأخذ يبحث عن الذي هرع لطلبهم من الساحة. كان أحد خدام المسجد الذي خاف على مسجده وسجاده من تقاذف المحابر وتلوث السجاد، ولكنه الآن تورط ورطة كبرى. اقترب وقدماه لا تكادان تحملانه. كان يرتدي عمامة غريبة بطرطور مرتفع، فبدا كالمجاذيب الذين يدورون في الأسواق، وتحدث بصوت لم أسمعه واضحاً من موقعي، لكن عرفت أنه تدبر قصة، لا أدري كيف اختلقها بتلك السرعة، فقد قال: "أهل المسجد غاضبون لالتحاق الغلمان المرد بالحلقات، فيثيرون الفتنة والشهوات ويشتتون انتباه طالبي العلم".

هدر صوت قائد الجند مستريباً من رده: "أين هم؟".

فأشار إلى صبي يافع يجلس في حلقة مجاورة، فما كان من ذلك الصبي إلّا أن أكب ساجداً على وجهه، وأخذ ينتحب مخنوقاً حتى حسبت أنه سيهلك.

قال القائد لأحد جنوده: "اجلبه!"، فذهب الجندي إليه وجره من كراعه على وجهه وهو ما برح ساجداً ويصيح بصوت يشبه صوت الجدي شقران وهو يساق إلى الذبح.

فرفعه الجندي من عرقوبه ولطمه على وجهه وقال له: "اصمت!"، قبل أن يقذفه تحت فرس قائد الجند، ولكن الصبي عاد يصيح: "لالالا لا أريد أن أموت!".

كان واضحاً من قائد الجند أنه لم تنطل عليه هذه الحيلة أو الجواب، وأن هذا الصغير هو كبش يلقمونه إياه كي لا يفتك بهم. ولكنه هدر: "ما اسمك؟".

لم يجب الفتى بل عاد يسجد وهو يصيح، فطلب من الجندي أن يخرجه خارجاً وزأر به: "إن رأيتك هنا بين حلقات الرجال، علقتك من عرقوبك على بوابة المدينة"، ثم عاد ومسح الحضور بنظراته، وتفرس في الوجوه المذعورة المطأطئة، ولم يلبث أن شدّ لجام فرسه واتجه إلى الخارج.

وبقيت العيون شاخصة خلف قائد الجند ومؤخرة فرسه تنثر الروث هنا وهناك لتخبرهم مقامهم لدى سيدها.

تسلل الشيخ محمد بعمامته وحذائه بعد أن تبعثرا عنه أثناء الشغب، واتجه إلى باب المسجد الصغير الذي يجاور الميضأة. تبعه اثنان من تلامذته خشية على سلامته، ولحقته بكتبه وأوراقه، ولبثنا في مكمن أسفل الدرج الذي يصعد إلى المئذنة... ردحاً طويلاً من الزمن، فلم يغادر الجند بوابة المسجد إلّا بعد وقت طويل. ولأن نافذة المسجد التي فوقنا قريبة من موقفهم، ما برحنا نسمعهم يدمدمون: "أين هم؟ أين أبناء البغايا؟ أين من يثير الفوضى في بيت الله؟".

عندئذ، تمتم شيخي وقد ارتفع حاجباه: "عليك من الله ما تستحق أيها المجوسي".

تلك الليلة تطوعت لمرافقة شيخنا إلى منزله في باحة المسجد

الخارجية. لم يكن هناك الكثير من المارة، ولكن ما كدنا ننزلق في الزقاق الذي يفضي إلى بيته حتى بزغ لنا من ظلال الزقاق مجموعة من الرجال يهدرون: "نصرك الله على من عاداك يا شيخنا".

جفلت وجمد الدم في عروقي. لم أتبينهم في البداية طوال اللحى حفاة حاملي عصياً ملوحين بها. كانوا جماعة من راجلة الحنابلة. طوقوا الشيخ وأصروا على مرافقتنا حماية له، فحرك شيخي بشدة رأسه رافضاً... قال: "بارك الله فيكم، لكن لا نريد أن نلفت الأنظار ونستفز المشاة، أو رجال الشرطة، أو فرق العيارين المتربصين، توكلوا حفظكم الله".

تطلعوا في وجوه بعضهم بعضاً بحيرة، وبعد تردد وتلكؤ وحديث هامس طويل بين شيخي التميمي وكبيرهم الذي كان له لحية عظيمة تفترش صدره كلحية ملوك الأمم الغابرة التي أراها في خرائب بغداد، في حين أن بقية رفاقه يحملون في أيديهم عصياً يطرقونها بالأرض بغضب ولا ينفكون يحوقلون ويستغفرون، اختفوا جميعهم في أحد المنازل خلف الجامع.

متريثاً أحاول أن أماشي خطوات شيخي الوئيدة المنهكة سألته: "ماذا حدث؟". فأجابني: "هم ضالون مضلون، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، الرافضة والملاحدة لعنهم الله".

فقلت له مستغرباً: "لكن ما أدراك أنهم رافضة؟ من أين ظهروا استداروا حولنا في المسجد وتجمهروا بسرعة ثم تلاشوا، فلم أعد أراهم"، فأجابني شيخي بوهن، وكان يبدو كفرخ حمام مبتل: "لا تحزن يا بني فإن الله معنا... هذا دأبهم منذ وقت طويل، ناولني الأوراق التي دونتها". فتعذرت بأنني لم أكتبها الليلة نظراً إلى الفوضى التي حدقت بنا.

صمت؛ لم أرغب أن أسترسل في الأسئلة ونحن نسير الهوينا باتجاه منزل الشيخ محمد الذي كان لحسن الحظ، أو لربّما لسوئه، بعيداً عن الجامع،

فقد كان يبدو مكتهلاً منهكاً ولم أرغب أن أثقل عليه، وحينما أوصلته باب بيته، عاد يذكرني بصحائفه وأوراقه وضرورة أن أجبلها في الغد.

***

كان شيخي التميمي يطلب مني إضافة إلى تدوين دروسه، أن أملي كل ليلة عشرة أوراق، ثم يبيعها كأنها إملاؤه: الورقة بدرهمين، ولا يطاولني من سعر الأوراق العشر إلّا درهمان، وكان يعلل هذا بأنه يقوم على عائلة كبيرة وزوجتين، ثم يسخر مني: ما ضيرك لو جاعت جرذان غرفتك، ولكن أنا بيتي يصوي فيه ألف فم مع الجرذان، وذئبتان تتباريان في الاستحواذ على دراهمي.

كم سيصبح صعباً بعد هذا كله أن أثني الركب في حلقتك يا شيخي التميمي. سأنتهي من صحيح مسلم الذي أوكل إلي نسخة، ثم سأفارقه، وإن شاء أن يجيزني في علم الحديث، وإلّا لست بحاجة إلى إجازته...

ولكن في طريق عودتي إلى الخان وصوت شيخي يتردد في أذني: "لا تحزن فإن الله معنا"، تمتمت: "هل الله حقاً اختار جانبنا وأصبح ضمن فريقنا... فالفتية الغرباء ذوو الأيدي الرخصة كانوا يستشهدون بآياته وبأحاديث نبيه أيضاً؟".

الصنم والعدم

كالعادة، لم تنفض فتنة الغرباء وانتقلت ليلتها إلى صدري، ومكثت هناك هشيماً تذروه ريح تصفر بجنون متسببة في أرقي وسهادي لتتخطفني الأفكار ما بين الصنم والعدم.

وأنتظر أن يباشرني الصبح لأغدو غير ذاك الذي كنت عليه البارحة كأنني ثعبان انسلخ عن جلده القديم وغداً يسعى مستمتعاً بنكهة مختلفة للهواء وأشعة الشمس على جلده الجديد.

لكن تلك الليلة، ظل لغط مشادة الفتية الغرباء مع الشيخ التميمي في أذني كأزيز عش النحل، وآثاره عالقة بأطراف ثوبي، وظلت عيناي مشرعتين تحدقان في أخشاب سقف غرفتي أتابع عنكبوتاً هزيلاً لكنه نشط يبني بيته: ما الهيئة التي نزل بها الله إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل؟

أنهض من مرقدي إلى صلاة التهجد وأضع بين يدي خالقي مطالبي وحاجتي، أنا مزيد الحنفي، الفقير إلى رضاه ومغفرته؟

عند الفجر اقتربت من بوابة تلك الانخطافة التي تفصل عالم الشهادة عن البرزخ، فشاهدت ستائر قرمزية هائلة تنسدل من السماء داخل جمجمتي. كانت من الديباج الثمين ومشغولة بزخارف ذهبية، وكتب عليها آية "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ". اقتربت من الستائر ودسست وجهي فيها، أحسست بملمسها على خدي يشبه وسائد القطيفة التي زينت بها أم مولاي يوسف مسجد حجر اليمامة. ألصقت خدي بنعومتها، فتواربت عن رجل مهيب عظيم البنيان يجلس مطرقاً فوق كرسي ممتداً ما بين المشرق والمغرب متأملاً ما دون قدميه، فارتجفت أوصالي، وبت أسمع وجيب قلبي في أذني، فقد تبدى لي على صورة جدي وله بعض الملامح من الشيخ التميمي، وكفه الكبيرة قد أمسك بها القلم.

في تلك اللحظة، شعرت أنني فوق البرزخ زأنني أحلم، أفتح عيني أمزق هذه الصورة أطمسها من ذهني، ألا لعن الله المهرطقة الذين بذروا

الشك في فؤادي وأذهبوا النوم عن عيني، لكن هل هم من غرسها، أم أنها قدري الذي يتحدى مشيئتي، فما أنا إلّا جربوع يقظ يمضي وقته في تتبع الفرص التي تتيح له قرض المزيد من المخطوطات، في حين أن كل من يعملون في المكتبة يسخرون مني، فيطلبون أن أتوسد كتبها وأنام داخلها.

***

في الصباح التالي، كانت روحي منهكة وثقيلة، هل نسيت قراءة أورادي هذا الصباح أم أنني أثقلت البارحة من حساء أرجل الخراف الذي يتقن صناعته أهل الكرخ؟ فأذهب عن روحي خفتها، وعن حركاتي ليونتها، وهبط بي إلى درك العامة الذين تستغرقهم غرائزهم؟

كنت قد أتيت بغداد فلم أجدها، تلك المدينة التي كنت أبنيها طوال طفولتي في اليمامة، طوبة من عسجد والأخرى من فضة، ولكنني وجدتها غضبى وحانقة، ولا تبالي كثيراً بزوارها.

كنت أمني النفس بأن أقطف ثمار مجدها، ويسيّر السلطان لي رزقاً في العلماء والفقهاء أو الندماء، ولكن بغداد غضبى وحانقة، وكل الأمم تقصدها والشعوب تصب فيها، فضاقت مصادر الرزق، وفاق معروض العلماء والشعراء دواوين الخلافة، فباتوا لخيبتهم يحدقون في ما بأيدي بعضهم بعضاً ويتخاطفون الرزق كالبازي والحدأة.

ولا يزال في أحيان كثيرة غلمان الخليفة القادر يخرجون من بوابة المدينة المدورة قادمين من مطابخ قصور الخلافة وقد حملوا على رؤوسهم صواني إفطار لجميع المساجد القريبة من السور.

بغداد يصطخب في أزقتها كلامها ويشتجر، ليس لديها الكثير من

الوقت لتنصت لي. حينما وصلتها كان أهلها لا يزالون يتحدثون عن نجم ظهر في سمائها في ليلة الجمعة مستهل شعبان يشبه الزهرة في كبره وكثرة ضوئه. عن يسار القبلة، يتموج، وله شعاع على الأرض كشعاع القمر، وثبت إلى النصف من ذي القعدة، فتطير أهل المدينة منه، وباتوا يترقبون مصيبة، فالنجوم تجلب المصائب في أذنابها.

***

في اليمامة، وبعد وفاة جدي، كان إعلان رغبتي الرحيل إلى العراق كجنازة أخرى ستخرج من الدار؛ بكت أمي وباتت ترفض مجالستي أو الحديث معي. تضع الطعام أمامي ثم تنتفض وتغادر فلا أسمع سوى صوت وسواس الحلي في غدائرها ويديها. أحاديثنا باتت تنحصر في طلب موافقتها على رحيلي. كنت أحاصرها بهذا الطلب لشهور متعامياً عن تلك الدمعة التي تبرق تحت رمش عينها اليسرى، فإذا ألححت، أسبلتا الدمع معاً.

كنت قد أزمعت الرحيل ولم أحدد متى، هل أنتظر الشتاء أم أرافق قوافل الحجيج؟ والدرب من اليمامة إلى الأحساء أربعون فرسخاً، ولا يتيسّر الذهاب إليها إلّا في فصل الشتاء حين تتجمع مياه المطر في بعض الغدران فيشرب الناس منها.

فإذا وصلت الأحساء، سأكون قد اقتربت من البصرة لكنني فضلت مرافقة قوافل الحج رغم القيظ، فهي أحسن تجهيزاً وأكثر حراساً.

كانت شما الوائلية في ذلك الوقت ما برحت تعدد أسماء الفتيات المرشحات كزوجات وكمصائد مغرية لجموح فتى العشرين في اليمامة؛ تقول إذا بلغ الفتى العشرين ولم يتزوج سيلمز أهل اليمامة رجولته، وابن

عمك مسانئك تزوج وأنجب، وأصبح ابنه البكر يتلو على مسامعنا سورة الإخلاص كلّما زارنا.

وتبدأ في سرد الأسماء: سلمى، وجذلى، ووضحى، كم يبدين جميلات وهن في قائمة أمي، يصطففن ضحوكات كنرجسات ضئيلات منعمات حول غدير: خلاخل وأساور وأيدٍ محناة وضحكة لعوب، ولكن حتماً لو أشرت ووضعت إصبعي على اسم وقدمت صاحبته إلى منزلنا كزوجة لي، فحتماً ستصبح مثل بقية النساء الضامرات المغبرات اللواتي أراهن يزرن أمي يشكون أزواجهن وجور الزمان.

لجدي في بغداد حلم منتقص بدأه وعجز أن يتممه، فعاد إلى اليمامة. لذا، تصعّد إلحاحي للمضي هناك بعد وفاته، وصغرت اليمامة، وتقلصت بيوتها، وباتت شوارعها ضيقة كثوب قديم لا بد أن أغادره. تتصعد روحي وتقترب من النجوم، وتزورني أحلام غامضة فيها أصوات نساء يشدين بقصائد انتظار يشبه التفجع لم أسمعها من قبل، هل هناك من ينتظرني في بغداد؟

***

عيد أشموني

لدى نصارى بغداد عيد يسمى عيد أشموني يُنظم في دير أشموني في منطقة اسمها قرطبل غربي دجلة، ليست ببعيدة عن خان الهاشمي. كان صوت هرجهم ومرجهم وقرقعة أواني المحتفلين واستعداداتهم تصلنا إلى الخان. غمز لي حسن ونحن خارجون صباحاً وقال: "عد باكراً من حلقة شيخك الذي يهرف بما لا يعرف، لا بد أن نذهب لمشاركة

نصارى بغداد عيدهم، فوالله إنه لبهجة تجلو النفس".

***

هناك لم يكن النصارى فقط، بل جميع أهل بغداد، قد انتقلوا إلى ضفاف دجلة، فيما بات بعضهم يصِلون من الضيع القريبة، فترسو مراكبهم وسميرياتهم حول موضع الدير. يتجولون ويتنزهون ويتداخلون في بعض الأزقة حتى يصلوا جدار المدينة المدورة، فيتأملون حجارة السور متعجبين من انتظامها ومتانة سبكها. ويقرؤون قول الجاحظ الذي حفره بعض طلبة العلم على حجر صقيل ملاصق لبوابتها الشرقية: "لم أر أجود منها استدارة، كأنما صيغت في قالب وأفرغت إفراغاً"، ثم لا يلبثون أن يعاودوا انتشارهم على ضفاف النهر.

كان بعض المحتفين قد ضربوا خياماً وفساطيط حول الدير، وفرع من دجلة اسمه بطاطيا، وجعلوا فيها الزرابي والمتكئات، يخرج منها فتيات سافرات يتنزهن وألحاظهن تتأمل بزهو القلوب التي تتكسر تحت أقدامهن، وخلفهن بخطوات يسير غلمان يتمنطقون بخناجر فضية، ويحملون في أيديهم سياطاً يلسعون بها الهواء يتصدون لمن يضايقهن. ورغم نظرة الترقب والترصد التي يرسمونها على وجوههن، فإن وجوههم المرد كانت تظهر أنهم ليسوا إلّا خصياناً.

الدير فتح أبوابه وقرع نواقيسه. كانت هناك حانة في زاوية الدير قد أخرجت عدداً من جرار وخوابي العنب والتمر المنتبذ الهائلة الحجم يُغرف منها ويُصب في كؤوس نحاسية صغيرة تباع على المحتفين.

همس لي حسن بصوت خافت: "تجد أطيب ما انتبذ في بغداد لديهم. لذا، يطلب الفقهاء من الخليفة أن يلزمهم بيوتهم ويرغمهم على

لبس العسلي والرقاع من خلف ومن أمام، وأن يكون مركوبهم فوق دوابهم خشباً"، ثم يعود يهز رأسه متحسراً: "كم هو مخيف أن ينصاع لطلبهم، على حين أن هناك طبيبين نصرانيين في قصره أحدهما كان لأمه السلطانة تمني يرحمها الله".

ويسترسل: "العام الماضي ثار العوام على النصارى في بغداد، فنهبوا كنيستهم التي في قطيعة الدقيق وأحرقوها، فسقطت على خلق فماتوا، ليسوا بعيدين عن ذلك الفتى المختل الذي يتسنم عرش مصر، فقد أمر بحرق كنيسة القيامة في القدس حيث قبر المسيح - عليه السلام - حتى ترمدت".

قلت له باستغراب: "رغم التنكيل ها هم يحتفلون من جديد! بلسم الزمن ومشيئة الحياة يرممان القروح". رمقني بنظرة غامضة قبل أن يشدني من كمي وهو يسرع خطوه قائلاً: "هلمّ نأكل بعض السمك الذي أوعدتك".

نفسي لا تستسيغ طعم السمك؛ أنا النجدي الأعرابي الذي لم يلك السمك قط تحت أسنانه. حسن دوماً يخبرني أن لأهل بغداد طريقتهم العجيبة الشهية في طهيه مغلفاً بعشب الريحان. هرول بحثاً عن مواضع شواء السمك وقد استدارات عيناه وبدا مأخوذاً ورأسه الضخم ازداد تلفته متتبعاً الفتيات المتغنجات المسبلات بعين، وبالأخرى مترقباً دخان ونُصب الشواء التي رفعت من حجارة متجاورة منتظمة على ضفاف دجلة.

ويوضع فوق نصب الشواء شرائح سمك نهرية كبيرة بطول ذراع فيما يتكالب الناس حول الشوائين. غرز حسن نفسه بين الأكتاف وتخلى عن تلك الخطوات المتأنفة المتأنقة التي كان يسير بها وقد لف عباءته حوله

بسمت ووقار المعلم، وأخذ يزاحم المناكب لينال السمك.

وقفت أنتظر أن يفوز حسن بسمكتين لنا فلا قبل لي بالتدافع، وأقلب عيني في الوجوه.

أثار فضولي فسطاط قد تجمهر حوله الناس فيما اصطف الحرس لحمايته، فلمّا دنوت منه، استطعت أن ألمح بصعوبة بين الرؤوس القيان سافرات متربعات يحتضن المعازف تتوسطهن قينة تسدل على وجهها قد وضع أمامها حوض ماء نحاسي هائل، ويطفو فوق مائه بتلات الزهور، فيما تدندن على العود بولهٍ وتميل برأسها عليه كأمّ تحدب على رضيعها.

تتلقف كلماتها صويحباتها ويسكبنه فوق الدفوف ويهززنها بغنج. لم أستطع أن أنزع بصري عن القينة رغم الحجاب الأخضر الشفيف الذي ينسدل على وجهها مكللاً بأحجار لامعة حول جبينها، وبعدها عني، ورؤوس المتجمهرين حولي، لكن استطعت أن أكتنه الضياء الذي يحفها.

انتبذنا مكاناً تحت شجرة لنتناول طعامنا. لم أميز طعمه للمرة الأولى، فقد كنت مشدوهاً مختطفاً؛ ما زال صوت تلك القينة ينسكب في أذني.

تذكرت أنني كنت أسمع في رأسي هذا الصوت من الغناء من وقت كنت مع جدي في بغداد، وحوريات بغداد يستدرجنني. "إنه سرادق الزاهرة"، قال لي حسن وهو يمضغ ويمد إلي سمكة مشوية مفرودة على أرغفة ساخنة وأوراق الموز.

وقد رأى وجهي مخطوفاً: "هوّن عليك أيها الأعرابي، فإنها الزاهرة، نجم يرى ولا يطاول، أجمل قيان بغداد، لا تغني إلا تحت سرادق الوزراء ومجالس النجباء"، لم يكن مبالياً بها بقدر حرصه على تغيير موضعنا والبحث عن مكان آخر ملائم لنا بعيداً عن جماهير الزاهرة.

وسرعان ما رأينا الناس حولها قد انفضوا وتراكضوا شمالاً، بعد أن

صاح الخدم بأنه قد افتتح سرادق أم الخليفة تمني – يرحمها الله – وفيه ما لذ وطاب من الطعام.

أخيراً جلسنا تحت نخلتين تشتركان في حوض واحد، وقد سرى النمل على بقايا ما يتناثر من النخيل، فقلت له: "ويحك، هل تريدنا أن نأكل على قارعة الطريق؟".

كان جائعاً وحانقاً، رفع حاجبيه بغضب وطعامه بين يديه، وانبرى يقول لي: "أرأيت لو أننا كنا في دار فيها بقر، هل كنت تستحي وتحتشم أن تأكل أمامها؟". لم أجبه ولكن رمقته متعجباً، فوضع طعامه من يده، ونهض وأحسن من وضع عمامته وعباءته التي علق بقماشها بعض القش والحشائش، وتقدم بضع خطوات حتى توسط الدرب، ورفع عقيرته صائحاً: "إن الحمد لله الذي تفرّد بِكُلِّ جمالٍ وكمالٍ، وأشْهد أنْ لا إله إلّا الله، وحْده لا شريك له، ولا ندَّ ولا مثال، له الأسْماء الحُسْنى والصِّفات العُلى، وهو الكبير المُتَعال، وأَشْهد أَنَّ نبيَّنا محمداً عبْده ورسوله، كريم الأخْلاق، وطَيِّب الخصال، وخيْرُ منْ تقرَّب إلى الله بالإعْظام والإكْبار والإجْلال، صلَّى الله وسلَّم عليْه وعلى آله وصحْبه خيْر صحْبٍ وآل، وعلى مَنْ تَبِعهم بإحْسانٍ ما تجدَّدت البُكور والآصال".

بدأ الناس يتحلقون حوله، والزحام يتكاثر عليه ولم أعد أراه بينهم، بل أسمع صوته يهدر فقط: "أما بعْد: فأوصيكم – إخْوة الإسْلام ونَفْسي – بتَقْوى المَلك العلاَّم، امْلؤوا بها الليالي والأيَّام لعلَّ الله أنْ يكْتب لي ولكم حُسْن المُنْقلب والمقام".

ثم قال: "روي عن الثقاة من غير واحد: أن من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار... فأخرج جميع من هم حوله ألسنتهم وحاولوا أن يلمسوا أنوفهم". المُحزن حتى أنا أيضاً أخرجته نتيجة للمباغتة.

ثم رأيته يشق صفوفهم بخطوات واسعة وهو يلف عباءته على جسده قائلاً: "والله أعلم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وآخر قولنا أن الحمد لله رب العالمين"، ثم اقترب مني مزهواً منتصراً وهو يقول: "صدق البحتري عندما يقول:

عَليّ نَحْتُ القَوافي مِنْ مَقَاطِعِها   وَمَا عَليّ لَهُم أنْ تَفهَمَ البَقَرُ

فجلّ من هم حولك"، ثم أصدر خواراً مرتفعاً هازئاً: "مووو".

ضحكت، بل قهقهت وأدمعت عيناي، فما من طائش جامح يفعل هذا عدا حسن.

مدينة الأكباش

لم أشاهد حسن في صلاة الصبح، فمررت ضحى بالمدرسة أتفقده. المدرسة تنفتح واجهتها على الجنوب ببوابة خشبية كبيرة، وقبة واسعة مبنية لالآجر الأحمر نفسه الذي بني به الخان. لم أجرب أن أصطف في حلقة كتاتيب في طفولتي قط. جدي تولى تشريبي العلوم منذ كنت أحبو. لم يشربني العلوم فقط بل مفاتيح الحياة ومنها عشق هذه المدينة.

أصوات الطلبة وهم يصيحون: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾، تفتقد طلاوة التلاوة والتأدب في حضرة القرآن، بل تكاد تقارب تقافز الأكباش الفتية. شدني الفضول إلى بوابة الصف، وددت أن أرى شخصية حسن العابثة وهو يدعي وقار العالم.

لما رآني بالباب انفك شدقاه عن ضحكة واسعة ونادى علي مماحكاً: "إلى أين أنت ذاهب يا قرن الشيطان؟ هلم ادخل أعلمك تلاوة سورة

التكوير على وجهها الأمثل". فأجبته متهكماً: "الشيطان كان من خيرة الملائكة، وهو الذي صنع تاريخ وسيرة بني البشر، فيما أنت محض متخلف يوم الزحف من معلمي الصبيان الذين عرفوا بنقص عقولهم وخفة أدمغتهم، فلا تقبل لهم شهادة، ولجؤوا إلى هذه الصناعة هرباً من الجهاد".

شعر الصبية بجو الهرج العابث بيننا فبدؤوا الشغب والتقاذف بالحصى الذي بدأ يطاولنا بعضه، فانسحبت سريعاً، ولوّح لهم حسن بالعصا زاعقاً في وجوههم، ولسع صبياً هزيلاً أصفر يجلس في المقدمة ليؤدب به رفاقه.

بينما في المسجد اختار الجند بحجة مجالسة الكبار الصبي الضعيف ليؤدبوا به الآخرين، لا بد من كبش في هذه المدينة يفتدي الآخرين.

***

وصلت المسجد مبكراً ولم يدخل وقت صلاة العصر بعد، التي يبدأ بعدها شيخي حلقته.

ولجت باحثاً عن الصندوق الخشبي الذي نجمع داخله أدوات الكتابة ثم نقفله، فوجدته مقفلاً، والعادة أن يبقى مفتاحه معلقاً برقبة الشيخ محمد، يفتحه بعد صلاة الفجر، ويخرج منه مصحفه، ويبدأ التلاوة بصوت مرنم عذب على إحدى القراءات، إلى أن يكتمل نصاب تلامذته حوله.

"طُعن الشيخ محمد بن أبي أحمد التميمي في كفّه...".

التفت مصعوقاً باتجاه مصدر الصوت، فوجدته خادم المسجد نفسه الذي نادى الشرطة لفض المشادة، بطرطوره الغريب نفسه الذي يضعه

على رأسه وسيماء البله الذي لا يفارقه. كان يخبر بعض التلاميذ الذين تقاطروا بحثاً عن شيخهم ومواقعهم حول الحلقة بتبشير فيه مسحة شماتة.

رمقني بطرف عينه وهو يسرد الحادثة بصوت مرتفع يحاول أن يصل به إلي: "فجر اليوم وهو في طريقه إلى لمسجد، لم يعرف الفاعل...".

بعضهم يرجعونها إلى أنهم بعض المهرطقة الذين أزعجهم الجدل حول الاستواء، وبعضهم يقولون إنهم العيارون أرادوا سرقته، فلمّا قاومهم، طعنوه، فاتقى الطعنة بكفة...

وبين كيف، ومتى، وأعين مستديرة غاضبة، هرولت إليهم مستفسراً: "أين هو الآن؟".

فقال خادم المسجد: "هو في داره لم يحضر هذا الصباح".

جاء شيخ الحلقة المجاورة قصيراً متدحرجاً وتلامذته يتبعونه فيختفي وسط حلقتهم ليقول: "لا أظنهم الفتية الغرباء الذين يترددون على حلقته ليزعجوه".

ابتعد طلبته الذين يطوقونه بنصف انفراجة حينما تحدث، فبات الجميع يراه، فأردف وهو يصلح وضع عمامته السوداء: "لا أعتقد أن طعنته بسبب التنابز الأسبوع الماضي بين الشيخ التميمي وأبناء التجار ذوي الأيدي الناعمة الرخصة، فالسكاكين يستعملونها لحف ذقونهم وتقطيع لقمهم الصغيرة فقط، ولا قبل لهم بالدماء، هم يمضون أوقاتهم في السماع والشراب واللعب بالنرد والفتاخ، فلا يستطيعون إيذاء بعوضة".

ثم ما لبث أن التفت إلى شاب يجاوره يبدو منكس الرأس مبدياً علامات التذلل والخضوع في حضرة شيخه وسأله: "يا جواد! أليس

أحد أولئك الفتية هو من طلبنا والده لننفث عليه ونقرأ، بعد أن امتنع عن الشراب والطعام وانقطع إلى النحيب والعويل، وذلك بعدما مات غلام تركي له كان يتعشقه؟".

فأومأ جواد برأسه مجيباً، فأشار الشيخ بإصبعه إلى جواد قائلاً: "أرأيتم! أولئك الفتية رقيقو الأفئدة منعمون، ملذاتهم دفاتر غامضة، يجوبون المدينة وهي في أكمامهم... لهو وقصف وشراب، فابحثوا عن الذي طعن شيخكم".

سرت همهمات ولغط بين الطلبة، همس أحد الأصوات: "أتراه الحداد الفارسي؟".

هل طعن الشيخ التميمي؟ هل هي تبعات المجادلة التي أضحت مشاجرة والتي حدثت منذ أيام في حلقة الجامع الكبير بين الحداد الفارسي أبي العباس الذي يمتلك دكاناً للحدادة في الخان، والشيخ محمد، بعد اختلافهما حول يد الله؟

التفت طلبة الشيخ التميمي نحوي، كانت وجوهاً غضبى، بدأت تخضوضر بالشوارب واللحى. حدقوا بي وتصايحوا: "الحداد الفارسي جارك يا مزيد، هل شاهدته فجر اليوم؟".

امتقع وجهي وهم يتأملونني، وعندما لمحت بوابة المسجد يدخل منها بعض راجلة الحنابلة، علمت أن الأمر سيتسع، فتسللت إلى باب الهرب الذي تحت المئذنة، وخرجت أخب إلى منزل شيخي.

***

احتجب الشيخ محمد في مخدعه عن زواره ومريديه، فاصطفوا في مقدمة المنزل والدهليز وغرفة الضيافة، وبعضهم افترش الأرض أمام

المنزل، ولكنه عندما علم بقدومي في الخارج، أرسل لاستدعائي إلى غرفات حرمه.

دخلت وأنا مطأطئ الرأس متوجساً أطالع مواقع خطوي، فوجدته يرقد على فرشة قطنية واهناً حاسر الرأس، ويلتف حوله متقافزين أبناؤه الصغار. ربّما هذا فسر لي وقتها رائحة البول التي تصدر من فرشته القطنية، لكن بدا وجهه ذاوياً مصفراً، وعلى مقربة منه امرأة قد تلثمت برداء يخفي جسدها كله عدا عينين مكحلتين ويدين مخضبتين بعناية وهي ترجوه أن يشرب عصير الشمندر من كوب في يدها، قائلة بصوت نحيل متغنج إنه نزف الفجر الكثير من الدماء لا بد أن يعوضها بعصير الشمندر.

عيناه المعلقتان بها بشغف جعلتاني أخمن أنها الزوجة الصغيرة التي يستطيب ليلتها وتصفو صباحاته بعدها، ويبدو أنها كانت تعلم هذا، فقد كانت تتكسر بلحظها وصوتها وهي تمسد لحيته البيضاء الهائلة، في حين أن يساره التي يرفعها فوق رأسه كانت متورمة والخرق حولها مندّاة بالدم.

عندما شاهدني، أخذ يتمتم: "لقد باغتني ثلاثة وهم متلثمون في الظلمة فلم أتبين وجوههم". وقبل أن أجيبه، فجأة سمعنا جلبة عند الباب، وصاح ابن يافع للشيخ محمد كان قد تولى مهمة استقبال الزوار وتنظيم مجلسهم: "الطبيب أليسع، أرسلته ذات المنعة السلطانة شريفة، حرم سلطاننا القادر بالله أطال الله في عمره، ليعود الوالد".

ولم نلبث إلّا لحظات قبل أن يدخل علينا مندفعاً كهل نحيل محدودب بأنف أقنى وبشرة بيضاء يرتدي ثياباً نظيفة فاخرة، ويسير خلفه غلام أسمر يحمل صندوقاً خشبياً بقفل، وقصد مرقد شيخنا ولم يسلم علينا كأنه يأنف السلام على العامة.

اقترب الطبيب من شيخي دون أن يحييه، هتف قائلاً فقط: "ما بال

الشيخ راقداً واهناً؟ صاحبة العصمة السلطانة ستفرحه بجارية وخلعة".
فدمدت الزوج المتغنجة بحنق: "هلّا عاينته قبل أن توزع هباتك".

فلم يكترث لها، واسترسل وهو يقلب يده ويتفحصها، ولم تغادر وجهه تلك النظرة المشمئزة إلى أن انبرى قائلاً: "لا بد أن ينقل إلى البيمارستان، نخشى أن يرم جرحه على فساد، فهو محموم! سأسبقكم إلى هناك"، ثم توقف لوهلة قائلاً: "بيمارستان عضد الدولة غرب المدينة، هل تعرفونه؟".

فأومأت برأسي موافقاً، ودون إضافة المزيد من التفاصيل أكمل وهو خارج: "أنتظركم هناك".

اقترح عند ذلك أحد أبناء الشيخ محمد الخروج من الباب الخلفي لاكتظاظ تلامذته عند الباب الأمامي، واقترحت أن يخرج ملثماً فلا يميزونه، واقترحت زوجته أن ينتقل عبر سطح الجيران، ولكن استقررنا في النهاية أن يخرج من الباب الخلفي.

فهرول ابنه إلى السوق واكترى عربه خشبية يجرها حمار، وضعنا فوقها فراشه الرث وأحطناه بأكياس الشعير حتى لا يلمح جسده المسجى فوق العربة، وسرنا به إلى البيمارستان العضدي.

***

مبنيان غرب بغداد قد شُيّدا بالطوب الأحمر نفسه الذي صنع منه سور بغداد أحدهما للرجال والآخر للنساء، كل منهما ثلاثة طوابق منفصلة تتحد في ممر سفلي في الجهة الجنوبية.

وجدنا طبيب السلطانة أليسع بانتظارنا عند البوابة الخارجية. تحامل شيخنا على نفسه ودخل البيمارستان راجلاً، ورفض أن يحمل، فسجّل

أليسع اسمه في مدونة هائلة قد وضعت فوق قائم حجري انتصب جوار المدخل في زاوية من ردهة مستديرة واسعة تتفرع منها ممرات، ثم قال وهو يشير إلينا بإصبعه أن اتبعوني، فهرولنا بالشيخ باتجاه غرفة تقع في نهاية أحد الممرات المتفرعة من الردهة، قيل لنا أنها غرفة كبير الأطباء. دخلها شيخنا، فيما طلب منا الانتظار خارجاً في الممر.

مكث في الداخل بعض الوقت قبل أن يخرج برفقة غلامين أعجميين مفتولي البنية غريبي الهيئة لم أشهد ما يشبههما قط، كانا حليقي الرأس واللحى، وأعينهما شهلاء تبرق كأعين الذئاب، ويرتديان ثياباً بيضاً، وقلنسوة النصارى. وضعا الشيخ محمد على ما يشبه النعش وغابا به، ورفضا بحزم أن يرافقه أي منا، وطلبا منا الرجوع مساء لتفقد أحواله، فيما كان شيخنا المسجى يتلفت نحونا مذعوراً كأنه سيساق إلى لحده.

انتظر أبناؤه أن ينفض مريدوه من حول منزله، ثم عدنا إليه مساء فوجدنا أنهم منحوه حماماً ساخناً، وألبسوه ثياباً نظيفة من المستشفى، وأفردوا له غرفة خاصة سريرها وثير غطاؤه من الدمقس الأبيض، والملاءة بغاية النعومة والبياض كالحرير.

كان قد توقف نزف كفه وبدا يحسو بنهم وبصوت مرتفع دجاجة تسبح في وعاء كبير.

وما كدنا نقبل رأسه ونتحلق حوله مطمئنين إلى صحته حتى دخل غرفته رجل ضئيل حاسر الرأس أصلع لا تكاد تبين عيناه لكثرة التجاعيد حولهما، ويحفه رهط كبير من الأطباء العرب والعجم والسريان وينادونه كبير الأطباء. ورغم قصر قامته، فإن لحضوره مهابة وجلالاً. حتى طبيب السلطانة أليسع كان متقهقراً عنه بخطوتين منكساً في حضرته، وقد غادر الاشمئزاز وجهه.

أخذ يتفحص رسغ الشيخ ويضع أذنه على صدره، ثم أملى على الطبيب أليسع كلاماً أعجمياً لم أفهمه، ولم يمنح وجوهنا المترقبة سوى شبح ابتسامة على وجهه. بعد خروجهم بلحظات عاد لنا أليسع متهلهلاً هذه المرة ليخبرنا أن بإمكان شيخنا النهوض من مرقده، وبوسعه الخروج غداً صباحاً من المستشفى صحيح الجسم معافى.

في الحقيقة، لم يفرحني هذا الخبر كثيراً فقد لمحت حينما دخلت البيمارستان إلى يمين الردهة مكتبة ضخمة تضيئها فوانيس زجاجية ملونة وتتصل بها قاعة كبيرة رصفت المقاعد الخشبية حول أرففها، وكنت قد منيت النفس أن أتسلل إليها طوال مكوث شيخي هنا، أتملى محتوياتها وأتفحص عناوينها لو بصورة خاطفة.

إذا كان شيخي سيخرج صباحاً، فما من بد من مساهرة كتب المكتبة طوال الليل. تلكأت بالخروج، وأخبرت أبناءه أنني سأظل ساهراً إلى جوار شيخي، وبإمكانهم اكتراء العربة والحمار والحضور غداً.

بعد صلاة العشاء، وعندما بدأ النعاس يداعب عيني شيخي، أخذ ينبعث من الممرات صوت موسيقا وغناء شجي عذب لم أعرف مصدرهما، كان يبدو كأن نجوم ذلك المساء انسكبت بين أصابع العازفين وأخذت تجوس الغرفات، فغطست روحي بشجن غربتي ووحشتي والأسئلة التي تتقاتل داخل رأسي كالسباع الضارية، وأخذ الدمع يطفح من عيني على نحو حرون ومتمرد لم أستطع منعه أو كبحه، وتشاغلت بالنظر من نافذة الغرفة إلى الحديقة حتى لا يلمح شيخي دمعي المتساقط كاليتامى.

في تلك اللحظة، طُرق الباب وولج أحد أولئك الأعاجم ذوي العيون الشهل، وكان يبدو متعباً وليس في حيوتيه التي كانت أول النهار. رغم هذا، كان في غاية التهذيب، وبعربية ثقيلة، قال: "سيغادر شيخنا غداً،

فهل يرغب في تمضية بعض الوقت في قاعة النُقّة، يشنف آذانه بالموسيقا ويمضي الوقت بالمطالعة المفيدة، لتسرع في التئام جرحه؟".

تقافز قلبي من البهجة وجففت دموعي بكمي، وقبل أن أجيب، انبرى شيخي غاضباً: "هل بعد أن شفاني ربي، أمضي ليلتي بالاستماع لمعازف الشيطان، خيّبك الله".

لا أعتقد أن الأعجمي قد أدرك ما يقول، لكنه حتماً عرف أنه غاضب، فناوله ماء داخل كأس زجاجية كان قد قطّر فيها بضع قطرات مما سمّاه روح الخزامى والريحان لتساعده على الاستغراق في النوم، وما كاد أول فوج من شخير شيخي يصل السقف، حتى كنت في أحضان المكتبة.

الممرات من رخام أبيض صقيل أمشي فوقه بحذر خشية أن أنزلق، والجدران لها رائحة الترياق نفسه الذي شربه شيخي، والموسيقا كأنها يد تمسد قلبي وتهدهده وظلت تعزف إلى ما يقارب منتصف الليل.

الكتب الموجودة في المكتبة غالبيتها سريانية وفارسية لم تترجم، وإن كنت قد استهديت إلى بعض مترجمات أبو قراط وجالينوس. أيضاً لفت نظري رف لمجموعة مخطوطات كتبت بخط غريب يشبه النقش فوق ورق صيني بماء الذهب، وبطنت بالديباج والحرير، وجلدت بالأدم الجيد الدباغة الذي لا يبلى، وحفر على جدار الرف: كتب المانوي.

شدت فضولي وتذكرت أنني اطلعت في مكتبة الخان على كتاب للمعتزلي واصل بن عطاء اسمه **الألف مسألة في الرد على المانوية**، وأخذت أتأمل خطها ورسومها، كان يبدو أنها حول معبودهم وسيدهم ماني الذي رأيت راجلة الحنابلة يحرقون صورة له ظفروا بها بين يدي غلام سقاء كان يدور بين البيوت بعربة قد رفع فوقها صورة هذا الرجل الواسع العينين البهيّ الطلعة.

معظم الكتب مزينة بالرسومات الدقيقة والمنمنات: أنهار وحدائق وفرسان، ونساء بشعور طويلة يفترشن الأرض ويظلهن شجر فواكه قطوفها دانية، وحولهن الأنهار الجارية، هل تلك هي جنتهم؟ كم أتوق أن أعرف، فقد كان هناك الكثير من الكتابة الغامضة المطوقة بالزخارف المذهبة المشابهة.

"هل راقت لك؟".

ارتعشت والتفت خلفي. كان هناك رجل بوجه صغير وعينين جاحظتين قليلاً يعتمر عمامة ديباج ثمينة، يقف وقد حسر كمي ثوبه كأنه قد عاد للتو من الوضوء.

قلت له: "جداً"، فأجابني متبسماً: "لمحتك تتأملها منذ برهة، وعيناك تكادان تسقطان بين صفحاتها".

ارتبكت؛ يبدو أنه كان يتأملني لمدة طويلة، ثم أردف: "هل أنت مريض هنا؟".

فقلت بعد تردد خشية أن تحجب عني هذه النعم وأطرد من الجنة: "بل مرافق لمريض".

قال: "ما تراه حولك هو وقف من سيدي عضد الدولة البويهي - رحمه الله - وأحسن مثواه، فقد رصد أوقافاً هائلة لهذا البيمارستان ليصرف من ريعها على رواتب الأطباء والعاملين، وعلاج المرضى، وخصص لإدارتها ناظراً يقوم على أمرها وعلى الأموال والأوقاف المخصصة لها".

لم أكن أفهم ما معنى ناظر الوقف، ظننته مثل الذي صادفت في البصرة فسألته: "ناظر الوقف هو الذي يشرف على سير البيمارستان؟".

فرفع حاجبيه متعاظماً جهلي وقال لي: "منصب ناظر الوقف منصب من الوظائف الديوانية العظيمة في الدولة لا يُختار له إلّا الأكفاء من ذوي

القدرة والأمانة، ولا يختاره إلّا من وافق عليه الخليفة - رعاه الله - وجميع ما تراه حولك من ريع الوقف".

يا للمكتبة الباذخة، ماذا سيحدث لو رآها الحداد الفارسي... هل تراه هو الذي طعن شيخي؟

الحداد الفارسي وكرسي الله

دكان أبي العباس الفارسي إحدى الدكاكين التي تصطف أسفل الخان، وعندما كنت أمر بدكانه يكاد يلفح وجهي شرر موقده ودوي مطارقه. أغذ الخطى بعيداً ولا أكاد أرد تحيته الجهورية التي تشبه ثغاء تيس فحل، ولم أستطع أن أفسر في ذلك الوقت لم كان يترقب مروري ويحرص على تحيتي بهذا الاهتمام؟ قيل لي أنه عبدٌ للهاشمي، ويدفع لسيده درهمين يومياً.

فلربّما كان يحيني بتبجيل عندما يراني دوماً أقصد المكتبة، وأمضي ساعات طوالاً هناك، أو لربّما كان يحييني لأنني جار قريب، وهو الأمر الذي لم أكن أتوقعه فزملائي الآخرون في الخان لم يكونوا ينالون هذا الاهتمام منه. لذا، كنت دوماً أتحفظ في حديثي وإياه وأجعلها تمتمات سريعة مقتضبة ومبتورة، فأهل الحوانيت المجاورة يتغامزون حوله، ويقولون إنه أعزب شهير، ولم يتزوج بسبب غرامه العارم بالغلمان.

يترقب مروري ليستوقفني ويسألني في مسألة نحوية قد أشكلت على لسانه الأعجمي قائلاً: "من هم... أهل الميمنة؟"، أو يستفتيني نحوياً عن تنوين ما انتهى بألف ونون، وعندما أخبره أن كل ما انتهى بألف ونون فهو ممنوع من الصرف، يرفع يده إلى رأسه مهللاً ويقول بصوت يشبه

ثغاء التيس: "والله لقد أجدت أيها العربي".

يُشكل عليّ تفسير اندفاعه وحفاوته. أقف أمام دكانه حائراً، فيهرع إلى جرة صغيرة ويسكب لي كأساً من شراب الورد، حتى أنه مرة قد أهداني خنجراً ثميناً بمقبض من الجزع اليماني المخطط، وغمد فضي مزخرف، ترددت أن آخذه في البداية، ووددت أن أقول له إنني أكره الأدوات الحادة، لكن خفت أن يكون مؤشراً على ليونتي وخنوعي، فالتقطته منه وقلبته بين يدي بنوع من الاستخفاف، ثم نزعته من غمده ولوحت به في وجهه قائلاً: "هذا البتار للذي يعتدي على حرمة الجار"، لم يبال بما قلت، أو لربّما تغاضى عنه، واكتفى بأن قال لي: "انطقها بلغة تميم الأقحاح القابعين في قلب الصحراء؛ لم تخالطكم العجمة ولم تسمعوا الرطانة؟ فنحو العرب فطرة، ونحونا العجمَ فطنة..."، ويردف قائلاً كأنه يشجعني ويسعى إلى كسر تحفظي اتجاهه:

إذا غضبت عليك بنو تميم　　　حسبت الناس كلهم غضاباً

فأجبته ببرود: "أنا من بني حنيفة، ولست تميمياً، وإن جمعتنا ديار متقاربة".

فلا يبدي اهتماماً وافراً للتفريق بين القبيلتين، ويقول: "لكن تجمعكم فصاحة البادية"، ليعود في اليوم التالي يترصد بي عبر مدخل آخر ويسأل: "ما سليقتكم في نطق قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾؟".

فأعود أكررها عليه كما أسمعها من شيخي في المسجد أو أتذكرها عن جدي وليس كما تنطق في اليمامة. أجيبه عن أسئلته بما ذكره الأصمعي، أو ما يتبادر إلى ذهني من حلقات المسجد فينتشي ويطرب وينتفخ صدره زهواً، ويهز رأسه الضخم طرباً ظناً أنها فطرتي، ويشعرني أنني رسول مُنزل أتلفظ بالأعاجيب، وأمتلك هبات نادرة لا تتاح لغيري من طلاب

العلم في بغداد، ولكن هذا لم ينسني أن أبقي الخنجر بمقبض الجزع قريباً مني.

***

أبو العباس طوال الوقت وأنا أتحدث يتفرس وجهي. نظراته تلعق ملامحي بلُزوجة، فيما تعلق عيناه بولهٍ بشفتي، كأنه يريد ارتشاف الكلمات التي أنطقها كما تنطقها عشائر قلب نجد، ما يزيد نفوري منه، فبت أتحاشاه حتى أنني في كثير من الأحيان إذا كنت أمتلك وقتاً، أنطلق إلى الجامع الكبيرعبر مخرج خلفي للخان لا يمر بدكانه، بل يفضي بي إلى طريق خلفية طويلة تمر ببعض بساتين النخيل وأسوار ضيع مهدمة تهمهم أحجارها بأنين يشبه الصرير؛ يقولون إنها كانت مقابر للغابرين، وفي جزء من أسوار تلك الضيع هناك بوابة خشبية يقف بها دوماً حمار أسود برأس ضخم، أحياناً كنت أسمع نهيقه في غرفتي بالخان، فيقول لي حسن إنه شيطان جن متلبس يحمي من داخل تلك الضيعة من سحرة وعيارين ولصوص، فيقشعر جلدي فرقاً ولكن أُضطر إلى استعمال هذه الدرب أحياناً. الدرب الخلفية لم تطاولها إصلاحات عضد الدولة البويهي الكبرى في بغداد، فما إن أبتعد عن ظهر الخان بمقدار مئة ذراع، حتى يقابلني حقل من الصبار والشوك في نهاية الدرب مع مجموعة من البيوتات المهجورة والقنوات المتهدمة. وقبل المنعطف يقبع هناك ثكنة لبعض الحرس الديلم يحرسون المجرى الذي يوزع الماء على قنوات بغداد. كانوا مهلهلي الثياب سيئي الخلق والخلقة بشوارب متهدلة طويلة. يحاصرون المارة بالأسئلة أملاً في الفوز بإتاوة أو أعطية، ويغطون ذلّ سؤالهم بشراسة وغلظة تحفظ لهم هيبتهم.

ما إن تلتف بي الدرب وتعيدني إلى قناة الدجاج المغطاة بالآجر، أكون كأنني ولجت مدينة أخرى بشوارع ممهدة مرصوفة محفوفة بالقناديل، وصفوف من أشجار الكافور.

لا يزال أهل بغداد يلهجون بالشكر للخليفة البويهي الذي أصلح البثوق في مجاري النهر، وجعل السدود على أفواه القنوات، ورُفع عنها ما كان يغطيها من ريش الحمام والأعشاب، ورفع فوقها القناطر للمارة، ورصف الدروب، وأضيئت بالمشاعل، ورمم بعض الأثلام في سور المدينة المدورة، وأعاد إلى بغداد بعض مهابتها ومجدها القديم.

***

في الأسابيع الأخيرة، وعندما بدأ أبو العباس الحداد، يلمس ازدياد نفوري منه، بات يتوسل سبلاً أخرى للتحدث إلي، فما إن أمر بدكانه حتى يبزغ لي فجأة ثم يرجوني التمهل قليلاً، فيما يهرول إلى عمق ظلمة دكانه للحظات، وأنا كنت طوال الوقت ساخطاً على شما الوائلية التي جعلت لي قلباً بين جناحي طائر يقشعر في كل منعطف من ذئب سيرتشف الورد عن وجنتي، وناقم على هذا العلج الذي يترصد مروري.

وقبل أن تستغرقني الأفكار يعود مهرولاً وقد حمل بحرص بين يديه كتاباً بغلاف وأربطة جلدية كأنه مولود رضيع؟ إذاً، هو يعلم شدة شغفي بالكتب، فيدفعه إلي قائلاً وهو يتملى وجهي بوله: "طالع هذا الكتاب، فأنا ألمح عكوفك على مكتبة الخان، وإنني واللهِ لا أرى خلف هذا الجبين الوضّاء إلّا سيماء النبوغ والنباهة التي تستحق أن تجلوها هذه الكنوز، وقد قال يوما ما يحيى بن خالد البرمكي: أي شيء أقل؟ فقال لهم: قناعة ذي الهمة بالعيش الدون"، ثم يسترسل بصوته المخشوشن:

"وسوق الوراقين أراها فسدت، فلا يوجد فيها إلّا كتب المقابسات، واللجاج، وكتب الأطيبين...".

فأرفع حاجبي دهشة وأستفسر منه: ما الأطيبان؟ فيرد بتخابث: "الطعام والنكاح".

فأتناول منه الكتاب بسرعة وألقي نظرة خاطفة على عنوانه: فن الشعر، فيدهشني؛ كتاب ثمين لأرسطو، ما الذي جلبه إلى دكان هذا الحداد المختنق بالهباب. ليس هذا فقط، بل ترجمة يحيى بن عدي، فأدسه في كمي حتى لا أثير فضول المارة وأصحاب الحوانيت حولنا، الذين بت أشعر أنهم يرقبون حديثنا بعمق ساخر كأنهم يتابعون صفقة.

وأنطلق إلى حلقة المسجد، وأظل طوال الوقت أتحسس الكتاب وأمنّي نفسي بالعودة إلى غرفتي، فأعكف عليه درساً وقراءة وأيضاً متعة وذهولاً وتعجباً، لكن لا أجد أي صلة لهذا الحداد ذي اليدين الضخمتين المتسختين... بما جاء في هذا الكتاب.

ولكن هكذا بدأت الحكاية، التي تبدلت فصولها بعد أن رُويت لاحقاً على ألسن عدة رواة، فتلونت وتبدلت وأدت إلى كارثة، ناشني جزء من سهامها وندوبها.

***

فقد كان يوم جمعة، وهو يوم لا يجلس فيه الشيخ التميمي لحلقات العلم، بل ينصرف بعد صلاة الجمعة لشؤون بيته ونفسه، لكن ذلك النهار كان هناك طالبان من همذان ينتظران إجازته لهما، قبل أن تسير قافلتهما إلى همذان مساء، فاضطر الشيخ محمد التميمي بعد صلاة الجمعة إلى الجلوس تحت عموده لإجازتهما في التلاوة، وما كاد تلامذته ومريدوه

يرونه حتى التفوا حوله مبتهجين في ثلاث حلقات، رغم كونه ذلك اليوم ضيق الصدر، متكدر السريرة، مغضن الجبين.

لم يخرج إلي أدوات التدوين، طلب مني فقط أن أراجع تلاوتهما معه عبر مصحف ناولني إياه في حال فاته أمر ما. كانت العجمة واضحة في لسان أحد الفتيان ولو كنت من شيخي ما أجزته، ولكن ما كدت ذلك اليوم أرفع رأسي عن المصحف مستنكراً رطانة الطالب حتى لمحت أحد الفتية الغرباء وأكثرهم لجاجة وسلاطة لسان يقترب من حلقة شيخي بخطوات سريعة متتالية وهو يحمل بين يديه الرخصتين مقعداً خشبياً. كان يتوزع في جنبات الجامع كحامل للمصاحف.

كان ذلك الفتى الغريب وضيئاً إلى حد الخنوثة لا يعتمر عمامة وشعره مرسل على أكتافه. قدم وحيداً ذلك اليوم وليس برفقة جماعته التي يصلي معها عادة. دنا من حلقة شيخي التميمي قائلاً بتودد وهو يدفع إليه المقعد الخشبي: "يا شيخنا التميمي، هلّا جلست على هذا الكرسي واسترحت؟".

رابني منه أنه يتظاهر بأنه ألثغ، فهل كان يسخر من الشيخ، أو هو نوع من الاستظراف؟ فقد وجدت أن من استظراف بعض غلمان بغداد أن يكونِ أغناً ألثغ السين غناجاً.

فأشاح شيخي عنه متبرماً وقال: "بل اجلس على الأرض التي دفن بها محمد بن عبد الله". عندها همس الفتى الغريب اللكاع بصوت فيه غُنه: "إذن، لم تجعل لله - سبحانه وتعالى - كرسياً... ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ يستوي فوقه؟".

عندها انتفض شيخي والتفت يحدق به وقد ارتفع حاجباه إلى منتصف جبينه، فأكمل الفتى هذه المرة بلسان فصيح، فلم يعد يلثغ: "فعل الاستواء

يجعل له تعالى – جل جلاله –قواماً، أي يداً ورجلاً؟"؛ عندها علم شيخنا التميمي: "إنما غاية الفتى هي التنطع والهرطقة".

فتمتم بلا مبالاة: "لا يضر السحاب نبح الكلاب... إنّ الفقهاء إذا تكلموا في مسائل الأصول، فلهم فيها مدخل، وأما أنت، فصاحبُ لهو وسَماع، زاحمت وداخلت المتكلمين والفقهاء".

***

في ذلك اليوم، كان أبو العباس الحداد قد صلى الجمعة، ومضى إلى حلقات المساجد كعادته كل أسبوع، فهو اليوم الوحيد الذي يغلق فيه دكانه، ويمضي يتصيد فيه ما اعتاد تسميته حلقات "جدل أو جذل"، فإن سمع ما يثير الجذل والبهجة في نفسه، دعا لشيخ الحلقة، وإن صادف جدلاً وشقاقاً، دعا عليهم.

وإن كنت أقدم حسن النية وأرجعها إلى المصادفة لحظة وصوله الحلقة التي أدون لشيخها منطوقه، لكن لحظة وصوله جعلت حديث الكرسي بين شيخي والفتى ينصب في أذنه بكل أحرفه وأفعاله وضمائره حتى المستتر منها، فقلب عينيه المحمرتين الدامعتين من دخان الصهر وحمم الطرق في الوجوه، وانتفض صائحاً بثغاء التيس: "ألا شاهت الوجوه يا أتباع حنبل... تجعلون الله بشراً بأعضاء؟ وهو الذي لا تدركه الأبصار، تعالى الله عما تصفون".

اشرأبت نحوه الرؤوس متعاظمة صراخه، فانبرى له شيخي قائلاً: "ما بال العلوج الفارسية باتت تخور؟"، فزعق الفارسي مجدداً: "يا مجسده..."، وزعق معه آخر من الحضور: "يا عبدة الأوثان".

ولم يلبث أن تحول الجدل إلى زعيق فتدافع ثم اشتباك بالأيدي بين

الحداد الفارسي وبعض من ناصره من حلقات مجاورة في المسجد، وبين طلاب شيخي ومريديه، ولم ينفض الجمع إلّا بعد أن حضر كالعادة عميد الجند مشرئباً فوق حصانه دخل به المسجد، وزعق بهم وقال: "ألن تكفوا عن هذا؟ ألم يأتكم نبأ ما صنعت بمن يبكي على الحسين وأولئك الذين يبكون على عبد الله بن الزبير تحت بوابة البصرة؟ ألا تعلمون ما حل بمثيري الفتن ومحرضي الغوغاء؟ لقد ربطت أعناقهم بالسلاسل وطاف الحرس بهم حول سور المدينة المدورة سبع مرات، والناس يحذفونهم بالحصى ونوى التمر"، ثم فجأة أمر الجند بإعمال سياطهم في مجموعة من المتجمهرين حتى انفضوا مهرولين خارج المسجد، وكان يرمقهم بتشف، وغادر بعد أن نثر الحصان روثه على سجاد المسجد.

ولكن لم تنته القضية عند هذا الحد، فمن طاولهم تربيط السلاسل والحذف بالحجارة وسوط القائد وروث الحصان كان لديهم المزيد من الكلام لم يتموه، لتستيقظ بغداد في اليوم التالي فتجد أن هناك من كتب على حوانيت السماكين والقلائين: "محمد وعلي خير البشر، فمن رضي شكر، ومنْ أبى فيه كفر".

وثار إثر ذلك هرج ومرج وأدى براجلة الحنابلة أن تعيد دورانها في شوارع بغداد، ولكن هذه المرة بأشداق مزبدة وعصي غليظة رغم تهديد صاحب الشرطة لهم بقطع أعناقهم وتعليق رؤوسهم فوق سور المدينة المدورة، ولكنهم لا يبالون متعللين أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة غائبة ولا بد من إنزالها في مواضعها بعد أن كثر الفساد في البر والبحر.

أمر صاحب الشرطة القلائين والسماكين بطمس ما كتب على

جدرانهم، ولكنها كانت هدنة صغيرة قبل طعنة شيخي محمد التميمي واشتعال غضبهم من جديد ضد شيعة آل البيت، وعودة دورانهم في الشوارع مكبرين ومتوعدين، وعندئذ فطنت أن هناك شراً عظيماً قادماً.

صناعة الحساب

أحد كتب أبي العباس التي دفعها لي هو كتاب **ما يحتاج إليه العمال والكتاب من صناعة الحساب** للحاسب أبي الوفاء. فرحت به وأثار انتباهي، ليس لأنه جديد على مالوفي فقط، ولكنه أيضاً سيعينني في تنظيم حسابات دكاكين الخان التي أوكلت إليّ مقابل مكوثي فيه.

والحق أن الكتاب كان خير معين لي، فيوم أن وقف الناس بعرفة ملبين مهللين، أخبرني وجه الوزغة ناظر الوقف الهاشمي أنني يجب أن أرصد حسابات الدكاكين وأنظمها قبل دخول محرم وبداية العام.

كان هو يرسل إلي دوماً تلك الحسابات فأدسها تحت الخوان في غرفتي حتى لا تختلط بما أدونه للشيخ التميمي، فكان أن نسيتها تماماً.

أصابني الرعب وخشيت أنها ضاعت أو قرضتها الفئران، فقفزت الدرج أربعاً أربعاً، ولحسن حظي وجدتها ما برحت ملفوفة بعناية ومرتبة ومعقودة بربطة قماش حرير قرمزي، لا أذكر أنني سبق أن اقتنيته، فهل هم جن الغرفة السابعة؟ لا أدري ولكن حتماً هم جن أخيار.

عندذاك هرولت إلى السوق، وكان معظمه قد أقفل ليوم عرفة واستعداداً للعيد، فحاولت أن أحصل على ما أريد من بضع دكاكين في طرف سوق الوراقين بقيت تعرض بضاعتها، ولم أبتع الورق البرمكي الرخيص الذي ينتجه المصنع في بغداد، بل ابتعت رقاع الكتابة من كاغد

سمرقند الرقيق الفاخر الذي ثمن الورقة منه درهم، وابتعت حبراً مجوداً مجلوباً من الصين، فلا يتلاشى أو يندثر فوق الرقاع، مثل ذاك المداد المصنوع من الزاج أو العفص، الذي ذهب بكثير من العلم داخل الكتب في مكتبة الخان أو سوق الوراقين.

فلمّا عدت إلى غرفتي، نثرت أدواتي، وشرعت في العمل واخترت أن أكتب على الغلاف بخط الثلث الذي فتن به نساخ بغداد تلك الأيام، لأنه يكتب بثلث قطر القلم فتتداخل الحروف بجمال. واستعملت الألوان في تمييز النقط، وجعلت فيه الحركات والهمزات والتنوين والتشديد، فبدأت بدعاء الاستفتاح، ثم قسمتها أقساماً: قسم حوانيت الواجهة الشرقية مع أسماء المكترين ونوع تجارتهم، وكان اكتراؤها أكثر ثمناً من بقية الحوانيت لأنها توالي النهر، ويقصدها جل مرتادي ومتنزهي النهر، وحوانيت أخرى لا يدفعون إلّا بالحول أسميتها حوانيت الأعوام. وتركت الأوراق الخلفية لمن يطلب أن يدفع مقسماً على أربع مرات في العام، وزدت في هذا أن تركت جزءاً صغيراً في آخر المخطوطة للزكاة، كل دكان ربع العشر زكاة عين المال وفق الأجر، ليسهل الأمر على صاحب الخان كي يدفع زكاة الحوانيت لمستحقيها.

كنت متردداً في وضع الخطوة الأخيرة، فقد تكون زكاته من ريع أموال أخرى، أو أنه قد يظن أنني وضعتها طمعاً في نيل بعضها، فقد ظهرت فتوى في بغداد آنذاك بجواز دفع الزكاة لطالبي العلم كونهم من أبناء السبيل، ولكنني في النهاية حسمت الأمر ودونتها، وعندما انتهيت، نزلت إلى وراقي مكتبة الخان لتغليفه، فمدوا لي عدة أنواع وألوان لأختار منها ما أشاء، فاخترت غلافاً من جلود مدينة فلجان حسن الدباغة، لين الملمس، لونه فيروزي، وطلبت منهم أن يجمعوا الأوراق بخيوط صوفية

متينة في إضبارة واحدة.

ورفعت المخطوطة إلى أبي الحسن الهاشمي مختومة بقولي: "إلى مولاي الهاشمي، أعزه الله وأمد في عمره، وأتم نعمته عليه". وعندما ناولتها ناظر الخان السحلية، قلّبها بين يديه وقد رفع حاجبيه إعجاباً وهو يقول: لم أخبر أن للأعراب تأنقاً وصنعة.

أتغصص إهاناته وأصمت.

***

وغفوت ليلة العيد وقد أخذ التعب مني كل مأخذ، ولم أستفق إلّا وجمرة تطرق الباب وبيدها زنبيل هائل تسحبه خلفها وتوزع قطع لحم كبيرة على النزلاء، وتقول: "أعاده الله على الجميع باليمن والمسرات"، والفتى ميسرة يتبعها وقد حمل على كتفه سلالاً صغيرة فيها مشمش جاف ونقولات.

فأخذت سلة المشمش والنقولات مبتهجاً وقلت لجمرة: "إليك فخذة الخروف هذه، عافاك الله وكثر من رزقك، لا قبل لي بطبخها أو شيّها، هلّا طبختها في دارك لبنيك، وجلبت لي ما أتذوقه منها غداً؟".

لم تبد فرحة، ولم تشكرني فالسماحة تضلّ طريقها إلى وجهها، تمتمت فقط: "سنرى!".

ومضت يتبعها ميسرة مرتدياً ثوباً نظيفاً وحذاء بسيور جلدية لامعة، فيما لذت بجدار غرفتي أقرض المشمش والنقولات كابن عرس مستوحش ومشتاق إلى اليمامة التي مضى عام على مفارقتي إياها.

***

كان قد دخل العام الجديد وانقضى الشهر المحرم عندما سمعت ذات صباحٍ طرقاً رقيقاً مهذباً على بابي، وعندما فتحته مستطلعاً، ألفيت غلاماً رومياً بعينين زرقاوين مشعتين حسن البزة محتشم السلوك، سلمني صرة صغيرة من الدراهم، ليقول لي إن سيدي أبي الحسن الهاشمي مسرور للغاية بما فعلته في حسابات الحوانيت التي يملكها، وهو يدعوك الليلة إلى دارته في الرصافة.

زبدة الحقب

يا للدعوة! كأن طائر العنقاء هبط فوق سطح غرفتي. خفت وترددت في الذهاب، فلا أدري ما سيواجهني هناك بعد أن سمعت الكثير من حلقات المسجد عما يدور خلف تلك القصور من التهتك والمجون، لكن حسن المصري قال لي صاخباً بصوت متهدج لم يجعلني أخطئ رنة الحسد في قاعه: "أيها الصحراوي الجلف، هل تتردد في الذهاب إلى دار الندوة؛ إنها قبلة مثقفي بغداد، سميت على اجتماع قريش حيث يجتمع فيها الأشراف الهاشميون من عباسيين وطالبيين".

فقلت: "وهل هم كثر في بغداد".

وأجاب وهو يقلب رأسه متفكراً: "يقال أن عددهم قد بلغ ٤٠٠٠ وتجرى لهم الرواتب".

فصحت به: "ياحسن، ما أدراك كل هذه المعلومات والأرقام عن آل البيت، أنت أحياناً تريبني؟".

رمش بعينيه وبلع ريقه قائلاً: "هل تزمع أنت أيضاً باتهامي بأنني عين للفاطميين في بغداد؟".

"سامحكم الله جميعاً...".

ثم استرسل كأنه يريد أن يروغ من الموضوع: "لكن في دار الندوة يحلقون بأجنحة من شعر وأدب وصوت وطرب، جميعها فوق السفاسف واللمم، جعل الهاشمي منتداه مع هلال كل شهر ولكن لعله هذا الشهر تأخر بسبب يوم عاشوراء".

"وفي دار الندوة، يتسامرون ويطربون ويتثاقفون ويصدحون بالقصائد ويقصفون بالطعام والشراب، وقد حضره في إحدى المرات الوزير أبو خلف، ونقيب الطالبين الشريف الرضي، وقد كان من جلاسه أبو حيان التوحيدي، ويقال أنه سبق أن زارهم بديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات"، ثم نكس رأسه كأنه لا يريدني أن أعرف ما يدور في خلده، وقال بصوت خافت لم أكد أستطع أن أتبينه: "اذهب... بل إياك أن لا تذهب، ولعله سيكون أهم شيء سيحدث لك وتذكره عندما تغادر بغداد...".

هل كشفت الحُجب عن حسن تلك اللحظة وهو ينطق تلك الكلمات؟

***

هممت أن أغادره ولكنه أمسك بطرف ثوبي: "تمهل... ماذا عن ملبسك وهيئتك؟ لا بد أن ترتدي حلة تليق بمجالس الأشراف، فستجدهم هناك يتبخترون بالثياب المصبوغة من الكتان المضمخ بالطيب والزعفران، كالدبيقي والعجمي، فيما ستسير بعباءتك هذه كوعل بري انتهى للتو من النطاح".

"واحذر أن ترتدي الأحمر فتبدو كخدم الاستقبال في دار الخلافة، كما أنه ليس من المستحسن من الظرفاء من الرجال لبس عباءات النبط

الثقيلة، ولكنك هيهات أن تكون ظريفاً فما أنت إلّا محض أعرابي مستظرف".

***

غادرني حسن مهرولاً إلى تلامذته، في الصبح صبية وبعد الظهر عجم، لله درك يا حسن كيف لم يذهبوا بلبك، ولا عجب أن بعض الفقهاء رفضوا شهادة معلم الصبيان.

... لكن وكلماته ما زالت تتردد في رأسي: "احرص على أن تذهب هناك بهيئة حسنة، فثيابك الصحراوية تلك لا تليق بالأرائك والزرابي التي ستجلس عليها، احذر أن تذهب بعباءتك فتبدو كوعل مشاكس، واحفظ كل ما يقال وجميع ما تشاهد، فسوف أسألك عنه غداً".

***

ماذا أفعل؟ هل أكتفي بثيابي البسيطة وأغطي قماشها المغسول الباهت بعباءة متينة موشاة أصرف عليها كل دراهمي، أم أستعير لليلة واحدة حُلة أزهو بها في دار الندوة؟

من سيعيرني، فمن يمتلك ملابس فخمة لا يؤجرها عادة... خرجت وشمس الضحى باتت ساطعة إلى سوق الكرخ حائراً. سألت بعض البزازين والقماشين، فسخر بعضهم من سؤالي قائلين: "ثوب العارية لا يستر العورة"، وبعضهم يقولون لي الرجل مخبر وليس منظراً، فأميز النقمة الخبيثة في قاع صوته، وبعضهم اختاروا أن يعطينوني عظة وعبرة فقالوا: "الثوب إذا لم يعص الله فيه لا يتخرق".

في نهاية السوق، اهتديت إلى تاجر قادم من معان يعرض بعض العباءات

الصوفية الخشنة المبطنة بفرو طلي وقد طرزت أكمامها بمتواليات تشبه رؤوس الهداهد، ابتعتها وأنا أخاطب نفسي في النهاية: ستبقى صحراوياً، سواء أرتديت صوف الضأن الأبيض أم الديباج.

عدت إلى الخان بخطوات ثقيلة أشعر أنني بعير قد دفع به إلى مضمار سباق أحصنة.

أبو العباس الحداد لمحني قادماً منكساً، فحياني، وقبل أن يشرع في سرد بعض أسماء الكتب للفت انتباهي، سألته وأنا أتمتم لنفسي لنرى هذا العلج المتودد ماذا لديه: "يا أبا العباس، هل تعرف في الكرخ من يعيرني حلة فاخرة ألبي بها دعوة أحد الوجهاء؟".

أمال رأسه الضخمة متفكراً وقال بتهكم: "في بغداد الثياب لا تعار، ثوب العارية يبلى"، ولكنه تمتم بصوت خافت: "دعنا نرى ماذا سنفعل".

كان المؤذن يقيم صلاة الظهر، فهرولت إلى مسجد غرب الكرخ ليس بعيداً عن النهر، مبني من الآجر الأحمر، ومئذنته فيها بعض الازورار حتى بدت أنها بنيت على عجل. ولجته على عجل خشية أن تفوتني الصلاة، فتيبّست مذهولاً عند بوابته الداخلية لأشاهد أمراً لم تسبق لي رؤيته قط، فقد اصطفت مجموعة من العميان يلوّحون بعصيهم، يسألون كل من دخل: هل أنت شافعي، فإذا أجابهم بنعم: ألهبوا ظهره بعصيهم.

كان الداخلون يهزؤون بهم وينعتونهم بعميان البصر والبصيرة، ويدفعونهم بعنف حتى يسقطوا أو يكبوا على وجوههم، لكنهم كانوا يتوكؤون على عصيهم ويعاودون الوقوف. كانوا مصطفين متجاورين يلوحون بعصيهم حتى انتهينا من الصلاة.

شعرت بالبؤس لهم: من الذي أوغر صدور هؤلاء المساكين ضد

الشافعية؟ هل هم أتباع البربهاري؟ من الذي يظل يوغر صدور الأكباش للنطاح.

غادرت المسجد وهرولت اتجاه حلقة شيخي، وأخذت أدوّن: "بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله...".

بعد صلاة العصر استأذنته للتغيب، وغادرت دون أن أنتظر موافقته، ولكن هذا لم يمنعه أن يصيح خلفي: "إن لم تأتِ بعذر غداً، أدبتك".

***

عندما وصلت بوابة الخان المفضية إلى غرفنا العلوية، فوجئت بالصبي الأبكم، صبي الحداد، وهو يحمل بين يديه لفافة قماش كبيرة، يشير إليها بتمتمات غير مفهومة، وعلى وجهه ابتسامة نصف خبيثة. وضعها بين يدي ثم مضى مهرولاً. التقطتها منه حذراً أتلفت حولي، وصعدت بها إلى غرفتي، وعندما فتحتها بحرص، وجدت فيها سروالاً وقميصاً من الكتان الفاخر، وثوباً حريرياً بلون العاج، وقفطاناً من ديباج أخضر موشى بزركشات على شكل أهلّة مذهبة، وقطعة خضراء من حرير بلون القفطان أعتقد أنها للعمامة. ذهلت لجمال القفطان؛ كان واسعاً مهلهلاً قليلاً على بنيتي النحيلة، لكن لعل هذا ما اتفق عليه الموسرون في بغداد، فالفتية الغرباء المنعمون الذين يجادلون شيخي محمد قفاطينهم الحريرية مهلهلة حول أكتافهم، وتنهدل على أجسادهم ليجروها خلفهم بخيلاء... هل هو لأبي العباس؟ لكن لا أجد فيه رائحته التي تشبه رائحة التيس الذي يعيش بين مصهور الحديد والحطب، وقبل أن تبدأ نفسي بالوسوسة حول ما سيكون المقابل لهذه الملابس، وقبل أن يحاصرني جن شماء الوائلية، هرعت إلى حمام السوق قبل أن يغلق.

منع عميد الجيوش الشيعة ذلك العام من النوح على الحسين في يوم عاشوراء، ومنع السنة بباب البصرة وباب الشعير من النوح على مصعب بن الزبير بعد ذلك بثمانية أيام، فامتنع الفريقان لكن الصدور ما برحت موغرة ومتأججة.

وبين الضباب والجدران التي تنز ماء وأسراراً، وصوت انسكاب الماء على الأجساد، تنزع الأردية وينزع معها الحذر والتكلف، وتفرغ القلوب حمولتها وغضبها، فأسمع من يقول: "كيف لا نبكي على سبط رسول الله... الحسين سيد شباب أهل الجنة، ألا لعنة الله على من آذى رسول الله في قرة عينيه، من النواصب... كيف يمنعوننا عن هذا".

كان الكلام يصل إلى أذني بعيداً كأنه قادم من بئر عميقة؛ غشاوة البخار الساخن وظلال الجدران ورائحة الرغوة المعطرة أصابتني بما يشبه الخدر. كنت قد نضوت عني ثيابي وتركتها في ردهة خارجية ووضعت مئزراً على وسطي. جلست على مصطبة تلتف حول نافورة ماء تعلوها قبة هائلة من زجاج معشق قبل أن يتقدم مني أحد عمال الحمام مفتول اليدين عظيم البطن أعجمي اللسان، فأشار إلي أن اتمدد بجوار نافورة الماء.

البخار يفكك عن جلدي ذاكرة التراب: ماء ساخن متدفق، وقطعة من الليف تقطر بالرغوة يدرجها فوق ظهري وأكتافي بقسوة فتنزع طبقات عن جلدي، الخدر وغشاوة الضباب طمأنت حذري، ها أنا عار دون عفاريت شما الوائلية، والليفة تنزع قشرتي، وما برح يصلني من بعيد صوت الغاضب الذي يريد أن ينوح، فيما يفك فتى الحمام ضفائري ويغمر شعري بالرغوة... أنا مزيد الحنفي النجدي أخرج من بين بخار

الحمام كما ولدتني أمّي بلا دنس وخطايا.

كان مغسل الحمام قد أسلمني إلى فتى آخر أخذ يرجل شعري ويسكب عليه من زيت النيلوفر، وبسواك مشذب، أخذ يغمسه بمسحوق الملح المدقوق والفحم، ينظف لثتي وأسناني، وقص أظفاري، وأزال الشعث في أصول أظفاري بغسلها بعود مغموس بخليط الخل ودهن الورد.

***

وعندما بزغ في الأفق قمير لعوب، باتت رائحة النهر خضراء مغوية، لم أكن بحاجة إلى أن أسأل كثيراً لأعرف موقع دارة أبي الحسن الهاشمي، فسورها الذي يشع بالحجر الوردي يراه عبر النهر معظم قاطني شرق الكرخ؛ كل الذي علي أن أقطع قنطرة النهر من الكرخ إلى الرصافة، لكنني تحرزاً سألت الحارس الذي كان منهمكاً في إشعال أضواء سور المدورة عن منزل الهاشمي؟ فأشار إلي دون تردد إلى السور الوردي، وتمتم: "الكل يعرفونه، بجوار أوقاف المستشفى العضدي في الرصافة".

***

فوق جسر الرصافة لم أنشغل بالبحث عن عيون المها جالبات الهوى، فقد كان قلبي يخفق بوجل تهيباً من المجلس الذي أنا ذاهب إليه: ماذا يدور هناك، ومن الوجوه التي ستشاركني ليلتي، هل سيجلسوني بأخريات الرجال، في صف النعال؟

وحينما اقتربت من السور الوردي، وجدت أن لونه لم يكن كذلك عن قرب، ولكنها لربّما انعكاس ضوء المساء على أحجاره الضخام، وارتجافة ضوء قناديل نحاسية مزججة عجيبة لم أشهد مثلها قط في بغداد.

بلعت ريقي وهمست للحارس عند الباب باسمي، فاستوقفني للحظات قبل أن يشير إلى غلام حضر مهرولاً وطلب مني بأدب ولطف أن أتبعه. كان يحمل في يده فانوساً ينوس بخجل، وصوت خرير السواقي تسقي المساء ليونتها وتجاري مرمر الدرب التي نسير فوقها.

حدائق شاسعة يتبختر في دروبها طواويس براقة مزهوة. اضطر مرافقي أن يتوقف عدة مرات ينتظرني عندما وقفت أتأملها مبهوتاً، هذا قبل أن نصل إلى بوابة خشبية عظيمة المفاصل مزخرفة بالنحاس ويحفها عمودان رخاميان عاليان بقامة خمسة رجال، ويلتف عليهما زخارف الكروم والعناقيد، في حين أن الردهة التي تنفتح عليها البوابة فرشت ببسط سمرقندية متراصة، وكانت مضاءة بمشاعل حائط منقوشة، تلك التي يسمونها في الكرخ الكرمانية.

كنت أتابع الفتى مبهوراً كطلي يتبع أمه، حتى وصل مسمعي صوت جهوري رخيم يقول: "لا نزكّي على الله أحداً أدام الله أيامك، وقصم أعداءك، لكن المعتزلة هم أهل العدل والتوحيد، ومنهم خلق كثير من العلماء والأدباء الذين اختاروا الصمت والتقية بدلاً من الزنازين التي تتربص بهم، ويقال أن رفيقنا، أبا حيان التوحيدي، أحد أئمتهم".

اضطربت أمعائي كأنني سأواجه جيشاً عندما باشرت المجلس.

كنت قد لمحت أبا الحسن الهاشمي لمحات خاطفة في زيارة أو زيارتين له إلى الخان، وحوله صحبه وحاشيته، وخشيت وأنا عند المدخل أن أضيع هيئته لاضطرابي ولاحتشاد المجلس بالرجال، لكنني ميزته فور دخولي، أما هو، فكان يرمق دخولي ويقول مسترسلاً: "آسف على التوحيدي وهو الشيخ الكبير بحر العلوم، قرر أن يترك بغداد ويذهب إلى شيراز، بعد أن ضيق عليه باللجج والمجادلة من على قلوبهم أقفالها".

كان يتابعني بنظره وأنا أخطو داخل مجلسه وفوق وجهه ابتسامة ترحيب، لا أدري هل أقصده وأسلم عليه، أم أجد لي مكاناً قصياً أجلس فيه إلى أن يتم حديثه. ولكن وقفت مبهوتاً في منتصف القاعة، وصوت النافورة كان يهدر في أذني، فما كان منه إلّا أن ناول كتاباً كان يحمله في يده إلى جليسه ووقف، وتقدم هاشاً نحوي وهو يقول: "مرحباً بمزيد الحنفي، مساكن الكتب، فاخر القلم"، وأضاف متلفتاً إلى من حوله: "ما من داخل إلّا وله حيرة، فابدؤوه بالسلام".

وأجلسني في موضع ليس بعيداً عنه ما أثار فضول الحضور عن هويتي، ولعل بزتي الباذخة (المستعارة) زادت هذا الفضول، وهو يردد: "يا مرحباً بك أيها الحنفي... يا مرحباً".

كنت متهدجاً مضطرباً؛ اندسست فوق إحدى الأرائك المتناثرة وأنا أتمنى أن تنقشع عني الأعين الفضولية وتعود إلى سماع ما يتلوه الهاشمي من كتابه.

مجلس مستدير نقشت جدرانه بالجص، وتلون سقفه بالتوريق والمذهب، وطوق برواق تحمله أعمدة رخامية ملونة أكاليلها، وتتوسطه نافورة تشع بماء له زرقة وقد نثرت فوق حوضها أوراق ورد، وتوزع أمام الحضور أوان نحاسية أرجلها على هيئة طيور متقابلة بقوائم مرتفعة عن الأرض بمقدار شبرين، وقد رصف فوقها خوخ وكمثرى وعنب، وجوارها طست زجاجي لرمي البذور.

وما لبثت قليلاً إلّا ودخل فوج من الفتيان عليهم ثياب ديبقية حمراء، وعلى رؤوسهم عمائم يجعلون في مقدمتها طرة من ريش الطيور، ويحملون الصواني في أيديهم وقد اصطفت عليها أكواب السكنجين، ونبيذ التمر، والجلاب، واللبن المخيض.

كان من بينهم الغلام الذي أحضر إلي الدعوة، فلمّا لمحني، ابتسم مطأطئاً بأدب ودماثة، ولم يلبث أن غاب وعاد بخطوات سريعة، وانحنى وبيده عقد من الفل طوّق عنقي به. عندئذ، تفطنت أن جميع الحضور تتدلى عقود الفل حول أعناقهم فيعبق المكان برائحتها.

وأخذت بطرف خفي أتملى حمزة الهاشمي وهو يتحدث: كان ربع القامة، لكنه يجلس فوق الأرائك والوسائد الحريرية مشرئباً بهيئة النبلاء، وتتبدى في وجهه وسامة لم أحدد مصدرها، ولكن قد تكون في جبينه الواسع، أو عند التقاء حاجبيه بأنف يشق وجهه كالسيف. كان قد نزع عمامته تبسطاً ووضعها جواره وانسدل على كتفيه شعر أسود لامع مرجل.

ومن اللحظة الأولى، فطنت أن الحديث يستدير ككرة الصولجان في مجلسه، فلا يجعل أحداً يستأثر بها، ولا يحرم أحد منها، الأمر الذي جعل أمعائي تضطرب من جديد، فحتماً سيخصني بالحديث.

وصدق حدسي حينما قال: "كيف أنت يا مزيد؟"، فأجبته بعد أن استويت في جلستي ورفعت عنقي وقلت بتلعثم: "بخير ونعمة، ولله الحمد".

فأردف: "كيف هم بنو الأخيضر، من سبط رسول الله، هل يقيمون العدل في اليمامة؟".

فقلت وقد داخلتني ريبة، فهو يعرف عني أكثر مما أظن، فأجبته: "ولنعم الحاكم والبطانة، اللهم صلِ على محمد وآل بيته الكرام الطيبين".

أومأ إلي برأسه مستطيباً كلامي وقال: "يا مزيد الحنفي، يقولون إنك تجالس الكتب في المكتبة ليل نهار، فأخبرنا مما همست به الكتب في أذنك".

فجأة سمعت صوتاً خشناً مصدره يبدو قريباً من الهاشمي يقول

متهكماً: "وماذا سيكون لدى أهل اليمامة؟ فليس هناك أكذب من مسيلمة الحنفي؟ أما سمعت شيخنا التوحيدي يقول في مخطوطه البصائر والذخائر إن رجلاً عاد من اليمامة فقيل له: ما أحسن ما رأيت فيها؟ فأجاب الرجل: خروجي منها".

ضجّ المجلس بالضحك. احتقن وجهي وتلعثمت، وعرفت أن هذا كثير على غض مثلي يدخل دار الندوة لأول مرة.

يبدو أن وجهي احتقن إلى درجة وجدت فيها الهاشمي يرتق الموضوع قائلاً: "فليسعد النطق إن لم تسعد الحال يا ابن الدارين، فالفتى قد يحمل في أعطافه علماً يبز مجونك ولكاعتك، ألم تسمع ما قاله الفضل بن يحيى عندما جعل الناس أربع مراتب: ملوك لهم استحقاق الطاعة والتبجيل، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي، وعلية قوم أنهضهم وأعزهم اليسار والجاه، وأواسط متأدبون يحاولون اللحاق بمن سبق... فأمّا البقية، فهم زبد جفاء وسيل غثاء، همُّ أحدهم طعمه ونومه".

ثم عاد والتفت إليّ قائلاً بإصرار: "ماذا ستضع على مائدتنا اليوم؟".

خمنت أن سرد أبي الحسن مراتب الناس قد جعلها محشورة في حديثه لألتقط أنفاسي وأضبط ارتباكي، وسرعان ما استجمعت شتات أفكاري وفكرت أن أنشد قصيدة علي بن الجهم فوق جسر الرصافة، ولكنها باتت مبتذلة يرددها القصاص، ويغنيها مغنو الحانات بصوت نشاز، حتى السوقة والعامة باتت تتداول على ألسنتهم، وأخذت أبحث عما يطوق المكان ويربط شيطانه الذي يتربص بي، فلا أريد أن أعرج بالحديث على كتب الهرطقة التي أغرس رأسي بها في المكتبة، لكن استقر بي الأمر على أن أنشد صوتاً كنّا نرفعه أنا وجدي من شعر صناجة اليمامة الأعشى.

تطلعت في السقف، فانفتحت فوق رأسي نافذة غرفة جدي وجلبت رائحة طلع النخيل ودبيب نجوم المساء، وثغاء القطعان وهي عائدة من المرعى، وصلصلة بوابة قلعة حصن بني الأخيضر... امتلأ صدري بجميع هؤلاء قبل أن أنشد:

ودّعْ هريرة إنْ الركبَ مرتحلُ
وهلْ تطيقُ وداعاً أيها الرّجلُ؟
غَرّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُها
تَمشِي الهُوَينا كما يَمشِي الوَجي الوَحِلُ
كَأنّ مِشْيَتَها مِنْ بَيْتِ جارَتِها
مرّ السّحابة، لا ريثٌ ولا عجلُ
تَسمَعُ للحَليِ وَسْوَاساً إذا انصَرَفَتْ
كما استَعَانَ برِيحٍ عِشرِقٌ زَجِلُ

ولأن العيون تسمرت علي مشدوهة، داريت ارتباكي بأن جعلت الوجوه حولي إلى القطعان العائدة من المرعي، عدا أبي الحسن الهاشمي، فقد منحته وجه جدي.

وأكملت المعلقة.

الصمت الذي هيمن على المجلس يشبه ذاك الذي كان يلجم جميع مخلوقات اليمامة حينما كنا ننشد، أنا وجدي، هذا الصوت... عندما كان النحل يتوقف عن بناء مساكنه في الشجر لينصت إلينا، وعدت أبحث عن بقية أبيات المعلقة في رأسي حتى تحشرجت وأحسست صدري سينفجر، لم أستطع أن أكمل. لم أكن أعلم أن الشوق ضبع كامن إذا أطلقت إساره، غرس أنيابه في ضلوعك. شعرت بخجل وإحراج شديدين

وخشيةٍ من أن يكسر غلالة الشجن بهجة المجلس.

هتف أبو الحسن لتدارك الموضوع: "لا فض فوك أيها الحنفي! لقد قلت والله فأطربت وأشجيت، رغم أن قلوبنا لا طاقة لها الليلة بلواعج الصحراء، لنفر عن مضارب القصائد، فإنها مصائد تدمي الفوائد".

لكن أبا الدارين عاد ليقول: "لقد غنى مزيد لشاعر قبيلته، إن للأعراب شوكة وعصبية لا يبرؤون منها".

صمت وأنا لا أدري لم يستهدفني، هل لأنني جديد وطارئ فيحاول أن يستظرف على ظهري؟ أو ربّما ما لمسه من كوني أتحاشى الرد عليه، فأخذ في الاستزادة في الاستظراف السمج. تأملته من موقعي بعد أن هدأت.

أبو الدارين كهل متشبب قد حنى لحيته وشاربيه، وأرخى عباءته الحريرية على كتفيه متحللاً متبسطاً. كان له عينان حادتان كجارح لا تفوته أي شاردة أو واردة في الإيوان، ولكن لا يغيب عن الجلاس، مع حرصه المسرف على نيل رضى أبي الحسن وموافقته في كل ما يقول، وهز الرأس إعجاباً بحديثه.

هو حتماً من ندماء البلاط الذين يتعاظمون على من هو دونهم، ويتصاغرون لمن هو فوقهم. هم عيون يتسقطون أخبار المجالس والندوات، فيهرولون إليها ليثنوا على كلام سيد المجلس، ويروون محفوظاتهم من الأشعار، وينقلون إلى السيد ما دار بين الأسواق والجوامع من أخبار، ويملؤون بطونهم، فينالون بعض الهبات ويغادرون.

حينما جلسنا على سماط الطعام كان موضعه قريباً مني، كنت خجلاً وأقرب صحن إلي هو الهريس فاكتفيت بمد يدي إليه، ففطن إلى هذا وقال: "لم لا تأكل إلّا الهريسة مع أنها طعام السوقة والسفلة".

كنت أعلم أن هذا القرد قد اختارني ليجعلني أضحوكة الجلاس. لربّما لجدتي على مجلسهم، ولصغر سني وانكماشي، لولا أن رجلاً كان يجاوره قال له وقد فطن إلى مراده: "وماذا في قدركم كل يوم يا أبا الدارين إلّا هريس وعظام".

لم يبالِ أبو الدارين بما يقال له، فوجوده قرب المائدة أدخله في مزاج من البهجة والسرور الغامرين، فأخذ يقلد طوائف الناس، وجعلهم يلتفون حول الطعام: حولنا أعرابي، نجدي، أو نبطي وسندي وزنجي وتركي، وجميعهم جعلهم في حالة نهم تبرر له اللقم الكبار المتتابعة التي كان يدسها في فمه، والطعام يتناثر من فمه. وكلما ارتفعت قهقهة الحضور، زاد شراهة وسماجة، فلا يقوم أحدهم قبله وقبل أن تمتلئ جهات وزوايا بطنه المتورمة.

حين انتهينا من الطعام، كان فتية قد أتوا بالطسوت وكل منهم يحمل إبريقين، ففركت يدي الأولي بالماء ومعجون له شذى زهر البرتقال قبل أن يزيل الغلام بقاياه بإبريق ماء الورد الذي يحمله في يسراه، وجففنا أيدينا بمناديل الديبقية.

الزاهرة

عدنا إلى المجلس فوجدت أحد الجلاس يقول: "لن أنسى ما حييت وفاة من كان نور هذا المجلس وزهرة جلاسه، حديثه كان تلقيحاً للعقول، وترويحاً للقلب، وتسريحاً للهم... بديع الزمان الهمذاني، برد الله مضجعه... لم يمهله أجله واختُطف منا".

فقفز أبو الدارين يلتقط خيوط الحكاية قائلاً: "هل هو حقيقة ما ترويه

الناس ويتناقله العامة أن بديع الزمان الهمذاني أخذته إغماءة فظنوه أهله قد مات؟ فدفن سريعاً، ثم عاش في قبره وسمعوا صراخه فنبشوا عنه فإذا هو قد مات حقاً، وهو آخذ على لحيته من هول القبر؟".

قاطعه الهاشمي بإشارة من يده قائلاً: "لم يكف أبو الدارين إلّا بعد أن حفر قبراً في مجلسنا"، ثم أردف: "لا تصيّروا مجلسنا هذا شعراً كلّه ولا حديثاً كلّه ولا غناء كلّه، فإن العيش فرص، ولكن غنّوا، وتحدّثوا، وتناشدوا، وتعالوا نتناهب العيش تناهباً".

والتفت إلى يمناه مشيراً بيده، فرفعت ستائر ديباج كانت تنسدل على الرواق الجنوبي للمجلس، فخرج علينا خلفها صف جوار عجيبات الحسن كأنهن بنات المطر، رداؤهن أحمر مزرق مقصب الأطراف، لهن ملامح السنديات المنمنة النضرة. انحنين أمامنا بتحية لطيفة، ثم جلسن نصف دائرة بين وسائد وأرائك أعدت لهن. العوادة والزامرة جلسن في الأمام، واصطف خلفهن من تحمل الطنبور والصناجة والدفافة.

مكثن مدة وهن يحتضن آلاتهن ويعبثن بأوتارها ويطرقن فوقها بأصابع رقيقة، وعيونهن شاخصة نحو أبي الحسن الهاشمي ينتظرن إشارة البدء...

فقال لهن: "لنسمع: أكرر طرفي... لنحيّي بها ضيفنا الجديد مزيد الحنفي النجدي". وجمت وخجلت، لم أكن أود أن يحفني بهذا الترحيب، فهو قد يوغر صدر جلاسه، ويجلب إلي المزيد من العيون التي أنا في غنى عنها. ولم تفت أبا الدارين هذه الفرصة للنيل مني، فقد قال: "على رويدكن، الحنفي ارفقن به، حتى لا يكون شأنه مثل بشار بن برد الذي حينما طرب وسكر، هرطق"، وقال: "هذا والله يا أبا عبد الله أحسن من سورة الحشر".

ثم أردف قائلاً: "هذا الإكرام يستحق قبلة على يد الهاشمي، فانهض

يا فتى لتقبلها". وجمت، فلم يسبق أن قبلت يد سوى جدي، فتحركت من مكاني وهرولت إلى الهاشمي الذي حاول تداركي بإشارة من يده أن اجلس، لكنني كنت قد وصلت إليه وقبلت مفرقه. عندئذ، انطلقت بنات المطر يصدحن:

أكرر طرفي نحو نجد وإنني إليه وإن لم يدرك الطرف، أنظرُ
حنيناً إلى أرض كأن ترابها إذا مُطرت عود ومسك وعنبر

ثم صمتن فيبدو أنهن لا يحفظن سوى هذين البيتين عن نجد. وعاد المجلس يتلهى بحكاية سامجة يسردها أبو الدارين حول قاض اسمه ابن سيار، كان له جبة مهولة ولحية طويلة، فقدمت إليه امرأتان ادعت إحداهما على الأخرى، فقال للأخرى: "ما تقولين في دعواها؟"، فقالت: "إنني فزعة لا أستطيع الجواب، من لحية طولها ذراع، ووجه طوله ذراع، أخذتني هيبتها ولجم علي".

ولا أدري طرفته أهي للاستظراف أم لتثبيت الأعين عليه فلا تغادره؟ وهل يجب علي أن أضحك لسماجته؟ ولكن شاركت المجلس ضحكاته الصاخبة ببعض الهمهمات.

فجأة سكن المجلس عندما بدأت العازفات ينشدن قصيدة النواسي:

ألا يا قمر الدار ويا مسكة العطار
ويا نفحة نسرين ويا وردة أشجار
ويا كعبين من عاج ويا طنبور شطار
ويا عرش سليمان إذا همّ بأسفار
وكعبة بيت اللـ ـه ذا ركن وأستار
لقد أصبحت من حبـ ـك بين الخلد والنار

صفق الحضور وتمايلوا طرباً بعد سماع الأبيات.

سمعت همهمات بعدها في المجلس والرؤوس تشرئب وتتلفت: أين الزاهرة، هذه الأبيات تعلن حضورها وتسبقه دائماً؟

ولا أدري من أين بزغت الزاهرة، فقد لمحتها فجأة تخطو بضع خطوات متمايلة إلى جانب النافورة، فوجمت بعد أن روّعني أن يكون هذا المقدار من الفتنة كامناً في أحد أركان المجلس ولم ألمحه.

كنا في اليمامة نتغنى بجمال الوائليات وضفائرهن الطويلة، لكن ماذا عن شعر هذه المهرة الذي يلوح حولها كستائر الليل؟ بدأت تتمايل واستلت خنجرين من فضة كانا على حزامها وباتت تلوح بهما، فأخذا يبرقان فوق جيدها ووجهها.

في حسن النساء هناك حسن مغوٍ، وحسن مؤنس، وحسن منمنم كحسن العازفات، لكن حسن الزاهرة كان موجعاً؛ كيف يسكب القمر ضوءه فوق النهر، وكيف يتغشى الزبد العسل؟

لم يرتد طرفي عنها كأنها نساء الجنة اللواتي لا يحضن ولا يتمخطن. جمال غير قادر على الاعتدال، هل يتلون الهواء حين يمر بوجهها وشعرها؟

تهز نهديها فتتساكب شلالات شعرها على وجهها، تكشف بطنها وتضع حول كشحيها نطاقاً مشغولاً بالقصب، وسروالها من الحرير الشفيف الذي يعكس التفاف فخذيها ورونق ساقيها، وتغرس فوق سرتها درة تجتمع فوقها العيون التي تتآكلها في المجلس.

كنت منتشياً، وطوال الوقت أسرب نظري متأملاً أبا الحسن، فظل محافظاً على سمته ووقاره لم يتغيرا، ولم يرف له جفن، والكؤوس تتالى بين يديه، لا أعلم ما داخلها لكنه لم يرتكب أياً من خوارم المروءة أو

العربدة أو المجون. كان يتأملها باستحسان خالٍ من الشهوة، وعندما انفض السهار، وقف يودع ضيوفه متماسكاً، كانت عيناه ذابلتين قليلاً فقط؛ لا أدري بتأثير الأكواب أم أنه نعس؟

النشوة وهواء النهر المشبع برائحة القصب وحديث النجوم... هل مثلها من أغوت هاروت وماروت، وقبِلا بعد أن كانا ملكين في ملكوت السماء أن يصبحا ملعونين في قاع بئر؟

لمحت الزاهرة وهي تغادر، ركبت محملاً مغطى بطبقتين من الستائر اللامعة تنهدل أمواجاً على جسد الدابة، وعند بوابة القصر كان كهل غاضب يرافقها، وغلامان من الأحباش يحملان صرر العازفات وآلاتهن فوق البغال، فيما يخب إلى جوارها الكهل الغاضب على بغلة نشطة وهو يوبخ العازفات حول أمور غامضة. كان محتداً يقول كلاماً أعجمياً مستشيطاً، لا أدري هل هو صاحبها أم أبوها؟ ولكن لم تكن تحمل له مهابة أو تبجيلاً، وتسير دون أن تلتفت إليه. وكانت عندما ترقص، تميل ردفيها بغواية وغنج لا تتكسر به الفتيات بحضرة أب.

لو تهيأ لي لحظتها أن أزرع دروب قصر أبي الحسن بنخيل اليمامة شكراً وامتناناً، ما تقاعست عن هذا. التقطت كفيه وانحنيت ممتناً، وفجأة قبض على يدي، وقربني منه وهمس: غداً مر بي بعد صلاة المغرب، أريدك في أمر...

كلماته المهموسة رغم لطفها وطيباتها، صفعت نشوتي وبعثرتني، ماذا يريد مني الهاشمي؟

أصابني القلق، هل ارتكبت خطأً في حسابات حوانيت الخان، أم هل يريد أن يصطفيني كاتباً عنده؟

ولكنه لا يمكث في بغداد إلّا لِماماً، فقط ما بين دخول الشتاء وموسم تأبير النخل، ثم يغادر.

***

في صباح اليوم التالي، استيقظت باكراً. ورغم هذا أديت صلاة الفجر في غرفتي وتريثت فيها قليلاً أستعيد فصول البارحة، وزاهرة هاروت وماروت، نتشارك، أنا وإياها، هواء مدينة بغداد، تعرض بضاعتها، كل ما لديها من جلال وجمال، عاصمة الدنيا، وتريد أن تستوقفني لأمكث بها.

أخبرت حسن بعض ما صادفني هناك لأسكت فضوله وأسئلته فقط، وأبقيت جزءاً كبيراً مما حدث داخلي تستغرقني نشوته، فالكثير من بهجة دواخلنا تبهت إذا باشرها الهواء وأنفاس الناس. وعندما أشرت إلى رقصة الزاهرة ازداد اتساع عينيه فقال: هل كانت الزاهرة هناك؟

أزعجني أن تكون معروفة للجميعِ، فقد كنت أظن أنني أستأثر بها في أعماقي، ولكن حسن استرسل قائلاً: "بغداد مفتونة بالزاهرة، وبعضهم ينعتونها المزهرة... وأنت منغمر بين الكتب وحلقات الجامع ولا تعلم عن شيئاً؟"، ثم استرسل قائلاً بنوع من الشجن: "في الصحراء عندما تمر قافلة بجانب مزرعة نخيل ويغني سعف النخل، يعرف الناس أن في القافلة عروساً، والآن سعف النخيل في بغداد إذا غنى، عرفوا أنه مر بجواره محمل المزهرة الزاهرة".

أوجعتني هذه الخيبة، فليس وحدي من اختطفت لبّه، فأحلام أهل بغداد تتخطفها... لكن حسن أردف: "لا يعلمون من هو سيدها، فقد قدمت من الشرق ومن معها... يقولون إنها فارسية، بعضهم يقولون إنها من السند، ويقولون أيضاً إنها كانت جارية لدى أحد أمراء بني بويه، فلمّا

شغفته حباً، وأزعجته فتنة بها، وعكوفه على مخدعها، وملازمته إياها، وانقطاعه عن أهله ورفاقه بين يديها، طلب من أحد رجاله أن يأخذها إلى البحر ويغرقها، فأشفق عليها هذا الرجل بعد أن عشقها، وفر بها إلى بغداد، ويقال أنه الكهل الذي تراه برفقتها دائماً".

هل صدق حسن أم هي إحدى حكاياته التي يزهو بها عليّ ليخبرني أنه عليم، وأنني غر ساذج؟

ثم استرسل: "هل تذكر يوم عيد الأشموني، يوم أكلنا السمك؟ هي الجارية التي كانت تغني تحت السرادق الكبير، ولكن ضُرب عليها حجاب حتى لا يفتن الناس بها. على كل حال، من رآها يقول إنها من بنات الحور اللواتي لا يعمرن طويلاً ويرحلن في ريعان الصبا".

همهمت بفضول: "حقاً!"، لكن في أعماقي حدس شرير قد فرح، لأن الزاهرة ستموت ولن تعمر، فلا أود أن أترك بغداد وهناك شيء مثل تلك الحورية خلفته ورائي، ولم أعلم لحظتها أن شغفي العارم بها دس يده في كتاب الأقدار وخط سطراً.

ثم أردف حسن: "حماها الله فهي رفضت أن تندرج في حريم الخليفة بحجة أنها زوجة هذا الشيخ الذي يماشيها، وترفض أن تكون في بيت للقيان يسمعها محبوها وروادها فقط، وبعضهم قد يأتون إلى بغداد ليمتعوا النظر بها فقط، لكنها متوارية. لذا، زادت فتنتهم بها، فعميد الجيوش في بغداد تخاذل عن حمايتها، بعد أن رفضت أن تذهب لتبيت عنده".

"يقال أنه حتى قهرمانة القصر، وهي سحاقية تحب النساء قد فتنت بها، وقد أرسلت إليها دمية من شمع، وهي عادة لدى الفرس يسمونها العروسة تكون موضوعة على قاعدة مزخرفة، فإذا أجابت بالقبول، فتلبس

المحبوبة الدمية المرسلة عقداً، وتكافئ الوسيطة التي جلبت الدمية بثوب شادور، لكن إن رفضتها، تعاد الدمية بحجاب أسود على رأسها، ولكن الزاهرة التزمت الصمت، وواربت الباب ولم تغلقه".

"فالمتربصون بها كثر، وراجلة الحنابلة لا يكاد عميد الجيوش يغادر إلى الري أو الموصل لبعض شأنه، حتى ينطلقوا في الأسواق يحطمون المعازف، ويريقون جرار النبيذ ويضربون القيان والغلمان ويؤذونهم، ومن جهة أخرى جماعات العيارين استفحل أمرها في الأوان الأخير، وأصبح أفرادها لا يتورعون عن السرقة في واضحة النهار، وهي بسبب هذا تظل نائية متوارية".

غادرني حسن وأنا أعابثه: "ماذا عنك؟ وكيف تتدبر أمورك مع راجلة الحنابلة والعيارين، إذا عدت في منتصف الليل، وإذا صادفوك مترنحاً برائحة نبيذ وعطور غواني إسحاق الواسطي؟".

ما زلت في غرفتي لا أرغب في النزول. كانت هناك ثلاث رمانات قد اصطففن من جديد على نافذتي، وصوت أزيز حول النافذة لمخلوق صغير لا أعرف هل هو طير أو بعوض، لكنه أخضر الجناحين يتحرك بصورة خاطفة ويحوم حول النافذة إذا ارتفعت الشمس. انطويت في فراشي كجنين متدثر بثيابي، لا أود أن أتحرك خارج نشوتي، وأنا أعلم أن وجه جمرة الذي يشبه طمي النهر الناشف سيطرق بابي الآن طالبة تنظيف الغرفة.

ماذا سيحدثني الهاشمي الليلة؟ قمت بتثاقل وتوضأت وصليت، وأعدت ترتيب حلتي التي كانت علي، فوضعتها في اللفافة، وأخذت طريقي إلى دكان أبي العباس.

***

قبل أن أصل إلى نهاية الدرج، سمعت لغطة وجلبة في الشارع: وقع أقدام تهرول، وأصوات تهلل وتكبر، وسمعت من بالحوانيت يتهامسون: إنه موكب الخليفة القادر بالله حماه الله وأدام عزه.

موكب ضخم قادم من الرصافة معتلياً القناطر، مخترقاً الحوانيت، قاصداً بوابة المدينة المدورة. وقفت ذاهلاً أرقب الذي لم أر بمثل جلاله وهيبته طوال مدة مكوثي في بغداد.

كان يتقدم الموكب ستة من الفرسان على خيول مطهمة، وسروج قد حبكت بجلد ملون لامع، يحملون دروعاً من الفضة، وعمائمهم من الدمقس الأسود، ورشقوا فوقها ريشة بيضاء كبيرة يبدو أنها لذكر نعام. ثلاثة يتتابعون على اليمين وثلاثة على يسار الموكب، وصفان من الراجلة يتقدمهم أصحاب الأعلام السوداء كتب عليها بالأبيض: محمد رسول الله، شعار بني العباس، والبوقيون ينفخون بشدة حتى تكاد أن تتقطع أشداقهم، وثلاثة صفوف خلفية تتقهقر عنه، تسمع قعقعة أسلحتهم ودروعهم رغم الضوضاء. اصطف أصحاب الحوانيت أمام دكاكينهم للتهليل والتكبير وتحية الخليفة: "حفظ الله القادر بالله خليفة رسول الله".

كان الخليفة يمتطي فرساً سوداء هائلة الصدر والقوائم يبدو أنها من خيل الروم، ويجري إلى جواره جندي يحمل شمسية سوداء موشاة بخيوط من الذهب.

لم أتبين وجهه وسط الحشود ووهج النهار إلا لمحة خاطفة تبدى لي فيها البردة النبوية على كتفيه، فيما يبرق تحت ضوء الشمس الخاتم والقضيب في يمناه، ولحية مخضبة كثة، وأنف حاد، فلمّا اقترب من بوابة المدينة المدورة، صاح المنادي أمام الموكب:

مولاي صاحب العصمة، خادم الخدمة الشريفة، خليفة رسول الله، وإمام المؤمنين القادر بالله، أقض مضجعه ما يصله من أخبار الفتن، وتفشي الشقاق والنفاق في رعيته، وتغلغل لغو الكلام بالمساجد والأسواق. لذا، هو يأمر الجميع الاستمساك بالعروة الوثقى، والالتزام بالدين القويم كما جاء عن سيد الأنام نبي الله عليه أفضل الصلاة والتسليم، ويدعوهم أن يتبرؤوا من الاعتـزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام، وأنه سيعد وثيقة في هذا، وسينشرها على رؤوس الأشهاد قريباً، وسيأخذ خطوط أصحاب الجدل على هذا، ومن يخالف، سيحل به النكال والعقوبة إلى أن يتعظ به أمثاله من المعتـزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة، وسيصلبون، ويحبسون، وينفون، ويلعنون على المنابر، ومن رضي، فله الرضا، ومن سخط، فليس له إلّا السخط.

ثم ما لبث الموكب أن التف وعاد يأخذ طريقه باتجاه المدينة المدورة من جديد.

انفجر أهل الحوانيت والمارة بصوت واحد هادر: "سمعاً وطاعة، حفظ الله الخليفة، أمدّ الله في عمر خليفة رسول الله...".

ورغم أنني كنت في ذلك الوقت مأخوذاً بجلال وهيبة المشهد، فإنه أغاظني مكر وخداع أصحاب الحوانيت، فهم الذين كانوا يقضون نهارهم في التذمر والشكوى من ارتفاع الأسعار، وندرة السلع، وجور الحاكم المحكوم، في حين أن الحل والعقد في يد عميد الجيش البويهي.

وما كاد الموكب يدخل المدينة المدورة وتقفل دونه أبوابها، حتى

عادوا يتهامسون بسخرية عن سر ظهوره بين الناس، فهو من النادر أن يظهر في موكبه، ولكنه في العادة يمشي متخفياً بملابس العوام؛ لا بد أن الخطب جلل، وأن هناك جمراً تحت الرماد.

وعادوا يرددون همساً: "المحكوم، حتى وعاظ السلاطين لا يرضخون له، فقد لقب ولي عهده بالغالب بالله، فرفض الفقيه الصابي هذه التسمية وقال: لا غالب إلّا الله، فانصاع للفقيه".

***

كان هناك رجلان قميئان من بني خثعم يمتلكان حظيرة لاكتراء الحمير عند باب الكرخ، عُرفا بسلاطة اللسان والتخابث، فإذا مر بهم أحد الشيعة لاكتراء حمار، تشاركا في رواية فضائل الإمام علي، فيجزل لهما العطاء، أما إذا مر بهما الناصبي، تعاونا على سرد فضائل أبي بكر، فلا تفوتهما دراهم الشيعي أو الناصبي، وأطلق عليهما أهل الحوانيت: ناكر ونكير، وأحياناً يسمونهما ناهق ونهيق.

رغم هذا، هما اللذان كان يقدحا زناد الفتنة في الكرخ، ويقال أنهما عيْنا الخليفة القادر على شعبه، وكانا الأرفع صوتاً وهما يزأران: حفظ الله الخليفة، وظلا يهرولان خلف الموكب حتى أغلقت الأبواب خلفه، فعادا بأوداج منتفخة يقولان بصوت يشبه القعقعة: هناك نسخة تتضمن الفرق والمذاهب التي أُلجمت ألسنتها معلقة على بواباتنا لمن أراد مطالعتها، ومن أراد نسخها، فليحضر هو وناسخه، ولا أدري هل كانا يضمران السخرية عندما يعلقان أسماء الفرق على بوابة مربط الحمير، أم هما جادان؟

***

حين وقفت ببوابة الحداد كان يغور عميقاً في ظلمة دكانه، ولم يتقدم لمشاهدة مرور الموكب، ولم يبد اكتراثاً للجلبة التي أحداثها مروره. على سحنته استخفاف مضمر. أبدى بشاشة لمروري بدكانه تفوق تلك التي أبدها لمرور موكب الخليفة. سألته مماحكاً: "هل رأيت موكب الخليفة؟".

فتغضن وجهه قائلاً: "على رسلك أيها الحنفي، فالوثيقة القادرية قادمة، الأفواه ألجمت، والرؤوس ستطير والسجون ستملأ، وعلى رسلك، فقد يكون عنقك هو القادم، إذا عرف أنك قد افتتنت بكتب المهرطقة".

دنا برأسه من أذني هامساً: "القادر بالله نفسه تم اختياره بمعرفة آل بويه، وقد كان هارباً في زمن الخليفة الطائع، فأتي به إلى بغداد واستقبل استقبالاً طيباً من بهاء الدولة، ونصبه خليفة، لكنه الآن طغى".

لم أشأ أن استرسل بالحديث، فسوق الكرخ يبدو محتقناً، وبعد مشاجرات المسجد، الجميع يبدون في حالة ترقب وإنصات.

قدمت إليه البزة التي أرسلها إلي البارح وأنا أشكره، وورجاني أن أحتفظ بها ذكرى، وألح ورفض أن يمد يده ليستلمها، فوضعتها فوق كومة حطب في جانب دكانه، وقلت له: "هذه البزة أحس بالوحشة داخلها، أفقد مزيد النجدي، أريد أن أظل طالب العلم الرقيق الحال، الذي يقلب وجهه في السماء والأرض بحثاً عن الأجوبة".

أجابني وعلى وجهه ضحكة متخابثة: "هل دار الندوة مررت لك بعض الأجوبة؟".

تطلعت في قلب عينيه إلى درجة أنني رأيت العروق الحمراء في بياضهما، وأجبته بمراوغة: "المجالس أمانات أيها الفارسي".

صفق يديه الضخمتين الملطختين بالفحم بعضهما ببعض وقال: "ولدت ونشأت في بغداد، أبي قدم مع جيش علي بن خسرو الذي لقب نفسه عضد الدولة البويهي، عندما استقر في بغداد، وأصبحت عاصمة الخلافة عاصمة لبني بويه أيضاً. وخُطب لعلي خسرو على منابرها إلى جانب الخليفة العباسي، ومن ذلك الوقت وعائلتي هنا، ورغم كل هذا ما برحتم تلقبونني بالأعجمي".

شعرت أنه سيبدأ إخراج ما في قفته من ثرثرة، فانسحبت بهدوء؛ ذهني مشتت وخاطري مشغول بما سيكون من أمر أبي حسن الهاشمي الليلة بعد المغرب في دارته.

رمان الرصافة

حل المساء، ولمحتني جمرة وقد تهيأت للخروج إلى أبي الحسن، فسألتني بلكاعة: "إلى أين يقصد الأعرابي الوضيئ؟". تمتمت بتحفظ: "إلى الرصافة...".

قالت: "أهل بغداد يقولون أطيب الرمان رمان الرصافة، فهل ستقطف رماناً في الرصافة؟"، تمتمت في عقلي: "ما بال هذه المرأة لا تهجس إلّا بالرمان، وشياطينها الذين يصفون الرمان على نافذتي كل ليلة"، ثم قالت بضحكة فاجرة: "أي نوع من الرمان تقصد هل هو رمان الصدور أم...؟". طأطأت وتجاوزتها خارجاً وأنا أهمس لها بصوت خافت: "جمرة حتماً نشأت في بيوت العاهرات".

***

رفعت مآذن الكرخ أذان المغرب، وكان في السماء أسراب طيور صاخبة تحوم حول النهر: مناقير نحيلة وأرجل طويلة، هل هي غرانيق النهر؟ أصواتها ليست سجع الحمام ولا ترجيع اليمام، بل شيء يشبه توجع الأنين.

في الأمسيات، على الضفاف وفوق جسر الرصافة، كنت عادة أسمع نقيق الضفادع، ولكن في ذلك المساء كانت أصوات طيور تطوق المكان، فأجبتها مبهوتاً: "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أيها الطير؛ هل تهزجون فرحاً بالدرب الذي أنا سالكها، أو تتفجعون رثاء؟".

أشرفت على قصر الهاشمي، وكما في المرة السابقة، شرعت في التحقق من لون السور: هل يبدو وردياً كما يبدو من الضفة المقابلة؟

رفعت زرابي البارحة عن الممرات. أتبع الغلام الذي انعطف بي نحو بوابة تخالف التي عبرناها البارحةم

بوابة خلفية أدخلتنا ردهة، ثم في يمينها باب خشبي لحجيرة صغيرة بنوافذ عالية، احتشدت بأرفف الكتب والمخطوطات، وحف أسفلها بأرائك الديباح، وجلس في صدرها أبو الحسن الهاشمي، لم تغادره هيبته وعنفوانه.

خفق قلبي بعنف: هل هذه مكتبته التي أخبرني عنها حسن المصري؟ تعبق الغرفة برائحة صندل هندي تبدو كصومعة عابد جليل. رغم صغر حجمها، أثاثها فاخر، وفيها زرابي ديباج فارسية نسج فوقها مشاهد نهر احتشدت فوقه المراكب والأشرعة.

وقف أبو الحسن لاستقبالي، فهرولت نحوه إجلالاً حتى لا يتعنّى للقدوم نحوي كالعادة. يرتدي ثوباً حريرياً أبيض ينهض جسده داخله بهيبة ووقار. لا أدري لم شعرت أنه أقل احتفاء بي من البارحة، وظهرت

تقطيبة طفيفة على جبينه يداريها عبثاً ببسمة متكلفة تنبئ عن كدر في خاطره.

صافحته بكلتا يدي مع انحناءة طفيفة، وقلت له: "حرصي على ألا أتأخر عن موعدك حجبني عن أداء فرضي الذي أحببت أداءه معك"، فأشار بلا اكتراث إلى جانب من مجلسه وقال لي: "بإمكانك أن تصلي هنا، وجعلنا لكم الأرض مسجداً وطهوراً..."، ثم أردف: "أنا صليت"، وتريث برهة ليقول وهو يرمقني: "أنا صليت هنا"، وأشار إلى صدره، "ناجيت ربي داخل أضلعي"، لم أستفسر أو أستفهم، بعد أن علمتني حلقات جوامع بغداد أن الصمت غنيمة.

حين سلمت من صلاتي، دنوت منه، فطلب مني الجلوس على يمينه وهو يحمل كتاباً بين يديه وقال: "البارحة خمر واليوم أمر...".

فدار الندوة تعقد مع كل هلال، لا أعقدها للشعر والبهجة وإدارة الكؤوس، لكنه لا بد منها للحفاظ على صولجان الجاه، فلا بد أن تبذل جاهك لمتلهف، وفرج لمكروب، وبر لضعيف، وعطاء لسائل، ومنحة لشاعر، وخلعة لأديب، ومأوى لضيف، وإلا سيستلب منك المجد والجاه.

دخل في ذلك الوقت غلام ووضع كوبين من عصير الرمان على خوان صغير، فتذكرت جمرة الشيطانة ورمانها، قبل أن يسترسل الهاشمي قائلاً: "هاكم اقرؤوا كتابيه"، ثم صمت قليلاً وقال وابتسامته المتعبة ما برحت فوق وجهه: "لكل مغرم بالكتب ثلاثة كتب، الكتاب المغوي الذي يستدرجه إلى فتنة السطور، والثاني الكتاب المنعطف الذي ينقله من مقام إلى مقام في حياته الدنيا، والكتاب الأخير هو الكتاب الذي تؤلفه أو تنقله، كرد معروف لأصحاب الحروف".

تأملته وأحسست أن هذا مدخل... لما بعده، لكنه صمت وتأملني قائلاً: "هل وجدت كتابك أنت؟".

أربكتني طريقته الغامضة: إلى ماذا يريد أن يصل؟ لكنني أجبته بسرعة فأردت أن أبدو نجيباً فطناً أمامه أستحق جميع الامتيازات: "كتابي المغوي هو سيرة ابن هشام وطبقات الشعراء للجمحي، قرأتهما في اليمامة، والكتاب المنعطف، هي مجموعة الكتب العظيمة التي صادفتها في مكتبتكم في الخان... كتب الكندي، وترجمات بيت الحكمة لحكماء الإغريق...".

قاطعني: "يقال أنك تسكب ضوء عينك بالساعات الطوال بين الكتب؟".

ارتبكت، فهل كانوا يتجسسون علي؟ القراءة فعل حميم وخاص، لا أود أحداً أن يرتفع بيني وبينه؛ أنطوي داخل الكتاب كأنني في حضن أمي... ماذا يريد هؤلاء؟

قال وما برحت النبرة المستفسرة في صوته: "والكتاب الأخير؟".

وجمت وقلت: "لم أكتبه أو أنقله بعد...".

فأجاب: "قريباً ستفعل".

حمل بين يديه كتاباً، لاحظت أن جلد غلافه يتطابق مع الجلود التي تغلف كتب مكتبة الخان، فأخذ يقلب صفحاته بأصابعه الطويلة النحيلة، اسمه **المغني**، ثم قال: "هل اطلعت على هذا الكتاب للقاضي عبد الجبار؟".

هززت رأسي نافياً، فأجاب: "لا بد أن تطالعه وتتملى أفكاره وسطوره، يوجد منه نسخة في مكتبة الخان"، ثم أردف: "الناس لم تعد تُجل الكتب وتسعى إليها، بل باتوا يتربصون ببعضهم بعضاً ويتقاذفون

تهم الاعتزال والزندقة، والحراب والنصال التي يتنابز بها شيعة آل البيت مع الحنابلة تكاد تصيب الجميع".

مكتبة الخان جمعت فيها أفضل الكتب، وأثمن المخطوطات، وصففت فيها مترجمات عريقة، بعضها يعود إلى بيت الحكمة، وآخر ما أودعت فيها مجموعة من الكتب الثمينة التي كانت في مكتبة الصاحب بن عباد في مدينة الري، والتي قد بدأت تصل بغداد وتوزع خلسة. أيضاً هناك مؤلفات لطبيب شاب سطع نجمه في بلاط السلطان الساماني في بخارى يدعى ابن سينا.

ثم صمت لوهلة وقال كأنه يئن: "جميع هذه الثروة يكاد يصلها شرر الفتن...".

فقلت مؤيداً كلامه: "إنها والله الفتنة، حتى أن الخليفة - حفظه الله - طاف بالأسواق اليوم يطلب من الجميع مفارقة الفتنة، والبعد عن اللغو والجدل".

عندئذ، قدح بريق السخرية في عينيه العميقتين، وقال: "وهل سوى هذا الخلاف ما يريد الخليفة؟"، وأطرق وهو يقول: "وهو الذي أشرع باب الفتنة التي تتلاطم كموج البحر، فالفتنة هي التي تبقيه متصنماً بين رمانتي الميزان يقرب هذا ويقصي ذاك، يعلي شأن آل البيت حيناً حتى إذا نبتت القوادم والخوافي من أجنحتهم قصقصها، والتفت إلى حنابلة البربهاري وأطلق يد راجلتهم في الأسواق بوعظهم المنفر وسلوكهم الشرس، ففتنة السوق تبقى في السوق بعيدة عن عرشه، ولا يعلم أن كل الحوادث مبدؤها النظر... ومعظم النار من مستصغر الشرر".

صمت قليلاً يتأمل وقع كلماته علي، ويبدو أنه قد رأى في وجهي ما جعله يقول مهدئاً روعي: "متى انتظمت الفلسفة اليونانية، والشريعة

العربية، فقد حصل الكمال".

قلت له بصيغة المستفهم حتى لا أبدو متعالماً: "لكن يا سيدي الفلسفة اليونانية حكمة بشرية زائلة، فكيف نقارنها بالحكمة الإلهية النازلة؟".

قال لي بصوت متبرم: "وهذا ما يؤكد لي أن الدين للعامة، في حين أن الفلسفة للخاصة". ثم توقف قليلاً قبل أن يقول: "زارنا قادماً من المعرة شاعر فاقد البصر لكنه مستنير البصيرة، يدعى أبو العلاء، فلمّا رأى قوماً في بغداد ينتظرون عودة الحلاج، ويقفون في النهر أمام المكان الذي صلب فيه، وقوماً آخرين يلطمون على الحسين وينتظرون عودة الغائب قال:

إنما هذه المذاهب أسبا ... ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو ... ن لدمع الشماء والخنساء".

والله قد صدق أبو بصير الضرير.

حديثه وتبسطه أصاباني برعدة، لم يخصني به؟

استرسل: "ولعل القادم أدهى وأشد مرارة، فلم تعد بغداد دار مقام، سمعت أنك تسعى إلى مغادرتها، وإنني والله أيضاً أزمع الرحيل، فالأيدي تلوح بمشاعل الفتنة التي لا بد أن يصل شرر منها إلى مكتبة الخان، فأي تهمة بزندقة أحد الكتب داخلها من شأنها أن تحرق المكتبة بكل ما فيها حتى تترمد".

"لا بد أن أسربها رويداً رويداً، وأنشرها بين الأمصار الآمنة، فالدروب بين الأمصار تجمرت".

عندذاك، دخل الغلامان مرة أخرى وفي يديهما كومة أخرى من الكتب وضعوها أمامه، فربت عليها بيده كأنه يربت على جبين فرس أصيلة، وقال: "تمضي ردحاً طويلاً من الزمن تقلب في كتب الفلاسفة،

وتستعير أخرى من دكان أبي العباس الحداد".

وجمت وقتها، هل يعرف الحداد؟ هل هو عين علي ورشحني؟ هل هو الذي مرّر إلي البزة الحريرية؟... دارت كل هذه الأسئلة في رأسي وأنا أرجو ألا تنعكس آثارها على ملامحي، لم أستوقفه لأستفسر عن التفاصيل، فقد كنت أتلهف على ماذا سيأتي بعد هذه المقدمة.

وقال: "ما سمعته اليوم في السوق ليس المرة الأولى التي تهدر فيها دماء أهل العقل والعدل والتوحيد من المعتزلة، ليخلو المقام للمشعوذة من وعاظ بغداد وشيوخها يتربصون بعلم المعتزلة، حتى أهل النحو واللغة باتوا يدسون أنوفهم في هذا الشأن، فعبد القاهر الجرجاني وصف الفلسفة بالكفر، وأدرج المنشغلين بها في عداد أهل الأهواء الخارجين على الإسلام".

ثم تنهد وقال: "بغياب ميزان العقل، حتماً ألسنة اللهب ستطاول كتباً أمضى العلماء جل عمرهم في تدوينها، ودفقوا ضوء عيونهم بين أسطرها وفي ترجمتها، عندما كانت آمنة مطمئنة تحت جناح الخليفة المأمون في دار الحكمة".

"تلك الكتب التي يغمض عن أوهام الكهنة دقة ألفاظها وجلال معانيها، ولو لم يكن الإنسان مفكراً وحراً في تصرفاته، ما كان مسؤولاً عن أفعاله، وما كان من العدل الإلهي مجازاته عليها ثواباً أم عقاباً".

أومأت برأسي إيجاباً وقد أبهرني ذكاؤه وفصاحته وعميق اطلاعه، وقلت: "كيف يحرقون كتب الفلسفة بكل رعونة وصلافة فيما شيخنا الكندي كان يقول: الفلسفة هي علم الحق الأول الذي هو علة كل حق".

فلمّا قلتها، انبلج لأول مرة في ذلك المساء وجهه بالسرور، وقال:

”لقد أخذت تردد أقوال أهل العدل والتوحيد من المعتزلة، هذا هو شأن الأرواح الحرة المحلقة في ملكوت المعارف كسلالة من الغرانيق النبيلة التي لا تنقرض، طبت وطاب ممشاك، أنا أعرف أن عين الحداد الحصيفة لا تخطئ، فهو يختار رجالنا بعناية“.

”رجالنا!“، ارتعشت أطرافي، أي رجاله الذين بت منهم؟

لم أستفسر منه، بل تركته يتحدث ويتدفق إلى أقصاه بلا تردد أو توجس وأنا أهز رأسي بهدوء. تذكّرتُ أن شيخي محمد قد أمضى شهراً كاملاً يخبرنا بنواقض الوضوء واتجاه القبلة، وأما أبو الحسن الهاشمي، فيفرش سجادته بين أقواس ضلوعه، وأنا يجب أن أقبلهما كما تبديا لي.

طأطأت وقلت له: ”شيخي التميمي كان يحذرني من كتب الفلاسفة، لأن كتبتها لا تؤخذ لدمائهم جزية، وهذا بالتحديد الذي كان يجعلني أتسلل مساء بعد انتهاء حلقته إلى أسواق الوراقين أو مكتبة الخان بحثاً عمّن لعنهم شيخي!“.

قهقه أبو الحسن بضحكة سريعة، قبل أن يقول: ”ولمثل هذا استدعيتك لتكون أحد السراة، والعقل ميزان الصواب، عبر التحسين والتقبيح، والإيجاب والحظر“.

يبدو أن عيني في ذلك الوقت قد اتسعتا بالدهشة، فكلامه حول التحسين والتقبيح يقترب من كلام أرسطو. أردت أن أفتح فمي لأقول شيئاً لكنه رمقني بنظرة خاطفة وأكمل حديثه: ”إني مغادر بغداد عن قريب، ولا أعلم متى أعود، فقد بنيت بامرأة سريانية تقطن بلاد الشام على حدود بلاد الروم ورزقت منها ببنية، ولعلي سأمضي بقية حياتي بهدوء في ضيعة هادئة لي هناك، لا أريد أن أصفي تجارتي وأبيع أملاكي

حتى لا يشكوا في أمر غيابي، لكنني أوقفت جلها لخدمة طلبة العلوم قاصدي بغداد، عدا بعض الضياع، وداري هذه التي سيقوم على شؤونها أبناء عمومتي".

"أما الكتب، فبعضها سأوزعه على سوق الوراقين رغم علمي بأن مصيرها لربّما قد يكون النيران، وبعضها الآخر سوف أحتفظ به في مكتبة الخان لطلبة العالم النابهين لعل أحدهم قد يستنير عقله بها رغم أنها قد تكون أدلة دامغة ضدي... مكتبات المساجد لا سبيل لنا إليها والسيف القادري يتربص بنا".

وتريث قبل أن يقول: "لكنني صببت مصهور الذهب، وخلاصة الحكمة، وزبدة الحقب، في صناديق كتب ثمينة، سأوزعها على الأمصار فوق أجنحة الغرانيق، أنت وباقة من أهل العقل والعدل، من رفاقك".

"صناديق كحبات الرمان تصطف داخلها الكتب كالجمان، سأمنحك نصيبك، فاحرص على أن تضعها في موضع يليق بها، فهي الترياق الذي يحول المعدن الخسيس إلى ثمين، وستبقى إلى الأجيال المقبلة من سلالات العقل تنير حندس هذه الأمة".

وقال لي: "سيكون هناك صندوق بانتظارك على البوابة الشرقية عندما تغادر".

ونهض مؤذناً بنهاية لقائنا، ووضع يده على كتفي بحنو وثقة وقال: "يا مزيد: أين وضع أرسطو الفضيلة؟"، فأجبت بهدوء وبلا تلكؤ خشية أن يتردد ويتقهقر: "جعلها بين رذيلتين".

قال: "أحسنت! أنزلها منزلة بين منزلتين، وإنما نسعى إلى غسل الشريعة وتطهيرها بالفلسفة، بعد أن دنست بالجهالات، عندما تنوي

الرحيل مر بباب أسد الفراتي، يقطن شرق بغداد، جميعهم يعرفون دارته فأبوه من كبار تجار بغداد، واطلب لقاءه وأقرئه السلام، وقل له: منزلة بين المنزلتين، وهو سيتم نعمتي التي أنعمت عليك".

غادرت... وأنا أردد مشدوهاً: نعمته التي أنعم علي؟

هَا هو رمان الرصافة انتقل من النافذة إلى يدي!

أحزان القرد

خرجت من الخان في اليوم التالي للقائي أبي الحسن الهاشمي باكراً، وكان وجه النهر مضبباً بغبش الفجر، وسرب من الغرانيق تحلق حوله. والتففت من خلف الخان بدرب الضيع الموحش لا أريد أن أباكر الحداد بهواجسي وظنوني، فأنا الآن أريد أن أرتب قطع الفسيفساء في رأسي بشكل يسمح لي أن أغرق مراكبي القديمة، وأدخل الأرض الجديدة عارياً إلّا من عقلي. وُضع في يدي قيد، ولا أدري إلى أين يذهب بي، أريد أن أختلي بنفسي.

لكن ماذا يحدث هنا. كان الدرب الخلفي شبه خال، ولم أجد فيه الحمار الأسود ذا الرأس الضخمة، ولكن ما إن وصلت إلى قناة الدجاج التي ألتف منها إلى شرق الكرخ، حتى سمعت قرع دفوف وغناء ومزامير تشق هدوء الصباح بجسارة وقحة.

رأيت رجلاً هندياً حسن الوجه نظيف الملبس يبسط بساطاً ثميناً بجوار المسجد، ثم يطلب من قرد كان برفقته أن يسلم على المارة، ويجول بالسواك في فمه، ثم يرفع مسبحة بين أصابعه يسبح الله، ويبكي...

هذا بالضبط ما أنا بحاجة إليه: تأمل هذا القرد كي يأخذني بعيداً عن ظنوني وهواجسي التي سلبتني النوم البارحة، فأصبحت أماشي القرد وصاحبه وهم يطوفان على جميع مساجد بغداد حتى أذان العصر.

وبعدما خرج المصلون من صلاة العصر، لبس القرد ملبوساً خاصاً من ملبوس أولاد الملوك، ثم طيبه صاحبه بطيب ثمين، وأركبه بغلة بمركوب مزخرف بالقصب، حتى إذا ما انتهى، حضر ثلاثة من الهنود، أحدهم يسوق دابة القرد، والآخر يحمل نعليه، والأخير يحمل فوق رأسه شمسية تقيه الشمس، وساروا بين الشوارع، والناس تلاحقه لتسلم عليه.

آخر النهار بعد أن انهكنا المسير والتنقل، توقفنا أمام بوابة مسجد لصلاة المغرب، ونهض أحد الهنود يسرد قصة القرد فقال: "يا قوم من أصبح معافى في بدنه، فإن الله عليه نعماً لا تحصى، واعلموا أن هذا القرد لم يكن في شبابه أحسن منه، ولا أطوع لله تعالى، لكن المؤمن مبتلى، فقد سحرته زوجة والده قرداً، بعد أن كشفها وهي تعاشر مملوكاً لها، فأخرجته من صورته البهية إلى هذه الصورة".

وعندما وصل الهندي في كلامه إلى هنا، أخرج القرد من بين ثيابه منديلاً ووضعه على وجهه وأخذ ينشج بحرقة، فرقّت قلوب أهل المسجد له، وابتدأ الإمام بأن وضع في المنديل أمام القرد درهمين، ثم تبعه بقية المصلين.

أشركني الهنود في عشائهم تلك الليلة، فقد ابتاعوا شواء وخبزاً وإيداماً وحلواء، وأنا على يقين بأن بغداد سوق كبير كل شيء فيها يباع حتى أحزان القرد.

لكن من الذي يسلم عقله وروحه لمرابي سوق؟ هل العقل مركب

نجاة في يمّ الحياة؟ لأن من فاته مركب العقل، غدا قرداً يطاف به في المدينة.

وألنّا له الحديد

توقف الحداد الفارسي عن إمدادي بالكتب. كان ينتظر وقع زيارة أبي الحسن الهاشمي على نفسي، وإن كنت ما برحت في بعض الجمع ألمحه يدلف المسجد فجأة زائغ العينين كالتائه، ويداه متسختان وثيابه ملوحة بنيران مرجله، إذ لم يكن يجلّ مجلس العلم فيغتسل ويعتمر عمامته ويرتدي حلة تناسب جلال المسجد، بل يدلف حافياً ليجلس على طرف قصي من الحلقة ويستمع، وأحياناً يسأل سؤالاً يدل على استغراقه ومتابعته، ودوماً يبادر من يسأله عن اسمه أو مهنته بآية ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾، وأن النبي داود - عليه السلام - كان يعمل حداداً.

مازلت احتفظ بكتابين مررهما إلي، أحدهما كتاب الكندي، والآخر **ما وراء الطبيعة** لأرسطو، ظلّا وقتاً طويلاً بحوزتي ولم أردهما إليه... وفي الحقيقة، لم أستطع أن أفرط بهما.

وكان هو لا ينفك يذكرني بهما بطريقة مواربة عندما أمر بباب دكانه، فيسأل: "هل قرأت كتاب الكندي؟ إذا انتهيت منه، هناك كتاب آخر له هو رسالة **في بطلان دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة وخدعهم**".

لا يبدو العنوان مثيراً لي، فأتلكأ وأقول: "قرأتها كلها" (لكن لم يرسخ في روعي قول كقول أبي إسحاق: وينبغي ألّا تستحي من استحسان الحق، واقتنائه، من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية، فإنه لا شيء

أولى بطالب الحق من الحق).

فلمّا عرف أن هذه مقولة الكندي، برقت عيناه المعروقتان بالأحمر دوماً بالزهو والافتخار، وقال: "هو هذا الحق وليس علم النقل والعنعنة، فالكتب التي أدفعها إليك هي للتفكر والتدبر في ملكوت السماء".

قلت أعابثه: "الملاحدة قد بدؤوا من السماء، أول شبهة وانحراف وقعا هي حين عصى الشيطان أمر ربه، وسبب ذلك أنه استعمل العقل والحجة ولم يكتف بالتسليم".

سمعت هذا من الفتية الغرباء في المسجد، ودفعته إلى أبي العباس لأستفزه، فأخرج المزيد من الكتب من دكانه الذي يبدو كمغارة معتمة لكنه حتماً يحوي بوابة لحديقة سرية، فيما لا يصل الخارج منها سوى صوت مطارق عماله الحديدية.

***

صباح ذاك اليوم بلغ عدد الحضور حول شيخي التميمي نيفاً وعشرة آلاف، فاضطر طلابه إلى الاستعانة بمتلقين يقفون قرب شيخي، ثم يضعون أيديهم على أفواههم كالبوق، وينقلونها إلى الملأ كالصدى.

كم وددت أن أغادرهم وألتحق بالحلقة المجاورة التي يتجادلون فيها عن مشروعية الاستشهاد بشعر ماجن كأبي نواس، أو شاعر من المحدثين كأبي تمام، فشيخ الحلقة كان يرى ذلك مغمزاً في وقار حلقة المسجد ورزانة العالم، لكن أحد تلاميذه يستشهد بالفقيه الشافعي الذي كان يطرب لشعر أبي نواس مع أنه أبقاه بعيداً عن مدوناته وكتبه.

كم كنت أود وقتها أن ألقي الأوراق من يدي وأسعى أنصت إليهم، ولكنني مربوط بالأوراق والمحابر ككلب يحرس غنم.

لم يكن هناك ما يميز ذلك اليوم الذي قررت فيه أن أعيد كتابي الكندي وأرسطو إلى أبي العباس الحداد سوى أن صباحه كان مغبراً بصفرة عجيبة كالورس، وكنت أزمع على مساومته وابتياع كتاب أرسطو منه الذي لم أعد أستطيع مفارقته.

كان في ركن دكانه مستغرقاً في سجود طويل مغمض العينين. تريثت إلى أن سلّم من صلاته، وأقبل نحوي هاشاً مهرولاً كالعادة، فقلت له ممازحاً: "ها قد عاد الكندي إليك، عاد العربي إليك أيها الأعجمي، في حين أن الرومي، وأشرت إلى كتاب أرسطو، أريد أن أبتاعه منك".

فقال بتهتك: "هلّا ابتعتني معه فتكون سيدي وأكون عبدك الذي لا يعصي لك أمراً؟"

لا يتوقف عن تسريب رسائله المعربدة. لم أعد أبالي بعد أن عرفت أنها لا تتجاوز لسانه.

واسترسلت وأنا أدفع إليه كتاباً ابتعته من سوق الوراقين أخيراً: "وجدت عند أبي يوسف الدري في سوق الوراقين كتاباً لجالينوس من ترجمات حنين بن إسحاق، وهو يزعم أنه نسخة دار الحكمة الأصلية، فانظر فيه، فأنا لا أعتقد أنه كذلك؛ الكتابة فيه رطبة، والأوراق تبدو برمكية جديدة، والزخرفات الملونة في زواياه الصفحات تشير إلى جدته ومعاصرته". تناوله مني ودس رأسه الضخمة فيه وأخذ يتأمل سطوره وهو يهمهم: "كتب كثيرة استنسخت، وتلك النُسخ قد تكون طبق الأصل وجيدة".

فانبريت أقول له: "لكن كيف يبيعها علي الدري على أنها نسخة دار الحكمة، كما أنه لا يشبه في تدوينه وتنظيمه كتاب أرسطو الموجود في

مكتبة الخان، الذي أعتقد أنه خرج من بين يدي بختيشوع المترجم للتو".

كان أبو العباس يفرك الورق بين يديه ويشمه، فهو يستطيع تمييز الكتاب برائحة السنين فوق أوراقه، وأنا أتأمل أصابعه الضخمة الملوثة بالفحم، وأهجس في سريرتي: "هل لا تزال هاتان اليدان اللتان حملتا مئات المطارق تملكان رهافة تختبر الورق؟".

بينما نحن منغمران في الحديث ونطل معاً على أسطر الكتاب، شعرت أن دكان أبي العباس قد أعتم فجأة، واحتجب عنه الضوء... رفعت عيني بنظرة خاطفة إلى مدخل الدكان لأجد بالباب قامتين هائلتين متجاورتين بعباءات صوفية سميكة وجدائل شعر طويلة، ويتكآن على عصي غليظة تشبه تلك التي يستعملها الرعاة في هش أغنامهم.

فحلّ بي خوف عظيم ملك عليّ جماع نفسي حتى تحجر الهواء في رئتي؛ ما الذي أتي براجلة الحنابلة إلى هنا؟ همست لنفسي: "والله قد هلكت يا مزيد، فبين يديك كتاب جالينوس!".

وقبل أن أتملى وجوههم، هدر أحدهم: هل هي كتب المهرطقة والملاحدة بين أيديكما؟ تريدان أن تطفئوا نور الرحمن بأفواهكما، لبئس ما أنتما فاعلان؟

أجمدني الصوت... سورة الرحمن والشمس والقمر يسجدان، حداء الإبل وكثبان صحراء الدهناء، فالتفتّ بصعوبة بعد أن تخشبت رقبتي... لم يكونا سوى مسلمة وصخر التميميين، وقد ازداد طول لحاهما وتضخمت أكتافهما، واختفت العظام الناتئة في وجهيهما واستبدلا نظرة الصياد المخاتل المتأهب للانقضاض، بوقار شيخ العلم المتعجرف.

كان على سيمائهم الغضب والسخط إلى الدرجة التي لم أستطع فيها

أن أهش لوجودهما. ذهبت إلى مدخل الدكان أقلب عيني فيهما: هل انضما إلى راجلة الحنابلة؟ لكن مسلمة اختصر حيرتي، واقترب مني قائلاً وهو يفتح ذراعيه ليحتضنني: "مزيد... مزيد الحنفي! أينننك يا فأرة الكتب؟"، وهمس في أذني: "ماذا تصنع برفقة هذا الأعجمي الرافضي الخبيث عليه من الله ما يستحقه؟".

في تلك اللحظة، هدر أبو العباس: "ألا شاهت الوجوه"، وهرول إلى داخل الدكان، وجلب مطرقة حديدية عظيمة من التي يطرق بها أطراف الدروع، وأخذ يلوح بها في وجوههم قائلاً: "والله إن لم تخرجا من دكاني، لهشمت وجهيكما بهذه المطرقة، إذا لم يكن لكم حسن فهم... فقد أسأتما إجابة وأسأتما فهماً".

عندذاك، هدر صخر قائلاً: "خسئت أيها الزنديق اللوطي، والله لنخسفن بك الأرض، أنتم أيها المجوس الرافضة لم يغادر الإيمان ألسنتكم".

عندذاك، انشق وجهه أبي العباس عن سحنة عجيبة لم أرها من قبل، وعروق رقبته باتت تنبض بعنف، وقال: "قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم... خسئتم ملعونين إلى يوم القيامة، تجسدون الله -سبحانه وتعالى- وتجعلون له يداً ورجلاً، تعالى الله عما تصفون، إنّكم تزعمون أنّ صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال ربّ العالمين، وهيئتكم الرذلة على هيئته، وتذكرون الكفّ والأصابع والرجلَيْن والنعلَيْن المُذهّبَين، والشعر القطط، والصعود إلى السماء، والنزول إلى الدنيا، تبارك الله عمّا يقول الظالمون والجاحدون، علواً كبيراً".

تجمهر أصحاب الحوانيت، ودخل بعضهم في المسافة بين صخر

وأبي العباس بعد أن كادا أن يشتبكا. كانت عظامي ترتجف، فلم أملك إلّا أن أدفعهما بعنف خارج الدكان قائلاً: "هيا لنغادر"، مردداً: "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس"، بعد أن دسست كتاب جالينوس في كمي. لا أود المسير برفقتهما، كما أن حديثي معهما وإسرارهما في أذني أذهل جميع جيرتي في سوق الكرخ، وسيفسد ما بنيته طوال مكوثي بينهم بوداعتي وملازمة السير بجوار الجدار. سيظنونني جاسوساً قد زرعت بينهم، لذا أشرت إلى أبي العباس مودعاً، وكان ما برح واقفاً في قاع الدكان كعفريت يتقد بلهب الغضب رافعاً مطرقته في يده.

رجوتهما أن نصعد إلى غرفتي في الخان، وأنا أتمتم لهما بصوت متقطع مرتجف:

أعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِ السّفيه	فكلُّ ما قالَ فهو فيه
ما ضرّ نهرَ الفراتِ يوماً	أن خاضَ بَعْضُ الكِلاب فيه

"هلمّوا إلى غرفتي، لنكمل حديثنا هناك".

لا أدري ماذا أصنع بهما في هذا السوق المزدحم؟ الذي اشرأبت فيه الأنظار نحونا. اصطحبتهما إلى غرفتي، ويا ليتني ما فعلت، فهناك أخبراني نيتهما تطهير بيضة العالم من أدران الشرك، وهرق الدماء دون ذلك، وأن أول من سيضحون به هو "الحداد الفارسي النجس" الذي طعن شيخنا محمد التميمي.

روعني عزمهما، فصحت بهما: "لكن ما أدراكما أن أبا العباس هو من طعن شيخنا؟"، فهدر مسلمة وهو يخبط أرض غرفتي بعصاه: "أينك أنت يا مزيد... بلغ علمي أنك تلزم الشيخ، وتدوّن عنه وله، ألم تسمع بمشادة بين الحداد وبين الشيخ محمد؟ يقول من شهد الواقعة إنه بعدها خرج من المسجد يرغي ويزبد ويتوعد، فما هي سوى أيام قلائل حتى

طعن الشيخ... تركت شيخنا وحيداً سامحك الله، من ثقل على صديقه، خفّ على عدوه".

هتفت متغابياً: "لَمَ لا ترفعون أمر أبي العباس إلى الوالي أو عميد الجيش؟".

رد مسلمة بنبرة استعصاء: "قائد الشرطة علج مثله، ولا بد أن يميل إليه... نحن من سينصب ميزان الحق، فبنو بويه هم أنفسهم قد تجرؤوا على مقام الألوهية، فسموا أنفسهم بأمير العالم، وسيد الأمراء، وسموا وزراءهم بأسماء مما ينبغي أن تطلق على الله فقط: الأوحد، كافي الكفاة، وأوحد الكفاة... ندعو الله أن يذيقهم خزي الدنيا والآخرة".

لم أستسلم لهدير غضبهما الذي كان يبدو كثيراً على غرفة الخان الضيقة، فقلت: "لكن أعداء الشيخ كثيرون، قبل أسابيع مثلاً طوقتنا مجموعة من أبناء التجار المنعمين، وتلاسنوا مع شيخي وأتباعه".

فهتف مسلمة: "نعرفهم، سراج الدين الفراتي وجماعته من المهرطقة ومتداولي كتب الملاحدة، منعمون ولا يستطيعون ذب ذبابة عن خدودهم البراقة، لا أعتقد أنهم من طعن الشيخ، ولكن أيضاً لم نغفل عن زندقتهم، ورقابهم لا بد أن تقطف في القريب، ومن أعياه داؤه، فعندنا دواؤه".

وعندذاك، هدر صخر وهو يلوح بعصاه وكنت أعرف أنه لا يتكلم إلّا إذا حان الفعل، فيما يترك جل الحديث لمسلمة: "أولئك المنعمون المخنثون، ما هم إلّا زمرة زنادقة، كم أود أن أهشم وجوههم الحليقة بعصاي هذه... ولكن لا بد أن نقتص لشيخنا من هذا المجوسي النجس أولاً".

عاد مسلمة يقول: "أولئك المنعمون هم كالأفعى والداء الوبيل، سمّهم بطيء، شرّهم وصل آل البيت، فأبو الحسن الهاشمي يجتمع بهم،

ويرتاد دكاكين الوراقين التي توزع كتبهم، ويجمعهم في دارته التي في الرصافة تتوسط ضيعاً وحدائق غناء".

"وبدلاً من أن يشكر الله على فيض نعمه، وكريم عطائه، جعل لمنزله مكتبة يقال أنها مليئة بكتب الملاحدة والمهرطقين عدا تلك التي يجلبها من بيزنطة ويدسها بين قطع السجاد والأحبار التي يزعم أنه يجلبها من فارس".

ثم قال صخر بصوته المرتفع الذي يظهر بعض بلاهته: "شكوناه عند الشريف الرضي، نقيب العلويين، ولكنه اعتذر بأن لا سلطان له عليه، ودعا أن يهديه الله".

"لكن على كل حال عين الله لا تنام عن أمثاله، فعاقبه الله بأن سلط عليه دويبة تأكل زرع ضيعته في الليل والنهار، ولا تكاد تنجو منها شجرة مهما مسحوها بقار أو أحرقوها، وها هو يبحث عمّن يبتاعها منه وسيغادر إلى بلاد الشام، حيث يقال أنه بنى بامرأة سيريانية هناك أنجبت له بنية ستكبر تحت قباب الكنائس والصلبان وعقائد الكفر".

ارتعش جفناي عندما ذكرا الهاشمي، وقصره الوردي والنخيل العابق بهواء النهر، والسجاد الذي تخاتل الغزلان رسوماته، والزاهرة المصبوبة من جرة عسل... خفت أن تظهر هذه الفكرة على وجهي، ويعلما أنني أرتاد ذاك الفردوس أيضاً.

كانا غاضبين جداً ورائحة عباتيهما تعبق برائحة اللبن المخيض، وحتى بت أشعر بصعوبة بالتنفس داخل غرفتي الضيقة. حمدت الله أنني خبئت كتاب أرسطو وسط صندوق في ركن الغرفة، وإلّا اصطفت رقبتي بين الرقاب التي ستجز. فهمت الآن لم يصر الهاشمي على الرحيل، فمن أين جلب هذان الحكاية بدقيق تفاصيلها لو لم تكن تمور وتتحرك بينهما عيون مبثوثة؟

قال لي صخر بفحيح: "هذا المجوسي هو مدسوس هنا ليخرج الناس عن ملتهم ويغمز في عقيدتهم، ألم ترَ أن دكانه يقبع وحيداً وسط حوانيت البزازين وبائعي الأقمشة والبزورات ولم يذهب مع سوق الصناع؛ هو مزروع حتماً هنا، ألم ترَ أن أجيره الصبي الأخرس صابئي من عبدة النار، يغلق الدكان في الليل ويلوط بصبيه، ثم يمضيان الليل في عبادة النار".

اقشعرت نفسي من تفحشه الذي يهدر به بلهجة أهل اليمامة المتقعرة، فهتفت به ونفسي تطايرت شعاعاً في أرجاء الغرفة: "وما أدراك؟ هل رأيتهما... هل شققت عن قلبيهما؟".

فأجاب مسلمة مستدركاً حماقة صخر: "دعك من هذا ولكن نقصد الآن ما يخص شيخنا، فقد اندس في حلقة شيخنا وسأله وأشعل الفتنة التي كادت تذهب بالشيخ التميمي لولا أنْ حفظه الله بجند أنزلت من السماء، ووقته الطعنات".

ولأنني كنت حاضراً الحادثة، أيقنت أن آفة الأخبار رواتها، وتعدد الرواة مدعاة للتدليس؛ يمسخ الحادثة الأصل. والآن أجد هذين الضبعين في غرفتي يلوحان بالسيوف والرماح... ما أنا صانع؟

هتفت بمسلمة: "يا مسلمة: لقد أدنيت السيف، وفرشت النطع، فما حجتك على جز الرؤوس وإزهاق النفس التي حرم الله؟".

قال وقد التهبت عيناه واتسعت فتحتا أنفه الذي على هيئة منقار الجوارح: "أتريد بعد هذا حقاً؟ إنني والله أخشى عليك أن تكون عبثت بك كتبهم وقراطيسهم وجعلتك تحيد عن كتاب الله وسنة رسوله، والله لن يضطجع جنبي في فراشه قبل أن يضطجع الرافضي في قبره، وأخلص الدين والدنيا منه".

لم أترك سبيلاً لتهدئة غضبه إلّا سلكته، منها أن سألته عن سر الدراعة

التي يرتديها والتي لا تكون عادة إلّا لكتبة الديوان، فقال: "ابن عمّنا - جزاه الله خيراً - أدرج أسماءنا في قوائم الديوان ككتبة، فباتت تصرف لنا الأعطيات الشهرية ما دام اسمنا مدوناً في كشوفاتهم ونرتدي لبس الديوان".

فجأة هبّ واقفاً فتبعه صخر، وعند باب الخروج، وقف مستدركاً والتفت إلي: "لا بد أن تأتي لتصلي معنا في مسجدنا قرب باب الشعير"، ثم قال بشبه ابتسامة تحمل العتب: "إني والله أرى أنها قد بادرتك ليونة المدينة ورخاوتها، لا بد أن تصلي معنا الفجر لنستعيد مزيداً الذئب الذي خبِرنا وألفنا".

ودون أن يثنيا حرفاً واحداً، قصدا الباب.

***

استلقيت على ظهري مفزوعاً أهجس: كيف لو يدرون عن عزوفي عن التجسيد؟ فأنا على يقين أن "من عَدمٍ فقد حده"، والله أعظم من أن تكون له هيئة، وما يكمن في صدري لن يسرهما، وإن جاملاني للمرة الأولى، فالمرة الثانية سيكون لهما معي شأن آخر.

أُسقط في يدي ليلتها بعد أن وثقت من أمرين: بما أنّهما استدلّا على موقع غرفتي في الخان لن يتركاني، والأمر الآخر أنّهما أعدّا النطع والسيف لرأس الحداد الفارسي.

لا بدّ أن أعجل في مغادرتي بغداد، وأهرع إلى تنبيه أبي العباس، وهو الأمر الذي كان يفعله أي رجل نبيل حافظ لحق الجيرة والخبز والكتب، وهو ما لم أكن أياً منهم، فقد دارت حسابات أخرى في رأسي: ماذا لو هاج وماج أبو العباس وهذا هو المتوقع لطبعه الناري، وذهب ورهط من

أصحابه لمواجهتهم، عندئذ سأكون موقداً لنار فتنة لن تندثر في بغداد؟ ماذا لو تسللت وأخبرت عميد الجيش، حتماً سيسلط علي زبانيته في تحقيق طويل لن ينتهي؟ ماذا لو ذهبت إلى أبي الحسن الهاشمي أستشيره وأستفتيه؟ ولكن لا أود أن أبدو أمامه مذعوراً غراً جاهلاً وهو الذي اصطفاني وخصني بسر أهل العدل والتوحيد.

حتماً عندذاك ستداخله الريبة والشك، وستحوم حولي الشبهات، وسيسلب مني صندوق الكتب الثمين الذي هو حلم حياتي... وصمتّ وأنا أدعو الله أن يفرجها مردداً:

ولرب ضائقة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلمّا استحكمت حلقاتها وفرجت وكنت أظنها لا تفرج

ونمت وأنا أسمع همهمات ولغطاً كبيراً لا أدري هل هي قادمة من داخل رأسي أم من نافذة الرمان، كنت قد اعتدت أنني إذا نمت واستفقت، تختفي المصائب، وستذهب في معية الليل والكوابيس، ولكنها لم تفعل هذه المرة.

***

استيقظت بغداد على رذاذ خفيف ينقر شجر النارنج الذي تزدحم به الحديقة الخلفية للخان، ولم يكن المطر فقط هو الذي أيقظ بغداد ذلك اليوم... بل خبر ذبح الحداد.

سمعت طرقات شديدة على الباب، وكانت صلاة الفجر قد فاتتني يومها، وصليت في غرفتي مفضلاً أن أشرع في لملمة أغراضي للمغادرة. فتحت الباب على وجل، كان حسن واقفاً بالباب ممتقع الوجه وأنفاسه لاهثة وهو

يقول لي: "لقد وجدوا الحداد أبا العباس مذبوحاً في حانوته...".

ثم وجم لوهلة يجمع الكلمات من حلقة المختنق قبل أن يقول: "الأفق ينذر بشؤم عظيم، وفتنة تقترب، أخشى أن تكون أنت هدفها الأول، فأنت كاتب الشيخ التميمي، وأنا رفيق خطواتك دوماً شاهدونا معاً، يجب أن نفر ونغادر بغداد كلها".

أمسكت يده وطلبت منه أن يتريث ويهدأ قليلاً، لم أستطع أن أستوعب كلماته السريعة المتتابعة، لكنه أجابني وعيناه لا تزالان مستديرتين بالفزع: "مزيد... لا بد أن تأخذ الأمر على محمل الجد، فقد نقتل ويستبيحون أموالنا لتذهب مع أموال الخمس، وكم من شيعي هنا لمحته يوضّئ يده بعد السلام علي، لأنني ناصبي بزعمه".

"يفضل ألّا نبات في مراقدنا الليلة هنا، ولا تأخذ الأمر بموضع الاستسهال، فأثناء الفتنة التي قامت في الكرخ سابقاً عندما أُحرق مصحف عبد الله بن مسعود، كاتب وحي الرسول، أُهدرت الكثير من الدماء، وذهب فيها خلق كثر، فهو مصحف احتفظ به الشيعة على مدى السنين، ويقولون إنه مختلف تماماً عن مصحف عثمان في معناه وترتيب السور، كما لا توجد فيه المعوذات أو الفاتحة، ولكن الشيخ الإسفراييني أمر بحرقه آنذاك بسبب هذا الاختلاف".

"وبعد حرقه هاج الشيعة وماجوا وخرجوا إلى الشوارع يلطمون، وذهب بعض سفهائهم إلى بيت القاضي ليحرقوه ويقتلوه لولا أن قائد الجيش استدركهم وصدهم، وبلغ ذلك الخليفة، فغضب وبعث أعوانه لنصرة أهل السنة، فحرقت دور كثيرة من دورهم. لذا، دماؤهم ما برحت رطبة، وأدنى أمر سيوقظ الفتنة، فما بالك وقد استيقظوا فوجدوا أحدهم منحوراً في دكانه".

"وجودنا الآن خطير، ولن نكون سوى جرذين ستدهسهما الأقدام".
وقبل أن يغادر تريث قليلاً، وقال بصوت مرتجف وفي عينيه غشاوة دمع: "البارحة كلب ضال عقر قطتي مرجانة، كل اللّمحات والإشارات الكونية تطلب مني أن أغادر".

بدر ينتقص

هيئته العظيمة وبنيته الضخمة لم تمنعا أن يجدوه في الصباح ذبيحاً داخل دكانه ورأسه منفصل بعيداً عن جسده، ووجدوا أيضاً غلامه الأخرس يقبع مرتجفاً في أقصى الدكان واصفاً بيديه المرتجفتين رجلين دخلا الدكان في غسق الدجى، وزجّا عنقه.
هلع عظيم أطبق على صدري، وتذكرت رأس الجزور الملقى بجوار حائط مهجور في البصرة والذباب يحوم حوله في غبش الصبح.
هل سيثرثر أصحاب الحوانيت كثيراً عن ترددي على دكانه؟ هل سيخبرون قائد الشرطة أنني رافقت راجلة الحنابلة إلى غرفتي في الخان... هل ستكون رقبتي هي أول ما يقدم على مذبح الانتقام؟
لم يعد الأمر يحتمل التسويف، فقد غطست يداي بالدم إلى المرفقين، أيام قليلة حتى لا أثير الشكوك حول اختفائي ثم أغادر بهدوء. حتى هذه الأيام لا بد أن أقضي جلها خارج الكرخ، فلا أدري من أين ستبزغ السكين.
لا بد أن أبدأ الآن بالبحث عن راحلة وقافلة تقلني، والدراهم المعدودة التي لدي قد لا تجلب أياً من الركائب النجيبة التي باستطاعتها أن تحمل صندوق كتب ثقيلة، لكن لا بأس، قد أجعل الكتب في مزاود صغيرة متفرقة.

كان حسن المصري يزمع أن يذهب إلى الهند ليدرّس الصبيان في أحد كتاتيبها، وهذه الحادثة سرعت في قراره، وقد مضى ليتعاقد مع أحد أصحاب السميريات لينقله إلى البصرة، ومن هناك يبحر إلى الهند.

ولكن رغم اضطرابه وقلقه، يظل العابث حسن، فتلك الليلة أحضر خلسة جرة صغيرة من النبيذ وأخذ يحتسيها، وبينما نحن نلملم شتاتنا وحاجياتنا، برقت عينه بالدمع.

روحه الرقيقة تجعل الفراق صعباً عليه. قلت له مماحكاً: "يا حسن هل أحزنك رحيلي؟ فما أنا إلّا صحراوي عجيب يدمن الصمت وتستغرقه الكتب؟".

ففز من جلسته فجأة كأنه تذكر أمراً جللاً، ولوح بإصبعه في وجهي محذراً: "هل أنهيت شؤون رحيلك عن بغداد؟ لا تظن أن رفيقك الهاشمي سينقذك، فلا شخص سينجو من غضب الخليفة، وليس لهم سلطان عليه". عاد يهز رأسه بحسرة ليقول: "جلّ غضبه على المصريين، يرى أنهم ليسوا إلّا عيوناً للفاطميين في بغداد، وسبق أن استدعى جميع الطالبيين من آل البيت ووقعهم على كتاب فيه قدح بالنسب الذي يدعيه خلفاء مصر، وقدح في عقائدهم، وأنهم ليسوا من آل البيت بل منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي، وبأنهم وسيلة كفار وفساق لمذهب الثنوية والمجوسية، وبأنهم معتدون قد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء... وكلام كثير، ويقال أنه وقع على المحضر خلق منهم الشريف المرتضى وأخوه الشريف الرضي وجماعة من كبار العلوية والقاضي أبو محمد الأكفاني، وأيضاً أبو الحسن الهاشمي".

كالعادة نسيت لاضطرابي أن أسأل حسن من أين تمتلك دوماً هذه

المعلومات الوافرة إن لم تكن حقاً عيناً للفاطميين هنا، ولكنني آثرت الصمت.

***

لم يتخل حسن عن دور العليم العارف قط، وقال لي: "إذا أردت أن تبتاع راحلتك اذهب آخر النهار والسوق يذبل وينحسر، والجميع يريدون أن يتخلصوا من بضاعتهم بأبخس الأثمان".

تجاوزت نصيحته وسألته: "هل هناك سوق للكتب في مصر؟".

أجابني: "دائماً هناك سوق للكتب في مصر، ولم ولن تنقطع، والأهم من هذا كله أن لدينا جوهرة مدفونة في طين الحاكم بأمر الله: ابن الهيثم!".

"يقال أنه دعاه من العراق بعد أن سمع أنه يستطيع التحكم بماء النيل ويبني سداً عن الفيضان السنوي، لكنه فشل، فأوكل إليه وظيفة في الديوان المصري وهو راغب عنها. ولأن الحاكم متقلب المزاج، سفاك للدماء بأضعف سبب، فأعمل ابن الهيثم فكره في طريقة ينجو بها من بطشه، فلم يجد سبيلاً إلى ذلك إلّا التظاهر بالجنون، فتظاهر به وأشاع خبره حتى بلغ الحاكم، فعين له الحاكم وصياً، وحجز على أمواله لمصلحته، وجعل بجانبه من يخدمه، وتركوه في موضع من منزله، يقولون إنه ليس بعيداً عن جامع أحمد بن طولون".

أطرقت وأنا أفكر أن كتاب **الأصول** لإقليدس في الهندسة، وكتاب **المجسطي** لبطليموس في الفلك، سيكونان أعظم هدية لابن الهيثم في محنته.

***

فجر اليوم التالي ألمني أنني سلكت درب الخان الخلفي هذه المرة ليس فراراً من نظرات أبي العباس التي كانت تتابعني في حياته، بل من العيون التي ستلاحقني حتماً بعد مماته.

لن أذهب لأودع أبا الحسن، فلا أود أن أثير المزيد من الشكوك. ذهبت وسلمت على شيخي فقط، ولم أخبره أنني مغادر، بل قلت له فقط إنني سأتغيب بضعة أيام في زيارة قريب لأمي يمتلك مزرعة في واسط.

لم يبالِ بكلامي، فقد كان لحظتها غضبان في غاية الحنق، إذ نشبت مشادة البارحة في المسجد بين طالبين في حلقته، وعاد الجنود الديالمة إلى دخول المسجد وتدنيسه بروث أحصنتهم. كان يدعو عليهم ويتهمهم بأنهم سبب الخراب.

لا أمضي كثيراً من الوقت في غرفتي، ولكن لم أعد ألمح رماناً يصطف على نافذتها. فجر بعد غد سأسلم مفاتيحها وسأمضي، وسأنفح جمرة هبة دسمة بعد أن رددت لمن سألها عن مكاني يوم مقتل الحداد، فأجابت بأنني كنت في غرفتي طوال الليل لم أغادرها، بقي أمر وحيد: سراج الدين الفراتي وصندوق الكتب.

مسرى الغرانيق

قصدت باب الشعير غربي شاطئ دجلة متفحصاً الدور والدروب، ومقلباً وجهي في الأسوار والأبواب بحثاً عن دارة التاجر أسد الفراتي، لكنني حين أشرفت عليها... جفلت.

كانت من تلك الدور المهيبة الباذخة، التي ما إن تشرف على أسوارها الخارجية، حتى تعرف أن من هم داخلها لم يطاولهم يوماً جوع أو عطش

إلّا قيلاً سلاماً سلاماً. تحفها أشجار نخيل وسدر عريقة، وتتكئ أغصانها على حجارة السور الصلدة، ويعشش بين فروعها المعمرة أسراب اليمام.

هناك ينبوع ماء سبيل يصب من جدار السور على حوض حجري قطره قد يتجاوز اثنتي عشرة ذراعاً، فيشرب منه المارة والدواب والطير، وثمة بوابة خشبية شاهقة مزينة بزرد النحاس تحت قوس من فسيفساء وعناقيد جص، وهي إحدى البوابات الأربع التي تحف قصر الفراتي.

جمدتني هيبة المكان؛ لم أستطع التقدم، وأخذت أتأمل ثلة من الحرس عند الباب، أسمع قعقعة دروعهم وهم يسيرون جيئة وذهاباً أمام الباب. تمهلت وتواريت في منعطف أتأملهم عن كثب إلى أن تفرقوا حول السور ولم يبق إلّا أربعة منهم. عندذاك، تقدمت ببطء للسؤال عن سراج الدين الفراتي.

كيف سأخرج بصندوق من هنا دون أن أثير الريبة؟ هل هنا توزع الأجنحة؟

***

كنت قد اتفقت مع الديلمي صاحب قافلة العطور على أن ألتقيهم في المشارف الشمالية لبغداد، وسأمر على هذه الدارة غداً أنا وناقتي شبرا لألتقط الصندوق مجللاً بغبش الصباح.

كتاب الفيلسوف الكندي ما زلت أحتفظ به، لم أعده إلى أبي العباس الحداد. كيف الموت يحل جليلاً مستبداً. محى كل ما كان فيّ ضد ذلك الحداد عاشق الكتب. كان يلين الحديد، لكن الدنيا لم تلن له. يصنع الأقفال دون مفاتيح. كانت المعرفة له ترياقاً وفسحة أمل يستنشق فيها نفحة ضوء تبلج من ظلمة دخان دكانه. الدنيا لم تسلس قيادها له، ومنت

عليه حتى بأمنية أخيرة، وخبأت له في أحد منعطفاتها سكيناً حزت رأسه وألقت به جوار النار ومصهور الحديد.

تقحّمني الحرس بنظرة مستريبة عندما اقتربت وسألت عن سراج الدين الفراتي قبل أن يحضر غلام رشيق الخطوات غامق السحنة بعينين لامعتين، ويطلب مني أن أتبعه في دهليز طويل أفضت نهايته بنا إلى مجلس بأرائك من الديباج الأزرق ينسكب فوقها ضوء النوافذ المقوسة فتبرق.

وانحنى الغلام لي أن تفضل، قائلاً: "سيدي سراج في طريقه إلينا".

ولم أنتظر طويلاً، فما هي إلّا لحظات حتى سمعت قرع نعال في الدهليز، لكن حينما وقف صاحبها بالباب، جمد الدم في عروقي ووجمت. لم يكن سوى أحد الفتية الغرباء المنعمين الذين يلتفون حول حلقة شيخي التميمي يشغبون ويجادلون ويصخبون، بأعينه المتسعة الذابلة التي أنهكها السهر، ويديه الرخصتين كأيدي الجواري، وشعر ناعم مسترسل على كتفيه.

تريث واقفاً عند الباب لوهلة وفوق وجهه ابتسامة غامضة، خطا وهو يتمتم: "مرحباً بك".

تجاوزت تحيته الفاترة وقلت له: "سيدي الهاشمي بعثني إليك"، ثم صمت قبل أن أهمس: "يقول إن هناك صندوقاً... ولم أكمل".

قال لي بنبرة يخالطها بعض التأنيب: "ألست أنت كاتب التميمي؟".

فقلت له بصوت منخفض كأنني أبرر ذنباً: "اختارني لحسن خطي وقدرتي على التدوين السريع، وملاحقة فيض كلامه المتتابع المسترسل".

أجابني بسخرية: "تقصد ملاحقة هذره وسفسطته وسقطاته... على كل حال، أين مفتاح الصندوق؟".

ومرات قليلة هي التي يقتحم فيها ذكائي قلقي واضطرابي لينجدني،

كانت هذه المرة إحداها، فأجبته بجملة متأنية وأنا أنظر إلى قاع عينيه: "منزلة بين... المنزلتين".

رفع حاجبيه وتأملني لوهلة، ثم أشار إلي بيده أن أجلس وهو يقول: "هوّن عليك واجلس، فقد قيل لي أن إنشادك في دار الندوة الشهر الماضي أطرب الحضور".

تفحصني وهو يلف قفطانه المخملي حول جسده وجلس. له عنفوان الأسد في عرينه، لكنه في المسجد كانت تتلاطمه الصرخات والتدافع والفرار من سياط الجنود الديلم.

لم يتخلّ عن نظراته المتفحصة المستريبة ضدي، ولكن كأنه يخضع لمشيئة كبرى لا يستطيع أن يعصيها.

هتف: "يا صبح... فهرع إلينا صبي رومي أحمر الأنف والشعر"، فقال له: "أحضر أنت وليل صندوق الكتب الثالث".

كان ليل هو الغلام الغامق السحنة الذي قادني إلى هنا. التفت إليّ الفراتي قائلاً وقد أظهرت ابتسامةٌ أسنانه اللامعة المنتظمة: "أرأيت، أسميتهما: صبح، ليل، قسمت بينهما النهار، فنحن أهل العدل والتوحيد".

رفعت له عيني بضحكة متواطئة تشير إلى أنني أشاركه اعتزاله، وقلت: "العدل هو أصل من أصولنا الخمس"، وأنا أهجس بالاثنين اللذين سبقاني إلى الصندوق الأول والثاني: هل فازا بالثمين النادر من الكتب وخلّفا لي الفتات؟

استعادني من هواجسي صوت الفراتي وهو يقول متهكّماً: "يقولون إن شيخك يكابد الحمى ولزم منزله، ولم يعد ينثر هزله في المسجد".

أجبته بنبرة هادئة: "لقد التهب جرحه، وأصابته الحمى، ولكنه تعافى بعد أن تم علاجه بأمر من السلطانة في البيمارستان العضُدي".

فأجاب وهو يهز رأسه: "ولنعم المكان الذي اختارته الحمى، لعلها تصْلاه وتطهره من عظامه...

إذا ما الجرح رم على فساد   تبين فيه إهمال الطبيب

وفساد شيخك ليس في جرحه فقط بل أيضاً في عقله".

ثم تريث قليلاً قبل أن يقول: "بعد هذا كله، يُعالج في البيمارستان العضدي".

هز رأسه أسفاً وجعل أصابعه الرخصة تتخلل شعر صدغيه قبل أن يقول بصوت نزق ناقم: "هم هكذا دوماً لهم الحظوة... الفقيه الإسفراييني بعد فتواه بحرق مصحف عبد الله بن مسعود، ثار الشيعة وكادوا أن يحرقوا الإسفراييني، فقمعهم السلطان وحرق منازلهم إرضاء للفقيه. فما كان جزاء القادر بالله على تودده إليهم باعتقادك؟".

هززت رأسي مستفسراً... أجابني وقد زادت حدة نبرته: "العصيان والحط من هيبته... فحينما أراد عزل الإسفراييني لتتوازن كفّتا ميزان العدالة بين الروافض والنواصب، كتب الإسفراييني بكل وقاحة له: أعلم أنك لست قادراً على عزلي من ولايتي التي ولّاني إياها الله، وأنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث فأعزلك عن خلافتك".

أحنى سراج الفراتي رأسه وقال بنقمة: "هكذا هو الفقيه إذا أسرف السلطان في مراضاته، نازعه الملك. حتى نقيب الأشراف الطالبيين الشريف المرتضى لم يجسر على مخالفتهم، وقد سمعت أنه يزمع الرحيل عن بغداد، بعدما قال بالصرفة، فثوّر الوعاظ عليه الغوغاء والعامة".

تبسطه ومكاشفته لي جعلاني أقاطعه بفضول: "وما الصرفة؟".

فأجابني وهو يهز رأسه متذمراً: "أخذ المرتضى بكلام المعتزلة في إعجاز القرآن، الذي يقول فيه المعتزلة بالصرفة، أي أن الناس يستطيعون

أن يأتوا بكلام مثل القرآن لكن الله صرفهم عن هذا، فضجت بغداد لكلامه، ولولا بقية احترام لأشراف الطالبيين، لأهدر العجوز الخرف الإسفراييني دمه".

قلت متعجباً: "لم أسمع بهذا طوال العامين اللذين أمضيتهما في بغداد...".

فأجابني الفراتي: "أيّها السّري، لا تندم على أمر لم تشهده في بغداد، فربّما في باطنه شر وبيل... هرواة الوثيقة القادرية الآن تلوح فوق الرؤوس. الآن يبقى أن نحفظ عقل العالم وزبدة الحقب بمنأى عن شعوذة الوعاظ، وحذلقة المتفيقهين، وندماء السلاطين".

"نحن، السراة الغرانيق من أهل العدل والتوحيد، علينا بثّ هذه الكتب في المكتبات ودور العلم، وبين أيدي ذوي الفكر النابه الفطن، وأولئك الذين اختاروا العقل نبراساً في جلب المنفعة ودفع المضرة".

***

رجع صبح وليل وهما يحملان بصعوبة صندوقاً خشبياً ضخماً بمسامير نحاسية، محفور على خشبه توريقات مستديرة مدهونة بالشمع اللامع، وقفل تطوقه حلقة جلدية.

خفق قلبي، ها هو رمان الرصافة المحشو بالجمان. أردت أن أقفز من مكاني وأتأمل محتواه، وضع الفراتي يده على كتفي وقال: "على رسلك، لم ننتهِ".

وحينما أحس بلهوجتي واضطرابي، قال لي: "على رسلك يا فتى... فالسراة لا يسابقون الزمان، هم حذرون متريثون، يقلبون الأمر على كل الأوجه قبل المضي فيه".

أشار بأصبعيه إلى غلاميه أن اذهبا... ثم تأملني وقال: "أبو العباس الحداد، يرحمه الله، حاول أن يوصل إليك بعض الأمر، لكنك لم تكن تنصت إليه، والهاشمي منحك بعض المعالم، ولكن ليست الخريطة، فالسراة هم من سلالات الحكمة البشرية القديمة التي تؤمن بالله، وبالعدل والتوحيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والظلم... جعلنا من العقل إماماً لنا، وأي أمر لا تقبله عقولنا نلفظه ونستغني عنه".

"نحن حافظو إرث بيت الحكمة، الذي كان درة فوق تاج العقل، والآن تقحمه الوعاظ، ومعلمو الصبيان، والبلهاء، فغابت عنه الحكمة وظلت العنعنة المعطلة للتفكر والتدبر، فقررنا أن نبقيها لا في صدورنا فحسب، بل نتناقلها عبر مسرى الغرانيق بين المدن والأمصار".

أخذ يتأمل موضع قدميه وهو واجم، وفجأة انتفض وقال: "لا أود أن أطيل عليك، هذه الكتب هي أوعية ومحاضن المعرفة، ومشاعل ستضيئ فتناً حالكة تلوح في الأفق، وبذور تستزرعها القلوب الخصبة التي تعيها وتتمثلها... لا تجعل جل همّك أثمانها بل الموضع الذي تغرستها فيه".

ألقى برأسه إلى الخلف وأراحه على وسادة خلفه. تنهد بعمق من قاع روحه. شعرت أنه أنهك... أغمض عينيه لهنيهة قصيرة قبل أن يعتدل ويقول مستدركاً: "البارحة شهدت مزاداً على بيع كتاب شرح الإسكندر للسماع اقتناه أحدهم بمبلغ مئة وعشرين ديناراً ذهبياً، لا بأس أن تتربح بها، لكن لا تجعل من الدينار سيداً للدار. في كل بلد تحل فيه، ستأخذ الجذوة وستمررها، ستسمع وتُسمع، ستنصت وتبشر، ستكون مريداً ومعلماً معاً".

"ابحث عن حدائقك السرية الخاصة، قد تكون متوارية في الظلال وبين ثنيات الصدور أو البحور، تفطن وأعمل نظرك وستتبدى لك...

ابحث عن أسراب الغرانيق، وترقبها بهدوء وصبر، وحتماً ستحط فوق أصابعك".

***

أصرّ على أن يستبقيني لأشاركه طعامه، وأمضى الوقت يرصف النصائح ويدثرني بالتعاليم. لم يدع شاردة أو واردة دون أن يشرحها لي: إذا دخلت بلدة فاقصد مسجدها، وترقّب شيوخها ومكتباتها، فهناك يرفرف السراة، احرص على الكتمان فما جاوز الاثنين شاع، احذر العيون المتلصصة فهي قد تأخذك إلى المهالك، لا تسرف المكوث في بلدة ما ولاسيما إذا ذاع صيتك فيها، والتفتت الرقاب إليك، وتكاثر حسادك...

حاولت في النهاية أن أتملص وأتقهقر للخروج، فلقد شعرت بالتخمة، كما أن إسرافه بالنصح جعلني أبدو غرّاً ساذجاً.

وأنا أجمع قفطاني حولي، وأعدل وضع عمامتي متأهباً للخروج، طلب مني التريث، وغاب لمدة داخل دارته، ثم لم يلبث أن عاد وهو يخفي في كمّه حافظة رسائل نحاسية محفور فوقها كلمات غامضة، مدّها لي ووضعٍ يديه خلف ظهره كأنه يعلن انتهاء مهمته وإياي، وقال كأنه يتلو أمراً جللاً: "هذه نسخة من خريطة الطريق، اقرأها كلها كأنها كتبت في شأنك، فالله يخلق في كل لحظة وفقاً للأحوال الحرف الملفوظ، والمعنى الذي يقرأ به ويلفظ...".

تغشتني كلمته وشعرت أن الأرض تميد بي، فاتكأت على الجدار قبل أن يسترسل سراج قائلاً: "بعد وصولك إلى منزلة بين المنزلتين، المفترض أن تمتلك كمريد بعض الإشارات واللمحات، فتستطلع كلٍ ما لطف وخفي من معراجك. قد يستغلق على فهمك بعض هذه الوصايا،

أو تكون قد قطعت جزءاً من دربها وخلّفتها وراءك، وقد يبدو كلامها عاماً لا يخص، ولكن تفسيرها سيكون وفق المنازل والأحوال التي تمر بك، فلا يوجد تفسير أبدي دائم، بل يتخلق التفسير تبعاً للأحوال كما أخبرتك، فإذا فعلت، ستحدد لك هذه الوصايا أي درجة وصلت في معراجك في درب السراة".

تبعثرت وصمت ولا أدري ماذا أجيبه، لكنني صافحته بحرارة وقلت: "شكراً...".

قال لي: "ما مقصدك بعد بغداد؟".

قلت له: "القدس".

فأجابني بنبرة ودودة لم تذهب عنها نبرة الشك: "ستجد هناك شيخاً قيسياً جليلاً يقطن القدس، اسمه عمرو، أخبره أن أبناء عمومته يقرئونه السلام، ويقولون: أليس الصبح بقريب".

مرايا الجن

أنا مزيد الحنفي... خلّفت اليمامة خلفي، ورحلت إلى حيث مجد أقطفه من شوارع بغداد، فما أنا صانع بنفسي، وإلى أي مهلكة أقودها؟ تخطفتني كتب دار الحكمة، وأدرجتني في مسرى السراة مبشراً ونذيراً، ولكن لست إلّا هارباً مذعوراً ملوّث الأيدي بالدماء.

السراة... هل هي رتبة، أم وصف، أم منزلة؟ لم أجرؤ على السؤال.

***

يجب أن أمضي ليلتي بعيداً عن الكرخ كأنني أحسسته قد تلاشى

واختفى. لم يعد موجوداً منذ غبت عنه. هيأت لي متكأً أسفل جدار بستان لا يبعد عن القافلة ونمت حتى أستأنس بأصواتهم، لكن لا يلبلب تفكيري ثرثرتهم.

بعد صلاة عصر اليوم التالي، بدأ المسافرون التوافد. أتشاغل بترتيب حوائجي فوق ظهر الناقة، وإطعام راحلتي، والتلصص على القادمين للالتحاق بالقافلة. لم يكن هناك كثيرون منهم، أغلبهم من التجار، وبعضهم الآخر من الحجاج المسيحيين الذين يقصدون القدس، مع أربعة حراس مدججين كانوا يتأملون الجميع بفضول بعد أن انتبذوا موضعاً أسفل نخلتين في الجوار.

متلهفاً لهطول المساء وقراءة الوصايا... لا أُريد أن ترصدني العيون وأنا أطالعها.

مساء بغداد ما برح بارداً يهطل سريعاً، ويصطحب برفقته الهواجس واللواعج. التففت داخل عباءتي، وأشعلت ناراً صغيرة، وأخذت أقرض بعض أقراص كعك الدقيق الذي ابتعت الكثير منها كزاد للرحلة.

وعندما بدأت الشخوص تتلاشى حولي وتذوب في محلول العتمة ولم يبق سوى أطيافهم، تلفت حولي بوجل وحرص، وأخرجت حافظة الرسائل النحاسية، وبدأت أعالج أقفالها.

كنت مضطرباً ويدي ترتجف كأنه سيخرج من فوهتها مارد من الجان، لكن بدلاً من هذا، فغمت أنفي رائحة العطور... هل الريح تنقل إليّ أَرَج العطور التي على ظهور الجمال، أم أنها بقايا العطور في كمّي سراج الدين الفراتي؟

حينما فتحت اللفافة، وَمَض ضوء ضئيل. رفعتها قرب عيني وعاودت

التحديق فيها. كانت الكلمات كما لو كتبت فوق ماء؛ حروفها رجراجة تكاد تنسكب، خفت!

ما هذا؟ هل هي مرآة جن؟ كانت تومض في غبش العشي... هل هي مصنوعة من زئبق؟ أغلقتها بخوف...

كانت شبرا تمضغ وتتأملني بنظرات لا مبالية من تحت أهدابها الطويلة، وعاودت فتحتها... وعادت أحرفها لتضيء في الظلمة، ولم أكن بحاجة إلى أن أشعل فانوسي الصغير لأطالعها، فقد كُتبت بالخط الديواني مبدوءة بالآية: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

أما بعد،

ولمّا أراد ذو المشيئة المطلقة، ومن نطقت الجبال بجبروته وقوته، وسيرت الفلك بعظيم قدرته، وسبحت له المخلوقات آناء الليل وأطراف النهار، أن يهدي عباده السبيل المستقيم، ويظلهم تحت عرشه العظيم، ويوقظهم من غفلة النعيم، ويأخذهم إلى الدرب القويم، وهبهم النجدين، فجعلهم مخيرين وليسوا بمسيرين، وصيّر لهم من ضوء العقل والبرهان ما يقودهم إلى الجنان، فسبحان من لا يحصره المكان، ولا يحده الزمان.

***

بعدما حدقت بالسراة المحن والشرور، واحتقنت ضدهم الصدور، وتربص بهم كل ذي ناب ومخلب، ورفع عقيرته ضدهم من يريد أن يطفئ نور الله بفيه، وجدنا أن ننقل ما هو

في الرأس إلى القرطاس، كي يتداوله المريدون، ويتذاكره السراة العارفون، ويظل ضوءاً لطريق تحدق به فتن كقطع الليل.

أما أنت أيها المريد، فخططنا تلك الوصايا لك، فطالعها بعين أحوالك قبل بصرك، لتكون في حلكة دربك قنديلاً ورفيقاً.

الوصية الأولى

لا تتردد إذا اخترت الطريق الطويلة البعيدة. لا تلتفت إلى الوراء.

الوصية الثانية

إذا أردت المعرفة، فاقرع على باب ذاتك، واستفتِ قلبك، ولكن قبل أن تأخذ به، اعرضه على عقلك ليحسنه أو يقبحه، فالمعرفة باب بمصراعين من قلب وآخر من عقل.

يأتيني من ساحق هدير وضوضاء ورغاء الإبل وهم يربطون حبالها، ويهيئون زادها، كأنني في انخطافة... فهل استفتيت قلبي؟

الوصية الثالثة

العالم هو نار ونور؛ اشرب من أكواب شمس المعرفة دون أن تلسعك نيرانها فغايتك العظمى فيها نجاتك.

الوصية الرابعة

لا تجعل بينك وبين الحقيقة سداً أو حجاباً، فإن جاء على شكل بشر يزعم امتلاكه الحقيقة كلها، فأبعده عن دربك،

فهي ليست سوى حقيقته هو، وإن جاء على شكل يقين، فوضّئه بماء السؤال، وإن جاء على شكل جبل، فاصعده بحثاً عمّا خلف الجبل. لا تسلّم رأسك لكائن يسوسك ويدعي أنه يمتلك أرض اليقين كاملة، فإنك بهذا تكون كالبعير الذي أسلم عقاله لسارقه.

الوصية الخامسة

التوحيد غاية لا تدرك، بل كل واحد يوجده من حيث مبلغ عقله، وما تنبسط فيه استطاعته.

الوصية السادسة

احذر من معاداة العلوم الحكيمة، والحميّة، والعصبية لطائفة من الطوائف أو معرفة من المعارف، فإن من بغض علماً، فقد جهله.

الوصية السابعة

أحرق جميع هذه الوصايا حتى لا تتحول إلى لاهوت يسجنك بين قضبانها. الحياة أعظم من تعاليم ووصايا. الحياة الدنيا منزلقة في عالم التحولات لا تستقر على حال. الزمن يسيل ولا شيء يبقى. كل شيء يترك مكانه، ولا أمر يبقى مؤزلاً.

صبوة المعرفة فقط هي أم الفضائل... أحرق الوصايا وابدأ من جديد.

***

لم أنم تلك الليلة وظللت أراوح بين خفق الريح وهدهدة الوصايا

المصنوعة من ماء رجراج سينسكب في عقلي عندما تعطش روحي.

أمّا عن الوصية الأولى، فلقد سلكتُ الطريق الطويلة بعيداً عن اليمامة النعسى الآمنة بين أحضان النخيل، جاعلاً نجمة الشمال على حاجبي نحو بغداد الغضبى الفائرة بالفتن.

وأمّا الثانية، فهل استفتيت قلبي وعرضته على عقلي؟ لهذا، اختطفني من حضرة التميمي وأخذني إلى سوق الورّاقين ومكتبة الخان، والآن درب السُّراة. فبضاعة الشيخ التميمي ليست إلّا سلسلة طويلة من العنعنة.

يتناهى إليّ رغيّ الإبل وضوضاء وهدير الهواء. هي آخر ليلة أمضيها في بغداد. بغداد التي أمضيت فيها عامين تعمدت بنهرها، وتوضأت بمكتباتها، وعلقت أرجوحتي بين غيومها. سلخَت عني مزيد اليمامة، وجعلتني صحيفة بيضاء يخط القدر فوق ضلوعي وصاياه السبع.

***

أما آخر ما خلفته ورائي في بغداد، فكانت رسالة مجهولة دون توقيع خططتها بيدي اليسري حتى لا يكتشف أحد خطي، قلت فيها:

> بسم الذي لا تنام عينه ولا تغفل عن حقوق العباد، والصلاة والسلام على خير المرسلين.
>
> إن العدل هو ناموسٌ كوني وجعل في أيدي الولاة وأولي الأمر، حتى إذا انتقل إلى شذاذ الأفق والعامة، اشتعلت الفتن، وعمت الفوضى، وجرت الدماء، ومنها دماء أبي العباس، الحداد الفارسي، الذي قتله كل من مسلمة وصخر التميميين من الحنابلة القائمين على الحسبة داخل دكانه، والله على ما أقول شهيد.

دسستها في إحدى ثقوب الحائط الخارجي للخان، وجعلتها بادية للعيان، وحتماً ستثير فضول المارة قريباً، ولا أدري ماذا سيحل بها... هذا إذا قررت العدالة أن تنصب موازينها في بغداد بعد أن استُحلت الدماء، وحرقت الدور، واشتجر القوم في المساجد.

بغداد لم تعد دار مقام...

الفصل الثالث

أعمدة بُصرى

مكثنا في بُصرى الشام لعدة أيام، مدينة قدت من صخر: قباب وأقواس وأعمدة من الحجارة العتيقة تربض على حافة الصحراء كناقة صالح، والهواء البارد الذي يمر بين أعمدتها يحمل همهمات ذعر وقلق.

كانت حوانيتها منشغلة بالبيع والمقايضات بين قوافل عرب الجزيرة وقاطني بلاد الشام. أردية صوفية، ومخيض، وبسط صوفية، والقوافل تبتاع الحبوب والبقول وأوعية وأقمشة وعطور، وسمعتهم يجادلون تاجر قافلتنا على قارورتي عطر ثقيل من مستصفى ورد بيزنطة.

كان هناك بضع دكاكين فقط للورّاقين في بصرى. أعينهم الفضولية المرحبة أغرتني بأن أتحلل من بعض الكتب التي معي وأن أقايضها بما لديهم، لكن سوقهم كانت خاملة خالية من الرواد، ومعظم ما وجدت لديهم كان مكتوباً بالسريانية التي لا أتقن سوى بضع كلمات منها، كما خشيت أن أظهر كتبي فتمكث طويلاً فوق أرففهم، فالجميع هنا راغبون عن الكتب، ويتأسون على سقوط حلب في قبضة الروم، وعجز المسلمين عن الدفاع عنها، ويخشون أن تمتد يد الروم إلى بصرى الشام رغم وجود الوالي الفاطمي في دمشق، لكن ماذا تصنع حامية صغيرة

هناك أمام الجيش اللجب للروم.

جل من يمر بالمدينة يسير ليشاهد بقايا مندثرة للروم تقع على أطراف المدينة، ومنها بنيان دائري هائل تحيط به من الداخل مقاعد متدرجة نحتت في الحجر، وقد نبت بين المقاعد الأعشاب والشجيرات الشوكية. يقابل المقاعد مصطبة مرتفعة قد حفت بالأعمدة، كان أهل بُصرى يطلقون على هذا المكان ملعب الروم، ولم أجد روماً هناك بل قطعاناً من الغنم ترعى الزهور البرية وتتقافز فوق مقاعده. داخلتني هيبة وجلال لتلك المدرجات العظيمة والمقصورات العلوية التي تحفها. كان يعلو بعض الأعمدة تماثيل لوجوه فزعى زاعقة كأنها تولول لخطر سيداهم المكان!

فوق بعض المقاعد نقشت أحرف غريبة أو لربّما أرقام. صادفت بعض البنائين يحضرون ويملؤون عربات تجرها البغال من حجارة الملعب، ويرمقونني بنظرة غير مبالية، ويغادرون.

وقفت أسفل المدرج على المصطبة الأمامية وصحت: "يا داااار". تردد صوتي في جنبات المدرج مجلجلاً، لكن حجزته الجدران فتضخم كأن هناك ألف حنجرة رددت معي: "يا داااار".

سمعت صوتاً يقول لي: "لا تزعج جن الروم فقد يتتبعونك ويفتكون بك".

التفتّ مذعوراً لأجد صاحب القافلة الديلمي مع بعض حراس القافلة.

كانت علاقتي قد توطدت معه واطمأن إلى رفقتي بعد أن سمع بعض أهازيجي وترانيمي بالقصائد، فظل يطلب مني أن أرفع صوتي بالحداء كي تطرب إبله مقابل قارورتين من العطر الثمين اختارهما من بضاعته.

ولأنني لا أعرف التفريق بين العطر الخبيث والجيد، تركت له مهمة اختيار مكافأتي من العطور، وللحق قد كان أميناً في هذا، فالوائلية حين

كانت تقدم عليها الماشطات من خضرمة ليبعن عطورهن، كانت تشترط أن يكون معتقاً ثقيلاً غامقاً، وكذلك كانت القوارير التي وهبها الديلمي لي.

مدينة الأنبياء

٢ - ٩ - ٤٠٢

٢٨ - ٣ - ١٠١٢

جمعة الآلام العظيمة

وبعد مسيرة ثلاثة أيام من بصرى باتجاه الغرب، تبدّى لنا عن كثب جبل هائل بتلال وهضاب بين أحراش وأشجار متشابكة، وتنتثر فوقه المآذن وقباب الكنائس. صاح قائد القافلة: "كبّروا إنه جبل الزيتون ومدينة الأنبياء..."، لقد أشرفنا على القدس في اليوم الثاني من رمضان.

أخذ المسلمون بالتكبير، فيما بدأ المسيحيون يبكون ويترنمون بتراتيل شجية. الجِمال أخذت تبطئ لأن الدرب يتصعّد بها إلى بوابات القدس، فنزلت عن شبرا التي كادت تتهاوى لفرط تعبها، وقصدنا باب العمود شمال سور القدس، حيث وجدنا القوافل قد انتشرت هناك، وأناخ مسافرون وحجاج، واختلط ثغاء الماعز ورغاء الأباعر، والجميع يتسابق للسقيا من بئر توزعت حولها برك حجرية مستطيلة تملأ من البئر للوافدين. كان آخر النهار وكنت منهكاً عطشاً أنتظر المغيب لأفطر، وأجلت إلى الصباح دخولي مدينة الأنبياء، أريد مكاناً آمناً لصندوق كتبي، والمكان حولي يعج بالمسافرين.

***

عند الفجر أطلقت شبرا لترعى في الفياض المعشبة. التلال حولنا يكسوها ورد أحمر قانٍ له رائحة فاغمة تشبه المطر. لا يسمحون للدواب بالدخول من بوابة باب العمود. لذا، تركت صندوقي عند حارس القافلة، ورجوته أن يحافظ عليه، وسأجزل له المكافأة. البله والسذاجة على محياه طمأناني إلى أنه لن يحمل رغبة في كتب متراكمة.

ودخلت القدس مع مجموعة من التجار، فوجدت هواء المدينة يحمل أصوات خفق أجنحة، هل هي لطيورها أم أن الملائكة قد ألفت دروب المدينة؟

كان الازدحام عند الدخول شديداً، فإذا ولجنا من البوابة، باشرتنا درب واسعة مرصوفة يبدو أنها تشطر البلدة القديمة إلى نصفين، من الشمال إلى الجنوب. على جنبات ذلك الدرب مبان شاهقة شيدت بحجارة صخرية بيضاء، ولها نوافذ معشقة بالزجاج الملون.

طراز المباني لا يشبه التي كنت أراها في بغداد، ولكن بعضها لا يزال مشغولاً بقاطنيه، وبعضها الآخر كان مهجوراً تخلعت أبوابه ونوافذه ونبتت الحشائش أسفل جدرانه. كانوا يسمونها القصور الأموية.

كنت أود الوقوف بها طويلاً للتفرس في مُلك بات أطلالاً، لكن كان يجب عليّ أن أحث خطوي لألحق جماعة التجار الذين يبدو أنهم ألفوا المدينة والتردد على دروبها. أسلم أذني إلى ما يتحدثون عنه ويشيرون إليه، فيمنحونني مفاتيح ما استغلق على زائر مشدوه يقلب وجهه في الساحات ويتحدث إلى الجدران فلا ترد عليه.

أخذ الدرب يتصعد بنا إلى أن أفضى إلى ساحات واسعة مرصوفة بعناية تقع أقصى الزاوية الجنوبية الشرقية لسور المدينة، وبجوار إحدى بوابات المسجد حُفر فوق لوح رخامي: جُدِّد هذا المسجد في عهد الخليفة

الوليد بن عبد الملك. قال التجار عندذاك: "وصلنا الحرم القدسي... السلام على أولى القبلتين".

كان هناك فوق هضبة صغيرة مسجد مثمن الزوايا تعلوه قبة لامعة نصعد إليها بدرجات واسعة. أشاروا إلى أنه قبة الصخرة، وتفرقوا هناك: بعضهم ذهب إلى المصلى القبلي للصلاة، وبعضهم ذهبوا إلى المصلى المرواني، وبعضهم ولجوا مسجد الصخرة الذي وقفت ببابه بهيبة بعد أن ازداد خفق الأجنحة في الهواء، فمن هناك عرج سيد الخلق إلى السماء.

كان المكان معتماً قليلاً في الداخل، ولم أكد أتبين الصخرة التي تتوسطه، تبدو كمائدة هائلة، ارتفاعها من الأرض إلى صدر القائم جوارها، وطولها وعرضها يكادان يكونان متقاربين. تسمرت محدقاً فيها مستمعاً لأحد تجار القافلة يكبر ويقول إنها نزلت من الجنة وبقيت معلقة في الهواء، ولا تستند على الأرض أبداً، وعندما تسقط، ستقوم القيامة، فهي مباركة قد جلبت من الجنة مع الحجر الأسود، وسيكون المحشر حولها يوم القيامة.

كان أحدهم يشير إلى الانعراجات والتحدبات فوقها، ويقول: انظروا موضع قدم النبي عليه الصلاة والسلام... وإلى جوار موضع القدم، هناك تحدب آخر هو الموضع الذي سقطت فيه عمامته، عندما بدأت دابة البُراق الصعود إلى السماء.

أتفرس في الصخرة الملساء بها وأحس ملمسها المنزلق، ولكن لم أتبين موضع القدم أو العمامة، بل طفقت أتأملها... هل عندما نزلت من الجنة، كانت قد شهدت صبوات غامضة وأشواقاً في أعماق آدم وهو يتجول في تلك الحديقة العلوية وحيداً مستوحشاً قبل أن تنبثق عنه زوجه؟

هل وقفت عليها حواء يوماً بقدميها المحنيتين بمسك الجنة كأبهى ما خلق الله من النساء؟ هل سمعت هذه الصخرة حوار التمرد بين الله وإبليس المارق قبل أن يُطرد من الملكوت السماوي؟

تملكتني وحشة أبينا آدم. قدماي قد ثقلتا بفعل هيبة المكان وجوع وعطش الصائم، وجماعة التجار باتوا قلقي الحركة سريعي الخطوات، وأخرجوا من جيوبهم مسابح طويلة تكاد تصل إلى الأرض ووجوههم شاخصة إلى السقف تتأمله، فيما ما برحت أتساءل: ما السور التي قرأها الرسول على صفوف الأنبياء وهو يؤمهم في هذا الموضع؟

***

تنقلت في الأسواق والأزقة على مهل: ممراتها المرصوفة، وجدرانها الحجرية تقترب من مدينة بُصرى، ولكنها أوسع دروباً وأنقى هواء. تبزغ لنا في الساحات والمنعطفات أشجار البرتقال المزهرة بطلع مبكر، فلا يزال الجو بارداً حولنا.

أهل القدس يتوزعون ما بين عرب وسريان، وحتماً هناك ملل أخرى لا أتبينها، لكنهم لا يشبهون أهل بغداد: وجوههم مشربة بحمرة، وتقاسيمهم أكثر رقة ودقة، وحركاتهم أكثر كياسة وليونة. لم يبال أحد بي؛ المدينة تزدحم بالحجاج، ويبدو أنهم اعتادوا الغرباء هنا، أو لعلها رثاثة مظهري بعد ترحال شهر فوق ظهر شبرا، فجعلت العيون تتقحمني. حتى أصحاب الدكاكين لا ينادون لبضاعتهم عند مروري، بل يشيحون عنيّ بلا مبالاة، وحدست عندئذ أنني يجب أن أفعل أموراً تتعلق بهيئتي.

ذهبت إلى الحلاق وطلبت منه أن يجز جديلتي الطويلتين. لم يكن قراراً سهلاً؛ أحسست أنني أجز ضفائر شما التي كانت ترجلها لي وتضمخها

بالطيب وتجدلها بمطحون النفل، فأهل اليمامة جميعهم يجعلون شعرهم في ضفائر. كنت ألفهما تحت عمامتي في بغداد تجنباً للسخرية، ولكن أخذت ضفائري بعد أن جزّها الحلاق وحفرت في إحدى زوايا المدينة ودفنتها حيث مرقد الأنبياء وأنا أتمتم ساخراً: "لعل ضفائري تشفع لي عند الله، فهم يقولون إن مقبور بيت المقدس لا يعذب".

شذبت لحيتي وشاربي، وذهب عنها تشعثها وهيئتها المنفرة، واكتفيت منهما بما يعكس الرجولة دون أن يفضي إلى التوحش والبداوة. ومن السوق المسقوف، ابتعت قميصاً وسروالاً جديدين. ولجت إلى حمام سوق وصلت رائحة بخاره وصابونه إلى قاع رئتي، فقد بني على ينبوع ينضح بالماء الساخن بلا توقف.

حينما انتهيت، وضعت بضع قطرات من زجاجة ورد بيزنطة التي وهبني إياها صاحب القافلة، وبدوت جاهزاً لمقابلة عمرو القيسي كتاجر كتب مهندم قادم من بغداد، وليس كأعرابي أشعث قفز من خلف كثيب رملي إلى مدينة القدس. واكتشفت أنني بعد أن خرجت من الحمام وارتديت ثيابي الجديدة، فجأة أخذت حركاتي تلين وصوتي ينخفض، وخطواتي تتئد وتتابع، وأخذت أجلس بكياسة تجعلني أتوقى المواضع التي تجعل في ثوبي الخدش والبقع.

***

وقصدت لصلاة العصر المسجد العمري بحثاً عن موضع انعقاد حلقة عمرو القيسي. اقتربت من سادن المسجد أو لربّما هو المؤذن، لم أكتنه هويته، وكان يعتمر عمامة شديدة البياض وقفطاناً أخضر. حيّيته بحذر وسألته: "هل أنت من أهل القدس؟".

فأجابني بطلاقة دمثة خالية من الحذر: "منذ فتحت عيني وأنا هنا، نعود إلى قبيلة كلب العربية التي أتت واستوطنت الشام، وأصولها من جزيرة العرب..."، ثم أردف بنوع من التودد والزهو: "نحن أخوال يزيد بن معاوية، فأمه هي ميسون بنت بحدل الكلبية".

المآذن في القدس تدعو لآل البيت وهذا المؤذن يفخر بيزيد بن معاوية، فحدست أن عالمه ينحصر ما بين أعلى المئذنة وأسفلها، ولم أكن في ذلك الوقت قد اعتدت طبع أهل مدن الشام المتبسط مع الغرباء المسترسل مع المارة، هذا بعد أن علمني مكوثي في بغداد أن للغريب حدوداً وحمى يجب أن يخرس لسانه دونها، فلا يدري أي كلمة قد تشهر خنجراً في وجهه.

ثم أصلح وضع العمامة على رأسه وقال كأنه تذكر ورفع حاجبيه الأشيبين، وسألني: "أنت من أين؟".

فقلت باقتضاب: "حنفي من اليمامة"، ثم تريثت لوهلة أنتظر انطباع هذا الاسم على وجهه، هل سيسرد لي قائمتي السوداء التي يعابثونني بها دوماً: أهل مسيلمة، قرن الشيطان، وما هنالك؟ لكن لم يبد على ملامحه أنه قد سبق ومر على مسامعه أي مما سبق، فقط قال: "آآآه مسافة طويلة قطعتها إلى أن وصلت هنا، هل أنت طالب علم أو تاجر؟".

أجبت: "كلاهما...".

بساطته ووضوحه أتاحا لي أن أمتع ناظري في جمال الزخارف الملونة في الأروقة وفوق الأعمدة والأقواس، فيكمل ثرثرته ولا يفطن إلى انشغالي عنه، ثم أردفت بعد تردد: "هل تعرف عمرو القيسي؟ فقد قيل لي أن حلقته تعقد هنا؟".

فالتفت إليّ ضاحكاً وقد صنعت ضحكته ثلاثة خطوط طويلة في

وجنتيه: "ولا نعرف إلّا الشيخ عمرو القيسي حفظه الله، شيخنا ومحدثنا وحافظ معارفنا، ذو صلاح وتقى وعلم وافر غزير".

أثرت فضوله بسؤالي عن الشيخ، وأحسست أنه تجمع في فمه الكثير من الكلام، وأخذ في سؤالي عن الطريق التي قدمت منها، والقافلة التي رافقتها، فأجبت باقتضاب: "إنما أنا تاجر كتب، وقالوا لي إن القدس عطشى للكتب".

فقال بنبرة المتعالم المتفاخر: "ومن لا يعشق الكتب؟ أرنا ما لديك أيها العربي، وهل يخشى الله من عباده إلّا العلماء، ونحن أهل المقدس نحب العلم، ويقصدنا طلابه، جميعهم يقولون تعظيماً للقدس: يا ليتني كنت تبنة في لبنة في بيت المقدس".

تبسطه وإلحاحه لم يتوافقا مع طبعي الحذر المتحفظ، فتمتمت بهدوء: "إن شاء الله سأجلب بعضها هنا"، وأردفت قائلاً باستعجال: "لكن أين أجد عمرو القيسي؟"، فأشار بإصبعه إلى الأرض المحصبة حيث موضع وقوفه وقال: "ها هنا"، طالعته بدهشة، ولكنه أردف: "لديه حلقة تدريس هنا يومية بعد صلاة العصر منذ حضر إلى القدس"، ثم سرعان ما استدرك دون أن أسأله: "وإن كنت لا أستطيع أن أخبرك بموقع منزله لأنه لا يحبذ أن يزوره أحد هناك"، وخمنت في أعماقي أنه ذكر ذلك ليشهد فصول لقائي بعمرو القيسي أمامه، فيعرف لأي شأن أبحث عنه.

ثم أضاف: "كل ما في القدر تخرجه المغرفة... انتظر لصلاة العصر فقط"، استسمجت تعبيره: قدر ومغرفة!

***

حين انتهيت من صلاتي، تلفت حولي بحثاً عن المؤذن ليدلني على حلقة

عمرو القيسي، ولم أحتج الكثير من المساعدة، لأنها الحلقة الوحيدة التي التف فيها أربعة أطواق كبرى من التلاميذ حول شيخ خمنت أنه عمرو القيسي.

دنوت من الحلقة بتردد. اندسست بجوار أحد الأعمدة الرخامية حتى يتاح لي ترقبه خلسة، ولكن هذا لم يمنع شيخ الحلقة أن يلمحني وأنا أخطو بحذر.

***

ينسكب الضوء ملوناً عبر نوافذ المسجد على شكل بقع ضوئية تومض فوق الحصباء، فتبدو رائقة ملتمعة كقاع غدير. أخذت أتملى ملامح عمرو القيسي وتلامذته ينادونه بتبجيل: شيخنا القيسي. كان وجهه طويلاً مستدقاً كوجوه أهل اليمامة، بشرته تميل إلى البياض وقسماته لم تغادرها الفتوة، لحيته سوداء فاحمة، عينان واسعتان لامعتان شديدتا السواد بأهداب معقوفة، ويتوسط كل هذا أنف ضخم يكتسح ملامح وجهه.

حينما بسمل وصلّى على النبي، انساب داخلي شعور مطمئن إلى نبرة صوته؛ هل هي الثقة والتماسك ووضوح المخارج؟ يشبه أولئك الرجال الذين يظهرون فجأة لإصلاح المعطوب وحسم الأمور، الذين يقولون كلمة لا تتغير، وجملة لا تتردد، أولئك الذين يرسون القواعد، ويتركون لغيرهم التشاجر حول التفاصيل.

كان يتحدث عن الأسماء والصفات، وهو ما بات محظوراً في بغداد حتى المرور بجانبه: "ليس كمثله شيء، أي الله – سبحانه – متعالٍ عن الأسماء والصفات فهو لا يخضع للنقائص البشرية".

ليس من طبيعتي الكامنة ولا حذري الفطري أن أبادر الغرباء بالحديث، ولكن لا أدري في تلك اللحظة ماذا أصابني لأقول: "هذا ما قالت به المعتزلة، يا شيخنا".

خشيت مما قلت، فقد بدوت كالطالب الأبله الذي يلفت النظر إليه بشغبه.

وجم قليلاً وصمت كل من في حلقته، والتفتت الرؤوس إليّ، فيما أكمل القيسي وهو يحدق بي: "تقصد أهل العدل والتوحيد ومن قال إن الله لا يخلق الشر ولا يقضي به، إذ لو خلقه ثم يعذبنا عليه، يكون ذلك جوراً، والله - تعالى - عادل لا يساوي بالعذاب والثواب".

تبدّى لي واضحاً أن عمرو القيسي يجاهر باعتزاله على رؤوس الأشهاد، فلعله بعيد عن بغداد حيث الاشتجار والتنابز والتكفير والسيوف المصلتة والدماء المراقة... أو أن سُحب الدم لم تصل إلى القدس بعد.

أردت أن أمرر إليه رسالة مواربة في ردي، فأختصر دربي نحوه وما حضرت من أجله، فقلت: "أي نعم يا شيخنا، علمتني ذلك حلقات بغداد ومجالس البصرة، هم أهل العدل والتوحيد أصولهم الخمسة المتبدية في: العدل، والتوحيد، والوعد والوعيد، ومنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهم جماعة ورع وتقوى رغم ما يثار عنهم من شبهات".

عادت الرؤوس تتأملني من جديد، فلم أبال وأكملت: "لكن إلى الآن لم تتضح لي معنى المنزلة بين المنزلتين"، قلتها ببطء وأنا أضغط على الحروف كأنني أنحتها بخط عميق فوق الصخر.

وجم عندذاك عمرو القيسي، وتغلغلني بنظراته حتى بدأت أضطرب ولم أكد أستطيع أن أبلع ريقي، ثم أغمض عينيه نصف إغماضة كأنه دخل

في حالة نشوة، وأخذ يرمقني من بين أهدابه الطويلة، فيما كان جلوس الحلقة ينقلون رؤوسهم بيننا منتظرين ماذا يكون من أمر طالب متطفل لجوج يُغِير على ماء الجرة التي يسكب منها شيخهم في كؤوسهم.

المؤذن كان يجلس بمقربة من عمرو القيسي بشكل يواجه الطلبة، كأنه يشير إليهم أنه يعتلي منزلة أرفع منهم. فجأة قال بصوت هائل شق الصمت: "آآآه، أيها الحنفي، مرحباً بك في حلقة شيخنا الذي أنارت مآذن القدس بوجوده...".

رفع القيسي يده مقاطعاً دون أن يلتفت إليه وقائلاً: "صه"، فوجم المؤذن وعاد إلى ما كان يفعل في السابق من حك خلف أذنيه، وتأمل الوجوه، وترقب من يدخل من الباب، وتقليب عينيه في أثاث المسجد بجفنين سميكين نعسين، وتعابير وجهه يبدو عليها الملل وقلة المبالاة بما يدور في الحلقة.

طأطأ القيسي لمدة ثم انبرى يقول: "منزلة بين المنزلتين... يقول القاضي عبد الجبار: الأصل في ذلك أن هذه العبارة إنما تستعمل في شيء بين شيئين، ينجذب إلى كل واحد منهما بشبه، هذا في أصل اللغة. وأما في اصطلاح المتكلمين، فهو العلم بأن لصاحب الكبيرة اسماً بين الاسمين، وحكماً بين الحكمين، فلا يكون اسمه اسم الكافر، ولا اسم المؤمن، وإنما يسمى فاسقاً، وأن من مات من المؤمنين على إصراره على المعاصي لا يقطع عليه بعقاب، بل أمره مفوض إلى ربه تعالى، فإن عاقبه، فذلك بعدله، وإن تجاوز عنه، فذلك بفضله ورحمته، فلا يستنكر ذلك عقلاً وشرعاً... والله أعلم".

كان يقول هذا وينقل عينيه بين الحضور، وعندما يمر عليّ، يغرس عينيه في وجهي كأنه يريد أن يستكنه ما وراء هذا الصمت.

واستغربت رده الفوري على مقاطعتي له، ففي حلقات بغداد، لا يقاطع طلاب الحلقة شيخهم، بل ينتظرون إلى نهاية الدرس للسؤال والنقاش، الذي كان في النهاية يجيب عنه الشيخ بأجوبة غامضة مبهمة وغمغمات، لكن لم أسمع قط أحداً منهم يقول: "والله أعلم".

لكن القيسي استرسل وفصل ووضح، ما جراني لأبثه المزيد من شكي وقلقي: "وما ذنبه أن يخلد؟".

فأجابني من الفور: "لأنه مخير، قال تعالى: وهديناه النجدين... هو يعلمها وارتكبها، فالعلم هو مناط الحكم والمسؤولية".

***

دنا وقت المغرب وانفض الناس من حلقة عمرو القيسي للإفطار، لكنه وقف وهو يرمقني، فخمنت أنه آن أوان أن اقترب. تقدمت بتردد. أردت أن أبادره كي يطمئن إلي، فقلت له: "شيخنا الجليل بارك الله في علمكم الذي يذهب الظلمات التي رانت على الأفئدة والقلوب... لكن أليس الصبح بقريب؟".

فلم يقل شيئاً عدا: "صدقت... هلم معي إلى منزلي لنفطر معاً هناك".

***

سرنا بخطوات وئيدة فوق درب ممهدة توازي السوق المسقوف. نخترق المدينة وأرواحنا واهنة رققها الجوع والعطش. ظل عمرو القيسي صامتاً يقلب مسبحته في يده، فماشيته دون أن أخترق جلال صمته. اكتفيت بأن أتأمل واجهات الدور تحفها أحواض الزهر والمتسلقات وأصوات المقدسيين وهم يعدون طعام إفطارهم. هواء المدينة ما برح

يصدر همهمات وهمسات تراوح بين السجع والتراتيل، وبين فينة وأخرى، تلفح وجوهنا رائحة خشب يحترق. أحياناً نمر بشوارع مزدحمة بالحجاج النصارى متاعهم يكتنز فوق ظهورهم، وعيونهم ولهى عطشى، وبعضهم كانوا يقرعون بناقوس في أيديهم وينشد تراتيل.

كنت منشطراً ما بين التفرس بهم، ومتابعة خطوات الشيخ القيسي، ولعله لمس ذهولي وحيرتي فقال مشيراً برأسه إلى جماعة من الحجاج النصارى: "اقترب أحد الشعانين، هو الأحد السابع من الصوم الكبير والأخير قبل عيد الفصح أو القيامة، ويسمى الأسبوع الذي يبدأ به أسبوع الآلام، ويزعمون أنه ذكرى دخول النبي عيسى إلى مدينة القدس، ويسمى هذا اليوم أيضاً أحد السعف أو الزيتونة، لأن أهالي القدس استقبلته كمنتصر بالسعف والزيتون المزين، ويعاد استخدام السعف والزينة في غالبية الكنائس للاحتفال بهذا اليوم".

فجأة تمهل في سيره، وسألني بصوته المرخم وقد بدت خطواته تصبح أكثر ليونة وارتياحاً كلما ابتعدنا عن المسجد، فذهبت عنه تلك الصرامة التي كانت له وهو يتوسط حلقة مريديه وطلابه: "كيف هي بغداد؟".

فأجبته من الفور: "لقد تركتها بحال لا تسر، لقد عم الغلاء وانتشر البلاء...".

رفع يداً واستوقفني قائلاً لي: "تريث يا فتى، لا أنشدك عن حال الأسواق، بل أخبرني كيف هم السراة أهل العدل والتوحيد؟".

يا إلهي! أنا لا أعرف منهم سوى الهاشمي، وسراج الفراتي، ولربّما أبا العباس الحداد... وأعرف أنه طرح هذا السؤال ليسبر أغواري، ويطمئن إلي، فكيف أجيبه؟

قلت محاولاً أن أتملص من الجواب قدر استطاعتي على نحو حذر

لا يثير ريبته: "هم بخير... أو لنقل هم في منزلة بين المنزلتين".

ضحك وربت على كتفي وقال: "لا يكون في منزلة بين المنزلتين إلّا فاسق، ونعوذ بالرحمن أن يكونوا فسقة"، ثم استطرد: "وكيف هو الهاشمي، هل استقر في بغداد، أم ما برح موكلاً بفضاء الله يذرعه؟".

فأجبته: "تركته وهو يزمع الرحيل ويتأهب له، ولا أعتقد أن بغداد دار مقام له".

تمتم بهدوء كأنه يخاطب نفسه: "بغداد غضبى، وتحت الرماد جمر، عسكر بني بويه ليسوا راضين عن الخليفة، والشعب ليس راضٍ عنهم، وفي الجو المشحون، لن يزدهر عمران، وسيبقى الجميع متوجسين مما قد يجلبه الغد".

قلت له: "صدقت، شاهدت هناك الكثير من الجياع والمشردين، وعصابات العيارين تعيش وتتكاثر على مرأى ومسمع من الجيش".

ضحك بألم ساخر وقال: "العيارون! كانت أزقة بغداد تردد بذعر أسماء زعمائهم: أسود الزبد، وأبو الأرضة، وأبو النوابح...".

فخمنت في تلك اللحظة أنه عميق المعرفة ببغداد.

لم أشأ أن أسأله، فقد كان يبدو واهناً مهموماً تستغرقه هواجسه، وأردف وهو مطأطئ لكن بنبرة صوت تحمل الكثير من اللهفة والفضول: "هل ما برح جند القادر يلاحقون من يسمونهم المعتزلة والزنادقة؟".

فأجبته: "لم يتبد لي واضحاً أمر، ولم أر سوى أن الجند حريصون على ألا يشتبك الناس في المساجد، وبين حلقات العلم، حتى لا تهدر الدماء بين السنة والشيعة فالفتنة ما برحت متجمرة بعد حرق الشيخ الإسفراييني مصحف الشيعة الذي ينسبونه إلى عبد الله بن مسعود".

قال لي: "تلك فتنة قديمة، أقصد هل أعلن الخليفة وثيقته التي وضعها

لتقطع دابر من يسميهم أهل اللغو والكلام؟".

في تلك اللحظة، استوقفه فتيان كانا يمران بالجوار، وقبّلا رأسه، يبدو أنّهما من تلامذته، قبل أن أسرد له حدود علمي بهذا الشأن، عندما كنت في حضرة موكب الخليفة داخل سوق الكرخ.

***

لم نلبث كثيراً قبل أن تنعطف بنا الدرب إلى اليمين ونشرف على حديقة مسورة بجدار قصير من حجارة ضخمة متينة، وتغطس أشجارها في بواكير العتمة، وتزقزق العصافير فوق أغصانها بكثافة، ونسائم المساء توزع فوقها رائحة زرع قد حصد للتو. بوابة خشبية قصيرة تنفتح على ممر يتوسط الحديقة ويفضي إلى دارة بطابقين لها بوابة خضراء هائلة بمصراعين، فيما لاحظت أن معظم البيوت في القدس بمصراع واحد.

يبدو أن العصافير وشت بقدومنا، فانفتح الباب قبل أن نصله محدثاً جلبة وصريراً، وظهر غلام نحيل يرتدي قفطاناً أزرق نظيفاً، له جبين ناتئ وعينان ضيقتان حذرتان ترمقانني بفضول... هرع إلى عمرو القيسي قائلاً: "مرحباً سيدي".

وما لبث أن تناول من سيده عمامته وقفطانه، وعلقهما على المشجب المجاور. قال القيسي: "أخبر أهل البيت أن يعدوا طعام الإفطار يا عبد الله، وهيّئ مناماً لضيفنا اليوم".

فوجئت باستضافته لي، فالتفت له ممتناً وهمست: "جزاك الله خيراً يا شيخي... ولن أثقل عليك، لا بد أن أعود إلى راحلتي وصندوق كتبي، فهما ما برحا خارج السور، كل ما أريد هو مكان آمن لكتبي"، ثم استدركت: "أعني الكتب التي بحوزتي، إلى أن اكتري غرفة في خان

من الممكن أن يؤويني مدة مكوثي في القدس".

قال لي: "لا عليك، من الصعب أن تجد خاناً أو نزلاً الآن، فالقدس مزدحمة بالحجاج، لكن لا عليك، غداً سأدبر مكاناً آمناً لك ولكتبك، وستبيعها بحرص وتأنٍّ".

ثم تنهد بعمق، وسار وأنا أتبعه وهو يقول: "رغم أنك يافع لم يورق في فؤادك حب الأبوة بعد، لكن تخير لها خير المقتنين والمالكين كما تتخير زوجاً لابنتك، وكن حريصاً عليها كحرصك أين تضع نطفتك".

ارتفع حاجبي لغرابة تشبيهه، ولكنه استمر قائلاً: "يا مزيد، أنت الآن سريّ من السراة، أهل العدل والتوحيد لا يأخذون إلّا المال النقي من الدنس، يتسامون عن جشع التجار ولزوجتهم وترقبهم الفرص كحدأة بانتظار جيفة، فالسراة صقور يقطنون القمم الشاهقة، ويأنفون الحَب الذي ينثر للعامة والغوغاء"، ثم قال متبسماً ونحن ندخل مضافة واسعة نرقى إليها بدرجين، مرتفعة السقف، حفت بالوسائد والأرائك ويشغل كامل واجهتها أرفف كتب: "ولاسيما أنك أعزب لم تجع ببطن غيرك".

التفت له مستغرباً قوله، فأردف: "أي ليس لديك أبناء تجري عليهم".

في ذلك الوقت، دخل غلامه عبد الله وفي يده صينية فوقها أنواع مختلفة من الأطعمة وضعها بيننا، قبل أن يجلب خواناً كان مركونا خلف الباب، وفرش فوقه قماشاً قطنياً نظيفاً، ثم وضع الصينية فوقه قائلاً: "تفضلوا!".

كانت المائدة معدة بعناية وبحبّ، ولم أشك للحظة أن من صف قطع الليمون، وسكب الحساء، ورصف فواكه مجففة قد غطست بعسل وزبد، ووضع الملاعق متجاورة، كان يرسل رسالة حب إلى عمرو القيسي وضيفه، حتماً هي زوجة ظلت تتوقعه طوال نهارها...

ما أجمل أن تفضي إلى بيت فيه امرأة تترقب أوبتك طوال النهار، وتهدل الجدران احتفاء بوصولك، وفي الليل، تنسكب أنفاسها المنعشة على مخدتك، وتلامس أقدامك قدمين لدنتين دافئتين!

تجاوبت مآذن القدس أذان المغرب، كأنما انسكب فوقها جميعها كأس من ماء الكوثر، وعمرو القيسي يسترق النظر إليّ يحاول أن يستكنه ما اختطفني للحظات، ثم ما لبث أن قال: "هلم إلى الطعام... وإنّ غداً لناظره قريب... وكما قلت لك لا تحرص على بيعها إلّا لمن يقدرها، ولن تضيق بك القدس، ولاسيما أننا في موسم حج النصارى، وقساوستهم ورهبانهم يتلهفون على الكتب، ويدفعون فيها أغلى الأثمان".

***

تصلنا طوال الوقت جلبة أطفال من داخل الدار، قبل أن يطل طرف وجه صبي صغير بغرة شقراء، وبفم فقد أسنانه العليا، ولا يلبث أن يأتي راكضاً ويخفي وجهه في أعطاف عمرو القيسي...

فقال وهو يحتضنه ويشمه: "هذا قيس ثمرة فؤادي، وأول خمسة أنجبتهم لي نور دانة جاريتي الشركسية التي باتت أمّاً أولادي"، وقال بضحكة واسعة: "حرصت أن أغرّب في زواجي فليس أضوى من أبناء القرائب، ولا أنجب من الغرائب، والعرب تقول بنات العم أصبر، ولكن الغرائب أنجب".

ثم تريث قليلاً وشرب من كأس فيها شراب حلو له رائحة الزهر، وطاطأ رأسه، وبدا أنه سيسرّ بأمر يشق عليه قوله، قبل أن يقول: "نور دانة هي شقيقة صغرى لتمني أم الخليفة القادر، ولكن لم أحاول قط أن أجعل من هذا النسب مطية أو ذريعة لبلاط الخليفة، ويوم وقعت على

عريضة المعتزلة، كان بإمكاني أن أجعل قلمي يعف وأن أعفى، فالخليفة يجلّ أمه تمني - يرحمها الله - ويقدر ذكراها، ولكن الاعتزال تهمة لا أنفيها وشرف لا أدعيه، ولن أخون ميثاق السراة".

في تلك اللحظة، عبث قيس بثوب أبيه فانتهره وأمره أن يغادر الغرفة قائلاً: "كل مراد مختار، وليس كل مختار مراد، كضرب الولد النجيب، وشرب الدواء الكريه".

كان الجوع قد ذهب، وابتلت عروقي، وتماسكت أطرافي الواهنة من الصيام، ثم تبدى لي بوضوح أن القيسي سري نجيب، فأحاديثه متماسكة مشرّبة بالحكم والأمثال والمقولات النادرة... نادر من الرجال من تجد الحكمة خالطت عقله وفؤاده ولسانه بالقدر الذي عليه لدى القيسي.

***

بعد أن صلينا المغرب، أردت أن أفرغ آخر ما في جيبوبي من أخبار قد تثير اهتمام مضيفي، فقلت له: "ما زالت بغداد تتحدث عن أخبار الخليفة القادر بالله عندما جمع الفقهاء والعلماء وأصحاب الكلام في بلاطه، من مشبهة وشيعة ومعتزلة وأولم لهم، وأحضر النطع والسيف، وصفّ موائد الطعام في بلاطه، ثم جهز كتاباً يأمرهم فيه أن يتنازلوا ويكفروا بجميع معتقداتهم، والسيف والنطع لمن أبى...".

وفجأة أفزعني تقلص وجه القيسي، بعد أن تغشته حالة ألم أو اشمئزاز، وقال وقد خالط صوته وهن وحزن: "كان ليلتها لون النطع قرمزياً من الجلد، وأطرافه قد خيطت حوافها بصوف الماعز، كان الجلاد متلثماً... ولكن كان يصدر منه رائحة نتنة لا أدري هل كان هو مصدرها أو جلد النطع... جعلت نفسي تشمئز من الوليمة القادرية".

ثم صمت قليلاً، وقال وهناك لهاث وارتجافة بسيطة في قاع صوته: "مرغماً وقّعت على وثيقة التوبة، وتلك لعمري توبة لن أتوبها، ووقع معي مجموع من أكابر السراة، وكان القادر ليلتئذ يسرف في غضبه على المعتزلة بعد أن تصيد وعاظ البلاط الخليفة بسكينة بال وخلو من الشغل، وقالوا له إن المعتزلة قد كفروا المسلمين وفسقوهم بالذنوب، وحكموا لهم بالخلود في النار بقياسات لفقوها بعقولهم الناقصة، فأمر عندذاك كتبة ديوانه أن يشرعوا في إعداد الوثيقة القادرية لهم ولسواهم، فهل صدرت على رؤوس العموم أم بعد؟".

أجبته من الفور: "يتداولون مقاطع وجملاً منها، ويلوحون بقرب صدورها ويلغطون، لكنها لم تصدر بعد".

رفع رأسه وأخذ يتأمل السقف وهو يخلل أصابعه في لمته: "لقد وقعت ليلتها، بعد أن شربت صامتاً من اللبن الذي يدور به غلمان قصر الخلافة فوق رؤوسنا بدلاً من من العنب المنتبذ الذي اعتدناه في البلاط، ولم أنبس بحرف".

***

يبدو أن جِراح بغداد ما برحت رطبة في صدر القيسي، فأطال وأسهب، وكان كالهزبر الذي قلعت أظفاره، فما زادت زئيره إلّا حدة، على حين أن الهاشمي كان مصاباً بعزوف يأس، ورغبة في الرحيل، أما القيسي، فكانت جذوته متقدة لم تطفأ بعد، فيما أجد أقداري باتت تسير باتجاه لا أستطيع منه انعتاقاً.

عاد يقول: "تلك الليلة حينما شهد القادر بالله صمتي وتغضن وجهي وغياب الرضا، فأضمر لي أمراً، وقرر تعييني مشرفاً على إسطبلاته،

فمنها يضعني تحت المراقبة، ومنها يجعلني أشعر أنه قربني وجعلني من الخاصة، لكنه في باطن الأمر كان يحط شأني، فمشرف الإسطبلات، أوما يسمونه في بغداد بمجلس الكراع، هو المجلس الذي يشرف على سياسة كل ذي كراع من خيل وبراذين وبغال وحمير وإبلٍ في القصر، ومتابعة السواس ومراقبتهم، وتوزيع الأرزاق عليهم".

"أمضيت في هذا المنصب أسبوعاً، وفي نهاية الأسبوع، خرجت من المدينة المدورة وقد عقدت مشيئتي على الرحيل، وغادرت بغداد تحت جنح الظلام ولم ألتفت خلفي قط. بعد أشهر تبعني أهلي وعيالي، واستقررت هنا في القدس تحت جناح الفاطميين، إلى أن يكتب الله أمراً".

ثم تنفس بعمق، والتفت إلي وعلى وجهه ابتسامة واهنة: "يجب أن أتدارك نفسي فقد أسرفت بالبوح، على حين أن السراة يجب أن يلزموا الحيطة والحذر من الثرثرة"، وبدا أنه يحاول الخروج من ذلك الشجو الذي تملك أطرافه وجعل عينيه يتغشّاهما الدمع: "ها، أخبرنا أيها الحنفي... كم كتاباً بحوزتك؟".

فقلت بتردد: "لست أعرف بالضبط يا شيخي، ولكنها حتماً تتراوح ما بين أربعين إلى ستين كتاباً ومخطوطة جلها من إصدارات بيت الحكمة".

قال لي وهو يهز رأسه إعجاباً: "أحسنت، غامرت بهذه الكمية من الكتب وحدك... رغم أنني غادرت بغداد وأهلها يدعون على المعتزلة، والسراة قائلون: لعن الله المعتزلة موهوا ومخرقوا".

"ألم يثر هذا العدد من الكتب فضول الحرس عند خروجك من بوابة بغداد، أو حتى الدهشة في القافلة التي أقلتك هنا؟".

لم ينتظر إجابتي، ابتسم فقط وهو يضع كفه على كتفي، وقال: "يعرف

الهاشمي من يختار... فأبناء الصحراء قلوبهم جسورة".

وأطرقت برأسي أتأمل الأرض لا تواضعاً بل خشية أن يلمح في قاع عيني طائراً رعديداً يخشى رؤية الدم، ولكن يبدو أن الأقدار تدحرجني في هذا الدرب بما لا أستطيع منه فكاكاً.

***

العصافير في ذلك الوقت كانت قد خلدت إلى النوم، وهدأت الحديقة الخارجية، وابتدأت تنبعث عبر النوافذ رائحة الزهر وورق الشجر المندى بالمطر. نشوة تسري في أوصالي، لا أدري، أبسبب الطعام المطيب بالأبازير، أم أنها أحاديث هذا الرجل النادر. شعرت أنني وإياه نرتقي درباً شاقاً وصعباً نقصد عش الصقر.

الغرفة التي أُعدت لمباتي كانت مضافة صغيرة مهندمة تجاور المدخل، وقفنا على بابها، وقال القيسي: "ستمضي ليلتك هنا".

قلت له وقد احتقن وجهي وكلمات الامتنان تتفلت من لساني: "يا سيدي، لا أدري..."، قاطعني، وضع يده على كتفي قائلاً بنبرة جدية: "هل مرّروا لك الوصايا السبع؟".

انبريت أجيب: "نعم نعم... مرّرها لي سراج الفراتي"، ورفع يده ليسكتني قائلاً وهو ينظر عميقاً في قاع روحي: "لا تخبرني، فالوصايا لا تتبدى لأي شخص مثل الآخر، واستنطقها أنت... وانظر ماذا تجيبك، عمت مساء... وسأوقظك للسحور".

***

بعد السحور مضينا إلى المسجد لصلاة الفجر، وعند البوابة سمعت

حفيفاً له جناحان قد أقبل، وسادن المسجد يطفئ القناديل، في حين أنه داخل المسجد كانت جماعة من القُيام التفوا في دائرة ذكر وأخذوا يتمايلون جيئة وذهاباً وهم يرددون: "سبحان الدائم القائم، سبحان القائم الدائم، سبحان الحي القيوم، سبحان الملك القدوس، سبحان رب الملائكة والروح، سبحان الله، ونحمده، سبحان العلي الأعلى". وبين اهتزاز الهواء بوقع صواتهم، عدت أسمع حفيف الأجنحة.

في الخارج، كانت الدروب تسبح في ملكوت القدس الأزرق. صوت عمر القيسي بدا عميقاً مرخماً في وهدة الفجر، كأنه يرتل: "سأذهب الآن إلى بعض شؤوني، وسيمر بك في الضحى الأعلى أسقف نصراني، وسترافقه وتمكث في غرفة ستعد لك في منزله".

وقبل أن أستفسر منه عن سبب اختياره هذا الأسقف، قال لي: "القدس تكتظ الآن بالحجاج النصارى، والحجاج القادمون من بيزنطة قد أمّن عساكر الروم قوافلهم، كما أن دربهم مزودة بالطعام والماء، فنادراً ما تحيط بهم المخاطرة في ما عدا تقلبات الجو في جبال الأناضول، وبعضهم الآخر قدموا من مقدونيا وروما... أفواج هائلة تضيق القدس بهم".

"يزعمون أن العصر الألفي قد أزف، وهم يعتقدون أن المسيح سيظهر للمؤمنين، وبهذا الاعتقاد شرعت الجموع الغفيرة من الفرنجة في التدفق على الأرض المقدسة من بلاد الروم. ولا تقف رغبة الحجاج عند الزيارة فحسب بل يريد بعضهم البقاء في فلسطين حتى يوافيه الأجل فيدفن فيها".

ثم صمت لوهلة قبل أن يقول: "وبعد أن أحرقت كنيسة القيامة حيث قبر المسيح بأمر حاكم مصر، صار هذا أدعى لترقبهم ظهور المسيح،

ويقال أن تعدادهم بلغ سبعة آلاف وقيل عشرة أو اثني عشر ألفاً من الرجال والنساء".

ثم أردف بصوت مهموس: "وسط كل هذا تستطيع أن تسوق بضاعتك بيسر وسهولة"، صمت فجاة... كأنه كان يود أن يسر لي بأمر ما لكنه تردد.

وتمتم: "سلام عليكم"، وهو يلج الدهليز الذي يأخذه داخل منزله.

***

لم تبال ناقتي شبرا بحضوري، وأشاحت بوجهها عني كأنها نفرت من حضوري الذي ذكرها بالمشقة والعذاب، واستمرت تجتر طعامها بلا مبالاة، قابلت استقبالها الفاتر لي بكرم ونبل، فحللت عقالها وأطلقت سراحها قائلاً لها: "اذهبي لقد أعتقتك فأنت حرة الآن، ومن حقك أن تعيشي السنوات الباقية من حياتك بعيدة عن ذل العبودية".

دينار ذهبي سخر لي بعض من ساعدني في نقل الصندوق إلى دارة عمر القيسي، وأنا أتمتم: حقاً... لقد رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب.

وما إن خلوت بالصندوق في غرفتي، حتى هرعت إلى الكتب أتفقدها، فوجدتها متراصة متلاصقة متماسكة الأيدي بذعر كأنها مجموعة من أفراخ القَطَا الصغيرة الجائعة التي تبحث عن ملجأ هرباً من فكي نسر.

جراد الرب

البيت هادئ، يصلني صياح وكركرات أطفال من بعيد. لم يقطع خلوتي سوى الغلام عبد الله الذي يطل بجبينه الناتئ عليّ أحياناً ليسألني هل أريد

أمراً، فكنت أجيبه بهز رأسي بالنفي وابتسامة امتنان.

وأمضيت الصبح أقلب في مكتبة عمرو القيسي، فوجدت على رف متوارٍ بعض المخطوطات الآخذة في التآكل، كانت بعض صفحات من منطق أرسطو، فقررت أن أعيد استنساخها وأنقحها تبعاً للنسخة التي بحوزتي، وأعيد إهداءها إلى القيسي.

كان هناك دواوين للمتنبي، وأبي نواس، وبعض المقابسات كـ**الأغاني** للأصفهاني وكتاب أبي حيان، كنت قد قرأتها كلها في بغداد، ولكن شعرت برغبة عارمة في مطالعتها من جديد. تخللت أوصالي نشوة عجيبة، تلك الرعدة التي تصيبني عادة وأنا بجوار الكتب. أشعر أن هناك جراراً لم تفتح مخبوءة، وينابيع تفور، لعل هذا الشوق الذي يقيني بمنأى عن خوض المغامرات المحتدمة في جمع المال أو التجارة أو حتى مع ذوات الخلخال، فيقيني عفّاً حذراً... تتكوم شهواتي في جيب خفي داخل رأسي ويحضرن في أحلامي السرية فقط، ولكن وحدها الزاهرة التي هزت أقاصي عظمي وبعثرتني، البقية أستطيع أن أبقيهن بعيدات، فلا تتخطفني غوايتهن، هل أنا عفّ نزيه أم أنني لم أصل ساحة وغي الشياطين بعد؟

أي من الكتب سأهدي عمرو القيسي، فكرمه وحسن ضيافته يُعجزان لساني عن الشكر؟ أم أدعه يختار؟ هل أهديه إحدى المترجمات رغم غلو ثمنها وتلهف النصارى عليها أم أحد كتب الكندي؟

لدي مخطوطة ثمينة لابن الهيثم عن الموسيقا، التي حصلت عليها من الشيخ ذاكر في البصرة، حتماً ستثير اهتمامه. أخيراً استقر بي الأمر على أن أهديه كتاب إخوان الصفا، ولكن هذرهم شاسع، وكثير ما وضع على ألسنتهم، وأشعر أنهم يتسقطون الأخبار دون أن يكون لهم تثبت أو

دليل، ويزعمون حيناً أن إمامهم العقل وحيناً يسفهون العقل ويزدرونه.

لكن لعل عمرو القيسي يروق له قولهم: "في الناس أقوام عقلاء لا يرضون بالتقليد، بل يريدون البراهين والكشف عن الحقائق وطلب العلة"، حتماً ستروق هذه للقيسي بالإضافة إلى إعادة استنساخ كتاب أرسطو.

على كل حال، لم أطّلع إلى الآن إلّا على ما هو على وجه صندوق الكتب، وما أدري ماذا يخبئ في القاع. وبينما أنا مستغرق في نشوة تقليب الورق، سمعت صوت عبد الله وهو يقول: "الأسقف سمعان بالباب ينتظرك".

عدّلت من هيئتي وهرعت إلى الباب للقائه لأجد كهلاً وقوراً يقف متنحياً عن مدخل الدار بخطوات تحت شجرة تفاح في الحديقة الأمامية، عاقداً كفيه ومطأطئاً رأسه، ويرتدي مسوح الرهبان الأسود مع رقعة صفراء بحجم الكف في ثوبه، وصليب خشبي كبير معلق في رقبته. أسرعت إليه مرحباً، ورغم بعض شعيرات الشيب تبرق في عارضيه، فإنه لم يفقد نضارة وجه، واسع الجبين، دقيق الملامح مشرباً بحمرة.

تبدّى لي من أول نظرة في عينيه حزن ثقيل يشعرك أنه قادم من مقبرة أو مجلس عزاء. تبرق في عينيه الفجيعة، ويصحبهما أسى وذلة آلمتني في هذا الكهل. حييته وصافحته بكلتا يدي. كان يتأملني بتفحص وعمق، وحتى أختصر موقف الحرج والارتباك الذي يحل بين غريبين، قلت له: "سأحضر حاجياتي من الداخل، وسأرافقك".

***

تبعته وهو يسير بين الدروب بخطوات هادئة متتالية، مررنا بعدد من

الأقواس والبوابات الحجرية والساحات المرصوفة. قطعنا الدرب التي تنحدر من باب العمود وتوجهنا شمالاً عابرين سوق البزازين، وحوانيت العطارين، ثم سوق اللحامين، فسوق القطانين وسوق الصاغة، وسوق الحصر، حتى ظننت أننا سنصل آخر الدنيا.

قبل أن ينعطف الأسقف ويسرع خطواته ويداه معقودتان خلف ظهره، دلفنا درباً نظيفة زاهية الممرات يصف سكانها أمام منازلهم أصص شجر الورد والآس. كانوا يحيّون الأسقف سمعان بودّ وبشاشة، ويسمونه "أبونا".

ازدادت حولنا كثافة الحجاج النصارى وهم يلوحون بسعف النخيل، ويرتّلون تراتيل شجية، وأحياناً يستوقفون الأسقف وينحنون لتقبيل يده، وخمنت مكانته الكبيرة لديهم، وجعلني هذا أعظّمه وأحترمه، وذلك بما يخالف ما تبدى لي في نظرة الاستكانة والذل التي ظهر بها على بوابة منزل القيسي، لكن هذا أشعرني أيضاً بالمزيد من القلق، لأنه رجل واسع المعارف والقصاد ويؤمه كثيرون، وهذا قد يلفت الانتباه إلى حمولتي من الكتب.

***

أفضت بنا الدرب إلى ساحة مستديرة تحفها الدور، وتتوسطها بضع شجيرات برتقال قد أزهرت. في زاوية الساحة، توقف الأسقف سمعان أمام الباب الذي في الواجهة ليخرج مفتاحاً من جيبه، ومع خطوتنا الأولى إلى منزله، هبت علينا نسائم نبات عطري حريف الرائحة، يقارب العبق الذي ينتشر على جبل الزيتون. جلسنا فوق مقاعد خشبية رصفت في ردهة استقبال تجاور بوابة المنزل، وفوقها وسائد مغطاة بقماش

أبيض رقيق مشغول الأطراف، وما كدنا نستوي فوق المقاعد، حتى نزع سمعان الصليب عن رقبته وتنهد، وحرك رأسه ورقبته كأنه يستعيد ليونتهما، وغاب داخل الدار.

أخذت أتأمل المكان حولي: واحة مزهرة، كل شيء ندي رطب منعش، كأن مخلوقاً مائياً يتنقل بين جنباته يرطبه وينسكب فوقه.

تذكرت كلام شيخي محمد التميمي عن النصارى ونجاستهم، وأنهم لا يستنجون باليد اليسرى، ولا يتطهرون من الجنابة، ولا ميزة لديهم عدا أن نساءهم، ولاسيما الروميات، ولودات بأكفال عظيمة.

عاد الأسقف سمعان ومعه صينية نحاسية فوقها دورق زجاجي وعدة أكواب، وقد زايله انكساره كأن روحه انطلقت بعد وصوله منزله ونزعه الصليب الثقيل عن رقبته. سكب لي مشروباً له الرائحة الشذية نفسها التي تعم الدار، سألته عنه، فقال لي إنها بذور اليانسون، ثم أردفت: "هل أستطيع أن أحتفظ بالكأس لأشربه وقت إفطاري؟"، فقال ببسمة تودد: "بالتأكيد، سأجعلهم يضعونه في غرفتك، يا إلهنا أتمم علينا نعمك..."، ففي هذه الألفية، يتشارك المسلمون والنصارى موسم صيامهم.

وهو يتحدث لفت انتباهي لحيته: مربعة ومشذبة بشكل دقيق، وأظفاره نظيفة مقلمة، وكان يتحدث ويمسد على كميه ليتأكد أنّهما في وضع من القيافة واللياقة.

ثم أردف: "قال لي عمرو القيسي عن باقتك الثمينة من الكتب، ولا أعتقد أنه سيعجزنا أن نجد لها مكاناً آمناً في منزلنا"، وبضحكة مبتورة، قال: "لعلنا نبتاع منك بعضها، وحتماً الحجاج سيأخذون معهم كثيراً منها".

فقلت له بنبرة متوسلة: "الآن ما يهمني هو حجبها في مكان آمن، فلا تلفت نظر العيون المتفحصة وفضوليي القدس".

اعترى صوته حشرجة ولوعة وأجابني: "ندعو الرب أن يحفظها، استطعنا أن ننجو ببعض الكتب التي في مكتبة كنيسة القيامة قبل إحراقها، وتوازعتها البيوت، ونفضل أن تبقى هناك، حتى يكتمل لدينا المال لإعادة بنائها، أما الآن، فإننا سنكتفي بالصلاة".

لا أدري لم شعرته انكمش وتحفظ عندما وصل الحديث حول كنيسة القيامة، ولم يخبرني بالكثير عن تفاصيل حرق الكنيسة، لكن حدست أنها سبب هذا الحزن الكامن في قاع روحه، ولكن ليس هو الحزن الوحيد، فهناك خزانة من الأحزان.

استأذنته في الذهاب على أن أعود قبيل المغرب، فقال لي بتهذيب وهو ينسحب: "مع صلاة المغرب نرجو أن تشاركنا مائدة متقشفة بسيطة كمائدة المسيح، فنحن صائمون أيضاً، وغرفتك ستكون أيضاً جاهزة".

قررت في ذلك الوقت أن أمر على السوق وأبتاع مِزودة، وأذهب إلى صندوق الكتب وأبدأ نقلها بالتدريج فرادى داخل المزودة، فصندوق ضخم يتنقل داخل دروب القدس سيثير الشك.

***

كان واضحاً من حديث الأسقف سمعان أنه محتفٍ جداً بالكتب التي بحوزتي، ويلوح بأنه سيدفع من أجلها مبلغاً طيباً.

كان ما داخلي متأججاً مترقباً، رغم هذا، أريد أن أنظم شؤوني كي ألحق بدرس ما بعد صلاة العصر لعمرو القيسي. نلت غرفة داخل حارة

النصارى طوال مدة مكوثي في القدس. إنه تيسير إلهي لطيف يبعد الريبة عن كتبي.

***

حين دخلت المسجد كان درس القيسي قد ابتدأ، وغنة صوته العميقة تملأ أقواس القباب الحجرية. نبرته فيها حذر وأيضاً تأنٍّ، ولكنها لا تصل إلى عقلك إلّا وقد حملت تمام اليقين.

وقفت متريثاً في تلك المنزلة الغامضة بين اليقين والشك، بين عالم الغيب والشهادة، يبدو أن حيرتي ستكون أبدية دوماً في منزلة بين المنزلتين.

فما إن دنوت من الحلقة، حتى باغتني جدل بين القيسي وشابين في حلقته، أحدهما بلحية حمراء كثيفة في حين أن الآخر كان يافعاً أمرد، ولكنه غاضب وعاقد حاجبيه وهو يقول: "إنهم كالجراد قد ازدحمت بهم القدس، يقرضون كل شيء... رفعوا الأسعار، التهموا المخزون، ملؤوا الشوارع، نثروا نساءهم المتبرجات وأكفالهن الرجراجة، واستوطنوا البيوت خاضعين لخزعبلات كهنتهم الذين يخبرونهم أنه العام الذي سيظهر فيه المسيح بعد مضي ألف عام على موته، وهم ينتظرون قيامته".

قال صاحب اللحية الحمراء: "القدس لنا، هي مسرى نبينا ومعراجه، وما هم إلا مشركون مهرطقة، رغم أن الخليفة الفاطمي – أطال الله في عمره – هدم كنيسة القمامة وأحرقها، ولكن ما برح يدور سكارى ويصلون حولها بصلبانهم ويقرعون نواقيسهم ويطلقون بخورهم ونواحهم".

قال صوت من وسط الجماعة لم أستطع تبينه، فقد كان يتكئ على عمود يحجبني عن رؤية وجهه: "أينكم يا علماء المسلمين؟ أين دوركم والقدس يغتصبها النصارى؟ أين تطهير بيضة الدين... وهذه حلب قد سقطت، وهم يقتربون كالجراد، ومن نراهم حولنا، ومن تغص بهم الشوارع، ليسوا سوى عيون وجواسيس لجيوشهم، فترقبوا أن تهجم علينا الروم في أي لحظة".

هذه الكرة الملتهبة قذفوا بها بين يدي عمرو القيسي، ولكن لم يتغير صوته ولم تختلف غنته وهو يجيب ذا اللحية الحمراء قائلاً: "هل تقول إنهم دخلوا القدس، أم كانوا فيها؟".

"هنا مولد نبيهم ونبينا عيسى، وهنا قبره، ومن هنا رفع إلى السماء، وهم هنا منذ مئات السنين، وليس بيننا وبينهم سوى العهدة العمرية التي تحفظ أعراضهم وأموالهم وتحفظ لهم أماكن عبادتهم، هل تريدون أن تفتئتوا على الخليفة الفاروق وتزايدوا عليه؟".

ثم بصوت فيه بعض الغلظة، قال: "احذر اللجاج يا فتى، فإن الإفراط في اللجاج لا يكون إلا في وهن وضعف"، ثم أردف: "لا يوجد لدينا حق خالص، ولا باطل خالص؛ يقول أمير المؤمنين علي: يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث، فيمزجان".

مؤذن المسجد، الذي كان يشغل مكانه المعتاد جوار الشيخ القيسي، لا يفوّت فرصة حتى يهرع إلى التعليق أو الإضافة بما يرضي الشيخ، أو لاستعراض جزء من معارفه اليسيرة، فقال بسخط يخالطه بعض التهكم: "بل تزايدون على كلام ربكم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾... ثم هم معاهدون وأهل ذمة، وقال عليه الصلاة والسلام: من قتل معاهداً

لم يرح رائحة الجنة".

رغم نبرة التوبيخ في صوت المؤذن، كنت متأكداً أنه سيكون له رأي مغاير لو قال الشيخ القيسي بعكس هذا، لكن يبدو أن هيبة وجلال الشيخ القيسي قد بلغت مبلغاً عميقاً لدى المؤذن، فلا ينفك يوافقه ويغتنم أدنى فرصة ليثني على جميع ما يقول.

أشار عمرو القيسي إلي أن اقترب من مجلسه، ارتبكت، لا أريد أن ألفت حولي الأنظار وأثير الفضول، ولا أريد أن أتورط في مهمة المدون التي اعتقلتني في بغداد ومنعتني لذة التفكر والتأمل في أحاديث الحلقات حولي. أريد أن تكون مدة مكوثي هنا هادئة ومتوارية كالغرانيق الحذرة الوجلة جوار الغدران.

يبدو أن جميع حلقات العلم متشابهة، هنا وفي بغداد والبصرة؛ هناك طلبة نابهون وعامة وغوغاء تلتف حول شيخها ليسمعها ما تريد.

لكن حينما يقول شيخها أمراً خارجاً عن مألوفها، يضجون ويصخبون. لذا، لا بد أن يكون محصناً بالعلم والحجة، ومستعداً ليلقم رأس الفوضى حجر البرهان.

ويبدو أنه حينما يكون التلميذ جاهزاً، يحضر المدرس، فأنا أول من كان يحتاج هذا الحجر لألجم ذلك الذي يوسوس في أعماقي عن نجاسة بيت النصارى وطعامهم وشرابهم، وتوجّسي من الأيام التي سأمضيها بينهم لاحقاً.

***

قال لي عمرو القيسي ونحن نغادر المسجد: "هؤلاء الشباب يخضعون لحكم العرف والغضب والشهوة أكثر من احتكامهم إلى القرينة والبرهان

والحجة. لذا، تجدهم محكومين بعنصر الجبر لا الاختيار، في حين أن عقولهم معطلة".

***

وصلت بيت القس والشمس تبحث عن درب لها لتغطس خلف الجبال. عندما هممت بطرق بابه، وجدت الباب مواربا، فيما يناديني صوته إلى داخل فناء تتوسطه شجرتا زيتون، وفي أقصاه أسفل الحائط، نصبت مائدة تجاور فتحة تنور متقدة في الجدار، وقفت إلى جوارها سيدة نحيلة تخبز، وتحاول أن تغتصب ابتسامة وسط سحنة متذمرة. واصطفت فوق المائدة أطباق خزفية مستديرة متجاورة: باقلاء، زيتون، لوبياء، وطماطم، ثوم منقوع بخل، زيت الزيتون، أرغفة ساخنة.

أشار سمعان إلى السيدة الواقفة: "أختي زُليخة".

وجنتا زليخة غائرتان وأنفها معقوف. تشبه النساء اللواتي كن يرافقننا في القافلة من بغداد. عجفاء لا علاقة لها بالروميات ذوات الأكفال العظيمة اللواتي يصطفيهن السلاطين ليكن أمهات ولد.

ولكن زُليخة طعامها لذيذ، وهذه القامة الجافة بروحها المتجهمة حتماً هي التي صنعت نضارة هذا المنزل ولطافته. يحبو حولها رضيع تناوله قطعة عجين يلهو بها، فإذا ملّ وأخذ يبكي، وضعت بضع عجائن أرغفة في التنور، ورفعته واحتضنته وألقمته صدرها لهنيهة، ثم هرعت ثانية إلى أرغفتها.

لم تغب الشمس بعد، وينتظرون غيابها لأشاركهم طعامهم. شعرت بالحرج لهذا الصمت الذي يتحلق حول المائدة، فأخذت أسرد على الأسقف بنبرة استنكار ماذا حدث في المسجد.

قال متهكماً: "لا تبالي بهم، فلو ذاقوا النبيذ في خابيتنا، لتخلوا عن شرهم، ألم تسمع الشاعر الذي يقول:

أمسلمٌ أنت؟ قلت: نعم، ظاهري وباطني في الخمر نسطوري".

أبهجتني هذه النزعة الماجنة المعابثة لدى الأسقف سمعان الكئيب. بعدما كنت متحفزاً من العيش في غرفة معتمة داخل منزل أسقف كئيب، سيجلب إلى صدري الغم والضيق.

***

بعد مائدة المسيح، صعد بي إلى غرفتي، واستأذن بالمغادرة، مشيراً إلى أنه لا بد أن يستيقظ باكراً في الغد، فسيحمل الحجاج شجرة زيتون من الكنيسة التي في العيزرية إلى حطام كنيسة القيامة، وبينهما مسافة طويلة سيمضونها وهم يرتلون الأدعية والصلوات حاملين الصليب، ولا بد أن يكون معهم من يذب عنهم حتى لا يعترضهم بعض سفهاء العامة.
ثم قال لي: "إذا أردت أمراً، فبإمكانك أن تطلبه من زليخة وستجلبه إليك، واعذرها إن لم تبد بشاشة، فهي أرملة مكلومة، فقدت زوجها في مواجهات حادة ما برحت قائمة بين المسيحيين، وجنود الفاطميين، تلك المواجهات لم تتوقف منذ هدموا كنيسة القيامة، ودنسوا قبر ابن الرب".

حدثني قلبي عن ربي

الشوارع مزدحمة بالحجاج، بعضهم مشاة وقلة فوق الحمير، وجلّهم، ولاسيما القادمون من بلاد الروم، يرتدون ثياباً وطيالس غريبة، وسراويل

فوقها قمصان، ومعاطف من جلد أو فرو، أو جلباباً قطنياً واسعاً فوقه طيلسان مطرز، ولا يعتمرون بالعمائم، في حين أن النساء قد غطين رؤوسهن بأقمشة رقيقة مثقبة.

تخطف عقلي جمال الروميات وتقاطيعهن الدقيقة وبشرتهن المضيئة، حين يصبحن مجاورات لي، أود أن أغطس أصابعي في وجناتهن التي لها بريق الينابيع التي لم يباشرها حر أو سموم قط.

يتقدم كل جماعة منهم رجل يدق النواقيس فيترنمون خلفه. عيونهم دامعة، وأحزانهم عميقة، يلوحون بسعف النخيل وأغصان زيتون، وأحياناً يجلسون صبياً صغيراً على مقدمة جذع شجرة الزيتون، فيما تصيح بقية الصغار ويشغبون ويتذمرون طلباً للطعام والراحة من السير الطويل.

امتلأت غرفتي بالكتب، ورأسي ممتلئ بوصايا سراج الدين الفراتي: "احذر أن تعرضها على من يغلظ فهمه عن معرفتها، ويقصر ذهنه عن الغوص في بحورها، ولا ترمي الدر عند الخنازير".

كان الطريق يضيق بالحجاج، ما اضطرني أن أمشي في خط لولبي والكتف تلامس الكتف حريصاً على أن أجعل ساحة البرتقال خلف ظهري، وأتجه شمالاً حيث دارة القيسي. وأخذت أشعر بالطمأنينة، فوسط هذا الزحام والدواب والضوضاء لن يبالي أحد بأعرابي يحمل مِزودة مكتنزة بالكتب. يهدرون هلليلويا وترانيم سريانية وعربية بوقع شجي. يحتضنني تيار الحجيج، ويستدرجني إلى أن أهمس بها معهم، كأنني ألم بدفء عباءة ضخمة احتوتني.

أنصت إلى من يرتل في المقدمة: "يقول ابن الرب تعالوا إلي يا جميع المتعبين والمثقلين بالأحمال، وأنا أريحكم، احملوا نيري عليكم وتعلموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدون راحة في نفوسكم".

ثم فجأة أستعيد تحذيرات عمرو القيسي ومزودتي على كتفي محشوة بالكتب والمخطوطات: "احرص على ألا تأخذها إلى سوق العوام أو المكتبات، فعيون الخليفة الفاطمي تملأ السوق".

وقع التراتيل يجعل الطمأنينة تتغشى الدروب، هل هي طمأنينة أم ذهول الوجه بعد اللطمة كصمت الفجيعة الملجم يهزج الهواء بصوت الحجاج... هلليلويا؟

نام مسيحيو القدس ذات ليلة ليستيقظوا في اليوم التالي على ترمد كنيستهم ومرقد نبيهم.

أتأمّل فوق رؤوسنا: غيم أخذ يحتشد ويوعد بمطر كثيف. القدس مدينة يظلها غيم من الثارات، فما إن تزل غيمة، حتى يحتشد الأفق بأخرى تصب دماً ودمعاً في دروبها.

***

في نقلتي إحدى دفعات الكتب من دارة القيسي، كدت ألا أتبين منزل الأسقف سمعان لولا أن تبدت لي نوافذه الخضراء اللامعة، فقد كانت الساحة أمام منزله مزدحمة بجماعة من الحجاج وصلوا للتو، يرطنون ويتنادون وينزلون أغراضهم ومؤنهم من على عربات تجرها بغال، ويصفونها أمام بيت سمعان. اضطربت؛ ماذا أصنع هل أتقدم، أو أتقهقر؟

ويبدو أن سمعان الذي كان واقفاً على الباب وفوق وجهه ابتسامة مرحبة خافتة، لمحني، فلوح لي بيده وطلب مني الاقتراب، قال: "بإمكانك الصعود إلى غرفتك يا مزيد، هؤلاء حجاج قدموا للتو من أنطاكية".

وجدت طريقي بين أمتعتهم بصعوبة، لم أرفع عيني صوبهم، بل سرت

مطأطئاً وأنا أسمعهم يتحدثون ويصخبون بلغة مألوفة، لم تكن العربية التي يتحدثها سمعان، بل تقترب منها، استطعت أن أميز بعض مفرداتها.

قال لي الأسقف سمعان وأنا أتبعه قاطعيْن باحة الدار الداخلية: "عمتي وزوجها وابنها وابنتاها الاثنتان... لحسن حظك أن لغرفتك شرفة خارجية ودرجاً يفضي إلى خارج الدار، فتستطيع أن تخرج وتدخل دون أن تشعر بالحرج لمرورك وسط الدار".

فهمت عندئذ أن الأسقف سمعان يمرر لي حدود المساحة التي أتحرك بها داخل البيت، وأنني لا أستطيع التجوال داخله بينهم بحرية. ارتحت لهذا، فأنا أيضاً أريد بعض حريتي، ولا أريد حرجاً في المرور بعوراتهم وغرفاتهم، كما أن زليخة دوماً جبينها معقود ضدي، وحينما تراني صاعداً، ترمقني بنظرة متفحصة فيها شيء طفيف من التبرم، وعندها أحييها بإيماءة من رأسي احتراماً، فلا تستجيب.

لمحت بصورة خاطفة وأنا في طريقي إلى الداخل أنهم كانوا مشغولين بإيجاد مكان مريح لفتى كسيح يجلس على مقعد يحمله اثنان من الرجال.

عندما وصلت غرفتي، استمرت الجلبة أسفل الدار طويلاً، بما جعلني أطل من حافة الشرفة. لم تتبين لي البوابة فقد حجبها الجدار الغربي للمنزل، فيما كانت أغصان شجر البرتقال تغطي تقريباً الباحة الداخلية أمامي. كانت رائحة زهر البرتقال منتشرة فاغمة وتغلغلت روحي، فأحسست بألم ونشوة في أوصالي في الوقت نفسه. ومن بين فروع البرتقال، استطعت أن ألمح الفتى الكسيح يجلس فوق مقعد حفته الوسائد، وقد وضعت فتاة صهباء منضدة صغيرة أمام مقعده، ورفعت قدميه عليها.

لم أتبين ملامحه من موضعي، لكن تبدى شعره الأشقر مفروقاً من

منتصف رأسه وينسدل على أكتافه، وكان يتكلم بصوت مرتفع أسمعه من موقعي، لربّما كان يرتل أهازيج...

تقدمت منه زليخة بصينية صغيرة عليها بعض الطعام، فهتف: "يقول ابن الرب: لا ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان".

لا أدري لماذا قال هذه الجملة، على حين أنه كان يلتهم أرغفة الصينية بلهفة، ولكن لربّما تعبيراً عن نشوته لوصوله مدينة الرب... أو ابن الرب... لا أدري عن هرطقات المسيحيين، يجب أن أستوضح من سمعان خلافهم حول الطبيعة الواحدة أو المشيئة الواحدة مع النسطوريين. لم أفهم نقاط خلافهم ومقاصدهم بوضوح في الكتب التي كنت أعكف عليها في الخان، فمن رواها عنهم جعلهم في موضع السفه والبلاهة دوماً.

***

رغم أن الغرفة التي جهزها لي سمعان لا تختلف في مساحتها عن غرفتي في خان الهاشمي في الكرخ، فإنها مضيئة مجلوة كأنني أنام وسط ياسمينة، كما أنها تنفتح على شرفة هي جزء من سطح المنزل، شرقها يطل على باحة المنزل، وشمال الشرفة درج يأخذني إلى الشارع. رغم أثاثها البسيط الذي لا يتجاوز صندوقاً خشبياً لحفظ المقتنيات، وفراشاً متيناً مكتنزاً ووسائد قطنية، وفانوساً موضوعاً في كوة على شكل مثلث بإطار حجري، فإنّ ميزة الغرفة تتبدى بنافذة واسعة تطل على الشرفة وعلى كرمة عنب. حتماً هذه النافذة ستجلب الصباح باكراً بهيبة وجلال، فإذا لم توقظني الشمس، فإن هديل اليمام ينوب عنها في ذلك.

وضعت مزودتي المليئة بالكتب في حجري، وجلست لأرى ماذا

جلبت من الصندوق، فقد أخذتها خبط عشواء وبسرعة دون أن أتأملها.
كانت كتاب أبقراط **الأمراض الحادة** مع شروحه، وكتاب **الأخلاط** للكندي، وكتاب **قصد أرسطو في المقولات**، والفارابي في **أغراض ما بعد الطبيعة**، وكتاب **الأخلاق** لأرسطو بترجمة حنين بن إسحاق من دار الحكمة، وكتاب **الطبيعة** للمؤلف نفسه، وترجمة يحيى بن عدي لكتاب أرسطو **الشعر**، وأخيراً ترجمة ابن المقفع لكتاب **كليلة ودمنة**. جميعها بحد ذاتها ثروة، ولا أنوي أن أوزع أكثر من هذا في القدس.

سعدت بأنني وجدتُ كتاب **الأخلاق** من بينها، فسأشرع في نسخه. سأنسخ كل يوم خمس صفحات، وأجلّده، ثم أمنحه لشيخي القيسي بدلاً من النسخة المتهرئة في مكتبته.

كيف سيكون نومي في غرفة لحافي فيها غيمة من رحيق وجيرتي عظماء العرب وفلاسفة الإغريق؟

***

قبيل المغرب، سمعت خشخشة ونمنمة عند باب غرفتي، لا أدري هل هي تمتمات... هل هي الطيور أم القطط؟

واربت الباب، وتريثت قليلاً قبل أن أطل، فأرى صبيتين يافعتين على بعد عشر أذرع من باب غرفتي تلوذان بأغصان شجرة البرتقال، وقد انسكبت حزمة ضوء المغيب على شعريهما فتوهج بشقرة كالأقحوان. ترتديان أردية قطنية زاهية، إحداهما صهباء وأطول من الأخرى قليلاً، والأخرى ما برحت في طور الطفولة، وكلتاهما بأنامل رقيقة تجمعان زهر البرتقال من أغصان الشجرة التي تطل على شرفتي.

حينما لمحتاني، انكمشتا بخجل، قبل أن تقول الصهباء منهما:

"عذراً، هل أزعجتك ثرثرتنا؟... نحن نحاول فقط أن نجمع الزهر هنا، لنصنع بنصفه حلوى والنصف الباقي سنأخذه إلى البلد، فلدينا هناك معمل صغير للصابون".

فطنت عندما تحدثت إلى أنها تستجمع الكلمات في فمها بصعوبة، وتتريث لتتذكر، فحديثها بالعربية يبدو ثقيلاً. لكن تبدوان كجدول يترقرق في خميلة، أو كطيف فرّ من أحلامي ولاذ بالشرفة. حمدت ربي أنني قصصت ضفائري وشذبت لحيتي حتى لا أبدو منفراً لهاتين اليمامتين.

اقتربت منهما وكان في الزاوية كومة زهر قد تلاعب بها نسيم المساء، فحملتها بين يدي لهما، ولمّا اقتربت منهما، تبينت وجنة الصهباء لامعة كقرص على جمر.

قالت لي بليونة ساذجة: "سيكون لك مقابل هذا جزء من المربى الذي سنعقده احتفالاً بنهاية الصوم الكبير".

واحتجت عدة أيام لأذوق المربى، كنت فيها أتردد ما بين دارة عمرو القيسي ومنزل الأسقف سمعان لأنقل جميع الكتب وأرصفها في الصناديق، وأصف بعضها على الكوة، ثم أتأملها فخوراً، هذا قبل أن يستدرجني النور إلى كنيسة النصارى.

***

سبت النور

استيقظت ذلك اليوم مع غبش الضوء على أصوات أقدام مهرولة قادمة من أسفل الدار، وماء يُسكب وأثاث يزحزح، ونسوة تتنادى. قفزت من سريري وهرولت إلى الخارج، وتلصصت من خلال أغصان شجرة

البرتقال عمّا يجري في الأسفل.

كانت النساء قد أخلين باحة المنزل من الأثاث، وأخذن يسكبن فوقها الماء والرغوة، ويدعكن البلاط والنافورة، ويعاودن من جديد سكب الماءِ ليخرجنه بمكانس من القش، وينفضن الأبسطة ويعلقنها على حافة النافورة، ويشذبن الزرع الذي حول حوض شجرة البرتقال.

ويبدو أنهن لمحنني، فتقهقرت سريعاً إلى غرفتي، قبل أن أسمع طرقات على بابي لها حفيف الأجنحة. الفتاة الصغرى كانت تحمل على يديها رغيف تنور حارّاً لم يكن أشهى منه سوى ابتسامتها، فيما حملت الصهباء صحن عسل زهر البرتقال، وكوبا فيه مشروب. همست ولم يفارقها ترددها وخجلها: "قيامة مجيدة... هذه مريمية، شراب العذراء يصفي الدم، والدماغ".

ثم همست وهي تمد الصحن: "نصيبك من معقود زهر البرتقال".

لا أدري ماذا أجيبها لأستبقيها أطول قدر، وقد فطنت إلى كثافة رمشيها بعدما عكست شمس الصباح ظلالهما على وجنتيها.

فلمّا أطلت صمتي محدقاً فيها، وبقيت ضحكتي البلهاء معلقة فوق وجهي، استرسلت قائلة: "الأسقف سمعان يقول إننا سنذهب جميعاً الآن إلى الصلاة... فإذا أردت شيئاً من المنزل قبل أن نغلق البوابة الداخلية؟".

واستدركت أخيراً فسألتها: "أين هي الكنيسة التي ستذهبون للصلاة فيها؟".

همست: "كنيسة القيامة، فاليوم هو سبت النور، والنار المقدسة ستخرج من قبر يسوع وستضيء العالم، وأيضاً ستضيء الشموع في أيدينا...".

قلت لها وبزعمي أنني أصحح سذاجتها وغفلتها: "تقصدين أنكم

ستضيئون الشموع جوار قبر المسيح؟".

فانتفضت قائلة: "لا، سيحمل كل منا شمعته مطفأة وحينما نطوف حول القبر في الكنيسة، سيوقدها لنا نور الرب".

هززت رأسي موافقاً وكنت لا أملك الكثير لأحاجج به سطوة يمامتي الضوء.

قلت فقط: "متى سيقفل الباب الداخلي؟".

فأجابتني وهي تضع يدها على كتف الصغرى ليغادرن: "فقط، ننتظر الرجال الذين سيساعدوننا في حمل مقعد هملقار إلى الكنيسة. فخمنت عندذاك أن هملقار هو أخوها الكسيح".

تقهقرت داخل غرفتي ووضعت ما جلبت جانباً لإفطاري، وماجت البهجة في دمي، حتى أنني لم أستطع الجلوس في الغرفة، فخرجت إلى الشرفة. كان الصبح يمس المخلوقات فتتمطى، ونسائم متهدجة كأنها أنفاس أنثى هائلة تتغشى شوارع بيت المقدس جالبة الربيع بين أعطافها... حمام يرفرف وحمحمة، ورائحة الخبز، وصهيل قادم من الحقول المجاورة؛ إنه سبت النور، يا للنور الذي طغى في المكان. تقول إنهم يرون ناراً تخرج من القبر المقدس وتصبح نوراً!

لا شيء يمنعني من اللحاق بهم ومشاهدة النور المقدس يضيء شموعهم، سأذهب هناك وسأمضي صباحي معهم، وسأرى بنفسي خزعبلات النصارى...

وأخوهم يحتاج إلى رجال يحملون مقعده؛ سأكون أحدهم.

اغتسلت وتهيأت ونزلت من الدرج مهرولاً خشية أن يغادروا دوني، وكانت تصلني أناشيدهم وتهاليلهم وهم يرتلون: "هذا هو اليوم الذي صنعه الله، فلنفرح ولنتهلل به، نورك يا نور العالم نور المسكونة كلها".

عندما نزلت، كانوا قد اجتمعوا في باحة المنزل وارتدوا ثياباً ملونة وربطوا حول خصورهم أوشحة حريرية، والنساء عقصن شعورهن بالورد، والرجال وضعوا زيتاً عطرياً فوق شواربهم وفتلوها إلى أعلى، ولم أكد أعرف زليخة، فقد تبدلت، وعرفت أن التبرج من الممكن أن يقلب امرأة من بومة إلى أنثى كما في حال زليخة.

ترددت ماذا أقول، ولكن كررت ما قالته لي الصبية: "قيامة مجيدة"، فأجابوني بضحكات وهم يطالعون بعضهم بعضاً كأنهم يتأملون قرداً قد نجح في بعض الحركات البشرية. عرضت عليهم المساعدة في نقل هملقار، فأبدى الأسقف سعادته بذلك، وقرب مقعداً صغيراً محبوكاً من خشب وحبال، وطلب مني الجلوس فوقه إلى أن يتموا استعداداتهم، ولم يبد عليهم الاستعجال، وأحاديثهم جلّها كانت حول وصفة علاجية للكسيح، وعرفت أنها مسحوق أوراق الشجرة المريمية المقدسة نبتة العذراء، معجونة بحليب امرأة رضيعها مقبل على مشي أو في خطواته الأولى.

كانت الأم تقول: "بعد هذه الوصفة، الله يرسل لابن آدم الملائكة الموكل لها أمر المشي، تحفه لتنهضه من مهانة الأرض إلى كرامة الوقوف".

ويبدو أنهم كانوا قد عجنوا تلك العجينة، وزليخة تحوم حولهم بزهو تحمل صغيرها الذي يجرب خطواته الأولى في فناء الدار، في حين أن ركبتي هملقار ملفوفتان بالعجينة، ومعصوبتان بقماش حريري أخضر.

كان هملقار يجلس بينهم نضراً مضيئاً بعينين زرقاوين شديدتي الصفاء والشفافية، حتى خلته في البداية ضريراً. له وجه صبيح يطابق ملامح عيسى - عليه السلام - المعلق في أيقونات كنائسهم.

أمه عجفاء قد غادرت وجهها الملاحة، تمسد رأسه ورقبته، أتأملها واستغرب أن يكون رحم تلك العجفاء بستاناً خصباً ينتج تلك اليمامتين وهملقار أيضاً، وتذكرت حسن كان يقول لي دائماً: "لا يغرنك جمال الروميات الفادح في فجة الصبا، فهن يهرمن باكراً".

بدا أن الجميع يحفون هملقار ومشغولون به، عدا الأب الذي كان بعيداً عن هذا المزاج، وعلى مقعد منزوٍ تهدل ذاوياً، يشكو من وهن وعطش دائم، إلى أن التفت إليه الأسقف سمعان قائلاً: "أعراضك تشير إلى أن دماءك حلوة".

فأجابه الأب وهو لا يكاد يتحدث: "لا أدري... لربّما، فقد تسارعت نبضات قلبي بعد تناولي معقود زهر البرتقال".

عندذاك، قالت الأم: "طوال البارحة في الليل وهو واهن لم ينم، يتصبب عرقاً... ويذهب إلى التبول، كوني معنا يا عذراء".

نهض الأسقف سمعان وقال: "سنرى". وطلب من الأب أن يرافقه، وخرجا عبر البوابة الخلفية إلى الحظيرة خلف الدار التي تمد البيت بالألبان والبيض والدجاج.

غابا لوهلة، وفجأة سمعنا الأسقف يصيح بنا: "تعالوا... وانظروا".

لم أستطع مقاومة فضولي وهرولت برفقتهم لنجد أن النمل قد تجمع على كومة رمل مبتلة ببول الأب المريض، فيما يقول الأسقف سمعان وهو مزهو بدقة تشخيصه: "هذا هو داء الدماء الحلوة، ولا بد من حمية صارمة حتى لا تأكلك دماؤك".

لم يدر بخلدي في ذلك اليوم أن كومة الرمل المبتلة بالبول ستمنحني يوماً ما... شهادة طبيب.

***

سمعان سبقنا إلى الكنيسة قبل أن تقف بالباب عربتان كل منهما يجرها اثنان من البغال القوية، إحداها لنقل هملقار، والأخرى للنساء ركبنها وهن يحملن في أيديهن شموعاً بيضاء مزينة بعروق الآس، وصلباناً خشبية مزخرفة. أما زليخة، فبدت تتبسم وقد ذهب عنها سخطها، واصطحبت فوق العربة سلالاً فيها أرغفة خبز محشوة ببيض مسلوق، وجزر وبطاطس مشوية، وجرة صغيرة من زيت الزيتون، وبعض الأعشاب. أما اليمامتان، فوضعتا على رأسيهما أكاليل ورد، فأصبحتا مرفرفتين زاهيتين كبشارة.

وعندما كانت تتجاور العربات في الطريق، كانت الصهباء تضحك وتلوح لنا، فتفور دروب قلبي بالبهجة.

***

مدخل الشارع المفضي إلى الكنيسة تزيّن بأقواس خشبية التفت حولها عروق الياسمين وأوراق الشجر، وتدلت منه المناديل الملونة، والجميع يمر تحتها مترنماً: "عاد المنقذ... عاد المنقذ.. استيقظ من قبره"، وعادوا لقرع الأجراس المحمولة في أيديهم، فبرج الكنيسة الذي كان يحمل الناقوس قد تآكلته النيران وانهار.

سيعود اليوم منقذهم، وتذكرت في بغداد أنهم ينتظرون من دخل الغار ولم يخرج... المنتظر، الجميع ينتظرون ولا أدري إن كان أي من الذاهبين قد قرر الرجوع.

أسرّ لي قبل يومين عمرو القيسي أن أكون على حذر في حارة النصارى، فالنفوس حنقى وغضبى، ومشهد الكنيسة المتآكلة المتفحمة كثيراً ما يطيش بصوابهم...

فلمّا وصلتها، عرفت أن مشهد الكنيسة يطيش بصواب أي من يمر هناك...

الكنيسة بلا سقف وقد تهدمت بعض جدرانها، ويكسو أرضيتها أكوام قطع خشب متفحمة وزجاج متناثر كُنس إلى حافاتها، وبعض الأمهات قفزن فوق حجارة أحد الجدران المتهدمة إلى داخل المبنى يحملن أولادهن على خصورهن خشية أن يجرح أقدامهم الصغيرة شظايا الزجاج الملون.

لمحني سمعان وأنا أتأمل الحطام بأسى، ولم يلبث أن شق له طريقاً من بين الصفوف وقال لي: "أهلاً بك في كنيسة الرب يا مزيد... كنت أتمنى أن تراها بصورة أفضل قبل أن تحترق"، ثم انشغل في محاولة إيجاد حيز لمقعد الفتى الكسيح، الذي لم أكد أتبينه وسط الزحام المتزايد داخل فناء الكنيسة وجدرانها وحجارتها الملطخة بالسواد. ومن إحدى الفجوات، ظهرت لنا جدران مسجد عمر بن الخطاب.

***

وضعنا مقعد هملقار بالقرب من أحد القساوسة الذي كان يرتدي طيلساناً مهيباً وقبعة رأس هائلة متطاولة تجعله يختلف عن بقية رجال الدين حوله. يجثو راكعاً وينشج جوار مدخل قبر المسيح، ومن بين نبراته المنتحبة لم أكد أتبين صوته وهو يقول:

نقطة من دم يسوع تكفي لتطهيري
لمسة من يد يسوع تكفي لتحريري

كان يبدو ذا مكانة لديهم، تحفّه مجموعة من القساوسة يحمونه من

تدافع الناس حوله، وفجأة توقف عن النشيج وانتفض واقفاً، وخطا نحو بقايا قبة داخل الكنيسة ترتفع فوق درج يغور عميقاً في الأرض حيث القبر.

وكأنه بفعله هذا قد أقام الصلاة، فقد سرت همهمة هائلة في الكنيسة، وأشرعت الجموع أذرعها عالياً، وفتحت أكفها، وشخصوا إلى السماء يستمطرون الضوء.

همهمة عالية وتراتيل تحف الفوهة التي نزل فيها الأسقف، وتدافعت الأجساد كموج وهي ترفع الشموع، مترقبة قبساً من شمعة عظيمة بطول ثلاث أذرع نزلت مع كبير الأساقفة إلى قبر يسوع، وستخرج متوقدة بنوره... رائحة دهن الشموع وعطر نباتي غريب. بقيت قريباً من هملقار خشية أن يقلب التدافع مقعده. كان وجهه متوقداً وعيناه مغرورقتان، يتلفت وهو يقبض بشدة على ركبتيه، وفجأة طلب مني أن أقترب، وهمس في أذني: "سيخرج الآن من قبر الرب ضوء عظيم، فقط صلِّ... صلِّ بعمق".

لا أدري ماذا أقول في جيشان تلك اللحظة، لكنني فجأة وجدت نفسي أتمتم معهم:

نور عظيم ينبثق من قبر الرب يسوع
استنيري استنيري يا أورشيلم
بأضواء نور ونار الرب المقدس
كيرياليسون

وفجأة كأنه تقابل وميضا خط برق شقّ ما بين المشرق والمغرب فوق رؤوسنا. ارتعشت وكادت أن تميد بي قدماي، وتلفت حولي

مرتعشاً... لألمح شمعة كبير الأساقفة تومض خارجة ببطء من وسط القبر، وقد اشتعلت بلهب متوقد، بينما خرج وهو يرفعها ممتقع الوجه بذهول البهجة.

عندذاك، أصيبت الجموع بحالة هياج وتدافع، كل يمد شمعته يريد أن يلتقط قبساً، أو يفوز بجذوة من نيران الرب. كان مع الأسقف سمعان شمعة طويلة نالت فائق الاهتمام بالتزيين، والنقوش، وجدائل عروق شجر الآس، مدها واستطاع أن يلتقط لهباً، ثم وزعها على شموع المجموعة، ولأنني لم أكن أحمل شمعة منحتني الصهباء واحدة بيضاء.

وقال لي سمعان: "مرر أصابعك فوقها، فإنها لهب يضيء ولا يحرق"، فمررتها ولم أشعر بحرارة، عادت إلي أصابعي بغير أذى. تمتمت بالآية القرآنية: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، فسمعني الأسقف سمعان، ولأول مرة أجد في عينيه بريقاً يكسر حاجز الحزن والانكسار، وقال لي بتصميم من بين شفتيه المشدودتين: "هي ليست ناراً، بل نور".

***

وجها الأختين محمران وعيناهما مخضلتان بالدمع، تتمايلان مرددتين مع الأصوات:

قام المسيح من بين الأموات...
فلنسجد فرحاً بمجد قيامته

وأصبح حملة الأجراس يقرعونها بشدة والجميع يصلون، وسجدوا على أرض الكنيسة المفروشة بشظايا الزجاج الملون، وخفت ألا أسجد فأكون أبليسهم. فسجدت، ولا أدري ماذا أقول، فأخذت أتمتم: "سبحان

ربي العظيم..."، ورددتها فلم يرد علي ربي، ورددتها ثانية فلم يبال بي، فهمست بحنق: "يا إلهي إن كنت تسمعني، فاغفر لي وارحمني، فكل ما أفعله سيفضي بي إليك".

وفي لحظة رفعي من السجود، كانت أصابع قدمي هملقار أمامي تتحرك، بل ساقاه جميعهما كانتا ترتجفان. لوهلة لم أنتبه، كنت مشغولاً بنداءاتي لله، لكن فجأة تذكرت أن ساقيه في الصباح كانتا خامدتين ككيسي رمل.

صاحت الفتيات: "قام المسيح"، أم هملقار تبكي بشدة وترتجف، ويختلط دمعها بمخاطها وتسكب على قدميه ماء معطراً بزهر البرتقال وتقول: "هذا ماء من عين سلوان التي شُفي الأعمى من مائها، والتي كانت أم الرب تغسل له ثيابه منها وهو رضيع".

فيزداد ارتجاف قدميه، وفجأة رأيته قد تمسك بطرف ثوبي ويطلب مني مساعدته وهو يقول: "لقد نهض المسيح". وضعت كفي تحت إبطيه ورفعته إلى أعلى فوقف، فبات بكاء أمه وأختيه شهيقاً وهن يصحن: "سار هملقار... سار هملقار... فلتباركه روح الرب... قام المسيح وأبرأه".

كان هملقار في ذلك الوقت يتمسك بي ويفتح شدقيه بابتسامة متوجعة. كان منحنياً، لم يسر مستقيماً، لكن كان يخطو، وابتعد عن الكرسي نحو ست خطوات قابضاً على ثوبي. حاولت أن أعيده إلى الكرسي، ولكنه كان يتوسلني قائلاً: "لنذهب إلى نور النور، لنسر إلى الضريح".

ماذا فعلت بنفسك يا مزيد؟ ماذا غرسك بينهم وبين صلبانهم ونواقيسهم؟ ولكن هملقار كان يسير وهمس في أذني قائلاً: "أيها العربي، فليبارك الرب".

***

لوهلة وجدت الكنيسة تنهض من رمادها، وتعود متينة البنيان صلبة الحجارة عبر أدعيتهم وصلواتهم. حجارتها تلتف حول أعمدتها صعوداً ويشع الضوء، ويبرق الرخام، وحمائم ترفرف فوق المكان. عرفت عندئذ أنها لم تهدم، بل ظلت عامرة في صدورهم.

التفت إلي هملقار، ولأن وجهه كان قريباً جداً، استطعت رؤية قاع بؤبؤ عينيه، وقد تحوّل من الأزرق إلى الأخضر. قال لي بصوت بطيء كالمأخوذ الذي يهذي: "هو معنا الآن هل تدري سر هذه الحمائم التي ترفرف؟"، فهززت برأسي أن لا.

قال بهدوء: "إنه الروح القدس... وهو معنا الآن".

في غرفتي تلك الليلة، شعرت أن كائنات ضوء تحتشد حول مرقدي: حديث النار والنور... من همسه في أذني قبل هذا؟ دون تردد، ذهبت وفتحت حافظة الوصايا وأخرجت الرقعة، فانسكبت الوصية الثالثة:

الوصية الثالثة

العالم هو نار ونور، اشرب من أكواب المعرفة دون أن تلسعك نيرانها، فهي غايتك العظمى وفيها نجاتك.

المعرفة نور واليقين الثابت هو نار مهلكة مخادعة تحبس الأرواح في تنورها إلى أن تتآكل أطرافهم. يا إلهي: أنعم عليّ بفيض ضيائك ونورك المتجدد.

***

بدأت شوارع القدس تتحرر من زحامها بعد أن أخذ الحجاج بالعودة إلى ديارهم، وهملقار لم يمش بنشاط مثل سبت النور لكنه بات يستطيع

الوقوف ومغادرة مقعده والسير بضع خطوات عبر التمسك بالجدران.
كنت قد استطعت أن أبيع بعض الكتب التي بحوزتي. أخذ قس من أنطاكية كتابي الكندي وأبو قراط.

كان قد حضر في زيارة إلى أهل هملقار يريد تهنئتهم بمعجزة المسيح التي لامست ابنهم، فهمس سمعان في أذنه أنني أمتلك بعض الكتب، فانتظرني إلى أن عدت من حلقة عمرو القيسي.

وجدتهما يتحريان أوبتي: سمعان قلقاً يفرك يديه، وأسقف أنطاكية متكئاً في باحة الدار وبيده مسبحة طويلة من حجارة صفراء يقلب أحجارها بين أصابعه. ينسدل شعره على كتفيه شديد البياض كالقطن، وزليخة تكاد تخرج جميع ما في مطبخها احتفاء به.

لم يطلب أن أطلعه على بقية الكتب كعادة الشراة، بل وضع الكتابين في كمه بحرص بعد أن أنقدني ثمناً جزلاً، وقبل أن يغادر، أخبرنا أنها ستمر الليلة بعد غروب الشمس حزمٌ من الشهب في الشرق، يقولون إنها الملائكة التي يبعثها الله لتجهز الأرض لعودة المسيح.

تحمس هملقار وأختاه لرؤيتها. لذا، دعوتهما ذلك المساء للصعود إلى الشرفة أمام غرفتي لتأمل الملائكة التي ترتدي معاطف الشهب.

الجدار الذي تحتضنه أغصان شجرة البرتقال يوجد أسفله مصطبة تقابل المشرق، فرشت الأختان فوقها بساطاً ومخدات، وهيئتا لهملقار متكئاً مريحاً بعد أن رفعتا قدميه على مقعد من الخيزران، وهرعتا إلى أسفل لجلب بعض الخبز وكعك الفصح لنتناوله فوق السطح عند الغروب، وهما في غدوهما ورواحهما أواري بخجل تلك الرغبة المحمومة التي لم تغادرني في أن أغطس أصابعي في غدير وجنتيهما.

كان هملقار مستبشراً، وغادر وجهه الذبول، فقال لي بصوت مرتفع:

"سيظل وجهك يذكرني بخطواتي بجوار قبر يسوع، وتلك النشوة الفائقة التي رافقت انسكاب الدماء في عروق قدمي".

قلت له مغتنماً فرصة غياب أختيه: "هل تريد أن أقرأ عليك شيئاً من قرآننا حتى يتعزز شفائك"، فبرقت عيناه ببهجة وقال: "أرجوك أفعل قبل أن تصعدا وتشيا بي عند أمي".فقرأت الفاتحة والمعوذتين، ونفثت "إذا مرضت فهو يشفين"، وآية الكرسي، ورفعت يدي إلى السماء وبدأت الهمس كما كان يهمس جدي عندما يعالجني من حمى أو ضيق نفس: "إلهي أذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشافي..."، في تلك اللحظة، بدأت الشهب تتساقط بعنفوان وشدة، وبريقها يضيء عتمة الأفق الشرقي، وهرع إلى الشرفة جميع أهل المنزل لمشاركتنا الرؤية.

***

بعد ليلة الشهب أصبح هملقار وأختاه اليمامتان يكررون الصعود إلى شرفتي: الأولى اسمها إليسار، والصغرى حنة.

ومقابل شجرة البرتقال، أسر لي هملقار سر اسمه الغريب، فقال: "كان والدي يحلم أن أكون قائداً عظيماً كهملقار القرطاجي، لكن تَرَحي لحظّي! أصبحت بدلاً من هذا فتى كسيحاً".

ويبدو أن أختيه قد اعتادتا منه هذه المواقف المتأسية، فأسرعتا إلى امتداح ذكائه وجماله، وتمسيد رجليه، وإخباري عن عجائب كان يفعلها وهو طفل صغير، عندما كان يحفظ كل ما يسمع، وأتقن العربية في السادسة، قبل أن تبادره الحمى التي جعلت منه كسيحاً.

كانتا مقتنعتين أن جزءاً من مهمتهما في الحياة هي جعل هملقار سعيداً.

قفزت إليسار من مكانها وقالت: "هو أيضاً قارئ وحكيم، يقرأ بالسريانية والعربية، وجميع من في أنطاكية يجلبون الرسائل إليها ليقرأها لهم"، ثم قالت باستعطاف: "هل تسمح أن أجلب إليه كتاباً من غرفتك لتسمعه"، ودون أن تنتظر إجابتي، قفزت وغابت في غرفتي، فلم تجد إلّا الكتب المصطفة على النافذة، بينما الكتب الأخرى أحكمت إقفال الصناديق عليها.

كان أحد كتب المقابسات، جلبته بثمن بخس من تاجر لا يبالي به وضعه تحت زير للماء. التقط هملقار الكتاب وقلبه بين يديه بخشوع، في حين أن أخته ترفع الفانوس بجانب رأسه، وبدأ يقرأ:

ألا ليتَ شِعري هل أبيتنّ ليلةً
بجنب الغضَى أُزجي القِلاصَ النواجيا
فَليتَ الغضى لم يقطع الرّكبُ عرْضَه
وليت الغضى ماشى الرِّكاب لياليا

قصيدة مالك بن الريب بفصاحة وصوت عذب شجي لكن يفتقد نكهة الرمل.

كان صوته الرخيم وضوء الفانوس الذي ينسكب على صفحة وجهه يظهرانه كقديس يتلو نبوءته: هملقار معجزة المسيح، وروحه الشاسعة المشرعة على العالم. أمضينا الكثير من الليالي نراجع ما يقرؤه ونتفحصه، فيظهر عمقاً في الوعي وألمعية نادرة لم أعهدها في تلميذ قط.

ولم يأخذ الأمر مني الكثير من التفكير قبل أن أزمع تمرير شعلة السراة، فيحملها معاه إلى أنطاكية. وإن كنت وقتها مشغولاً في الأحاديث والمناقشات ومراجعة الكتب وتبشير هملقار ليكون غرنوقاً سرياً في

أنطاكية، فإن هناك من جعلني نصب عينيه وموضع بشاراته.

***

بعد لقاء الكنيسة، كثف الأسقف سمعان صعوده إلي، مرة بحجة جلب بعض الطعام، ومرة للتأكد من أن الباب مغلق من الداخل. وكان في كل مرة يجلب لي أيقونات خزفية صغيرة عليها صورة المسيح وأمه، ثم يشكر الله على شفاء هملقار، وكيف أنه رأى وجه الرب يبرق فوق وجهي عندما كنا في الكنيسة، وأن مملكة الرب قد أشرعت أبوابها لدخولي، فكان يردد: "عندما يتطرق نسيان الله إلى نفس ما، فإن الشيطان يسكنها ضرورة، فالنفس الإنسانية منزل إن لم يسكنه الله سكنه الشيطان". كنت أجلس وإياه وأسمع، ولم أحاول أن أوقفه...

كنت أريده بهذه النظرة الساهمة التي يخالطها بعض البله في وجهي أن يستمر. أريد أن أمنحه زهو المبشر امتناناً لضيافته الودودة الحانية.

لم أشأ أن أقول له إن هذا الكلام يجلب لي النعاس، وإن في ديني الكثير مما تقول، وإنني لا أزال أمحصه وأفحصه، فكيف لي أن أقفز وأصبح مسيحياً قبل أن أحسم الأمور في أرض فطرتي؟

لكنه كان مستبسلاً في دعوتي إلى مملكة المسيح لدرجة أنه بات يطرق علي باب غرفتي منتصف الليل، ويطلب مني أن أستيقظ لأتأمل القمر بعد أن ارتسم وجه المسيح فوقه.

عندذاك قررت أنه آن أوان أن أظهر له مخلباً لعله يكف، فقلت له: "لم تقنعني عملية الافتداء؛ كيف لواحد أن يحمل ذنوب الجميع؟ نحن في ديننا لا تزر وازرة وزر أخرى"، ولكن يبدو أن سؤالي أثار به حماسة منقطعة النظير ليخبرني بأن ابن الرب عفيف جداً كالخروف الوديع،

حتى الخبز إذا منعوه لم يكن يطلبه، وكذلك الماء الذي يشربه... "الابن الذي سيفتدينا ورحمة الله وملكوته الواسع، الذي يحتضن الجميع".

***

بعد يومين شاركنا الأسقف سمعان جلستنا على الشرفة، أنا وهملقار وأختيه، رغم أن العادة في هذا الوقت أن يذهب لمرافقة الراهب أسطفان للصلاة عند رماد الكنيسة.

وأسطفان هو أحد رهبان كنيسة القيامة قبل أن تُحرق. بات الجميع يرونه جوارها جاثياً هناك على ركبتيه دوماً بوجه ذاوٍ ذابل مستغرقاً في صلاة طويلة، فيما تمر به بعض السيدات المسنات يمشطن شعثه ويطعمنه، ويدهنّ قدميه المشققتين بزيت الزيتون والعطور.

يسرد تفاصيل ليلة الحريق لجميع من يمرون به: الحجاج الفضوليون، الباعة المتجولون، قطط الشارع، طيور السماء. يكررها بالتفاصيل والمفردات نفسها، وفي النهاية يقول: "فأمر الحاكم بأمر الله بمرسوم بهدم كنيسة القيامة وتخريب القبر المقدس والكنيسة المبنية عليه، فاجعل سماءها أرضاً، وطولها عرضاً، وكان ذلك في اليوم الثاني من سجن البابا القبطي زخاريخاس، كما استدعى البطريرك ارميا بطريرك أورشليم للروم الأرثوذكس إلى مصر وهو يعتبر خاله، وأمر بقطع رأسه بالسيف". وبين الشهقات واتساع العيون، يذكر أنها كانت أربعاً وخمسين دلواً، عدد دلاء الماء التي نقلها من عين السلوان كي تطفئ الحريق.

الأسقف سمعان، بعد مغيب كل شمس، يذهب إلى موضع الراهب أسطفان، ويجثو جواره أمام الركام والرماد، ويبدآن الترتيل: "شبل الأسد محبوس فمن يقوى على النوم... هل يعقل أن تغفو عين المؤمن بالمسيح

وهو يتخيل يسوع يهان ويقف كمجرم أمام المجرمين، وهو البر بالذات. ويحكمون عليه بالموت وهو الحياة ومانح الحياة للبشر. أما تلاميذه، فهربوا ليتمّ الكتاب: ضُرب الراعي فتبددت الخراف".

ويشاركهما في هذه التراتيل الكثير من الحجاج وسكان حارة النصارى: "ضُرب الراعي فتبددت الخراف..."، فتردد الدروب أصواتهم.

لكن هذه الليلة من الليالي النادرة التي قرر فيها الأسقف سمعان التخلي عن هذا، فترك الراهب أسطفان واختار أن يستعيدني إلى الحظيرة ضمن خراف الرب.

كم كنت أود أن أهمس له عن صراعي المرير مع وسوسات شياطيني وهرطقات الفلاسفة وتجديف الفارابي، كي يتوقف عن مهمته الاستشهادية... ويصمت.

حاولت أن أجعله يطل على بئر شياطيني لعله يصمت، ويكتفي بالصلاة لهدايتي، فقلت له: "ما سر الصراع بين النصارى في مجمع خلقدونية عن طبيعة المسيح؟".

فرفرف بجفنيه بقوة، وتلعثم... قبل أن أقول: "بعضهم قالوا إن الله سيحكم بين الناس يوم الدينونة في صورته الناسوتية، لأنه قبل الخلق ظهر في صورة إنسان، وبعضهم الآخر رفضوا هذه المقولة".

نظر إلي الأسقف سمعان واجماً بحيرة وشعر أنه لا بد أن يتقهقر الآن ويعيد تنظيم صفوف جنوده، ثم يعود من جديد. لكن لم يثنه أمر عن تبشيري رغم استمراري بنظرتي الساهمة التي أحاول أن أظهر بها بعض البله، وأسئلتي المهرطقة حول طبيعة المسيح، التي أغاظته.

توقف بعدها عن الصعود إلي لعدة أيام، وربما كان قد انغمر في

تسهيل أمور كثيرين من الحجاج المغادرين القدس.

***

بتنا كل مساء نجتمع بعد أن تجهز إليسار وحنة متكأ هملقار، فيما أجلب مجموعة كتبي ونبدأ تتبع سطورها. كانت الفتاتان تجلسان برفقتنا لوهلة تستمعان بصمت ودون تعليق، ثم سرعان ما يبادرهما الملل، فتتسللان بلطف النسائم إلى غرفتي، وتنظمان حاجياتي المبعثرة. تصففان أقلامي ودواتي، وتغسلان ثيابي، وتضعان في جرة مائي بعض ماء الزهر، وتتركان لي بعض الكعك، وتغادران ممتنتين مقابل السعادة التي تبرق فوق وجه أخيهما وهو برفقتي.

رائحة زهور البرتقال لم تغادر طيات أثوابهما. توجعني هذه الرائحة وتثير بي شغفاً يجعلني أراهما نائمتين جواري كل ليلة.

استيقظ المسيح والكون وإياه، أجراس الربيع ومواء القطط، تحركت الشياطين في قاع أدمغتنا، كان ودي أن أقول لسمعان: إن الشيطان الآن يهمس في أذني عن رغبته في إليسار وحنة معاً، الشيطان شغف بهما معاً، أسرني ذلك الجمال ترافقه بعض السذاجة، تبقى أفواههما نصف منفرجة بشهوانية عنقود عنب.

***

لم أكن أريد أن أخبر عمرو القيسي حول محاولات الأسقف سمعان التبشيرية، ومحاولة إدخالي حظيرة خراف الرب، فهما كما بدا لي يتشاركان صداقة عميقة وقدراً وافراً من التوقير والانسجام، ولا أريد أن أفسدها، فأنا ضيف طارئ هنا، وسرعان ما سأرحل.

ولكن في النهاية عندما بدأ يطلب مني مرافقتهم إلى القداس أيام الأحد والتغيب عن حلقة عمرو القيسي، نقلت إلى القيسي تلميحات وشذراً من التفاصيل وأنا أقول متبسماً بخبث: "يبدو أنني بت ضيفاً مرحباً به فوق المألوف في بيت سمعان".

لم يغضب القيسي أو ينزعج، طأطأ رأسه فقط قائلاً: "وهل كنت تتوقع من رجل دين أمراً غير هذا؟ هذا يشير إلى أنك بت أثيراً محبباً له، فهو يرغب في ضمك إلى رعاياه خوفاً عليك وامتيازاً يخصك به"، ثم أردف: "ألست وهملقار الآن تمضيان الساعات الطوال في النقاش وتقربه وتستدنيه، وتهيئه ليكون أحد غرانيق السراة في أنطاكية؟ كذلك سمعان يريدك في حظيرة خراف الرب".

"إذاً، لا بأس، هوّن عليك، ومرر كل ما يعرض عليك على عقلك إن قبل به، وإلا الفظه، فالسراة يتأبون إيمان الخراف. وأنت بينهم التقط من الحقل خير الثمار فقط، وتخلص من الباقي".

ثم صمت قليلاً، ووضع يده على فمه كأنه تذكر أمراً، وقال: "على كل حال، لنا، نحن المعتزلة أهل العلم والتوحيد، جدل كبير مع النصارى، فأول من تحدى بخلق القرآن وبأنه كلام الله غير مخلوق بل مؤزل هو يوحنا الدمشقي النصراني الذي جادل مسلمي الشام بقوله: هل تقولون في كتابكم إن عيسى كلمة من ربه أوحاها إلى مريم وروح منه؟".

وعندما أجابه المسلمون: "نعم"، قال يوحنا الدمشقي: "وتقولون إن القرآن كلمة الله غير مخلوقة بل أزلية في اللوح المحفوظ؟... "إذن عيسى إله قديم... غير مخلوق".

رفع شيخي القيسي حاجبيه، ورفرف بأهدابه الطويلة قبل أن يقول: "أرأيت يا مزيد! هي دكاكين للأجوبة، كل يعرض بضاعته، الزم ما يقوله

لك عقلك، فهو الذي يقودك إلى التحسين والتقبيح، وبعدها تختار، فهذه الأرض مر بها العديد من الأنبياء، وكل نبي يخلف وراءه قوماً وجنة... وناراً، وحوارياً يبكي على قبره".

ثم قام وجدّد وضوءه وأمّنا لصلاة العشاء.

***

عادة قبل أن تبدأ حلقات الذكر الرمضاني، يحضر بعض الوعاظ يتلون بعض السير والمغازي وأحاديث من سيرة الرسول والأنبياء، ويظلون يتبادلون مقاعدهم إلى وقت صلاة القيام. لكن الذي كان يجذب فضولي منهم ويتركني مندهشاً فاغر الفم حديثهم عن تاريخ مدينة القدس، فلا أعلم من أين استجلبوا كل هذه الأخبار... أم تراها قد داخلها التدليس؟

يتربعون، يغمضون أعينهم، تتغشى وجوههم نشوة، ثم يرتلون ممجدين: "هي ديار النبيين، ومركز الصالحين، ومعدن البدلاء، ومطلب الفضلاء... فيه القبلة الأولى، وموضع الحشر والمسرى، والأرض المقدسة والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة، ومهاجر إبراهيم وقبره، وديار أيوب وبئره، ومحراب داوود وبابه، وعجائب سليمان ومدنه، وتربة إسحاق وأمه، ومولد المسيح ومهده، وقرية طالوت ونهره، ومقتل جالوت وحصنه، وجب آراميا وحبسه، ومسجد أوريا وبيته، وقبة محمد وبابه، وصخرة موسى، وربوة عيسى، ومحراب زكريا، ومعرك يحيى، ومشاهد الأنبياء، وقرى أيوب، ومنازل يعقوب...".

ثم يلتقط الواعظ شهيقاً عميقاً ويتريث متأملاً أثر أخباره في الوجوه قبل أن يسترسل: "والمسجد الأقصى، وجبل زيتا، ومدينة عكا، ومشهد

صدّيقا، وقبر موسى، ومضجع إبراهيم ومقبرته، ومدينة عسقلان، وعين سلوان، وموضع لقمان، ووادي كنعان، ومدائن لوط، وموضع الجنان، ومساجد عمر ووقف عثمان... والباب الذي ذكره الرجلان، والمجلس الذي حضره الخصمان، والسور الذي بين العذاب والغفران، والمكان القريب ومشهد بيسان، وباب حطة ذو القدر والشأن".

ويمضي الواعظ هكذا حتى إذا لمس في المستمعين فتوراً ومللاً، يكف وينزع عمامته، ويدور على الجلاس ليضعوا ما تجود به أنفسهم، فيما أظل فاغراً فمي لا تفارق الدهشة نفسي.

أسأل عمرو القيسي هامساً عن صحة معلوماته، فيقول لي هازئاً: "أفلح إن صدق، فأحاديث الوعاظ ورواة السير داخلها الكثير من الإسرائيليات".

ومن ذلك اليوم، بت عندما أسير في ممرات القدس، أقلب وجهي بحثاً عن أطلال ما يصفه الوعاظ، فلا أجد إلّا مدينة حزينة مكلومة يعبق هواؤها برائحة زهر البرتقال طوراً، ورائحة حريق وشواء أطواراً.

***

شعرت بلوعة تقترب من الحرقة عندما عرفت أن هملقار وأختيه عائدون أيضاً إلى أنطاكية، وأنهم يتهيئون للمغادرة في غضون أيام، فهذا يعني أنني أيضاً يجب أن أغادر، وأننا يجب أن نفكك تلك الخيمة من الود والأحاديث وحكمة القدماء، التي نصبتها الشهب وأجنحة الملائكة على الشرفة الداخلية، وبدت لي في يوم ما... كأنها الأبد.

هملقار لم يعد بحاجة إلى من يساعده في نزول وصعود الدرج، وأصبح يتوكأ على عصاً ويصعد، وإن كان ببطء يلتقط فيه أنفاسه بين

الدرجة والأخرى، ولكنه يصل في النهاية، فيقصد غرفتي مهرولاً بحثاً في زواياها عن مخطوطة أو كتاب نسيت أن أعيده إلى الصندوق.

في ذلك المساء، أعدوا لنا عشاء خفيفاً: أرغفة قد نثر عليها مسحوق الزعتر وزيت الزيتون وقطع فوقها قطع من الطماطم. كانت إليسار تدهن كل رغيف بملعقة من اللبن المتخثر قبل أن تسكب عليه زيت الزيتون وتناوله أحدنا.

في عادتي أن أواري لوعتي خلف لثام غموضي وأصمت، لكن تلك الليلة هاج بي الوقوف بالطلل، فتفلت مني الكلام قسراً: "أنا مفجوع لفراقكم..."، فأجابوا بتنهدات وحسرات توازي ما لدي أو تفوقه: كلمات لوحها الحزن، وأعين مغرورقة، فأخذنا نكفكفها بوعد للقاء في العام المقبل.

وهكذا نرمم ثقوب الفراق بالأماني التي نعلم أنها لن تتحقق.

فجأة بعد صمت وقد علقت اللقم بالحلوق، همست حنة بصوتها الطفولي الذي يشبه الهديل: "أود أن أسألك سؤالاً لكنني أخشى أن يزعجك؟". قلت في رأسي: ماذا تريد؟ هل أخبرها سمعان شيئاً عن هرطقتي أم تراها حدست أمراً حول هواجسي حولها؟.

فهززت رأسي أنْ ماذا؟ قالت: "هل حقاً، أنتم العرب، تأكلون السحالي؟".

فلكزتها أختها فيما انفجر هملقار بضحك طويل متصل. تأملت وجهها وكان قد احتقن من الخجل، وهمست لنفسي: "هذه الجنية المهلكة الفتنة، هل كانت ترى فوق فمي آثار ذنب سحلية وأنا الذي كنت أمضي الليالي متشهياً أن أقطف عناقيد العنب من فوق شفتيها؟".

شاركتهم الضحك وقلت لها مترنماً بزهو: "أنا مزيد... مزيد النجدي

الحنفي من اليمامة، بلدي بعيون جارية، ونخيل باسقة، وطني كالمرأة الفاتنة المبرقعة تستوحش في حضرة الغرباء، لكن عندما تطمئن، تنزع برقعها وتتجلى وتفور ينابيعها بالشهب والعسل، عسل تختزنه خوابيها من زمن طسم وجديس والأقوام الغابرة...".

***

غادروا الشرفة منحدرين إلى الأسفل وتركوا لي أصواتهم وضحكاتهم، وعيني هملقار الشفافتين المتسعتين بالدهشة، وأيدي أليسار وحنة التي تمر على الأشياء فتبرق، وأرغفتهم الشهية المرية المشبعة بأرج حقول القمح.

سأغادر بيت المقدس وقد خلفت بعض شظاياي هنا فوق هذه الشرفة. دسّت في جيوبي معارف وأوراق مترمدة، وسكبت في ردهات قلبي ذلك الشيء الغامض الذي يبقيك على ضفاف نهر الكلام عاجزاً عن تعبئته في جرار اللغة.

بحذر، مررت ثلاثة كتب إلى بعض الحجاج ممن حدست أنهم سيحفظونها فوق أرفف المهابة والتبجيل في منازلهم أو سوق الوراقين، وأنهيت نسخ منطق أرسطو.

لا بد أن أستعد للرحيل. لا أميل إلى الوقوف على الأطلال، أستمع فقط إلى ناي الحزن حتى آخر نفثة، ثم أبادر إلى لملمة حاجياتي وأفر. أعطي الأسى هيبته واحترامه وجميع مساحاته، وأولم له وأحسن وفادته، ولكنني بعدها أتوضأ من وعثائه وتجهمه، وأدون الدرس الذي يحمله لي بحرص. أغلق الدفتر وأغادر، فما بال حزن القدس ثابت مكين في صدري؟ له أساليبه الماكرة في الحضور مع انكفاء المساءات، وبريق نجم

سهيل الجنوبي، ومع هديل اليمام الشاكي عند شباكي.

لكن، يجب أن أغادر، والماء إن لم يجر ركد وأسن... سأرحل ولن أكذب إذا قلت إن فؤادي يهفو إلى مصر.

***

جافاني النوم تلك الليلة، فغادرت مرقدي، ونزلت من السلم الخارجي إلى الشارع أتلمس دربي على ضوء قمير نعس، ونيران مشاعل متباعدة فوق جدران الأزقة الحجرية الملتفة. سأخبر القيسي أنني سأهبط إلى مصر، وحتماً عندئذ سيخبرني عن اسم السريّ الذي أقصده هناك.

اخترت هملقار ليكون موضع شعلة السراة؛ ذكاء متوقد، نفس متلهفة على المعارف، قارئ نهم، وهناك في مكتبات أنطاكية من الممكن أن يؤسس خلية نشطة من السراة.

سأستنسخ الوصايا السبع وأمررها إليه، ولا أدري كيف ستظهر له، لكن شرط ألا يراها سمعان الأسقف، فيظن أنني أبشره.

الشارع هادئ إلّا من صرصرة حشرات الليل، وصياح ديكة التَبَس عليها وقت الفجر. وعندما وصلت إلى ينبوع ماء يصب من حائط في حوض رائق، اغترفت بيدي ورشفت منه وغسلت وجهي، وشعرت أن همومي تساقطت مع قطرات الماء. عندئذ قررت العودة خشية أن أتيه في ظلمة الأزقة المتلوية، لكن بغتة بدأت أسمع طرقات نعال تقترب. اقشعر جسدي، ما الذي أخرجني الآن وقد قاربنا الفجر؟ قبل أن تتبدى لي ظلال شخص قادم من أول الدرب...

هذه الظلال إما لحارس عسة سيستريب من سيري وحيداً هذا الوقت، وإما للص أو عيار فيسلبني ثيابي ويتركني عارياً. جمدت وحاولت أن

ألتصق واجماً بالجدار لعله لا يلمحني، ولكن لذهولي حينما اقترب صاحب الخطوات، اكتشفت أنها ظلال امرأة ناشرة شعرها... يا إلهي هل هي الغولة؟

حينما جاورتني وجدت أن عليها درع شعر وخمار صوف، وهي تتمتم: "ما أضيق الطريق على من لم تكن دليله، وأوحش خلوة من لم تكن أنيسه".

وكادت أن تخلفني وراءها وتسير فتداركتها هامساً: "إذاً، ما قطع الخلق عن الله؟"، فردت دون أن تلتفت إلي وقد شخصت إلى السماء: "حب الدنيا، إن لله عباداً سقاهم من حبه شربة فولهت قلوبهم فلم يحبوا مع الله غيره".

فسألتها: "من أين درب الله، يا أختاه؟".

عندئذ التفتت نحوي، ورغم الظلمة لمحت عينيها دامعتين مع بعض جحوظ، ونظراتها مسنونة تغور عميقاً في صدري على نحو أجفلني... ثم قالت: "ربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، جوابك ستجده دوماً في قلبك".

فقلت لها كأنني أمرّر لها بعض الحجارة التي تجثم على صدري: "لكن ماذا عن الوسوسات والنفثات الخبيثة؟"، فسمعتها تقول وهي تسير وتتركتني واقفاً: "أحياناً تشعر النفس بانقباض وظلمة، وأحياناً أخرى بانبساط ونورانية... اتبع نورك... أيها الفتى... اتبع نورك".

عدت عقبها مسرعاً إلى غرفتي والوصية الرابعة تخفق في رأسي:

> لا تجعل بينك وبين الحقيقة سداً، فإن جاءت على شكل يقين، فوضّئه بماء السؤال، وإن جاءت على شكل جبل، فاصعده بحثاً عمّا خلفه، وإن جاءت على شكل بشر، فنحّه عن دربك. لا تسلم رأسك لكائن يسوسك ويدعي

أنه يمتلك اليقين كاملاً، فإنك بهذا تكون كالبعير الذي
أسلم عقاله إلى سارقه.

ولم أزل شاخصاً في السقف زائل العقل إلى أن انبلج الصبح.

***

الصباح التالي أخبرني الأسقف سمعان وهو واقف أسفل الدرج ولا يزال يمسد أطراف كمه بأصابعه النظيفة المقلمة أن هناك مجموعة من القساوسة الأقباط سيزورونه خلال يومين ويود أن يطلعهم على بعض مقتنياتي من الكتب.

وأضاف بنبرة أسى وتهكم: "يقولون إن الحاكم بأمر الله قد أسس مكتبة عظيمة فيها الكثير من المؤلفات المتنوعة فى العلوم والفنون، وعيّن لها كتبة ماهرين للنسخ! ويرغبون في انتقاء بعض الكتب الثمينة لبيعها لقومة المكتبة، فهم يدفعون في الكتب باهض الأثمان".

صمت، وحدست عندئذ أن مصر تنتظرني، وأنا من سيمرر الكتب إلى قومة المكتبة.

لم أكن أود أن أصرف كل كتبي هنا، فلا بد أن أنشر بذار السراة في مدن عديدة، ولا بد أن يبقى في حوزتي بعض الكتب لمصر، وإن وفقني ربي ووصلت مكتبات قرطبة، فسيتلقف ما معي كثيرون من العلماء هناك.

فقلت للأسقف سمعان: "لم يعد لي لدي إلّا اليسير البسيط من دواوين الشعر وكتب المقابسات التي لا يبالي بها القساوسة بقدر حرصهم على ترجمات بيت الحكمة في سائر العلوم، لكن على كل حال سأرى ما ظل لدي".

تريثت قليلاً، أود أن أستفسر منه حول المرأة التي صادفتها البارحة،

لكن خشيت أن يسألني عن سبب خروجي من المنزل قرب الفجر، فصمت وخرجت أطلق عيني في الفضاء وأحجار المنازل الجيرية البيضاء تحتضن النوافذ المؤثثة بالورود، وثغاء خراف وحملان ينتشر في الحقول والمراعي حول أسوار المدينة.

ابتعت حفنة من اللوز الأخضر من بائع متجول، وأخذت أقرضها بشهية رغم لذعة حموضتها. ليس لبيت المقدس ماء جارٍ أو قنوات كما في بغداد، فماؤها من العيون، لكنها أشهى المدن في ثمر الفاكهة. الناس حولي تسير الهوينا باطمئنان بعد أن بدأ يخفت هدير الحجاج في الشوارع.

كيف تفككت الأمور وانفرطت معي ولم تعد كل الحكايات تلبي أجوبتي؟ اندفق سيل الحقائق وانهار معمار عقلي، ولم يبقَ لي غرفة واحدة ألوذ بها. كيف ظلت الأمور قائمة ومتماسكة لدى القيسي وتوفر لها النور في وجهه والسكينة في قلبه والكياسة في سلوكه، لكنني تتخطفني الطير؟

كان قد استقر أمري أن أهدي عمرو القيسي كتاب **كليلة ودمنة** بدلاً من إخوان الصفا، فهو من ناحية مجلد تجليداً فاخراً، وبنسخة لم يطاولها البلى والتهرؤ، كما أنها ممتعة وشيقة وفيها حكمة للكبار ومتعة للصغار. أما **رسائل إخوان الصفا**، فالنسخة التي بحوزتي لا تبدو أنها لإخوان الصفا حصراً، بل داخلها الكثير من الابتذال بسبب النساخ، وفيها علوم التنجيم والخيمياء والسحر والطلسمات، كما أنني لا أزال بحاجة أن أقلب عيني في علومهم وأستكنه غموضها... وحاجة من عاش لا تنقضي.

اكتمل كتاب **المنطق** لأرسطو، وسأمضي به إلى سوق الوراقين لأجلّده مع يقيني بأن القيسي سبق أن طالعه، لكن لا بد للسريّ من كتاب أرسطو

في مجموعته، والميزان الذي جعل العقل قاضياً ما بين تحسين وتقبيح.

كنت أسير شارداً مخطوف الذهن حتى أخذتني دربي إلى الراهب أسطفان، لا يزال يجثو أمام رماد الكنيسة يصلي: "أيها الرب يسوع، يا من قلت تعالوا إليّ أيها المتعبون والثقيلو الأحمال وأنا أريحكم، ها أنا آتي إليك وأضع أمامك كل أعباء حياتي، لأنني أؤمن بأنك ستحملها عني اليوم وكل يوم، كما حملت الصليب ذات يوم".

كان وجه أسطفان مدبوغاً مشققاً بفعل طول مكثه تحت الشمس وهو مستغرق في صلاة طويلة، وقد علق في رقبته صليباً خشبياً كبيراً بحجم ذاك الذي يتدلى من رقبة الأسقف سمعان. أشفقت عليه. كان حبل الصليب يترك أثراً في عنقه بعد أن انسلخ عنه الجلد، وحاولت أن أرجعه إلى الوراء، فعلقت رائحته عطرة في أطراف أصابعي، سألته: "هل هو من خشب الصندل؟".

لم يلتفت إلي، بل تمتم: "لربّما...".

غادرته وأنا أتساءل ما سر هذه الرائحة المنعشة الشذية حول أسطفان؟ هل هي الزيوت المعطرة التي تدهن بها المسنات شعره وكفيه وقدميه؟ ولكنهن أنفسهن يقلن إن هذه الرائحة مصدرها الغبار المقدس الذي يثيره رفيف أجنحة الملائكة وغبار نعال الأنبياء حول هذا القديس.

***

حينما أذن العصر، قصدت المسجد العمري لأصلي مع عمرو القيسي وأثني الركب في حلقته، وأنهل من ينبوعه لعله يطفئ حريق أسئلة جوفي، ولربّما سأعلمه رغبتي في الرحيل إلى مصر.

وصلت المسجد وعمرو القيسي ينفض يديه من ماء الوضوء، فصلينا

معاً، ولم تعقد حلقته من الفور، فقد كان يزور المسجد بعض جثالقة النصارى وكبار قساوستهم، وقد طلبوا من الوالي إذناً بدخول المسجد كي يتأملوا بنيانه وعمرانه من الداخل.

ابتهجت بذلك، فسأجاور القيسي، وسأحظى بحديث خاص معه إلى أن تنتهي جولة الجثالقة في المسجد. ما زلت أتلعثم في حضرته وأعود طالباً مشدوهاً أظل أفتش في رأسي عن أحاديث تجعله يراني ذكياً ألمعياً.

ولكن بدلاً من هذا، وجدت نفسي ذلك اليوم أسرد له ما كان من أمري في سبت النور، وكيف أنني ذهبت هناك لمساعدة الفتى الكسيح للوصول إلى كنيسة القيامة، وشاهدت بأم عيني النار التي تبرق من القبر فتشعل الشموع.

فأجابني بصوت متبرم ساخط: "هذا هو الذي أدى إلى هدم كنيسة القيامة، موضع قبر المسيح! فأحدهم أخبر الحاكم بأمر الله عن النار التي تخرج من القبر، فظن أن هذا الأمر هو الذي يدخل الوثنية في عقولهم، ويوقع الشبهة في قلوبهم، ويجعلهم يعلقون القناديل في بيت المذبح، ويحتالون في إيصال النار إليها بدهن خيوط بزيت البيلسان، الذي من طبيعته حدوث النار فيه مع دهن الزنبق، وله ضياء ساطع وإزهار لامع... عندذاك أمر بحرق الكنيسة".

اتسعت عيناي بالدهشة وقلت: "لكن النصارى يفعلون هذا منذ عشرات، بل مئات، السنين، كيف هذا؟".

فأجاب بصوت هامس وهو يهز رأسه: "هو حاكم غير سوي مأفون مضطرب. منذ بداية خلافته وهو يتربص بهم الدوائر رغم أن أمه نصرانية، وخاله رباه، وربّما بسبب هذا أيضاً، لا نعلم!".

"لكن يحدثني والي القدس أنه قد أرسل له ذات يوم خطاباً جاء

فيه: اخصوا رجال الدين النصارى في بيت المقدس، فضجت المدينة واستفظعت الأمر، وعندما راجعوه بالأمر، قال إنما أردت: احصوا رجال الدين، ولكن وقع عليها الذباب وأصبحت اخصوا!".

"قد فعل في أهل مصر الأعاجيب، حرّم بيع الرطب، وجمع منه شيئاً عظيماً في مصر فأحرقه، ومنع بيع العنب وأباد محصول الكروم حتى لا ينتبذه النصارى، ووصل به الأمر أن يرغم النصارى على تعليق صليب في رقابهم زنته رطل وربع بالدمشقي، مثل هذ الذي تراه في رقبة سمعان، وأيضاً ألزم اليهود أن يعلقوا في أعناقهم قرمية بزنة الصليب إشارة إلى رأس العجل الذي عبدوه، وأن تكون عمائمهم سوداً، وأن يدخلوا الحمام بالصليب وبالقرمية، بل يقال أنه في قاهرته أفرد لهم حمامات خاصة لا يخالطون فيها أياً من المسلمين".

"فلمّا نقل له أحدهم حكاية النار التي تخرج من القبر، وشعائر النصارى حولها كل عام من الترتيل والتلويح بسعف النخيل وأغصان الزيتون، كتب لوالي القدس وأمره بهدم كنيسة القيامة وجعل سمائها أرضاً وطولها عرضاً".

ثم أردف وهو يشير برأسه إلى الذين يجولون في المسجد: "تخيل أنت قد قدمت من فج عميق لتحج، وفوجئت أن الكعبة قد هدمت، ليس هذا فقط، بل منع الطواف حولها... ستشعر أن العالم تزلزل، وأن هناك سهماً قد أصاب كبد كل حاج. هذا الفتى المختل الذي يعتلي عرش مصر صنع بكنيستهم ما لم يفعله أبرهة بالكعبة، ولم يكفه ذلك، بل أمر في العام نفسه بهدم كنائس مصر معها".

قال بصوت خافت خشية أن يسمعه أحد الجثالقة الذين يسيرون حولنا متأملين السقوف والجدران بانبهار وهم يجرون أرديتهم الحريرية

المزخرفة بخيلاء كالديكة: "يسمون كنيسة القيامة بوصف محتقر، القمامة، زيادة منهم في الإهانة والاستصغار".

تمتم وهو يهز رأسه: "رغم أنك لا ترى أعز منْ أهل بيت المقدس، فلا ترى فيها سكراناً، ولا بخساً ولا تطفيفاً في الميزان، ولا دور فسق سراً أو علاناً، لكنه الحاكم الأخرق الذي يقال أنه حقد على معلمه النصراني الذي كان يهينه عندما كان طفلاً، فلمّا كبر وأراد أن يسترد حقه، عاد المعلم ليسخر قائلاً: لقد تحولت الوزغة تنيناً، فكان عقابه أن قتله".

أعتم قلبي بعد هذه الأخبار عن مصر، وتوقفت عن إخبار شيخي القيسي عن رغبتي في المضي إليها، فربّما سأعلمه في الغد.

***

لم يمضِ وقت طويل حتى خرج الجثالقة من المسجد، وقد رافقهم القيسي إلى البوابة توقيراً لهم وصافحهم بود، ثم استدار وعاد إلينا يتصدر درسه.

وكان قد تخلف بعض النصارى عن المغادرة بعد أن استأذنوا القيسي للاستماع له، فالتفوا حول حلقته مجاورين طلابه ومريديه قد تشابكت بينهم المناكب والرؤوس.

فهدر عندذاك قائلاً: "إن الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، السلام على من جعله مقيماً للصلاة براً تقياً عيسى عليه السلام، من سلم عليه كتابنا يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً"، ثم أردف على عجل بعد أن بدأت الرؤوس تتلفت باستغراب: "إنما أنت مذكر ليس عليهم بمسيطر، وأهل العدل والتوحيد يتبعون سلطان العقل، عقلهم هو أمامهم".

وأغمض عينيه نصف إغماضة ألقت فيها أهدابه الطويلة ظلالها على خده، كدأبه حينما يتجلى، ولاحت ابتسامة نشوة خافتة على فمه، فقال: "نحن، العدلية، حينما نريد أن نتحدث عن اللغة، نجد أن اللغة ظهرت بالمواضعة والاصطلاح، أي أنها إبداع إنساني صرف تطورت مع تبدل الأحوال، وبما يتناسب مع تغير الزمان والمكان. يقول حكيمنا أبو إسحاق الكندي: إنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق نفسه... الإسلام هيكل يقوم على الأركان الخمسة، وأعمدتنا خمسة، أما ما داخل هذا الهيكل، فلك حرية الإرادة أن تبني وتؤثث حياتك بما شئت من الخيارات".

تمتمت داخلي: "لو جهرت بهذا الكلام في أحد مساجد بغداد، لكنت خشيت أن تتقوض أعمدة المسجد فوق رأسي، ولكن يبدو أن مدينة الأنبياء تسمح ببعض الهرطقة".

***

في طريق عودتي، دلفت السوق المسقوفة التي تجاور المسجد من الناحية الغربية، كانوا يقولون إنها البوابة التي دلف منها النبي - صلوات الله وسلامه عليه - في طريق معراجه.

كانت مزدحمة بحوانيت متجاورة والأرض مبلطة بحجارة عتيقة كبيرة ملساء محفوفة الأطراف، وأمام كل حانوت وقف البائع يروج لبضاعته: بائع السبح يلوح بسبحتين من الخشب العطري، والعطار ينادي على مسحوق يعيد الشيخ إلى صباه، وبائع القفاطين ينادي على قفاطين يصيح بأنها وصلته للتو من بيزنطة... كل ينادي على بضاعته ويزأر كي يفوق صوت من جاوره. اشتبكت بين يدي وحولي مبارزة أصوات،

ولكنهم يعرفون تماماً أين يتوقفون حتى لا يتطور الأمر إلى مشادة، فلعل طول التعايش خلق بينهم حدوداً مخفية تُحترم، كل يعرض بضاعته، والسوق للجميع.

تماماً كما يظهر نبي على رأس كل أمة، فمن شاء أن يؤمن ومن شاء أن يكفر، ولكن الأمر ليس كذلك على الإطلاق، ففي القدس، وفي العراق، وفي اليمامة، أنهار دماء جارية بين صحائف الأنبياء وفي مدن العقيق.

رددت أبيات الشعر التي لا ينفك يرددها القيسي دوماً على مسامعي:

في القدس قامت ضجة	ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق	وذا بأذان يصيح
كل يشيد بدينه	يا ليت شعري! ما الصحيح

وشعرت في تلك اللحظة بحنق على القيسي، فقد قذف بي إلى حيرتي، ونجا منها هو.

ينبوع زليخا

في أيامي الأخيرة التي في القدس، تغيرت معاملة زليخة لي، وبدت ألطف وأقل تجهماً. أسعدني هذا، كنت في أعماقي أكنّ لها وداً واحتراماً فائقاً يجعلني أتقرب منها متمنياً أن يذهب ما في نفسها ضد المسلمين، متمثلاً في شخصي، فلم يكن لي ذنب في مقتل زوجها.

تبسمت لي فبرقت عيناها صفراوان كعيني قطة. كنت أودّ دوماً أن أبدي إعجابي بإدارتها المنزل وحسن تدبيرها، فهذه القامة الجافة

المتجهمة بأنفها المعقوف ووجنتيها الغائرتين هي التي نشرت أرج الورد رداء يجلل هذه الدار. صغارها حولها نضرون مهندمون. تدس بضعة أخشاب وحطب في التنور، ولا تلبث أن تملأ الطاولة بالأطعمة والخبز الشهي. تنثر فوق الأطباق عروق النعناع والصعتر، فتقسمه بين أهل الدار مع شراب اليانسون أو المريمية.

تغترف الماء من حوض أسفل ينبوع يصب من جدار المنزل، وتوزعه في جرار صغيرة على الشرفة وبين الغرفات بعد أن تخلطه بقطرات من ماء زهر البرتقال.

مهارتها في الطبخ تنتشر بين جاراتها، وفي ذلك اليوم الذي زارنا فيه قساوسة مصر، طبخت لهم خنوصاً صغيراً، وزينته بالأعشاب العطرية والبطاطس وحلقات من ثمر البرتقال، فلم يبقَ في الأطباق حتى فتات يعطى لجائعي الكنيسة.

ما قبل الرحيل... ما بعد البرهان

ترجمة إسحاق بن حنين لكتاب **البرهان** لأرسطو، هذا هو الكتاب الذي اخترت أن أنزله برفقتي للقيا المصريين الذين اجتمعوا في منزل سمعان قبل عرض مجموعة مقتنياتي عليهم.

حرصي على اللقاء بهم ليس لترويج كتبي فقط، فجلّ مصدره رغبتي في مرافقة قافلتهم وتقصي أحوال مصر من أحاديثهم.

كانوا أربعة رجال، اصطفافهم في المجلس أعطاه رائحة ذكورية ثقيلة يخالطها رائحة العرق والصندل الذي أشمه عادة في الكنائس. ثلاثة منهم خلعوا صلبانهم المعلقة في أعناقهم ووضعوها في حجورهم، أما

رابعهم، الذي يبدو أنه سيدهم، فكان يتوسطهم ويستند بظهره إلى كرسي المقعد، وهم جلسوا على طرف المقاعد بتأدب والتفتوا نحوه ليظهروا له الإجلال والاحترام. فإذا تحدث، صمتوا جميعهم، وإذا أشار بيده، نهضوا يلبون. جسمه ضئيل لا يتوافق مع صوته العالي الأجش، ولعل نبرته الصادحة هي تعزيز لحضور جسمه الخافت الذي يضيع في حلته الكهنوتية السوداء الفضفاضة. ولكن من يتأمل عينيه البراقتين، يعرف أن داخل طيات الجلباب الأسود ثعلب ماكر يحذق المرور بين متاهات الحياة للوصول إلى مبتغاه تماماً. نظرته المخترقة المتفحصة لي جعلتني أجلس صامتاً ولم أنطق للوهلة الأولى.

وكسراً لجمود المكان، مدّ الأسقف سمعان يده اتجاه الكتاب الذي أحمله قائلاً: "هذا مزيد تاجر كتب قادم من بغداد، ويقول إن لديه مجموعة لا بأس بها من مترجمات بيت الحكمة"، ثم قام من مكانه وسلمه للرجل الثعلب مع انحناءة خفيفة. لم تفتنّي نبرة الاستخفاف في صوت سمعان وهو يقدمني إليهم كأنه يريد أن يقول: من الممكن أن يأتي من الأعاريب شيء ما... قد ومحتمل.

كان ينادي رجل الدين الضئيل بـ"نيافة الأب باسيليوس"، فأجابه باسيليوس وهو يقلب الكتاب بين يديه دون أن يتعنى وينظر إلي: "السوق مليئة بالكتب المنحولة عن أرسطو، ولاسيما كتابه **الأخلاق**، وكتب أفلاطون في السياسة، وليست جميع الكتب نثق بها، قد تكون مجرد عبث النُساخ... شذرات واقتباسات من هنا وهناك دون أن تكون لها علاقة بالكتاب الأصلي، فقد سبق أن ابتعت من تاجر كتب دجال تجمعيات لفيثاغورس وأمبادوقليس وثاميسطيوس".

أثار حنقي طريقته المستخفة وتلك الأسماء المتورمة يتنفج بها أمامي،

فما أدري صدقه من كذبه، فنهضت إليه بخطوات سريعة والتقطت الكتاب من بين يديه، وعدت إلى مقعدي وأنا أقول: "على كل حال، هي سوق، ومن رغب عن البضاعة، لن يكون ملزماً اقتناءها".

فتأملني متفاجئاً لوهلة، فهو ظن في البداية أن مساومة الكهول، التي تقوم على تبخيس البضاعة، ستجعله يحصل على أفضل عرض.

فانبرى بعدها يسألني: "من أين أنت يا فتى؟"، لهجته استحضرت أحاديث حسن المصري. تتشابه لهجتاهما للغاية كأنّهما قد تعايشا في منزل واحد؛ صرير الراء واللام الممضوغة، حضور حسن بيننا، لين تخشب اللحظات... على الأقل بالنسبة إلي، فقلت: "أنا مزيد... مزيد الحنفي، من اليمامة، تعلمت في نجد، وتمت إجازتي من بعض شيوخ بغداد في النحو والحديث والقراءات، وأرتاد حلقات الشيخ عمرو القيسي، شيخ الجامع العمري".

قال لي بصوت جهوري لا تخطئ الأذن نبرة الاستعلاء والتهكم في قاعه: "تقتني وتبيع كتب الفلسفة، في حين أن شيوخكم ينعتون الفلسفة بالكفر، ويدرجون المنشغلين بها في عداد أهل الأهواء الخارجين على الإسلام، فما شأنك أنت بكتبها؟".

باغتني هذا السؤال المستفز، ولم أعلم ماذا أجيب. بالطبع، لا أستطيع أن آخذه نحو مدخل فلسفي، فهو يظل رجل دين ودوماً حرّقت الكنيسة كتب الفلاسفة، وأيضاً لا أستطيع أن أرد عليه بنزق وأقول: وما علمك أنت بها؟ فالثلاثة الذين حوله يتأملونني بعد أن ضيقوا عيونهم، وينتظرون ما يراه سيدهم حولي ليحددوا موقفهم مني، لكنني لا أنكر أنني تألمت، أحسست كأنه ينثر قاذوراته أمام عتبة منزل شما الوائلية.

ولكنني اكتفيت بقولي: "لا يرفض الفلسفة إلّا أحمق ضيق العقل،

سواء أكان مسلماً أم كاهناً نصرانياً، على حين أن لأهل العدل والتوحيد مع الفلاسفة إرثاً عريقاً".

وأخذت نفساً عميقاً وأردفت وأنا أقبض على كتاب أرسطو بشدة بين يدي: "والكندي الحكيم والفيلسوف العربي يحسّن ما يحسّنه العقل ويقبّح ما يقبّحه، ولم يكتف الفلاسفة بالمكوث بين العرب في بيت الحكمة في بغداد، بل إنهم كانوا يزورون خلفاءنا في المنام، أولم تسمع برؤيا الخليفة المأمون؟".

ودون أن أنتظر جوابه، قلت: "لطالما زار أرسطو المأمون في منامه، وفي إحداها سأله المأمون: ما الحسن، فأجابه: ما حسن في العقل، فقال المأمون: ثم ماذا؟ فأجاب أرسطو: ما حسن في الشرع، فقال: ثم ماذا، فأجاب أرسطو حاسماً: إلى حيث ثم لا ثم...".

فأجاب الثعلب الماكر ساخراً: "إذاً، لننتظر السيد أرسطو ليتفضل علينا بزيارة في المنام".

وقبل أن أنقض عليه بجواب كنت أجمع أطرافه المسنونة من أنحاء رأسي، كانت أكواب منقوع المريمية المحلى بالعسل تدور بيننا وتوزعها إليسار، ما اضطرني أن أطأطئ رأسي بقلق، ولكن هذا لم يمنعني من أن ألمح تلك الغمزة الخاطفة التي أرسلتها إلي إليسار... استغربتها، ماذا كانت تريد؟

"لكن هذا زمن مضى وأفل"، قال باسيليوس، "والآن كتب الفلسفة تُحرّق وتُغرّق في بغداد... وانظر بعينك، لولا تسامح المسيحيين، ما دخلت منزل قس نصراني في أورشليم، أو حتى لم أدخل أنا بيت الأسقف سمعان".

"رغم أنه من المفروض أن يكون أسقف كنيسة القيامة معيناً من

مطران الإسكندرية، ولكن في أورشليم استأثروا بالمطرانية، والرب قال من مصر دعوت ابني..."، ويبدو أنه قد حوّل هجومه الآن إلى الأسقف سمعان، فالتفت إليّ سمعان ورأيته يبلع ريقه ويرفرف بجفنيه بشدة.

في تلك اللحظة، وقف هملقار في الباب يتكئ بيساره على عصاه، وعلى كتف إليسار بيمينه، وفهمت عندئذ سر غمزة إليسار، فهرولت إليه أساعدها وهيأت له متكأ. همست إليسار وهي تساعدني في وضع الوسائد خلف ظهره حين سمعت الأحاديث: "أصررت على حضور هملقار، فهو حتماً سيسعد بها".

عدت إلى مقعدي، والآن يجب ألا أصمت وأبدو عازفاً عن الجدل أمام تلميذي، السريّ المرتقب، فلا بد أن يبهره أستاذه.

هتفت وأنا أشرئب بعنقي كأننا توقفنا عند باب الفلسفة: "الفلسفة هي الحكمة، ورسولنا – عليه الصلاة والسلام – قال: الحكمة ضالة المؤمن، وعلوم الفقه لدينا ليست إلّا محاولة التوفيق بين العقل والنقل، والنص كما تعرف حمّال أوجه. يقول حكيمنا أبو إسحاق: إنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق".

فقال باسيلوس بنبرة حنق: "أي حكمة يا فتى...عن ماذا تتحدث أنت ورؤوس القبط الآن تعلق على البوابة الفاطمية؟".

لوهلة شعرت أن القضية ستتحول إلى نوع من الجدل وتنابز التهم الذي لا طائل وراءه، فالتفت إلى الأسقف سمعان وسألته متأملاً أن يهدئ بطبعه البارد التهاب اللحظة: "لماذا تعتقد أن حاكم مصر أمر بهدم القيامة، رغم أن الخليفة الفاروق عند فتح بيت المقدس لم يزل حجراً واحداً من حجارتها، وبدلاً من هذا كتب العهدة العمرية التي تعظم شأن أهل الذمة ومقدساتهم؟".

فالتقط باسيليوس الحوار من جديد وقد ارتفع صوته واحمرت عيناه: "قد خرج أمر الإمامة في هدم كنيسة القيامة على أن يصير سقفها أرضاً وطولها... كما استدعى البطريرك أرميا، بطريرك أورشليم للروم الارثوذكس إلى مصر، وهو خاله، وأمر بقطع رأسه بالسيف".

قال أحد القساوسة الجالسين إلى جواره وهو يزفر ويطقطق بفمه: "لا أحد يعرف أين دفن إلى الآن".

لماذا يرددون جميعهم القصة نفسها؟ هل هي حقيقة أم أنه سمعها من الراهب أسطفان؟ خشيت عندئذ أن أصبح ضحية حاج مفجوع بكعبته وصدور مليئة بالضغينة، ولاسيما بعد أن رأيت وجه الأسقف سمعان يتغير ويغمق لونه، وبدأت شفته السفلى ترتجف بصورة طفيفة.

قلت مراوغاً لسحب الموضوع إلى منطقة آمنة أعرف دروبها جيداً: "الفلسفة ميزان عادل للحق، رحم الله إسحاق بن حنين السرياني وترجمته لأرسطو، فأرسطو يقول إن الفضيلة تقع في منزلة بين رذيلتين، فالشجاعة تقع بين التهور والجبن، والكرم يقع بين الشح والتبذير... وهذه المنزلة المتوسطة وصلت حتى فقه أهل العدل والتوحيد من المعتزلة، فأنشؤوا للفاسق عالماً جديداً بين جنة ونار، وأسموه منزلة بين منزلتين".

ويبدو أن استعراضي أزاح الغضب عني وعن الغرفة نوعاً ما، فصمت باسيليوس، وتكلم أحد القساوسة المجاورين له بصوت مجلجل كأنه يلقي موعظة، وكانت عيناه دامعتين، لا أدري لغضب أو رمد: "لم يصبر الربّ على أفعال الرعاة الذين كانوا في ذلك الزمان، وأنزل الله غضبه على الكنائس بسببهم، فأُبعدوا منها لأنهم كانوا قد صاروا مثل الولاة المُسلَّطين على الكهنة، ويختلقون حججاً لجمع المال بكل وجه، ويتَّجرون في كنيسة الله... ويبيعون موهبة الله بالمال، وكانوا يُسلِّمون

الكنيسة لِمَن يدفع ديناراً أكثر وهو لا يصلح لخدمتها أو يقوم بأمورها... حتى سلط الله عليهم الوزغة التي أصبحت تنّيناً فهدم كنائسهم".

التفت إليه باسيلوس حانقاً كأنه يقول ليس هنا مقام ذم المسيحيين المكلومين، هذا كلام يقال بيننا وليس في حضرة هذا العربي المتمنطق وسمعان العاصي كنيسةَ الإسكندرية.

فهمس بصوت جاف ولسان متخشب: "يا يسوع نجدتك... كنا خرافاً ضالة وعدنا إلى راعي نفوسنا. أرنا ما عندك، أيها العربي، من كتب لنرى هل فيها ما يستحق أن ندفع فيه أموال الكنيسة؟".

من الخطوة الأولى في حضرة باسيليوس، لم تعجبني طريقته أو أسلوبه، فهو بذاته وزغة ظلت وزغة، ولم تتحول تنيناً، وشعرت به أجوف لم يترك أحداً في المجلس لم يتعرض له، والعلم عنده كما غيث ينسكب فوق الرمال فلا يزهر ولا يثمر، بل ستمتصه دهاليز روحه الخاوية.

لكن اكتفيت بأن لوحت له بكتاب أرسطو **الجدل والمنطق**، وقد أضمرت أن أطلب فيه ثمناً مرتفعاً يعجزه، لكن فجأة، ولأول مرة منذ دخوله، تكلم هملقار كأنه يتلو نبوءة: "نيافة أبونا باسيليوس، لقد أمضيت مع كتب أرسطو ليالي طويلة، وما أظن أنني فقهت إلّا أقلها، ولكن في رأيه، جعل الوصول إلى الحقيقة أو الحكمة عبر تقصي البراهين وقياس الشاهد على الغائب، فيجلب مقدمة كبرى ثم مقدمة صغرى، وعبرهما يصل إلى نتيجة تثبت صحة قوله".

التفتت الرؤوس إليه كأنها رؤوس أهل مريم يقولون: كيف نكلم من كان في المهد صبياً؟

لم يضطرب هملقار من ذلك، وإنما أكمل: "أستشهد عليها من حديثنا، المقدمة الكبرى: لم يصبر الرب على أفعال الرعاة الذين كانوا في

ذلك الزمان... المقدمة الصغرى: كان رعاة الكنائس عصاة... النتيجة: أنزل الله غضبه على الكنائس جميعها بسببهم".

خيم على المكان صمت عميق، ثم حينما لمحت الأب باسيليوس يبلع ريقه استعداداً أن يهدر، خشيت أن يقول أمراً يكسر قدمي هملقار الهزيلتين في الفلسفة، وخشيت أن يختلس زهو شهر من المعجزات، والفلسفة، والخطوات، وأحاديث خيمة زهر شجرة البرتقال التي أخرجت هملقار من محنته... فقلت بسرعة خاطفة لا أعرف ما أنطقني لحظتها: "يااا إلهي! اعذرني يا هملقار"، وضربت بكفي على جبيني علامة النسيان"، مردفاً: "لقد نسيت أنك قد ابتعت كتاب **البرهان**، اعذرني أنني عرضته للبيع، واعذرني، يا نيافة الأب باسيليوس، الكتاب من نصيب هملقار، ولا أعتقد أنني أمتلك المزيد من الكتب لأرسطو".

شعرت براحة كأن حملاً أزيل عن كاهلي، فلا أريد أن أسبب المزيد من الإحراج للأسقف سمعان، ولا أريد أن ينتشر بين أهل بيت القدس أن العربي يمتلك في غرفته مخطوطات كانت توزن أوراقها بالذهب. حملت الكتاب وأعدته إلى هملقار. كان وجهه قد أضاء والتمعت عيناه، وحرك أطراف أصابع قدميه.

***

هملقار كنت أعرف أنه يمشي ولم يكن يوماً مقعداً، فعندما توكأ علي في كنيسة القيامة وسط الهيجان وتدفق المشاعر، كان يمشي كرجل طبيعي. لم أشعر أنني أسانده، فهو في تلك اللحظة لم تكد قدماه تلمسان الأرض حتى ثبت خطواته، وانتصبت ساقاه، ولكن لا أدري لَمَ اختار أن يصبح

كسيحاً؟ هل هو تمرد على والده الذي أراده قائداً، هل كان أبوه يجلب إليه الخراف الصغيرة ليذبحها ثم يلطمه إذا لم يمتثل؟ هل هي رغبته عن المشاركة في مصير والده الفلاح المنحني دوماً للأرض... فقد كان يريد أن يرفع وجهه ويتأمل الملكوت الأعلى للرب؟ فتذهب عندها أختاه صبح كل أحد إلى مكتبة الكنيسة وتعودان بحزمة من الكتب إليه دون أن يطاله التأنيب على الغياب عن الحقل؟ هم كذلك السراة الغرانيق يولدون بأجنحة من الصعب أن تغمسها بالطين.

ناولته الكتاب وكان وجهه الوسيم مشرقاً وشعره على كتفيه ملتمعاً مرجلاً، وكنت في أعماقي على يقين أنني لم أضع الكتاب إلّا في أفضل موضع برفقة هذا الفتى المتوقد الذي قص رجليه فنبتت له بدلاً منهما أجنحة شاسعة مصنوعة من صفحات الكتب، وهكذا أظل وفياً لشرائع السراة. استزرعت هذا الكتاب في حقل مشمس أفضل من أن يكون في مستودع كتب مظلم ومتعفن داخل كنيسة باسيليوس.

***

الوليمة الغنية والخنوص الصغير عندما أصبحت في بطن الأب باسيليوس، نسي كل شيء وعزف عن رغبته في اقتناء الكتب، حتى أنه أخبرني وبعض فتات الخبز والدهن قد تناثر فوق لحيته عنوان قافلة من الحجيج ستهبط قريباً إلى مصر.

***

وقف هملقار جوار أولئك الذين يلوحون لي وأنا أغادر إلى مصر. كنت قد بعت أيضاً بعض الكتب للأساقفة العائدين إلى دمشق وبيزنطة، وعرفني

أبو هملقار على شماس يعمل عند بطريرك الكنيسة في كونيا، فأخذ مني ثلاثة كتب دفع فيها دنانير ذهبية.

مرّرت أحد الدنانير إلى زليخة المريمية التي تنسكب من الصباح إلى المساء نضرة وعطاء. وأنا أتجهز للسفر زودتني بجرتي ماء ومزودة وضعت فيها لحماً مقدداً، وجبناً جافاً، وقوارير زيت الزيتون، وأقراصاً من القمح.

غرفتي وشرفتي مقصد نجوم المساء تختبئ بين أغصان شجرة البرتقال المزهرة.

كتبت الوصايا السبع ومررتها إلى هملقار. كانت دربه باتجاه مسرى الغرانيق خضراء ممهدة، ولم يمر تحت سقف الوثيقة القادرية أو نصال السيوف، ولم يعرف أن رأس الحداد الفارسي تدحرج في حانوته كرأس البعير.

***

صليت الفجر خلف عمرو القيسي، وتلا: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى...﴾، ولم نكد نتبين أعمدة المسجد في غبش الصبح. كان شامخاً مهيباً كما يليق بسريّ بعباءة ديباج سوداء بلون عمامته. وضع يده على كتفي وقال لي: "يا مزيد، ما قسم الله بين الناس شيئاً أقل من اليقين، فأمسك جمر السراة ولا تفرط به".

وعندما لمس أنني متحشرج حزين للرحيل، قال مرفهاً عني مطيباً خاطري: "قسم الجاحظ البلاد وجعل الأمصار عشرة: الصناعة بالبصرة، والفصاحة بالكوفة، والخير ببغداد، والغدر بالري، والحسد بهراة، والجفاء بنيسابور، والبخل بمرو، والمروءة ببلخ، والتجارة بمصر،

فأدعو الله أن يبارك لك في تجارتك أيها السريّ، وأنت تقصد مصر".

ثم مضى وخلفني وراءه وهو يردد: "في حفظ الله أيها الحنفي".

وأخذت في طريق ذهابي إلى موضع القوافل أقرع نفسي وألومها، كيف بدوت خنوعاً أغالب دمعي أمام عمرو القيسي كطفل سيفارق أمه؟

القدس صوامع الأنبياء، ورفيف الملائكة، وطرق نعال القديسين في دروبها.

القافلة تهبط نحو الجنوب... نسمات دافئة تطوق المكان، أجراس تقرع قادمة من مكان غامض ناء، فيها بحة شجن وحزن.

الفصل الرابع

اهبطوا مصر

غادرت القدس بصحبة قافلة الحجاج القبط، وخلفت القدس موجوعة نازفة. لم يكن يستطيب حدائي وأهازيجي أحد، فهم عائدون إلى ديارهم، يقرعون النواقيس وينشدون بصوت شجي مرنم: "المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة".

رغم لوعتي لفراق رفاق القدس الذي سيظل في صدري كندبة، فإنني حين استقبلت الدرب بت يقظاً متحفزاً، مأخوذاً بالبدايات. أشعر أنني أغطس في ينبوع يوضّئني من كل ما علق بي من وعثاء وخيبة، وتعوّد يقارب الملل.

استطعت أن أجد في سوق البزازين في القدس ثوباً طويلاً مشغولة أطرافه بخيوط حمراء على شكل صلبان صغيرة في غاية الدقة، ولكنها حين تتجاور مجتمعة تكون باقات ورد. يبدو أنه كان غطاء لطاولة أو مذبح كنيسة، فابتعته وجعلت منه غطاء لصناديق كتبي يحميها ويمنع عنها الفضوليين والمتطفلين.

القافلة طويلة وممتدة لا أتبين طرفها. أباعرها نشطة بأخفاف ضخمة. خرجنا من إيليا، أو بيت المقدس، وكانت النجوم ما برحت تتهامس في السماء.

عندما غادرت بغداد، ظلت تتنازعها السيوف والألسن مليئة بالبشر الخطائين والشعراء والجياع، محض عقيقة مشربة بالدماء وشهوة التغلب، واليوم وأنا أغادر القدس، هناك نحل شرس يأز فوق قباب الأقصى، وجمر لم يفتر تحت رماد كنيسة القيامة، وغضب على وجوه الناقمين على جراد الرب الذين دنسوا مساجد وعرصات القدس، وحنق آخر داخل قلوب أولئك الحجاج الذين تسلقوا الجبال الباردة وقطعوا السهوب والهضاب المثلجة ليجدوا أن قبر ابن الله قد تساوى طوله بعرضه.

القدس أخذت تلتمع خلف ظهورنا، وتطوقها هالة حمراء، هل هو خط الشفق، أم لواعج مدينة يُختصم بين جدرانها منذ بدء الخليقة؟

***

سلكت قافلة الحجاج العائدين إلى مصر الدرب التي يسمونها طريق الآباء والملوك، والتي تجتاز جبال فلسطين الوسطى. يقولون إنها الدرب التي سلكها جميع الأنبياء. استحوذت علي هذه الفكرة، وأخذت طوال الوقت أنصت إلى قرع نعالهم الجلدية المتقشفة بجوار راحلتي وصدورهم المثقلة بحلم ينجو بالبشرية من المهالك والآثام.

موسى ابن الماء يطرق الأرض للمرة الأولى فينبجس من الأرض اثنتا عشرة عيناً، ويضربها للمرة الثانية فينشق البحر راضخاً... يوسف الوضيئ الذي أضاء جبينه جنبات البئر لكنه لم ينر قلوب إخوته الدامسة... عيسى الطفل وأمه يتبع دربهم النجوم والملوك... من أيضاً؟ جليلة هي هذه الدرب، عليهم جميعاً السلام.

ظل مشينا بطيئاً متلكئاً، فقد خرجنا إلى بيت لحم، وتوقف فيها الحجاج بضع يوم، وصلّوا في كنائسها، وتمسحوا بمزاراتها، ثم بلدة

الخليل، ولبثنا فيها يومين آخرين، ثم مضت القافلة تسير وتتوقف ولم نمضِ بسير حثيث متواصل إلّا بعد أن وصلنا رفح.

كان بيع الكتب قد منحني بعض الدنانير حول خصري ولكن يجب أن أذكر طوال الوقت أنني سريّ مهمتي الأولى وضع الكتب في مواضعها لا المتاجرة بها. تسنى لي شراء راحلة قوية هذه المرة، ولم أدع البائع يختارها لي ويستغل سذاجتي وجهلي، كما الحال عندما ابتعت شبرا.

شبرا ناقتي العجوز أعتقتها وتركتها تمضي السنوات الباقية من عمرها ترعى حول أسوار بيت المقدس. أيضاً ابتعت من أحد الحجاج القادمين من بيزنطة ركوبة بسيور أستطيع أن أضع فوقها حاجياتي ومن ضمنها الصندوق، وكانت متينة ذات جلد صقيل، ومحلاة بالزخارف الفضية... كل هذا برفقة بغل يافع مطيع يحمل البقية من مقتنياتي.

***

حين وصلنا العريش، كان يبدو أن كل أهلها قد خرجوا وخلّفوا منازلهم الطينية خلفهم واصطفوا بسلالهم يلوحون للحجاج ويعرضون عليهم البسط والسلال وبواكير البلح. لمحت حرصاً كبيراً من الحجاج على ابتياعه. يخبئونه أسفل أمتعتهم وفي جيوب متوارية فوق راحلتهم ليأخذوه هدايا من الأرض المقدسة. لم أعرف سرّ لهفتهم إلّا بعد أن أخبروني أنهم لا يستطيعون إظهاره أمام الحرس والعيون بعد أن أمر حاكم مصر بإحراق جميع محصول الرطب والعنب ذلك العام، فأمسى يباع خلسة بأثمان مرتفعة جداً.

رغم هذا تشهيت قليلاً من التمر، فأنا ابن اليمامة، وأول ما باشر جوفي قبل حليب أمي تمرة من نخل اليمامة حنكني بها جدي. فمي يتشهى تمرة أستحلبها تحت أضراسي. توقفت عند بائع تمر نحيل غامق السحنة عاقداً

حاجبيه، وزوجته تقف إلى جواره متبرقعة، يداها جميلتان منقوشتان بالحناء. كان يعرض بضاعته في مكان بعيد عن اصطفاف بائعي التمر بالإضافة إلى قطع المضير، ودهن، وسلال صغيرة مصنوعة من سعف النخيل. ابتعت منه بعض التمر المكنوز والمضير. طعم المضير في فمي جعل الشوق يتخطفني، فتجاوزت سحنته الغاضبة وسألته: "كيف هي جزيرة العرب خلفك؟".

أجابني بلا مبالاة: "بخير"، كان يتأملني باستخفاف وقدر من احتقار، ظنّا أنني مسيحي أنتمي إلى قافلة الحجاج القبط. حاولت أن أتلطف معه لكنه كان جافاً أشاح عني، وإزالة الجبال الرواسي أيسر من تأليف القلوب، فعراكنا مع الروم لم يترك للوداد سبيلاً.

***

ونحن على مشارف مصر قال أحد القساوسة الذي ظل طوال الرحلة يركب حماره: "سنسير وفق طريق العائلة المقدسة، فما تحملت هذا الحمار البليد وسيره البطيء إلّا اقتداء بالعائلة المقدسة".

سمعت أحد الحجاج بجواري يقول له ساخراً: "هل ركبت الحمار اقتداء بعيسى وأمه عندما اختبآ في مصر، أم لأن حاكم مصر منع النصارى من ركوب الخيل؟".

عندذاك هرول بعيداً عنا فوق حمارته وهو يتلو مزاميره قائلاً: "كان الرب راكباً على سحابة سريعة، دخل مصر وارتجفت أوثانها بنور وجهه، ويذوب قلب مصر داخلها".

***

قاهرة المعز

١٨-١٢-٤٠٢

١١-٧-١٠١٢

لم يكتف عمرو القيسي بأن أسر لي باسم أحد سراة مصر، بل كتب لي رقعة تسهل دخولي إليه وتوزيع كتبي في جو مصر المحتقن بالريبة والمزدحم بالعيون.

واصلنا المسير جنوباً ولفحات الهواء تزداد سخونة لكنها لم تفقد نداوتها حتى وصلنا إلى بلدة صغيرة تقبع على تلة بين الحقول والنخيل يدعونها تل الزقازيق: بيوت طينية متقشفة بمقدمات مظللة بسعف النخيل، تطوقها مزارع الفواكه وحقول الشعير، سوقها مزدحم، أهلها مبتهجون بقدومنا ويتأملون ما نحمله بفضول بحثاً عما يصلح للبيع، وفي أطرافها مقابر مهجورة وأوثان أقوام بائدة.

كان معظم الحجاج قد تفرقت بهم السبل وانشطرت القافلة الطويلة شيعاً، وأخذ المسافرون يتخلصون من الفائض من العنب والتمر قبل الوصول إلى قاهرة المعز.

وحذرني أربعة حجاج كانوا طوال الوقت يماشونني من أن أعرض ما لدي للبيع من عنب وتمر على نحو سافر، فقد يكون المشتري بذاته عيناً لرئيس الشرطة أو الحاكم، بل أكتفي عوضاً عن هذا بالتلميح والإيماء. التلميح والإيماء! كيف؟ فأنا لا أنوي المتاجرة به؛ أود التهامه فقط.

فكرت في إطعام ناقتي البلح والزبيب أو أناولهما لأول جائع يصادفني، لكن قبل أن أعلن نيتي، بادر أحد الحجاج الأربعة، وكان يضع في خطام ناقته حلقة واسعة ويزين ركوبته ذات الغطاء الصوفي بحلقات نحاسية، ويبدو أنه هو المتسيّد رفاقه، فعرض أن يبتاعها مني بسعر بخس، مدعياً

أنه يعلم أين يصرفها دون أن يثير الريبة!

مستغرباً أخبرته أن هذا أقل حتى من الثمن الذي ابتعتها به! فغادر وهو يرفع كتفيه ويقول: "كما تشاء". عندئذ، عرفت أن قصة عيون الشرطة والحاكم جزء من صفقة كانت تحاك وأعين كانت تتبع الذي ابتعته خلسة.

في النهاية، رضخت لمطلبهم مقابل أن أتخلص من حمولتي، وأبقيت منه صاعين زبيب، وصاعاً من التمر، وأظهرت أنني يوسف البريء الذي صدق دعوى إخوته ومكرهم. لا بأس، هي أمور تشبه الضحكة البلهاء التي أعلقها على وجهي عندما لا أود أن أكون طرفاً في المبارزة.

أنقدني إخوة يوسف ثمن التمر أربعة دراهم فاطمية نقش على أحد جانبيها "علي ولي الله"، وعلى الوجه الثاني اسم الحاكم بأمر الله الفاطمي. أول مرة تصل يدي، ففي بيت المقدس وبصرى ما برح الدينار والدرهم العباسي موضع الثقة في السوق، والله أعلم عن إخوة يوسف، قد يكون درهماً مزيفاً مكذوباً لو لكته بلساني لأصبح تمراً.

واصلنا المسير عبر مزارع شاسعة تتخللها قنوات مائية تطفو فوقها أغصان الشجر وريش الطيور وقوارض نافقة ورائحة الزرع وروث الدواب عبقة في المكان. أدهشتني ضخامة جذوع الأشجار الريّا بطمي النيل، لو التف عليها خمسة رجال ممدودو الأذرع ما استطاعوا التماسك. ثمة صبية يتلاعبون فوق أغصانها وفلاحات نشطات يمررن تحتها بأثواب ملونة تلتصق بأجسادهن وخطوة غنجة وضحكة لعوب، كما يحملن جرار الماء فوق رؤوسهن كحُلية تزيدهن ملاحة.

حتى لاحت لنا بلدة عين شمس، والشمس فيها على وشك أن تغرب. لذا، سألت عن مكان للراحة والمبيت وعلف دوابي، فتطوع أحد

الفلاحين ودلّني على نزل يبعد قليلاً عن المدينة اسمه بيت المسافرين، ودون أن أطلب منه، أمسك بخطام بعيري وسار بي إليه.

صندوقي يثقل تنقلي وتحركي وأخشى عليه من الضياع والعيون، وأود الحفاظ عليه تحت سقف آمن. مسيري إلى النزل لم يمنحني شعوراً بالاطمئنان أو الأمن، لكن كان الشعور الوحيد الذي أحسسته هو الخيلاء واستنقاص من كان يمسك برباط بعيري لرثاثته وقدميه الحافيتين المشققتين... "يا رب، لا تجعل للكبر درباً إلى صدري".

أسفل النزل كانت هناك سيدة مسنة تبيع خبزاً، وتدس عروق القصب وفروع الشجر تحت صاج حديدي محمّى، وتخبز أرغفة كبيرة ثم تشبعها بالسمن ودبس القصب.

ابتعت منها رغيفاً شهياً ساخناً، فقالت لي: "ألا ترغب في رغيفين آخرين للغد؟ فطعمهما بعد ليلة كاملة يتشبعان فيها بالدهن والعسل يصبح أكثر شهية". أنقدتها ثمنهما والتهمتهما قبل أن أغفو، فكانا السبب لتلك الأحلام الجامحة التي زارتني مع صوت هدير النهر في عروقي والمصريات ينقلن الماء منه في جرارهن المستديرة.

***

أكملنا المسير فجراً من عين شمس إلى سور القاهرة. لم ينقطع العمران حولنا، ولم يبق من قافلة الحجاج إلّا عدد محدود ما بين سبعة إلى عشرة رجال، فما انتصف النهار، حتى لاح لنا سور قاهرة المعز شاهقاً متيناً محصناً يبز سور المدينة المدورة في بغداد، كأنما أنشأه الجن والعفاريت. المنطقة المحيطة بالسور يزدحم فيها الناس والقوافل، والباعة يصيحون مروجين لثمرة عطرية فواحة يسمونها جوافة. تركت راحلتي وبغلي

ومتاعي مع حارس القافلة قبل أن أنقده أتعابه التي اشترطها ونحن في بيت المقدس.

كان قد أخذ يدور على المسافرين مطالباً بأجرته، فلمّا وصلني، وضعت خطم راحلتي بين يديه، وقلت سأذهب إلى الصلاة في الأزهر ولن أمضي وقتاً طويلاً، بل سأعود لأمنحك نقودك.

***

استوقفني عند البوابة العسكر الفاطميون الذين ظل الحجاج طوال الرحلة يتحدثون عن سطوتهم وشراسة طباعهم. يقولون إنهم تحدروا من جبال الصحراء، فبات لهم كبود الجمال وقسوتها. سمر الوجوه يعتمرون عمائم بيضاء ثقيلة وفي يمينهم رماح طويلة، ويتكلمون عربية معطوبة.

وعند البوابة تفحصني أحدهم، قلت له إنني طالب علم وافد إلى الأزهر الشريف، فسألني: "من أين قدمت؟"، فأجبته: "أنا قادم من من جزيرة العرب، اليمامة، حيث بنو الأخيضر من آل البيت الأشراف الأطهار".

ولا أعتقد أنه فهم جميع ما قلت، إنما رطن بالبربرية مع مجموعة من حرس البوابة، وسمعتهم يرددون: "طالب طالب"، وسرعان ما أشرعوا لي البوابة، وإن كانت لم تلن وجوههم لي.

رغم تجهّم عسكر البوابات، لكن مع خطوات يسيرة إلى الداخل، تتبدّى لك القاهرة مجلوة لها نضرة الجديد وبهاؤه، ومبانٍ حسنة النقش بنوافذ خشبية مزخرفة جلها من ثلاثة طوابق، وساحات تتوسطها أحواض مزهرة يفور فيها نوافير، وقنوات مرصوفة يجري فيها الماء أسفل جدران المنازل، فيما رُشق فوق الجدران مصابيح نحاسية بزجاج ملون،

وبجانب كل مسجد ميضأة وماء سبيل يتناوب عليها الحمام واليمام.

دروب القاهرة جميعها تلتف لتصب في درب طويلة يسمونها درب المعز قامت على جنباتها الوكالات والدكاكين، وتضج بأصوات الباعة المتجولين. ظللت أمشي في هذا الدرب أقلب عيني في واجهات الحوانيت، ولم يكن وجهي الغريب يسترعي انتباه أحد، فيبدو أنهم قد ألفوا الغرباء من الطلاب قاصدي الأزهر.

في نهاية درب المعز، كان على يميني مبانٍ من طابق وحيد متجاورة وتفتح أبوابها على ساحة شاحبة تتوسطها تبدو أنها ثكنات للجند، فقد رأيت جماعات العسكر يصطفون مشرئبين في الساحة، ويبرق تحت ضوء الشمس قلنسواتهم وسيوفهم ودروعهم. ألويتهم بيضاء وعليها أهلة من ذهب، وفي كل هلال صورة سبع من الديباج الأحمر.

يصلني هدير صيحاتهم وحمحمة خطوات نشطة صلفة عابسة. انتفض قلبي، فهؤلاء من ينازع بنو العباس ملكهم، ولكن رهبة العسكر سرعان ما تلاشت عن يساري على عتبات الأزهر الذي ينتهي به درب المعز عندما لوحت لي مآذن شاهقة تحدب على قباب صقيلة مطعّمة بالفسيفساء.

دخلت الجامع من البوابة الشرقية حيث بادرني إيوان تزخرف سقفه بالمذهب، وتحفه خمسة أروقة، وينهض بتلك الأروقة أعمدة رخامية تنتهي بتيجان نباتية ملونة متداخلة يهدر أسفلها حلقات العلم. لعله إيوان القبلة الذي انتشر الحديث عنه في الأمصار، ووصلت أخباره بغداد، فظللت طويلاً أحدق في الزخارف فوق رأسي بعد أن تهيأ لي لأول وهلة أن الزخارف طيور تتهامس.

كبّرت وصليت ركعتين بعد أن أشرقت بقبلتي، وبينما أقرأ التحيات،

عدت أقلب وجهي في زخرف البنيان والسقف، وفجأة أحسست بحضور يجاورني ويتأملني بعمق دون أن تطرف عينه. جفلت في تلك اللحظة وسلمت من صلاتي على عجل لترتعد أطرافي حينما حطت عيناي على مجاوري، ليس لمباغتته إياي فقط، لكن لهيئته الغريبة وعينيه المستديرتين المذهولتين.

كان أشعث الشعر أشيبه لكن وجهه ما برح فتياً، وفي عينيه بريق غريب يشي بشخص مجذوب يرتدي ثوباً فضفاضاً مهلهلاً، لكن رغم هذا، فرائحة ثوبه رائحة الغرفات المنزلية المنعمة وليس عطن الأزقة والشوارع. أشار لي بيده إلى عقود النبات في سقف المسجد، فرفعت رأسي نحوها ثانية، فهدر بصوت عميق مستفسر: "حدائق وجنان خالية من البشر: أين سكانها؟".

باغتتني سؤاله، فهززت رأسي قائلاً: "لا أعرف"، فأجابني بصوت يبدو أنه منفصل عمّا حوله: "إنها مشاهد الجنان الخالية تتحرق شوقاً لسكانها"، ثم فجأة قفز من جانبي وغادر. كانت مشيته مضطربة نوعاً ما ويحمل بيده عصاً خشبية برأس فضية على شكل أسد.

أخذت أتابعه بناظري وهو يتخلل أقواس وأعمدة المسجد ويتلاشى في طاقة الضوء كالشبح.

***

يجب أن أعود إلى السور الآن حيث موضع الدواب؛ الكتب هناك، ويجب أن أتدبر موضعاً آمناً لها، وأنا الآن كضبعة تتصيد وجراؤها على أكتافها.

أحتاج منزلاً في موضع قصي موارب لا يثير الفضول، فإن كانت

الأمور قد مضت بسلاسة ويسر في القدس مع أفواج الحجاج الهائلة المنتظرين قيامة مسيحهم مع الألفية الأولى، فإن الأمر مختلف الآن في مصر، وأرى الخوف والحذر في وجوه الناس ولفتاتهم. بعضهم باتوا يتحدثون بصوت منخفض مختنق، أما الباعة المتجولون، فيروجون لبضاعتهم بالزعيق. فإذا مر بهم أحد العسكر، اختنقت أصواتهم وتنكست رؤوسهم واكتفوا بالهمس في أذن من يمر بهم.

بإمكاني أن أكتري منزلاً كتاجر زائر. لن أذهب إلى السريّ الذي دس لي عنوانه عمرو القيسي إلّا بعد أن أستقر.

قيل لي في القدس أن الحكام والأمراء هنا يجرون الأوقاف على طلاب الأزهر، المنامة والمعاشة، فإذا لم يجدوا لهم حيزاً، أخذوهم ليباتوا في حجر مخصصة للطلاب في حدائق قصورهم.

لكن هذا آخر شيء أريده هنا، أنا وصندوقي المزدحم بالكتب التي فيها نظر، فقد يشي بي واشٍ هناك بين الطلاب، ثم لا يلبث رأسي أن يتدحرج تحت أحد أبواب القاهرة.

واصلت بحثي عن مأوى ولم أعرف آنذاك أن المأوى كان يبحث عني أيضاً، فبعد أن خرجت من المسجد أخذت أتجول في الدروب المتشابكة التي تلتف حول الجامع، والمحتشدة بالحوانيت، والمنازل، ووكالات التجارة ذات البوابات الخشبية الهائلة الحجم. تبدى لي أن أفضل من أسأله عن بيت أكتريه هم الباعة المتجولون والسقائون، فهم طوال النهار يذرعون الدروب ويتصيدون الأخبار.

بجانب بوابة المسجد الشمالية، صادفت بائعاً للتين الشوكي يقف خلف عربة خشبية قد تكومت فوقها ثمار التين الشوكي. صوته خشن ينساب بين الدروب بصعوبة كأن هذا دأبه طوال عمره.

توقفت عنده، كنت يداه خشنتين يلتقط بهما ثمرة الشوكي بيسر ثم يقشرها ويقدمها إلى المشتري وهو ما برح ينادي على بضاعته. لهجتي الغريبة أثارت فضوله فكأنه استعاد بعض حيويته، وأخذ يثرثر ويخبرني أنه ظنني من بلاد الشام، وأن من أفضل الطلبة وأكثرهم ألمعية القادمين من دمشق...

قطعت ثرثرته وقلت: "ما أفضل وأقرب مكان أكتري فيه منزلاً".

قال: "كثيرون هم طلبة العلم، لم لا تذهب إلى مأوى طلبة الأزهر الشريف؟".

لم أجبه بل قلت مراوغاً: "أنا رجل قوّام الليل وأمضي ليلي في قراءة الآيات والأوراد، ولا أود أن أزعج رفيقي أو مساكني".

لم تبدُ هذه الإجابة مقنعة له، فلا يبدو على هيئتي أنني ناسك متعبد، ولكن أشار إلى أحد الدروب على يمينه، وهي زقاق يبدو مرتفعاً قليلاً عمّا حوله من الأزقة التي تحف بالساحة التي أمام المسجد، وقال: "لعلك ستجد بغيتك لديهم".

فسألته: "لمن البيت؟".

فأجاب: "صاحب البيت هو شريف من أهل الله، لكن أعتقد أن لديه حاشية وخدماً سيتدبرون أمرك، المسؤول عن خزائنه رجل اسمه يونس، بإمكانك أن تكتري غرفة لديهم".

أثناء ثرثرتي وإياه كان قد قشر لي عدداً من حبات التين الشوكي، وعندما أخبرته أن هذا العدد كبير وأنني أريد اثنتين فقط، بدا غاضباً، والتفت إلى رفيق له يقف ليس بعيداً عنا كان يبيع بقولاً خضراء، وبدأ يشتمه بفحش. علمت أن جزءاً من شتمه موجه إلي لأنني لم أبتع منه جميع ما قشر من تين، لكنني سكتّ على مضض ومشيت دون أن

أشكره، فطول مرافقته التين الشوكي جعلته فظّاً ضيّق الخلق شوكياً.

***

اتجهت نحو الزقاق الذي أشار إليه البائع الشوكي بخطوات حذرة مترددة. نمت في القدس داخل زهرة ياسمين. أرجو أن تعطف علي القاهرة، فماذا لو كان المنزل ضيقاً كئيباً؟ وهو في الحقيقة لم يكن إلّا ضيقاً كئيباً كواجهة، لكن بعد تجاوزي العتبات، وجدت فيه بعض التفاصيل التي تحفزني على اكترائه، فهو يحوي قرب مدخله غريفة يبدو أنها كانت مستودع حطب لقاطنيه السابقين، جدرانها كلها أرفف من الجص ولبابها قفل متين بالشكل الذي يجعلني أصف عليها الكتب وأسرب لها بعض راغبي الشراء الجادين إلى هنا بيُسر دون أن أثير الانتباه، كما أن غرفتها العلوية مشمسة نقية الهواء، وتتصل بساحة واسعة تطل على سطح المنزل المجاور ولا يفصلها عنه إلّا جدار قصير.

كان الفتى الذي أرسل برفقتي ليفتح لي المنزل نحيلاً نشطاً يرقى الدرجات ثلاثاً ثلاثاً، ويرتدي على رأسه طاقية آخرها طرة يبدو أنها جديدة وهو سعيد بارتدائها، فلا ينفك يحرك رأسه كي تهتز. رغم هذا، لم ينس أن يحدثني عن الجدران التي تم دهنها للتو بالجص، وعن منبع ماء من الممكن أن أغتسل فيه دون الحاجة إلى الذهاب للحمام العمومي. ومعتذراً عن ضيق الدرج، قال: "لن يصعده سواك".

الغريفة العلوية فرشت ببساط ومرقد محشو بالقش وفوقه غطاء ووسادة قطنية بالية. فيها نافذة صغيرة على إفريزها جرة ممتلئة ندية رطبة. ودون أن أشعر، تناولتها ورشفت منها بضعة رشفات ترطّب بعدها ريقي ورقّت روحي، وشعرت بها في جميع أوصالي، وعرفت آنذاك أن للنيل

مذاقاً لا يشبه ماء آخر.

اكتريت المنزل الذي يبدو مقتطعاً من دار كبيرة تحتل نهاية الزقاق كله. لربّما كانت غرفة لخادم أو سائس، ولكن الفتى أخبرني أنها كانت لمعلمي أبناء أصحاب المنزل وباتت تؤجر أخيراً بعدما تقاطر طلاب العلم على الأزهر.

***

آن آوان أن أجلب صندوقيّ. خرجت من البوابة الجنوبية لألتف على السور وأذهب إلى موضع القافلة. في الأفق، لاحت لي عن كثب مجموعات من المباني المتراصة المتراكبة، نوافذها ضيقة، وبنيت من حجارة حمراء. بعضها من طبقات كثيرة قد تبلغ ثماني طبقات، وظننتها لأول وهلة منائر. توغلت جنوباً نحوها وأخذت أتأملها عن كثب مبهوتاً، ولم أعرف أنها الفسطاط إلّا عندما دنوت منها.

مدينة ابن العاص، دروبها ضيقة تزدحم بالمارة والباعة والركام والجرار المتكسرة، أبوابها منخفضة متهالكة، ينبت أسفل جدرانها أعشاب كثيفة، فتتوقف الدواب بين فينة وأخرى لتقضمها، هل لأنني قادم من القاهرة رأيتها بهذا القبح والقمأة؟ بينما الناس فيها يدبون متبرمين ساخطين، فقدوا تلك البشاشة التي كانت للمصريين وهم في حقولهم ومزارعهم التي يحتضنها النيل.

كنت واهناً نعساً ولم يتسنّ لي المكوث طويلاً هناك، فقفلت عائداً إلى سور القاهرة لجلب حاجياتي من قائد القافلة متوجساً أن يكون قد أغضبه غيابي، لكنني ألفيته على العكس من هذا، قد غنم غيابي، فوجد ملاذاً لناقتي وبغلي لدى تاجر إبل في مدخل الفسطاط تعهد أن يأخذ

الناقة والبغل إلى المرعى ويعتني بهما مقابل درهمين أسبوعياً، شرط أنه إن لقحت ونتجت الناقة، فله نتاجها.

سخرت في أعماقي من صفقته، فالناقة حملها يربو على العام، ومدة مكوثي في مصر لن تتجاوز أسابيع، فالأعين تومض بلهب غريب، والرقاب لا تكف عن التلفت.

ولم يكن يدور في خلدي آنئذ أن مصر المحروسة ستحتضنني لعامين سأرى فيهما من الغرائب والعجائب ما سيضيف سنوات عديدة على عمري، وبضع شعرات شائبة إلى رأسي.

***

تقدم مني أحد الحمالين ببغلة تجر عربة خشبية مهلهلة، وعرض علي أن ينقل صناديقي التي تتكوم تحت قدمي. يرتدي مسوحاً مرقعاً، ويعلق صليباً كبيراً يتدلى من عنقه، ولم يكن صليبه مشابهاً ذلك الذي يرتديه سمعان أو أسطفان وبعض الحجاج، بل كان أقرب إلى غصني شجرة قد جمعهما كيفما اتفق بحبال رفيعة كي يكوّنا صليباً متقاطعاً على صدره، عرض عليّ أن يوصل أغراضي ومقتنياتي إلى وجهتي التي أرغب، فقلت له: سأذهب إلى القاهرة.

ونظرت إلى بغلته بعين من يشك في قدرتها على حمل أغراضي. فأجابني بتلك اللهجة المتقافزة المنسابة التي يتكلم بها المصريون: "لا عليك، سأنادي رفيقاً لي وسنتوازع أغراضك".

أشرت له برعب إلى خشية أن ألفت الأنظار بهذه المقتنيات التي تحتاج اثنين لحملها قائلاً: "لا، أرجوك، فلا أود أن أدخل الزقاق الذي أقطنه كأنني عروس تزف".

وخشية أن يفقد مشترٍ متسامح لم يجادله في السعر، قال لي: "لا عليك، سأقلك أولاً، ثم سأعود لاحقاً لجلب بقية أغراضك، ولا تنقدني أموالي إلّا عندما تستلم أغراضك جميعها"، همست لنفسي: ما هي الدريهمات البسيطة التي سأنقده لو قرر أن يفر بموازة صندوق الكتب الكبير؟

كنت متعباً ولم أكن أرغب في المزيد من مقايضات البائع والمشتري، ولاسيما أن الكثير من الحمال كانوا يحفون بنا بانتظار أن تفشل صفقتنا ليختطفوها لمصلحة أحدهم.

تأملت وجه الحمال محاولاً أن أسبر أغواره: ساهماً أسمر بأنف مستقيم وشفاة مفلطحة، تجاورت ملامحه باطمئنان، وكستها مسحة من النبل الذي يملكه أولئك الأتقياء الذين استطاعوا أن يدحروا شهواتهم، وأن يطلوا على العالم من علياء شرفة الأنفة والعفة.

وضع صندوقي وبعض حاجياتي فوق عربته ومضينا نحاذي السور، وسار بي من مواضع كانت فيها الفسطاط والقاهرة يكاد يتشابك معماراهما، فيما تبدى في الأفق مجموعة مبانٍ تلوذ أسفل جبل هائل قال لي إنها تدعى القطائع.

كنت قد بدأت حديثي معه بكذبة بسيطة أحرك بها مكامن طمعه: "أنا تاجر عربي أتنقل كثيراً ما بين مصر وجزيرة العرب، فإذا أدّيت عملك كما يجب، أصبحت زبونك الدائم"، لم يرد على كذبتي بل ظل يسير بصمت وأنفة. يبدو أن توددي له لم يجد وكذبتي لم تطمعه بقدر ما جعلته ينكمش كبرياءً.

كنت أود أن يكون أكثر لطافة وتبسطاً معي كي أستجلي منه ما غمض علي من حديث مصر، وأستفسر عن نوعية السوط الذي يلوح

فوق رؤوسهم، والذي يجعل وجوه الناس حذرة متوجسة، ولاسيما في الفسطاط.

حينما ولجنا من البوابة الجنوبية، التفت نحوي مستفسراً بوجه جاف: "إلى أين؟". باغتني سؤاله، فلا أدري اسم الحي أو الزقاق الذي اكتريت فيه منزلي، ولكنني قلت له: "الجامع الأزهر"، فعاد يسأل: "أي البوابات؟"، قلت له البوابة الشمالية للجامع، وأضفت محاولاً أن أستظرف: "... التي أمامها بائع تين شوكي شرس الأخلاق".

سارت بنا دروب مدينة المعز، أنا والحمال القبطي وصندوق الكتب الذي فضلت أن أبدأ نقله، وتركت بقية أغراضي في حراسة رفيق له أكد لي أنه ثقة، وكانا يتكلمان في ما بينهما لغة غريبة هي حتماً ليست تلك التي يبربر بها الحراس عند البوابة، ولكن هذه كنت أكاد أقبض على بعض معانيها لكنها تتفلت مني. فضولي جعلني أسألهما: "أي لغة تتحدثان؟".

قال لي: "المصرية... القبطية لغة أهل مصر الأصيلة"، صمت عندها، فالغرباء لا ينبشون الخزائن المغلقة.

أحسست بانفراج لما تبدت لنا مآذن الأزهر، واتضح موضع دارتي، وأشرت إلى مدخل الزقاق، وعندما دنا منه، هتف الحمال القبطي: "آه... إنها درب المجذوب".

التفت إليه متعجباً، فأكمل: "نعم... هكذا يسمونها"، قالها وهو لا يزال ساهماً يتلفت حوله ولم يغادره ذلك التحفظ الذي يعلمني بعزوفه عن الحديث. حين وصلنا أمام الباب، وجدت الصبي مبروك ينتظرنا وعيناه متقدتان مزهواً بما أنجز، وينتظر مكافأته بعد أن طلبت منه تنظيف المنزل من الهجر والأتربة ورشه بالماء، وجلب بعض الطعام.

تساعَدنا في إدخال صندوق الكتب الثقيلة، وهمس لي الحمال:

"حسناً... أنا ذاهب لجلب بقية الأغراض قبل أن يبادرنا المساء، فللنهار أعين".

***

هطل المساء دون أن أفطن، فقد استغرقني تفريغ صندوق الكتب، وإزالة عوالق التراب، ورصفها فوق أرفف الجص.

رفعت المآذن أذان المغرب بعذوبة وشجن، وانسكب فوق رؤوسنا الأذان كرشفة على ظمأ. حرك لواعجي، واشتقت إلى غرفة جدي المزدانة دوماً بالزاد المجلوب من أماكن غامضة.

لكن أين الحمّال؟ لم يظهر إلى الآن وقد أعتمت دروب القاهرة وسيغلق الحرس بواباتها؟

هل طمع بأغراضي... لا أعلم! ولكن ليس فيها ما يستحق المغامرة. أثمن ما أملك كتبي وها هي قد رشقت فوق أرفف، وتظللها مئذنة أزهرية، وأموالي تستدير حول خصري... والبقية نثار مسافر.

يا لغبائي! لقد مكر بي واستجهلني هذا النصراني، وسوس له شيطانه: محض أعرابي ساذج.

منحته الثقة والأمان فطوح بهما، لكن لا بأس، فليست سوى بعض الملابس والأبسطة، وقوارير العطور، وإسطرلاب، وبوصلة تشير دوماً نحو نجمة الشمال، قايضت بهما حاجاً من بيزنطية مقابل نسخة من كتاب لجالينوس، لكن مخطوطات دار الحكمة الأصلية باتت فوق الأرفف أمامي.

كان أيضاً فيها بعض الماعون الذي أحتاجه في حلي وترحالي: قربة ماء، كوبان، وعاءان، الزبيب والتمر، وبعض صرر مررتها لي زليخة من

المريمية المجففة، والبابونج، والصعتر، حينما أشمه، يضوع في صدري أريج إليسار وحنة.

سأنام الآن، وفي الصباح سأفتش عنه، فللنهار أعين كما قال، وأنا الآن أكاد أتهاوى من التعب، فلم أنم داخل أربعة جدران منذ ما يفوق الشهر.

***

مع فجة الفجر اغتسلت وصليت، وهرولت إلى خارج السور من البوابة الشمالية، إلى المكان الذي يجتمع فيه الحمالون، وأنا أتلفت طوال الطريق لعلي ألمحه في بعض الدروب، لكن لم يتبد لي. لمحت رفاقه يسيرون في جماعات متجاورة وقد حلقوا رؤوسهم قزعاً، ويجرون بغالهم أو حميرهم، ويرتدون الصليب الخشبي الثقيل، ولكن لم يكن بينهم. لم أرغب أن أسأل أحدهم عنه خشية أن يكثر اللغط وأثير الفضول حولي، ولكن فضلت أن أذهب تحديداً إلى المكان الذي التقيته فيه في الأمس.

فوجدته قد اكتظ ازدحاماً لوصول قافلة للتو من الأندلس: جمال وأحصنة وبغال، فرسان وراجلة، أسياد وعبيد، يتقاطرون تباعاً. كل هذا وقد اختفت أغراضي من المكان الذي تركتها فيه، واختفى معهم الحمال، بدأت أنقل نظري في وجوههم، وأحاول أن أميز وجه الحمال القبطي من الذين احتشدوا حولنا يترقبون مسافري قافلة الأندلس، ولكن عبثاً، فقد عجزت أن أجده، وظللت هناك منهكاً جائعاً إلى عقب صلاة العصر.

خلسةً تقدم مني أحد الحمالين قائلاً: "هل تبحث عن زخاريا؟"، فقلت له بلهفة: "الحمال صاحب العربة الخشبية اسمه زخاريا؟"، فأومأ

برأسه قائلاً: "نعم، لقد شهدته البارحة ينقل متاعك"، فأمسكت كفه وقلت له بنبرة رجاء: "نعم".

قال بصوت حذر وهو يتلفت حوله: "لقد أخذته الشرطة البارحة هو وبغله"، وصحت: "وأغراضي؟"، فرد بصوت هامس: "هي فوق عربته".

فقلت له مبهوتاً: "لَمَ أخذوه، هل هو لص؟".

فهز رأسه بعنف وقال: "لاااا، هي حكاية مطولة اختصارها أن صليبه في رقبته يخالف الشروط التي سنّها الحاكم لشكل الصليب ووزنه".

هجست داخلي: ماذا يحدث في مصر؟ وزن الصليب؟ قلت لمحدثي مستدركاً: "أين هي شرطتكم؟".

فأجابني بصوت هامس وهو يغادرني مستعجلاً بعد أن بدأ الحمالون يتوازعون متاع ركاب القافلة الأندلسية: "غالب الظن هو في القاهرة، والجند لديهم مكان يجتمعون فيه عند مدخل البوابة الشمالية، اذهب إليهم، وأنشد عنه، ربّما ستجد لديهم خبراً".

ذهبت إلى حيث أشار لي، فوجدت سقيفة أسفل السور مظللة بسعف النخيل، وحوزت أطرافها بجدران طينية قصيرة، وفرشت بالحصباء مع بعض الأبسطة الرثة، وداخلها التفّ حول صحن من التين المجفف مجموعة من الجند.

اقتربت منهم فأخذوا يتفحصوني. كانوا غامقي السحنة، طويلي الأطراف، يشبهون الذين صادفتهم في الأمس، حييتهم فلم يجبوني إلّا بهمهمة وعين متفحصة، لكنني استجمعت شجاعتي وقلت: "فقدت متاعي الذي كان مع الحمال زخاريا". لم يبدر منهم اهتمام بشكواي، ولكنهم قاطعوني بلهجة يغلب عليها العجمة: "من أين أنت؟"، قلت: "أنا قادم من بغداد".

قالوا: "وماذا تريد هنا؟"، قلت لهم: "أنا طالب علم أقصد الأزهر، ولكنني عندما وصلت اكتريت..."، وعدت أردد القصة من جديد.

تحادثوا في ما بينهم بلغة أعجمية لا أعرفها، ولكن أحدهم قال لي: "ما شكل الحمال"، قلت: "لا أدري كيف أصفه، ولكنه أسمر طويل ونحيل واسمه زخاريا...". أومأ برأسه وقال وشدقه ممتلئ بثمرة تين: "أها، الآن ذكرت، لقد قبضنا عليه، وهو الآن في بيت الشرطة الواقع خلف المسجد في قاهرة المعز"، وأردف على عجل كأنه يريد أن يتخلص مني لإفسادي متعتهم بالتين: "امضِ إليه هناك".

كنت أودّ أن أقول لهم ألا شاهت هذه الوجوه؛ هل يأمن من تقومون على حمايته؟ لكنني كنت أعلم أن الغرباء دائماً ألسنتهم قصيرة ويدهم مكفوفة، فهرولت إلى القاهرة مرة أخرى، وأنا أشك أنني سأستعيد ما ضاع مني.

بعد طول التفاف في الدروب، اضطررت فيه أن أستفسر من بائع التين الشوكي مرتين، وصلت إلى بيت الشرطة. لم أتبينه لأول وهلة، فهو يندمج ضمن مباني الجند التي تقابل الأزهر: دار كبيرة شاسعة ببوابة خشبية عالية متينة، يحفها سور طيني قصير يحيط بحديقة مهملة تقع الدار أقصاها، وإن كانت بوابتها الداخلية مشرعة يقف عليها جنديان مدرعان، حمر من الصقالبة.

حاولت الحديث معهما لكن غُلقت أفواههما بالعجمة، فلم يدركا ما أريد، عدا إشارات وإيماءات فهمت منها أن رئيسهم غائب، وطلبا مني أن أحضر في الغد. حسناً! لا بأس! قد قطعنا جزءاً من رحلة المعاناة.

التففت على المبنى في طريق عودتي، فألفيت خلفه حظيرة قد جمعت فيها بعض الخيول والدواب وكان هناك بغل زخاريا منكس

والذباب فوق أذنيه. لكن لم تكن معه العربة أو أغراضي.

قررت أن أعود والنهار له أعين. مررت في دربي بفرّان قد ازدحم حوله الناس وابتعت منه خبزاً ساخناً منتفخاً ليس رقيقاً كما هو في القدس بل كان سميكاً وقد نثرت الحبة السوداء على وجهه.

***

اليمام يهدل وهو يشرع بوابات المساء، وجندي يحمل مشعلاً يضيء به مصابيح الدروب التي تتفرع من الأزهر، وطرقات النعال جميعها تقصد المسجد. وعندما شارفت منزلي، أنِسْتُ ضوءاً ضئيلاً يشع من أسفل الباب فأوجست خيفة، لكن مفتاح المستودع بجيبي، وأرجو أن تكون كتبي بأمان.

كان النور هو سراج بسيط يرفعه بيده يونس، وكيل المنزل، قائلاً: "مرحباً بضيفنا الجديد، أرجو أن تكون قد ارتحت، قد جئت لأطمئن عليك، هل الغلام مبروك هيأ المكان وقام على واجبه معك؟".

عينا يونس مستديرتان تتحركان بسرعة وبعض الخبث، وإن كانت بقية ملامح وجهه تقترب من وجه الطفل. لا أعتقد أنه من الخدم، فقد يكون حاجباً أو قائماً على المكان. هيئته مهندمة، وحزامه الحريري الذي يلف بطنه الضخم يستدير بعناية. وفهمت من نبرته أنه حضر يريد أن يأخذ الإيجار مقدماً كما اتفقت وإياه البارحة، فرجوته أن يتفضل ويشاركني عشائي، فرفض وتعفف، ولكنني ألححت، فالغريب لا بد أن يرصف دربه بالأصدقاء. فرشت حصيراً ملفوفاً وجدته خلف الباب في الشرفة أعلى الدرج، وجلسنا نتشارك الخبز والعسل وبعض الأحاديث الحذرة.

ويبدو أن الأجواء تلطفت بيننا، فقد استأذن يونس لبعض الوقت، وعاد

بعدها وقد جلب من الدار الكبيرة زيتاً خاصاً يضيء قناديل الدار دون هباب أسود، والمزيد من الأبسطة والأرائك والوسائد. قال لي: "هذه لو أردت أن تفرش شرفتك وتستقبل زوارك وتضيف بعض المتاع هناك".

كانت التي يسميها الشرفة هي تلك المساحة التي تقابل الغريفة التي يصعد إليها الدرج، وتتصل بسطح الدار الكبيرة. قال يونس: "كان هذا المكان مخصصاً لمعلم صبيان خاص جلبه سيدي لأولاده، لكن بعد أن شبوا عن الطوق وأصبحوا يقصدون حلقات الأزهر الشريف، ظل فارغاً مهجوراً كمستودع، قبل أن نعيد إحياءه وعرضه للكراء على طلاب وشيوخ الأزهر، فكان من نصيبك".

وعندما ضغط على الكلمة الأخيرة فهمت أنني يجب أن أنقده أمواله، فقلت: "كم هي حاجتك، فأنا سأكتريه لشهرين فقط، ولا أعلم كم ألبث في القاهرة؟".

أومأ برأسه وعلق ابتسامة مصطنعة وقال: "سيدي، نحن لا نؤجر إلّا بالعام، أو ستة أشهر، ليس أقل من ذلك... والدفع قبل السكنى".

أسقط في يدي ولا أعرف، ولكن سيأخذ من كيس نقودي المتقشف ثلاثة دنانير ذهبية إيجار ستة أشهر، ورغم أنني وجدته باهظاً، فإن ميزات هذا المنزل لن تتوافر لي بسهولة، فكونه جزءاً من دار كبيرة يعطيني غطاء آمناً ويبعد عني العيون، ولا أريد أن أثير الشبهة حولي بالمزيد من التنقل في القاهرة بحثاً عن منزل جديد.

أخرج من كمه لفافة كانت تحتوي ورقاً، وقال: "ما في الرأس لا بد أن يدون في القرطاس"، وأخذ يردد آية ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ ويكتب، فيما أعزي نفسي بأن بحوزتي الكثير من الكتب سأبيعها وأعوض ما فقدته. تعبي ونعاسي لم يجعلاني أجادله، وأنقدته

الدنانير الذهبية الثلاثة، وكان رأسي يبحث عن الوسادة.

فجأة سمعنا جلبة في الطريق قريبة من الباب، وصوت همهمة وصياحاً، ورجلاً يتلو بعض الآيات القرآنية بصوت مرتفع. وحينما هرعنا إلى الباب نستطلع الأمر، لمحنا خيالاً يترنح في الظلام وبيده شعلة يلوح بها، وعبر ضوء شعلته، عرفت أنه المجذوب الذي أخبرني البارحة في المسجد عن الجنان التي تترقب زوارها.

لكن هذا ليس كل شيء، فقد هرول نحوه يونس وسراجه يهتز بيده، وأمسك بيد المجذوب وقبّلها، وأخذ منه المشعل قائلاً: "سيدي، هلمّ بنا إلى المنزل".

فغرت فمي مدهوشاً: هل هذا هو سيده؟ كان المارة يمرون بهم بلا مبالاة. يلقون التحية فقط، وبعضهم يقفون ويقبلون يد المجذوب، ثم يستمرون، وبعضهم يطقطقون بشفاه قائلين: "إذا أقبلت الدنيا على المرء أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت سلبته محاسن نفسه".

عاد يونس يسحب يد سيده ويسيران إلى البوابة الخشبية الكبرى التي ينتهي بها الزقاق. هل هذا المجذوب هو سيد يونس، وهو الذي كان يتحدث عنه وباسمه وكراء المنازل وتعليم الأبناء، وهل هو المجذوب الذي سميت الحارة باسمه؟

لست متيقناً، ولكنني اليوم عرفت الكثير بالقدر الذي يفيض عن فضول غريب في يومه الأول.

بائعة الباذنجان

أصوات طيور النهر ونسماته تصلني في غرفتي العلوية، وبئر صغيرة أسفل

الدار، وحرز مكين لكتبي، جعلت كلها من هذه الدار واحة صغيرة رغم ضيقها، ولكن درجها يفضي إلى مساحة تنبلج بوداعة تحت السماء، سأمضي فيها الليالي أقلب وجهي في النجوم.

داخلي رغبة شديدة للذهاب إلى أحد الحمامات، ويبدو أن نهاري سيطول. إفطار جيد وحمام ورغوة وبخار من الممكن أن تعيد إلي الهمة والشراسة للمطالبة بحقوقي. كان الزقاق هادئاً ونسمات صباحية وطرق أقدام الطلبة المهطعين المهرولين إلى دوائر "العلام" كما يسمونه هنا بالأزهر.

أتضور شوقاً إلى ثني الركب بين يدي شيوخ الأزهر فينثرون أحاديثهم ويعالجونها بفقه الماء. أنا مزيد النجدي الحنفي على ضفاف النيل، أستسقيه عطش صحراوي عريق.

قلة هم الشيوخ الذين أسروا لبّي بعد جدي، منهم الهاشمي وعمرو القيسي... السراة، أتراني ولدت مسخراً لأكون منهم فأعجب بهم، وتخطف عقلي استدلالاتهم وتخريجات أحاديثهم؟

كان بإمكاني أن أكون الآن في جامع بغداد على يمين شيخي التميمي أدون ما يقول بتقدير وإجلال، قبل أن تعصف بعقلي كتب الوراقين، وتتخطفني الآراء والأهواء، وتلدغني شهوة المعارف. لم يكن لدى شيخي محمد ما يبز ما أخبرني به جدي طوال عمري. لقد استنزف نفسه بجدل الحلقات وشبهة التجسيم، واختار درب العراك للوصول إلى ربه. كل مسخّر لما خلق له، ومكاني لم يكن هناك إلى جواره.

***

في طريقي داخل السوق قاصداً الحمام، مرّ بي كثيرون من الأقباط يجرون بغالهم ويعملون حمّالين أو سقائين يوزعون المياه على المنازل، وعلى صدورهم، يتدلى الصليب الخشبي الكبير الذي يقارب ما يضعه الأسقف سمعان ونصارى القدس.

بعد أن خرجت من الحمام منتعشاً رائق المزاج، لم أشأ أن أذهب إلى يونس وأنشده مرافقتي إلى موقع مبنى الشرطة. لا أريده أن يستريب مني، فقررت أن أحاول حل مشكلاتي بنفسي. حتى إذا أفضت بي الدرب إلى عقبة أو مأزق، بحثت عمن يقيل عثرتي.

لحسن حظي هذه المرة، قيل لي عند البوابة أن قائد الشرطة قد حضر داخل المبنى ولم يخرج في جولته الصباحية بعد، ثم أشار الحارسان إلى بوابة في أقصى الحديقة تفضي إلى رواق طويل معتم، لم أتقدم فيه خطوات قليلة، حتى أجفلني نحيب يشبه العواء.

صوت امرأة تصيح وتولول وتستجدي أمراً لم أعرف كنهه. تخشبت أطرافي وفكرت بالفرار، لكِن ظللت أدفع نفسي وأتقدم قبل أن يفضي بي الرواق إلى ردهة شاسعة مشمسة مفتوحة السقف يتصدر رواقها الشرقي كرسي هائل يقبع فوقه عسكري ضخم الرأس يجلس مشرئباً فوق كرسي يقوم كعرش تحفّه وسائد من الديباج القرمزي، ويرتدي قلنسوة نحاسية مرصعة بالفيروز. أطبقت على رأسه الضخمة سحنته غامقة، ويبدو عن كثب كالثور الذي يقف على بوابة الجحيم، فيما يتناثر الجنود حوله مطأطئين.

لكن هيبته تخفت قليلاً عندما تقترب منه وتكتشف أنه حافي القدمين، وأن في نظراته الكثير من الحمق والبلاهة، وأنه لا يفهم الكلام لأول مرة، ولكنه يحتاج أن يكرر عليه عدة مرات كي يتفطن له.

يبدو أن ثيابي الجديدة التي ابتعتها عوضاً عن ثيابي الضائعة، والحمام الساخن، أعطياني مسحة من الوجاهة والنضارة جعلته يفز واقفاً ويبش بي، وطلب مني الجلوس لهنيهات لينتهي من شأن "الفاجرة" كما سمّاها.

المرأة استمرت في نحيبها وقد أمسكت بأحد أعمدة الرواق وأخذت تخبط رأسها به حتى نزف جبينها، وتناثرت دماؤها على وجهها، وسقط خمارها وتناثرت حاجيات كانت تحملها في بقشة بيمناها، وأخذت تصيح: "والله وتالله ثلاثاً... لم أمش بالسوق، ولكن بائع الخضراوات خبيث ويرفع لي أسوأ الباذنجان فنزلت لأختاره بنفسي قبل أن يقبض عليّ رجالك بتهمة الحديث مع الرجال"، ثم نزعت إحدى أساور يدها وتقدمت مهرولة نحو عرش كبير الجند وانهمرت على أقدامه صائحة: "أطفالي تركتهم في البيت وحيدين منذ الصباح، وزوجي دباغ، والله إنه سيدبغ جلدي ويجعلني ممسحة إسطبل لو يعرف ماذا حدث!". كانت تبكي وتولول وتصفع خديها بشدة.

أما القائد على مقعده، فكان يقول وهو ينقل عينيه بين الإسوارة التي تركتها فوق قدميه، وتلك التي في يدها: "لقد صاح الصائح في الأسواق عشرات المرات بأن من تسير في الأسواق ستسجن وتعاقب، ولكنكنّ صويحبات يوسف مكفرات العشير، لا تلبثن أن ينزعكن ميلكن إلى الغواية".

فعادت تصيح وتخبط رأسها بالعمود فيتناثر المزيد من الدماء... وفجأة لسبب أجهله، أو لربّما أزعجه صياحها، أو أن هناك اتفاقاً ضمنياً يعرفه الجميع هو أن رئيس الشرط لا يلبث أن يلين أمام صراخهن، مد عصا خيزران كانت في يده، ورفع إسوارتها وقلبها بين يديه، ثم ناولها إلى جندي بجواره، وعاد بسرعة ولسعها بضع لسعات على ردفيها

المكتنزين بالخيزرانة وهي تتلوى أمامه، وقال: "ردوها إلى منزلها... أما صاحب الخضار الذي باعها، فتوازعوا اليوم بضاعته بينكم عقاباً له".

وقبل أن أستفيق من ذهولي، التفت إلي برأسه الضخم ومنخريه الواسعين كمنخري الثور، وقال: "ما شأنك؟". لا أدري كيف قصصت عليه بكلمات متلعثمة ونفس مبهور حكايتي... وأغراضي...

وقبل أن أكمل، قاطعني بصوت قادم من قاع بطنه الضخمة: "آه، إذاً أنت من حضر هنا البارحة"، ثم أردف: "كنا سنرد إليك بضاعتك لولا أن وجدنا فيها سحراً وشعوذة ونباتات برائحة عجيبة". وقبل أن أفتح فمي لأفسر، عاد يقول: "البارحة قبضنا على الحمّال القبطي وقد طفّف في الميزان، فهو قد عصى الأوامر السلطانية ونزع الصليب الذي وزنه رطل وربع عن عنقه، والذي عليه دمغة متجر يصنعه لهم ويضمن وزنه لنا، ووضع بدلاً منه صليباً خفيفاً من فروع الشجر، فحقه العقاب، أمّا بضاعتك، فلن تستردها قبل أن تخبرنا عن سر هذه الأدوات والأعشاب".

أسقط في يدي! كيف أتعامل مع من لسانه سوط ويده كرباج؟ هل أخبره أن هذه الأغراض هي خلاصة ما توصل إليه العقل البشري في بيت الحكمة: بوصلة النجوم والأفلاك؟

لكن خمنت في تلك اللحظة أنني يجب أن أضع على أقدامه ما يحرر أغراضي، لكن خشيت أن أفعل هذه الخطوة، فاسيء التقدير، أو أبخسه الثمن المتعارف عليه... وفضلت أن أتقهقر إلى أن أستفسر كيف أعالج هذه القضية.

أثناء هذا كان قد حضر خلفي رجلان متعاركان كان أحدهما قد شج الآخر فيما الثاني يصيح ويحلف أنه لم يفعل هذا بل هو من يبيع التمر سراً أمام باب المسجد...

استدار منخارا القائد اتساعاً من جديد، وصاح بهما أنِ اقتربا، وساد الهرج في الردهة مرة أخرى، وعندما أخذ الجنود بتوبيخ الخصمين طالبين منهما السكوت، تسنى لي أن أنسلّ دون أن يفطن إلي أحد.

وعند الباب، توقفت بحثاً عن جندي يتقن العربية لأسأله عن حال القبطي زخاريا؟ فوجدته في غرفة الإسطبل خلف حديقة دار الشرطة المهملة أقرع الرأس بندوب وقروح في رأسه. ضحك ببعض البله وقال: "زخاريا لا بأس عليه، لقد جمع له قومه مبلغاً من المال وسيطلق سراحه، لقد نجاه الله، فقائد الشرطة طيب القلب ومتسامح، على عكس العديد من قوّاد الشرطة، فبعض من وصلوا من دمشق يقولون إن نائب دمشق، الأسود الحاكمي، أمر برجل مغربي فطيف به على حمار ونودي عليه ثم ضرب عنقه". وحين لمح قسماتي المستفظعة من كلامه، أردف بتشفٍّ: "هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر".

تذكرت عندذاك قصاصة عمرو القيسي. كتبها إلى أحد سراة مصر يدعى رشيد بن علي، ويقطن القطائع أسفل جبل المقطم. كم كنت أود أن أحط على منزله كأحد صقور السراة محلقاً متأنفاً، لكن شاءت الظروف أن آتيه وبصحبتي حزمة مشكلات.

***

ظلّ الدخول والخروج من القاهرة وإلى الفسطاط صعباً ومثيراً للريبة والأسئلة. أتى يومي الثالث في مصر ولم أذهب إلى نهرهم العظيم وأحييه وأتأمل الفلك التي تجري فيه وأسراب الطيور حوله. أمضيت وقتي جدلاً مع العسكر.

سماء مصر تحتشد بطيور قادمة من الشمال، هل هذا موسمها؟ لا

أميل إلى الصيد فقد انزلقت فوق أول سطر في كتاب ولم أعد أستطيع الخروج.

أعواد القصب تحف النهر بكثافة تفوق أعواد قصب البصرة: خيزران ذهبي لامع متشابك يتجاوز طوله قامة رجل، أجمة متشابكة كقضبان زنزانة، لكنه يتمايل لتتبدى أسفله درب متلوية تبعتها بحذر، وفجأة وسط تلك الأحراش، تكتشف لي بعض المساكن المصنوعة من عيدان القصب والخيزران، وهي إمّا مساكن للصيادين، وإمّا مكامن لهواة الصيد.

ينشرون شباكهم، يغسلون ثيابهم ويعلقونها على القصب، يطبخون طعامهم على ضفاف النهر، وفي حال المرور بهم، يتفحصونك بودّ، ويستحلفونك أن تشاركهم ثلاث سمكات مشوية وضعت على مائدتهم. أشكرهم وأهرول بعيداً، أنا الصحراوي، رائحة السمك نفاذة زنخة في أنفي رغم أن حسن المصري في بغداد حاول كثيراً أن يقنعني بلذة طعمه، لكنني لم أستسغه.

أكلت الأرنب، وأكلت القديد، لكن لم أقبل السمك! ألم يقل جرير التميمي النجدي مشبباً بفتياته العربيات:

عُرابا لم يدن مع النصارى ولم يأكلن من سمك القراح

يصف الصيادون سلالهم ومحصول صيدهم على امتداد الشاطئ. السمك وعيناه المستديرتان داخل السلال تحدقان بي من قاع بئر الموت كعيني تيسي شقران، وعندما ذبحته توقفتا عن التوسل، وأصبحتا تحملقان إلي فقط.

كانت الشمس حارة تومض فوق النهر بارتدادات موج ساكن عذب. غبش الظهيرة يجعله شظايا لمرايا تعكس كل شظية حكاية. وتمنيت في

ذلك الوقت أن أعرف الموضع الذي ألقت به أم موسى سفط البردي الذي داخله رضيعها، وأين هي مجموعة نبات الحلفا التي اختبأ بينها السفط؟

لكن من الذي قال لها: إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين؟ هل هو الله قد كلمها بذاتها؟ إذاً، هنا تصير نبية، هل أرسل إليها ملاكاً؟ هل نفث في روعها؟

من يحتكم إلى السؤال، فستظل الظنون تعبث به، ويبقى في حيرة أبدية...

هناك أمر خصب شهي موارب بين القصب يتخلل الشاطئ؛ روح النبات توقظ كل ما خمد في العروق. مغوية هي مصر، حقيبة التاريخ، وممراح عرائس النهر.

***

أحسست بالجوع، استدرت وعدت متوجهاً إلى جبل المقطم قاصداً القطائع. سأمر بالسوق أتناول طعاماً قبل أن أبدأ بحثي عن رشيد بن علي.

تثلثت مصر ما بين فسطاط عمرو بن العاص، وقاهرة المعز، وما بينهما قطائع يحتضنها جبل المقطم.

كل قائد تسكره نشوة النصر والسيادة، فيعمر مدينة تشبهه، وابن طولون جاء إلى مصر والياً قبل أن يقرر أن يقتطعها لنفسه إمارة. إنها ألوية المنتصر وقوانين الجيوش. مصر فتنة الغزاة عبر التاريخ ينحدر القائد المتغلب عليها من الشمال كل مرة ويصطفيها لنفسه.

***

القطائع

انتظرت حتى ابتردت الظهيرة، ومضيت أنشد عن رشيد بن علي. أحد المارة أجابني: "من تقصد، تاجر السجاد؟"، كأنه يستغرب سؤالي عن علم لا يُعرف لأنه معروف بذاته.

تاجر سجاد! هل يختبئ السريّ خلف السجاد ويتموّه بنقوشه؟ لم أكن أعلم أنه كذلك، فقد كنت أظن أن السراة هم من ناسجي السطور والعلم فقط.

الكثير من أحياء القطائع شبه مهجورة، لكن الأنحاء التي يحتضنها جبل المقطم ما برحت عامرة ومؤهلة وفيها سوق للدباغة، وآخر لصانعي الرماح.

القطائع والقاهرة تبدوان هنا كضرتين. الأولى مسنة مهجورة ومهملة عزف عنها السلطان إلى القاهرة المعزّيّة نضرة وفاتنة فتية، فمنازل القاهرة لامعة الحجارة، واسعة الشرفات، يصعد إليها بدريجات بعيداً عن الطريق، والحدائق تعرش بين منزل وآخر، ومبانيها أفسح، وسوقها يبتعد عن المسجد الأزهر والمدرسة حشمة وإجلالاً لمقامه.

أما القطائع، فما برحت تحمل آثار مجد قديم في بعض أحيائها ولاسيما المجاورة لجامع ابن طولون، فهو نفسه ما برح محتفظاً ببعض رونقه، ووسط صحنه قبة مشبّكة على عشرة أعمدة من رخام، وتحت القبة فوّارة تفور بالماء العذب البارد.

وتلمست دربي بين السؤال والتخمين وأنا أغور في القطائع غرباً وأقترب من جبل المقطم حتى شارفت على سوق لبيع الجلود والسجاد، وفي زاوية يتقاطع فيها شارعان، يقبع هناك متجر لبيع السجاد يوازي حجمه ثلاثة حوانيت من التي تجاوره، وداخله يزدحم السجاد ولفافات

الأقمشة ما بين صوف وحرير. بعض السجاد ملتف مصطف في الزوايا وعلى الجدران، وبعضه قطع حريرية ثمينة منشورة على الحائط، ورائحة الصوف تعبق بالمكان.

وقفت بباب المتجر وأنا ألمح داخله يزدحم بالرجال المتأنقين المتأنفين. لم تكن وجوههم غريبة عليّ. ثيابهم مهندمة، وملامحهم مجلوة، ورائحة عطورهم نفاذّة، ويتحدثون بمفردات سريعة متقافزة لا تشبه حديث المصريين. وقبل أن أخطو داخل الدكان تذكرت أين رأيتهم، فهم بعض أفراد القافلة القادمة من الأندلس التي أناخت تحت سور القاهرة في الأمس.

يلتفون حول سيد لهم يلاحقونه ويجلونه، ولأنه بدين ببطن ضخمة جلب له عامل المتجر مقعداً يلملم فوقه أنفاسه اللاهثة. وبدأ عرض السجاد بين يديه وتحت قدميه: ينثر صبية الدكان السجاد، فيتلمسه بشك، ويقلبه بين يديه بتفحص: "آآها هذا صوف سمرقندي، وحرير صيني"، ثم لا يلبث أن يشير إلى أحد السجاجيد المعلقة قائلاً: "اجلب تلك الأعجمية المعلقة"، فيما لا يبدو على الذين حوله أي نية لقول رأي مخالف لما يتلفظ به سيدهم.

حزمة من الرجال حوله، هل هم حرسه؟ يتمنطقون بأحزمة مشغولة بالقصب. عمائمهم من الديباج يرشقون في مقدمتها حجارة كريمة لامعة، رائحتهم شذية وعيونهم تبرق، يقولون إن أعينهم لا يصيبها خفش أو عمى لإدامتهم النظر إلى الخضرة.

لله درك أندلساً، متى سأحط بك عصا الترحال؟ فجأة تفطن لي أحد الباعة وأنا واقف بالباب مبهوتاً، وهرول من أقصى المكان مرحباً سائلاً عن حاجتي. استدركت عليه قبل أن يسترسل، وقلت له هامساً: "أتيت

لأقابل رشيد بن علي".

وجم لأول وهلة، فهو كان في طريقه لتصنيفي كي يحدد الأسلوب الأمثل لاستدراجي لابتياع قطعة سجاد، ولكنني قاطعته، فحار بي؛ حتماً أنا غريب عن مصر ولست من أهلها، وثيابي لا تشير إلى أنني رقيق الحال طالب لعمل، ولكنها أيضاً لا تقارب بذخ وجمال ثياب الأندلسيين.

تلك اللحظة أقبل رجل أبيض الشعر ملتحٍ يبذل الكثير من الجهد كي يصبح ودوداً، لكنه يفعل هذا الأمر بتكلف وجهد كي يحافظ على مسافة الحشمة والوقار بينه وبين بقية العمال الذين يحتشد بهم المتجر، ويبدو أنه اعتاد أن يتدخل عند كل حيرة أو سؤال يعجز العامل عن الإجابة عنه، وأعدت طلبي لرؤية رشيد بن علي. لم ترتفع عيناه بالدهشة ولكنه قال لي برد مهذب: "من تريد ليس هنا الآن، من نخبره حينما يعود؟".

طأطأت رأسي، وبعد تردد قلت: "قل له... مزيد... مزيد الحنفي، أريد سجاداً وبسطاً لمنزلي الذي يقع في منزلة بين المنزلتين".

وغادرت...

يا للجملة التي تشرع لي كل الأبواب وتفتح المغارات! لم تخذلني قط بين السراة، فحينما عدت في الصباح الثاني تلقفني البائع وقال: "أين ذهبت واختفيت يا رجل... سيدنا رشيد بن علي في انتظارك منذ الأمس".

***

دعاني البائع ذو اللحية البيضاء إلى غرفة خلفية صغيرة تقع في نهاية المتجر ظننت أنني سألتقي فيها رشيد، لكن كانت مدخلاً لقاعة حمراء واسعة يغلب الأحمر على أثاثها ورياشها، وتزخرف سقفها بمنمنمات مذهبة،

واصطف على جدرانها خزائن خشبية محفورة الأبواب بضفائر خشبية وأغصان دقيقة الصنع. ارتفاعها بقامة رجلين ولربّما عرضها بخمسة أذرع. قد احتشدت بالكتب والدفاتر المنضدة.

جلس في صدر الغرفة رجل يستغرقه النظر إلى كتاب لم يرفع عينيه عنه إلّا عندما أصبحنا على بعد خمس خطوات منه، نزعهما عن الكتاب بثقل، وغرسهما في وجهي، ومضت مدة صمت خمنت أنها كانت طويلة، لم يتخللها إلّا رده سلامي فقط بتمتمة خافتة من شفتيه.

كان يبدو للوهلة الأولى مخطوفاً غائباً، وعرفت عندئذ أنه لم ينفصل بعد عن أجواء الكتاب الذي يحمله بين يديه، وأخذ يستطلع وجهي كأنه خارج من تحت الماء، ويتأمل العالم لأول وهلة.

سحنته داكنة وملامحه غليظة، لكن تزينها قسامة الرجولة وتيه الجاه مع تلك النظرة المنخطفة الساهمة التي تكون للذين قامت أركان صدورهم بأعمدة الحكمة.

أشار بيده إلى البائع أنِ اذهب، وبقيت أتأمله: لا يشبه وجوه التجار وتقاسيمهم المغطسة بالشهوة والشبق المتواري خلف دماثة الاستدراج.

لم يكن معتمراً عمامته... يرتدي قفطاناً مقلماً فقط، وعليه عباءة من الدبيقي الثمين الجيد الصنع الذي كانوا في بغداد يجلبونه من أنوال تنتشر في قرى جبال السريان.

كنت قد حرت في طريقي إليه، هل أدفع إليه خطاب عمرو القيسي أو اكتفي بمنزلة بين المنزلتين كمدخل؟ لكن اختصر لي حيرتي، وناولني كتاباً للكندي كان بين يديه وقال لي دون أن يطلب مني الجلوس: "اقرأ السطرين الأخيرين"، فتناولته منه وتمتمت بصوت خافت: "إن الفلسفة لا تنال إلّا بعلم الرياضيات، الرياضيات لا تنال إلّا بعلم البراهين العقلية"،

فلمّا انتهى، همس: "ما تقول في هذا؟".

روعتني هذه المباغتة... وأسقط في يدي، ولكن سرعان ما تداركني إلهامي كما بات يفعل أخيراً، وتذكرت ما سبق أن ناقشه عمرو القيسي في حلقته: "مع تقدم الإنسان وخوضه الحروب التي تتطلب عدلاً في تقسيم الغنائم، وانضباطاً في صفوف الجيش من حيث التعداد... لذا، كانوا يستخدمون النظام الستيني، أي ستين رمزاً متدرجة في خانة واحدة قبل أن يطورها المصريون القدماء لتصبح بالنظام العشري المعروف حالياً".

نظرت إلى وجهه متمنياً أن تكون تلك الإجابة قد كفته، ولكن روّعني أن خيطاً من التهكم ظهر على شفته السفلى.

فاستدركت: "أيضاً الكندي قد وظف الرياضيات في استحداث السلم الموسيقي العربي لأن الحقائق الرياضية ثابتة سابقة في وجودها على كل ما يماثلها في العالم المحسوس، والمنهج الرياضي يحتاج إلى برهان عقلي لإثباته".

قال لي بلا اكتراث: "أحسنت"، ثم أشار إلى كتاب على أحد الرفوف مجلد بالأدم الأحمر، وقال لي: "اجلبه لنرى مقولة القاضي عبد الجبار في هذا".

هرولت إلى حيث أشار سائلاً إياه عن اسم الكتاب، فقال: "هو على الرف الثاني اسمه **طبقات المعتزلة**". فما كاد يلتقطه حتى فتح على صفحة كأنه قد أدمن النظر إليها، وقرأ بصوت أجش عميق: "الأدلة ثلاثة: دلالة العقل، لأنه يميز بين الحسن والقبيح، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع".

خفق قلبي، وغبت عمّا يتلوه هذا الرجل الجليل، لأنني تذكرت يوماً ما أن شيخي التميمي قد دعا على القاضي عبد الجبار وكفره، وحرم

الصلاة خلفه، ولو لم يكن يعش في الري داخل بلاط الصاحب بن عباد، لأهدر دمه.

عندما لمح رشيد بن علي الوجوم والصمت على سحنتي، باغتني بسؤال: "كيف هم السراة؟"، فلم أملك وقتها إلّا أن أجيبه: "ما برح سراة بغداد يرددون هذا البيت لشاعر ضرير صاحب بصيرة زار بغداد اسمه أبي العلاء المعري:

أيها الغرّ إنْ خُصِصْتَ بعقلٍ فاتّبِعْهُ فكلّ عقلٍ نبي".

وكأن هذا البيت أمطر زهراً فوق وجه رشيد بن علي، فمن الفور أشرق وأورق وقال: "نحن، يا أهل العدل والتوحيد، لا نبراس لنا إلّا عقلنا، حياك...".

في تلك اللحظة، أفسح لي مكاناً جواره وأخذ يسألني عن خلفيتي ومن أين قدمت؟

غادرني تحفظي وانهمرت براحة واطمئنان أثرثر: "أنا مزيد النجدي الحنفي، اليمامة - البصرة - بغداد - القدس..."، مزيد الظاعن في مدن العقيق ومجاهل المعرفة، وكل يوم يزداد علماً بأنه لا يعلم...

***

سألني عن عمرو القيسي وأحواله، ولم يسألني عن الهاشمي أو سراج الدين الفراتي، فعلى غالب ظني أنه في قوانين السراة السرية لا يعرف المريد إلّا شخصاً واحداً في مسيرته، حتى تنقطع السلسلة ولا ينتشر ويشيع الخبر بين المريدين، فهناك في مصر الكثير من السراة، ولكن عمراً القيسي قد لا يعرف منهم سوى رشيد بن علي، أو لربّما لحكمة

يراها، يجد أنه من لديه الكأس التي تروي عطش روحي.

لذا، المريد إذا حلّ في بلد لا يعرف سوى شيخ يقصده، والشيخ الذي قدم منه.

وشيخي الذي قصدته في مصر أجلسني بقربه، وعاد ينظر في كتابه من جديد قبل أن يرفع رأسه ويسألني: "أين نزلت؟ احرص على ألا تكتري منزلاً في حارات العسكر، فتضع نفسك تحت العيون والاسترابة، فجوهر الصقلي عندما انتهى من عمران القصر الشرقي والجامع، قسم جنده على عشرين حارة، وأسمى كل حارة باسم العشيرة التي حلت فيها، فهناك حارة زويلة التي تجاور البوابة، وحارة البرقية، وحارة الروم، وحارة كتامة... وهكذا ترى الآن القاهرة ميدان عسكر، كما أن القطائع والقاهرة تكادان تتصلان، فإذا خرجت من باب زويلة تبدّى لك مسجد أحمد بن طولون. لذا، اختر لك من الغريفات والمهاجع التي تجاور المسجد، والتي أوقفت للطلبة".

فأخبرته بحكاية وصولي، واكترائي منزلي، وأجّلت حكاية أغراضي المستلبة إلى حين، وإن كنت قد فهمت في ذلك الوقت سبب شراسة الجند الذين أصادفهم على مخارج الحارات في غدوّي ورواحي، فما أنا إلّا وسط معسكر للجيش.

عاد وسألني: "هل بدأت تقصد حلقات الأزهر؟"، فقلت للتو: "أتتبع تلك الحلقات كي أجد من يستحق أن أثني الركب في حضرته وبين يديه".

فأجابني: "لا تتوقع أن ترى السراة كعلماء وفقهاء في تلك الحلقات فقط، فهم موجودون في كل مكان نورهم يمشي بين أيديهم، وأنا حرصت عند استقبالك أن أباغتك بسؤالي عن الكندي والعقل لأمرك

فوق سراطي، وأرى أين ستؤول، وعرضتك لميزاني لأرى أي الكفتين سترجح بك".

***

لقد مررت على صراط هذا المصري المهيب المستريب بيسر وسهولة، ما جرّأني على أن أقول: "بما أنني مررت فوق السراط، يا ليتك تجعلني أستبيح جنة مكتبتك وقت أشاء"، قلتها ووجمت، فخفت أنني قد تطاولت.

لكنه وضع كفه على كتفي متبسطاً وقال: "هي لك...". عندذاك، أخبرته عن مجموعة الكتب التي بحوزتي، وعن السبيل الأمثل لتوزيعها على مريديها، فقال بعد تردد: "لا أخفيك أنك في هذه الأيام الوبيلة التي تمر على مصر لن تجد سوقاً نشطاً للكتب، لكن الكتب تظل كالذهب يتضاعف سعرها عراقة وزمناً فلا تبور".

أحسست أنني يجب أن أغادر، فقد عاد يقرأ في الكتاب، فوقفت وقلت وأنا مطأطئ: "بقي أمر أخير".

رفع حاجبيه مستطلعاً، فلمحت في تلك اللحظة حصراً اتساع عينيه مع بعض الجحوظ.

قلت له: "ما السبيل الأمثل لاستعادة مقتنياتي من رئيس الشرطة؟"، وسردت له ما كان من أمر زخاريا وعربته.

هز رأسه بأسى قائلاً: "مرّ علي غداً لنتناول طعام الغداء معاً... وستجد لدي الرد حول مقتنياتك"، عاد يقرأ وقال لي: "أطبق الباب خلفك، وناد لي ياقوت".

خرجت مهرولاً مبتهجاً وقد تعبد دربي بالياقوت. مقابلة قصيرة،

لكنني مُنحت فيها حق زيارة مكتبة مذهلة مع وعد بعودة مقتنياتي.

خرجت إلى المتجر أقلب وجهي في البائعين بحثاً عن ياقوت، الذي لم يكن إلّا كما توقعت، الدمثَ ذا الشعر الأبيض. أخبرته أن سيده يريده، ثم استلحقته سؤالاً قبل أن أغادر: "أود أن أتجول قليلاً في القطائع، ولربّما تصعدت قليلاً في جبل المقطم، هل هناك بأس في هذا؟".

فأجابني وقد رأيت عينيه تبرقان: "لا بأس، ولكن كن حذراً، ولا تسرف في التقصي أو ارتياد الأماكن المهجورة حيث مكامن اللصوص، كما أن حرس الخليفة وعسسه وعيونه منتشرون في المكان ينظمون له مساراً آمناً"، ثم أردف بنبرة خافتة في قاعها بعض السخرية: "في الآونة الأخيرة اعتاد الإمام المعصوم أن يخرج من القاهرة في الليل على حماره ويقصد المقطم يقرأ النجوم والطوالع على قمته، ولأنه يرفض أن يرافقه أحد من حرسه، فإن قائد حرسه المسؤول عن سلامته يضطر أن ينشر جنوده طوال الدرب على شكل عسس أو باعة متجولين".

***

ليس من اليسير أن تغادر مجلس رشيد بن علي فتغادرك ذكراه: الطريقة التي يرفع بها عينيه عن الكتاب ثم يحطها على محدثه، توقفه بين الجملة والأخرى لانتقاء مفرداته؛ يسكنني حضوره قوياً كدأب السراة: ملامح وجهه الكبيرة، ورقبته العريضة كجذع شجرة مليئة بالعروق، وشعره الأجعد الملمع بدهن معطر وقد خطه الشيب، ومكتبته التي يباهي بها، ما نوع الكتب فيها؟ يجب ألا أستعجل الأجوبة وأفضها بقسوة. الأجوبة

تكون في حالة كمون كالفراشة داخل الشرنقة حتى إذا اكتملت وانتهت، رفرفت فوق إصبعي.

***

ارتعد قلبي وأنا أسير وأعلم أن هذا هو المسار الذي يستعمله الحاكم كل ليلة خارجاً من قصره.

كنت ألمح حولي خرائب قصور وبيوت مندثرة هجرها سكانها ليحتلها بعض الرعاة وغنيماتهم وبعض السقائين، فيجلسون أمام منازل مخلعة النوافذ محطمة الأبواب باسمين ودودين، متأكداً أنني لو دخلت بيت أي من هؤلاء، لقاسمتهم نصف عشائهم.

أسير في طريق عودتي إلى القاهرة مجاوراً درب السقائين حتى لا تتوازعني الدروب، والسقائون في القاهرة جُعلت لهم درب مستقلة، فتسير الجمال والبغال على ظهورها القرب والأوعية من النيل إليها. مشاداتهم دائمة مع المارة، إما بسبب انتثار المياه من أوعيتهم على ثياب المارة، وإما لاشتراطهم نيل أتعابهم مقدماً، وكل دور يصعدون بالماء إليه بنصف دانق.

لا بد أن أعود إلى البيت الآن، فقد طلبت من مبروك أن يبتاع لي بعض نبات الشيح والريحان ويزرعه في محيط الشرفة العلوية ويوزعه في أحواض في أنحاء البيت، فقد آذاني البعوض البارحة، وقربنا من النهر أرسل لي أسرابه الكثيفة.

دمائي حلوة كما كانت تخبرني شما الوائلية عندما يعقص الباعوض وجنتي.

شما الوائلية... أصبحت ذكراها الآن كالمخرز الذي ينخز قلبي...

خمارها بوريداته الصفراء كانت تبتاعه من الحجاج القادمين من مكة، وفي المساء حينما تنام، تنزعه وتغسله، وتنشر شعرها وجدائلها الطويلة على ظهرها، وصباح اليوم التالي حينما يجف، تلفه بعروق الخزامى الجافة، فتضوع الخزامى من شعرها طوال النهار! لن أسرف في تذكرها، فقلبي موجوع.

رائحة الريحان والشيح فاغمة في مدخل منزلي، مع أنه إن كان جلوسي بين يدي هذه الأرفف أقلب الكتب هو غايتي، لكنني يجب ألّا أخلد إلى هذا الإغواء، ولا بد أن أنخرط في حلقات العلم الأزهري، فمكوثي هنا بين الكتب طويلاً لا بد أن يبعث على الريبة.

***

لم يخرجني صوت أذان المغرب من منزلي بل صوت صياح يقترب من العويل. لم أتبين مصدره حتى دنوت من الباب فسمعته يعاود الصياح: "إن الله قائم في كل مكان، ناطق بكل لسان، ظاهر جلال قدرته في كل إنسان...".

الصوت قادم من بوابة الدار الكبيرة آخر زقاق المجذوب، وتذكرت في تلك اللحظة أن انشغالي بالبحث عن رشيد بن علي وبقية أغراضي والحمال منعتني من الاستفسار عن المجذوب وعلاقته بيونس. فتحت الباب وتلفتُّ متتبعاً مصدر الصوت، فتبينت رغم بواكير العتمة التي بدأت تهطل على الدرب، يونس يحاول أن يربت على كتف المجذوب بلطف وهو يسوقه إلى المنزل، ويرفع يده ويقبلها بين حين وآخر، فيما برزت من وراء بوابة الدار أيدي نسوة بعضهن يحاولن أن يناولن يونس مشروباً يسقيه إياه، في حين أن الأخرى تمسك بكم ثوبه وتسحبه إلى الداخل.

أما المجذوب، فتسمرت عيناه في السماء وعاد يصيح: "إن الله قائم في كل مكان، ناطق بكل لسان... سبحان من ليس له أنيس... ولا له في عرشه جليس".

تراجعت إلى الداخل بحذر بعد أن شعرت بيونس قد أصيب بالحرج، فهو لا يرغب في مشاهدتي هذا الرجل يدفعه ويركله ويطوح بعمامته، لكن سرت في جسدي قشعريرة غريبة جعلتني أنتفض فجأة، فقد شعرت أن هناك أعيناً ترقبني وتتلصص علي. أطبقت عليّ باب منزلي وشعرت بالوحشة.

مصر لا تنام باكراً، وتزدحم بالأصوات، أشعر أن كل صوت له حكاية لا تشبه الأخرى، ففي تلك الليلة نفسها، بدأ ينسكب على سطح منزلي دندنات أوتار متلفة للروح لجمالها: عزف عذب آسر، كأن العازف قد قطف جميع شجن الطيور التي مرت فوق مصر ذلك العام وصبها فوق الأوتار.

***

استيقظت صباح الجمعة والأنغام ما برحت في رأسي. الغرباء دائماً يسيرون إلى جوار الجدران، ويفسحون الطريق للمارة ولا يتلكؤون في الحديث. خفاف الحركة، يراوغون المشادات سواء مع بائع أو صاحب شرطة.

عرّجت على الأزهر لصلاة الجمعة قبل ذهابي إلى رشيد بن علي، وقبل أن أدخل، لفت نظري عربة فخمة يجرها بغل فاره بلجام مطعم بالفضة وقد تجمهر بالبوابة حولها مجموعة من عمال المسجد يتوسطهم رجل أسود أمرد حسن الهندام فخم العمامة. يشمخر على من يمر به

مترفعاً، ولا يلتفت إليه. هيئته توحي أنه من خصيان القصور. سمعته يخاطب أحدهم قائلاً بلهجة رعناء آمرة: "اجلب الختم من الإمام لتختم على استلامك هذه المؤونة القادمة من القصر والخاصة بالمسجد"، فهرول أحد العمال مهطعاً إلى الداخل، فيما أخذ يعدد ما بعث القصر إلى الأزهر بصوت عال مفخم: "عدد ٤ حصر عبادانية، ٤ حصر مضفورة، عود هندي وكافور ومسك لطوال الشهر، شمع ومشاقة لسرج القناديل وفحم للبخور، أربع أحبل وستة دلاء، وعشر قفاف ومئتا مكنسة، أزيار فخار وأجهزة حملها، زيت للوقود، تنورا فضة، سبع وعشرون قنديل فضة".

كان يرددها كأنه يراجعها، ولكن سرعان ما تبين لي أنه يقتنص كثافة دخول الناس إلى صلاة الجمعة ليسمعهم ما يبذل القصر للمسجد.

كانت الخطبة في تلك الجمعة عن فضل الإسلام على جميع الأمم، وعن عدالة الله سبحانه وتعالى، وعن إعادة الأمر إلى آل البيت من حكام مصر.

***

بعد الصلاة بدأت حلقات الدرس تعقد، ولم أستطع أن أحجب نفسي عن حلقة مررت بها رغم أنني يجب أن أهرول مسرعاً إلى منزل رشيد بن علي، فسمعت شيخها يقول: "لِمَ اشتُق الْفِعْل من الْمصدر دون الزَّمَان؟".

كان الطلاب حوله من الأعاجم الزنوج، وخمنت أن هذا الدرس هو إعادة لسابق ومراجعة قبل أن ينخرط الطلبة في اختبارات الإجازة. أذكر مزهواً في مسجد بغداد كيف كان يختارني دوماً شيخي التميمي لأعيد شرح ما غمض على الطلبة الأعاجم القادمين من فارس والسند. ذلك

الزهو جعلني أصيح من مكاني واقفاً في الحلقة الأخيرة: "لأن الزمان دائم الوجود، وإنما الغرض في اشتقاق الفعل من أحدهما ليدل عليهما، فلمّا كانت الأفعال منقضية والزمان موجوداً، وجب أن يقع الاشتقاق من المصادر".

التفتت الرؤوس نحوي، فيما أخذ شيخ الحلقة يرمقني صامتاً مع بعض الدهشة. خفت أن يكون ما تلفظت به قولاً للمعتزلة قد علق بذهني ولم يغادره، لكن سرعان ما هتف الشيخ: "أحسنت وأجدت يا فتى، ما اسمك؟".

وكم يردد جدي أن الإنسان محكوم بطيّ لسانه لا بثوبه أو طيلسانه، فحديثي عن مصادر الأفعال أشرع لي البوابات، وخرجت من المسجد وقد عرفت أسماء معظم حلقات الشيوخ، وموعد حلقات المسجد، والمكان الذي أسجل فيه اسمي غداً، وأمين صندوق الجامع الذي يوزع هبات القصر الشهرية على الطلاب.

***

كانت القطائع ذلك اليوم أكثر ازدحاماً بالمارة، حتى أن بعض الباعة المتجولين قد بسطوا بين خرائبها القرع والقثاء والثوم. ما إن وصلت مهرولاً متجر السجاد حتى وجدته مغلقاً قد صُفّدت أبوابه. أصابتني خيبة، ماذا حدث؟ هل أعود أم أبحث عن باب آخر؟

ولكن لم أبحث عن الباب، بل هو الذي بحث عني، فقد لوّح لي أحد صبية دكان السجاد من الذين رأيتهم في الأمس داخل المتجر عبر الشارع المقابل للمتجر، وطلب مني أن أتبعه. سرنا في درب مرصوفة، وقد نهضت على حافتيها مبانٍ بجدران مرتفعة ونوافذ خشبية بارزة

كالمقاصير، قبل أن نفضي في نهاية الممر إلى بوابة انفتحت على المضافة الحمراء الواسعة نفسها التي التقيت فيها رشيد بن علي البارحة، لكن دخلناها من بوابتها الجنوبية الكبرى.

كان يتصدر رشيد بن علي مجلسه ويحفه جلاسُه بعدما اختلفت هيئته عن الأمس، إذ ارتدى كامل حلته وقفطانه، واعتمر عمامة من الديباج. يجلس على يمينه ويساره فتية طوال القامة وضيئو الوجوه، وإن كان قد بدا عليهم التململ والفتور، ويكتفون بتقليب أعينهم في الحضور.

ما إن رآني أحدهم واقفاً بالباب حتىّ هب لاستقبالي وعلى وجهه ابتسامة ألفة، وقال لي: "ألهذا السبب يشتق الفعل من المصدر؟"، سرعته وحفاوته جعلتاني أتلعثم، فقال وهو يماشيني إلى رشيد بن علي لأسلم عليه: "أنا عطاء بن رشيد، وقد سمعتك اليوم في حلقة علم النحو في المسجد، أنا أرتاد الحلقات دوماً". وهمس في أذني بسخرية ونحن نتجه إلى السلام على أبيه: "لكن الكثير من حلقات المسجد هناك، الشعوذة فيها تردف الشعبذة...".

راقني بريق العبث والنزق في عيني عطاء، أحسست برغبتي في المزيد من الحديث معه.

وما إن سلمت على رشيد بن علي، وجلست في مكان قريب منه، حتى سمعته يأمر أحد غلمانه قائلاً: "أحضر حاجة مزيد"، فهرع الغلام مهرولاً وغاب قليلاً، وما لبث أن قدم وقد حمل على أكتافه بقية صناديقي وبعثرتي وغباري، التي تحفظ عليها قائد الشرطة.

خجلت منها في هذا المجلس المنعم ذي السقف الشاهق والمقرنصات المذهبة، والأرائك التي تحتضنك كعناق الأمهات. خشيت أن يفتحها على رؤوس الأشهاد فتظهر أعشابي وأحذيتي القديمة

ذات سيور جلد الماعز، التي ما برحت أحتفظ بها من زمن اليمامة، فطلبت من الغلام متلطفاً أن يضعها في ركن موارب داخل المجلس كي يتسنى لي أخذها عندما أخرج.

ثم هتف رشيد بن علي من مكانه في صدر المجلس قائلاً: "أفرجنا عن لفافتك... وتوسطنا أيضاً لصاحب البغل القبطي الذي وعد أنه سيعلق صليباً في رقبته بالوزن نفسه الذي طُلب منه، ولكنه لا يمتلك نقوداً لشرائه، فأنقدناه ثمن صليبه وأُجرته معاً".

أردت أن أستفسر منه المزيد، لكن حجبني عنه دخول فوج من الغلمان يحملون صواني فوقها أكواب مشروب حلو رائحته شذية. همس لي الغلام الذي قدمه إلي عندما لمح حيرتي وترددي في مد يدي: "هذا منقوع المشمش المجفف، نسميه في مصر مشروب قمر الدين".

كان المجلس في ذلك الوقت يلغط بحكاية شيخ في الأزهر اكتشفوا لديه كتاب **الموطّأ**، فجلدوه وداروا به فوق بغل خشية انتشار المذهب المالكي بين المصريين.

تطلع إلي رشيد بن علي بنظرة ذات مغزى كأنه يقول لي: أرأيت؟ وأردف مقدماً إياي إلى مجلسه: "... مزيد الحنفي، طالب علم من اليمامة"، ثم ما لبث أن أشار إلى الفتية الذين يحفونه: "أبنائي... عطاء، وعبد الجبار، وإبراهيم، وإدريس... تيمناً باسم النبي إدريس الذي كان أول من خطّ بالقلم واستقر في مصر".

نظرات الصبا العابث وأنفة النبلاء تطل من أعينهم. ثيابهم الزاهية وعمائمهم الحريرية تظهر فتية لم يُلق عليهم أمر يشق قط، وأعظم تحدٍّ خاضوه هو طرح طائر إوزِ بري بسهامهم! هل يتبخترون على شواطئ نهر النيل فتلاحقهم أعين الفتيات وتنهدات النساء.

وأنا أيضاً تنهدت بعمق... أهو الحسد، يا مزيد؟ هل زايلك الزهو الذي تغشاك وأنت في حلقة الأزهر قبل قليل؟ دفعت هذا التفكير عن رأسي وعدت أتأمل رشيد بن علي يحفه أبناؤه ويبدو مزهواً بهم كطاووس يقلب أجنحته ذات الشمال واليمين.

لم يكن أبي مزهواً بي. كان يُخيل له أن مكوثي الطويل بجانب جدي داساً رأسي في الكتب جعل مني ليناً رخواً، فأخذ يجلدني بالأشغال الشاقة من قطع سعف النخيل الجاف، وتحويل السواقي، وجلب الماء. وحينما يكفه جدي عني ويخبره أن لدي ملكة عجيبة في القراءة والكتابة، يطيش صوابه، ويرسلني أسبوعاً كاملاً إلى مرعى الإبل، أعود منه وقد امتلأت أقدامي بالشوك، فيما تدهن شما بواطن أقدامي بالزيت الحار لاستخراجها وهي تتشاجر وإياه.

كان أبي يريد أبناءه كوكبة من الفرسان رجالاً غلاظاً أشداء، ولكنه حينما يشيخ ويقعده المرض ويتناثر أبناؤه في الأودية والأمصار، فلن يجد حول ضعفه أحداً عدا بعض نسائه وبناته؛ وحدهن من سيجلس حول رأسه إذا مات يندبنه ويحنطنه، ويعتكفن على قبره يولولن عليه.

أبناء رشيد بن علي... الصباحة والوضاءة والتقاسيم التي لم يمر بها هزال أو جوع، يبدو أنهم جلبوا إلى هذا المجلس قسراً لوجاهة يريدها رشيد بن علي.

أكمل تعريفي بهم: "عطاء سميته على اسم الشيخ واصل بن عطاء من رؤوس أهل العدل والتوحيد، الذي انتبذ الحسن البصري وجعل إمامه عقله، والثاني والثالث إبراهيم وعبد الجبار، جمعت بهما اسم قاضي المعتزلة بارك الله في عقله ونفع بعلمه".

يبدو أن مصر لم تشهر خناجرها في وجه المعتزلة إلى الآن... أم أن

رشيد بن علي قد أمن مجلسه؟ فغالبية من اصطف فيه يبدون من التجار الذين ألهاهم لقط الدنانير عن العلم والتفكير. يستغرقهم الحديث عن أحوال السوق وهم يرتشفون قمر الدين بمتعة.

لكن سرعان ما التفت رشيد بن علي إلى ابنه إدريس كي يلملم شتات حديث كان قد بدأ به قبل حضوري. كان يسال إدريس وعيناه تنظران إلي فيما يعلو وجهه نصف ابتسامة: "أي ما أقصده بسؤالي، هل القرآن الكريم مخلوق في زمن النبوة ومتوائم مع أحداثها؟". فصمت إدريس بتردد وحيرة وأطرق... وأردف أبوه: "أم هو كما يقول البصريون، خلق مع الحياة الدنيا وحفظ في اللوح؟".

يبدو أن هذه الإجابة راقت لإدريس لأنه رأى فيها تبجيلاً لمكانة القرآن الأزلية، فأجاب بسرعة دون تفكير كأنه يخشى أن يسبقه أحد إلى الإجابة: "بل هو مؤزل في اللوح المحفوظ".

فأجابه أبوه وقد علت وجهه ابتسامة ظفر كأنه نال منه، وساق الحديث إلى الغرض الذي ينشده، فهتف: "حسنا، في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾، هل كُفر أبي لهب محدث جديد أو أزلي قديم؟"، ثم تأمل الوجوه وفي عينيه الجاحظتين علامة نصر، لكن وجم الجميع حوله بلا إجابة.

فانبرى يقول: "بالتأكيد أبو لهب لم يخلق كافراً، بدليل أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يدعوه ويلح عليه في الدعوة، فكانت هناك احتمالية أن يسلم كما أسلم عمّا الرسول حمزة والعباس، ولكنه لم يسلم، ونزلت الآية الكريمة التي كانت تماشي الأحداث... إذاً، القرآن محدث وليس مؤزل، فالمعاني الكريمة ليست بالألفاظ، لكن بما تثيره في النفوس، والأفكار التي تستجلبها، والمواضع التي تنزلها في العقل".

ثم تريث قليلاً كأنه يرى وقع كلامه على الوجوه قبل أن يقول وهو

يهز رأسه: "هذا على عكس ما يزعمه الحنابلة بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذا فيه نقص واضح".

ثم ما لبث أن التفت إليّ قائلاً: "ما تقول في هذا يا مزيد؟". كنت أحدس أن الحديث ما هو إلّا استدراج لي لأفرغ ما بجعبتي في مجلسه، واستدراج التجار ليكفوا عن الحديث حول قوافل القمح التي ذهبت إلى الحجاز.

أخذت أكدّ ذهني محاولاً أن أسترجع سطوراً كثيرة من الجدل الذي كان يدور في حلقات جامع بغداد حول هذا. كنت أبحث عن شيء مبهر ملجم حتى لو كنت لا أفهم بعضه أو ربّما جلهز أريد أن أبز هؤلاء الفتية المنعمين وأشعرهم بصغرهم أمام معارفي وعلومي، فقلت: "لقد وصف الله كتابه بأنه محدث؛ بقوله ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾، ولا أزلي قديماً في هذا العالم سوى الله".

رأيت عندذاك عيني عطاء تبرقان، لكن ليس بالغيرة، بل بالإعجاب والود، حتى مكنون صدره نقي خالٍ من الحسد، وضيئ كوجهه. عندئذ تمتم الحضور وتهامسوا حول اللوح المحفوظ وحول حفظ القرآن، فجمع رشيد بن علي شفتيه الغليظتين بقوة خشية أن يتحول الهمس إلى لغط، وقذف بمركب الحديث إلى ناحية قصيا وبعيدة تماماً عن اللوح، والتفت إليّ يسألني: "هل شاهدت زرافة وفيل الإخشيد؟".

فغرت فاهي، ماذا يقصد؟، فيما تضاحك أبناؤه حوله. فقال: "زرافة وفيل الإخشيد لهما حكاية عجيبة لا بد أن يعرفها كل من قصد مصر، فقد نظر الإخشيد إلى كافور يوماً، وقد جيء بفيل وزرافة من بلاد الزنج، فمال جميع الخدم والعبيد بأبصارهم للفرجة، لكن عيني كافور لم تبرحا الأخشيد خوف أن يحتاج إليه ويدعوه، فيكون مشتغلاً عنه. ذهب

الإخشيد وكافور، وظل الفيل والزرافة، وتوارثهما بعض سائسي خيل الإخشيد، وتعهداهما بالرعاية في مزرعة قريبة من الفسطاط، وبات الناس يقصدونهما للتعجب منهما، فتم حجبهما عن الناس، فلا يراهما القادم إلّا بدرهم، وعندما نفقت الزرافة، بعث إلى بلد الزنج وأُحضر اثنتان منها، وسُورت ساحة مجاورة لنطاح الكباش وصراع الديكة يقصدها العامة كل أسبوع".

خشيت أن حديث الفيل والزرافة هو تعبير عن استخفافه بي، وأنني ما برحت مريداً غرّاً في معراج أهل العدل والتوحيد، وإن كنت في أعماقي قد أضمرت البحث عن الزرافة والفيل ورؤيتهما.

***

فجأة نهض رشيد بن علي، وأشار لنا مرحباً: "تفضلوا!"، نهضنا خلفه، يحفه أبناؤه، وتبدّى لي أن الأعراق تواشجت هنا بين سحنة رشيد بن علي الداكنة وسلالته الوضيئة.

اقترب مني عطاء وهمس: "أراك غداً في الأزهر، بعد صلاة الظهر".

وفجأة توقف رشيد بن علي والتفت إلينا مخاطباً كأنه يستدرك أمراً فاته وقال: "الذي يؤكد أن القرآن محدث أن المعنى ليس بالكلمات، لكن بما تثيره في النفوس، والأفكار التي تستجلبها، والمواضع التي تنزلها في العقل. لذا، كل واحد يوجدها ويفهمها من حيث مبلغ عقله...".

خفق قلبي عند ذلك بشدة، حتى أنني عثرت بالسجادة وكدت أن أقع على وجهي لولا أن أمسك بي عطاء قائلاً: "هل أنت بخير؟".

لقد صعد بي رشيد بن علي إلى الوصية والمرتبة الخامسة في معراجي:

الوصية الخامسة

التوحيد غاية لا تدرك، بل كل واحد يوجده من حيث مبلغ عقله، وما تنبسط فيه استطاعته.

هل كان عامداً قاصداً أم أنه مكر الأقدار التي تتراكب لتصنع درجاً يرقى بالمريد درجة أعلى في معراجه؟

***

في طريق العودة، أمر رشيد بن علي أحد ساسة الخيل أن يرافقني، فوضعت أغراضي فوق الحصان، وسرنا راجلين إلى جواره حتى دخل بي سور القاهرة، وأفضينا إلى زقاق بيتي الضيق، وتوقف هناك وحمل أغراضي بهمة ونشاط على كتفيه وأدخلها إلى قلب بيتي.

ولأنه لم يكن لدي دراهم أنقده أياها كامتنان مني لصنيعه، تناولت أرغفة بالحبة السوداء من سلة الخبز وناولته إياها. يبدو أن ذلك كان تصرفاً أرعن مني بعد أن رأيت المائدة العامرة التي قدمت إلينا في منزل رشيد بن علي: لحم خرفان، بط، أنواع الحساء والمطيبات داخله، لكنه رد إلي الأمر بصفعة مهذبة قائلاً: "شكراً لك، ستكون وجبة شهية للحصان الذي يجر العربة".

شعرت بالحرج ولمت نفسي التي ما برحت تتعامل مع العالم بذاكرة الجوع والعطش.

فككت أغراضي. تبدو مكتملة لم ينقص منها شيء، حتى البوصلة والإسطرب كانا موجودين.. .مع أن رئيس الشرطة كان شديد الاهتمام بهما وقلبهما بين يديه كثيراً، ولا أعتقد أنه كان من الممكن أن يحاسبه أحد على أخذهما، ولكن يبدو أن سطوة وجاه رشيد بن علي حسما الأمور.

أمضيت بقية نهاري في المنزل أشعر بنشوة وطمأنينة: تصعّدي في معراج وصايا السراة، ومعدة ممتلئة، وأمضيت مسائي مع كتاب الأسابيع لأبقراط، ترجمة حنين بن إسحاق.

في صدر ترجمته، يذكر أن جالينوس يقول: "إن أبقراط شبه الإنسان بالدنيا، وسماه الدنيا الصغيرة، لأن تدبيره على تدبير الدنيا".

***

صليت الفجر في الأزهر، وكانت هبات القصر قد بدأت تظهر في زوايا المسجد، فموضع السجود معطر، والقناديل جعلت لون الهواء حولي بنفسجياً شذياً. وأمضيت أوقات الصباح والظهيرة هناك أتنقل بين الحلقات، وأرصد الأساتذة الذين سآخذ عنهم ويجيزون لي.

يرافقني عطاء، أو لربّما أنا من أرافقه رغم أنه يصغرني بثلاث سنوات.

ما برح عطاء بطور العبث واللهو والسير مزهواً بقامته الرمحية وثيابه القشيبة. الدنيا لم تدلق عليه سائلها الغامق. لا يبالي بحضور جميع الحلقات ويتندر على الشيوخ، فإذا بعث حديثهم في نفسه الملالة والضجر، نهض وغادرهم.

رغم هذا، كان دليلي إلى أروقة وبوابات المسجد، وتسلل بي إلى صف نوافذ في القبو الشمالي للمسجد، وقال لي بضحكة ماكرة: "إذا أصخنا السمع، نستمع لحلقات تعليم الفتيات، ولو وضعنا سلالم، لربّما حظينا منهن بلمحات خاطفة". لم نمكث هناك طويلاً خشية أن يلمحنا أحد الحراس، بل ذهبنا إلى المكتبة. وفي النهاية، قادني إلى أعمدة بعيدة متوارية للمسجد بالإمكان الاستلقاء بينها لقيلولة سرية خاطفة.

في إحدى الحلقات، أزعم أنني رأيت المجذوب، وشعره الأشعث

والأسد الفضي على رأس عصاه، يهرول بين الأروقة، فخمنت أنه استطاع أن يتفلت ذلك اليوم من يونس ومن الأيدي التي كانت تتجاذبه إلى الداخل، وحضر إلى هنا.

في ذلك اليوم، كنت أمني نفسي بأمسية حميمية برفقة كتاب استعرته من مكتبة الجامع، وهو الكتاب الذي جمعه الشريف الرضي لأقوال علي بن أبي طالب وسماه **نهج البلاغة**. يستحق هذا الكتاب الخلوة والتأمل... هذا ما كنت أظن قبل أن تنعطف بي أمسيتي إلى أرض العجائب.

***

ما إن سلمت من صلاة المغرب وقصدت ن يتفلت منهم وحضر للمسجدا.

.بوابة المسجد، حتى وجدت المجذوب قد انتصب أمامي! انتفضت واقشعر جلدي لسماع صوته يقول لي: "الأفعال لا تنقضي بل تدوم وتبقى، وجرح الفؤاد تنزف وتنسرب منه روحك وضوء مهجتك".

صوته وهيئته أجمدا الدم في عروقي. لقد كان يتتبعني ولم أشعر بهذا. لم يكن ينقصني إلّا هذا المجذوب يلاحقني. توقفت لوهلة أفكر أن ألاطفه وأسوقه إلى منزله، لكن تلك هي اللحظة التي حضر فيها يونس مهرولاً، فانحنى على يده وقبلها وأمسك العصا وهو يقول بلهجة آمرة كأنه يخاطب غرّاً صغيراً: "هيا يا سيدي إلى المنزل!".

عندذاك، عاد المجذوب سيداً وقوراً فجأة، فشم بأنفه ورفع ذقنه، وسأل يونس بصوت خافت اعتاد أن يصدر الأوامر: "هل جهزتم لميس لتأتي إلى غرفتي الليلة؟".

تلكأ يونس قليلاً في الرد وأُحرج، فصاح به المجذوب بصوت قادم

من قاع روحه: "هل زينتم لميس لتأتي إلى غرفتي الليلة، أم أن الشيطانة ما زالت تقرص يديها وأصابعها بالدبابيس المحماة على جمر قلبي؟".

حينما بدأ الصراخ، حرص يونس أن نتوغل في زقاق المجذوب بعيداً عن أعين المارة، فالتفت المجذوب إليّ بصوت يشكو كأنه أنين وقال: "يدا لميس كانتا فُلّاً أبيض، ناصعتان صغيرتان، لكنهما شوهتا بالدبابيس المحماة، حتى غضبت منا وغادرت"، قال يونس بحرج: "لميس بانتظارنا الآن"، زعق فيه وقد جحظت عيناه: "اخرس أيها العبد النتن، فما أنت سوى كلب لسيدتك الشيطانة".

أمام هذا الكشف والألغاز، رأيت وجه يونس قد تخشب، وبدأت أنسحب لأذهب إلى بيتي. ولكن يونس رجاني أن أتريث، وأن أماشيه إلى منزله، فسيده يبدو الليلة في حالة هياج كبرى ويخشى أن يتفلت وينطلق فلا يجده إلّا على قمة المقطم أو في قلب الصحراء.

ماشيتهم، وطوال الطريق المجذوب يشكو لي يونس ويذمه، لكن لم أجد في نفسي جرأة السؤال عمّا يحدث.

أول مرة أقترب من البوابة الهائلة التي ينتهي إليها زقاق المجذوب: خشبية متينة مزردة بالمسامير ومزينة بأهلة ونجوم نحاسية مع قفل ضخم يوازي حجمه رأس بعير.

هو حتماً دار شرف وسيادة... الأسقف والأعمدة، الأرائك والطنافس، والنار في المجمرة، وسحابة بخور هندي تتغشى المكان.

ترجّاني يونس أن أبقى وأقرأ عليه بعض القرآن، "فأنت أزهري تلاوتك ستبارك المنزل".

وكان المجذوب يبدو هادئاً مطواعاً برفقتي، فيما هرع يونس ليضع المزيد من اللبان والبخور الهندي في المجمرة، وهو يتمتم: "علمتني

الأيام أنها مخزن للعبر".

عندذاك سمعت صوتاً أنثوياً ملتاعاً: "القرآن فيه شفاء للناس...". رفعت رأسي إلى حيث الصوت، فإذا بسيدة تتهادى قادمة نحونا كإوزة فخمة تسحب طيات ثياب من ديباج يخشخش، وتضع فوق رأسها خماراً حريرياً مهفهفاً بلون القمح. كلما تحركت، وسوست وخشخشت أساورها وحليها، وكانت تتمتم: "باسم الشافي والمعافي..."،

فلمّا وصلتنا، سمعت المجذوب يقول: "علتي أنت أيها الشيطانة"، فتقهقرت إلى ركن بجوار الباب الذي يفضي داخل المنزل، وغطت وجهها بخمارها وأخذت تنتحب.

جلب مبروك ومعه غلام خواناً وضعاه بيني وبين المجذوب، وأخذا برصف الطعام فوقه ويونس يوجههما. في ذلك الوقت، عاودني ذلك الشعور الطاغي بأن عينين تراقبانني من مكمن خفي!

انزوت السيدة الإوزة قريبة منا، تمسح دمعها، وتشرف على ضيافتنا. أزالت خمارها المبتل بدمعها، فطأطأت رأسي حياء واحتراماً لها.

أخذت تتمتم: "هذا السحر وما يفعله بالبشر، لا أعاد يوماً دخلت فيه تلك البربرية بيتنا"، وفجأة انتفض المجذوب وقال وقد اتسع شدقه وأخذ الرذاذ يتطاير من فمه وزعق: "اخرسي أيتها الشيطانة"، فنكست رأسها إلى اليمين وصمتت، فيما تدارك يونس الوضع بسكب مشروب في كأس زجاجي وقدمه إلينا.

تبدّى لي أن السيدة الإوزة لا تزال تتشبث بشباب يأفل لكنه يترك لها عينين نجلاوين مطوقتين بكحل كثيف، وبشرة بلون العسل. قلقها واضطرابها لم يخفيا غنة غنج قديمة في صوتها توائم تقليب يديها المزينتين بالخواتم والحلي وهي تتحدث، ثم تمسد بهما مفرق شعر

أسود كثيف جعلته جديلة على ظهرها... فتنة ما برحت تشد أطراف وجهها وتجمعها عند فمها الشهي.

كانت مكروبة، وتتنهد بعمق وتحوقل، وتخبط كفها على فخذ ممتلئة ريانة كأنها وسادة من نعام، وعيناها لا ترتفعان عن المجذوب. كان الطعام موضوعاً على الخوان، ولكن لم يلمسه أحد. رغم جوعي، كنت محرجاً أن أبادر قبل الجميع، والمجذوب زاد هياجه مع دخولها، فيما ما برح شعوري يتعمق بأنني مراقب.

في تلك اللحظة، وجدت أنه من السخف أن أظل متقمصاً دور الجار الغريب الذي أولج في هذه الحكاية عنوة، ولاسيما أنني شعرت أن هناك حالة انتخاء بي، وأن جميع من في الغرفة يعوّلون علي وهم بلا حول أو قوة.

فبادرتني السيدة قائلة: "هلّا قرأت عليه بعض آيات سورة يس أو الرحمن ليطمئن قلبه". كنت أود أن أقول لها إن هياجه تضاعف بوجودها وليتها تغادر... لكن تحرجت من هذا، فلا يمكن أن أمضي دون أن أقدم إليهم مساعدة ولو بادعاء العلم والتعالم.

فاستعدت شروحات جالينوس وتهميشاته على كتاب أبقراط، فهي بالضبط ما يحتاجه الجميع الآن في هذا الإيوان المحتقن. أخفضت رأسي وأخذت أرصف الكلمات واسترجعها وقلت: "أسباب المرض نوعان: أسباب بعيدة تكون ناتجة عن عوامل الجو والإقليم أو الأطعمة التي يتناولها المريض، وأسباب قريبة ناتجة عن فساد أو سيطرة واحد من الأخلاط الأربعة التي يتكون منها الجسم".

شعرت بعد كلامي أن الجميع قد اشرأب وتحفز كأنني ألوح بضوء لقافلة ضائعة في الصحراء منذ دهور. ولعله أعجبني، أو بالأحرى

طمأنني، رد الفعل الغامر الذي انسكب في هذه المضافة الوثيرة الواسعة، فأكملت: "لذلك، لا بد من معالجة الأمراض بالطرق والوسائط التي تؤدي إلى إنضاجِ الأخلاط وإخراجها من الجسم".

أخذت شهيقاً، وعندما شاهدت الأعين ما برحت مشدوهة تتأملني، أكملت: "عند امتزاجِ العناصر امتزاجاً محكماً في الكيفية والكمية، وكان الامتزاج متناسباً، يتمتع الجسم بصحة جيدة، ونحن الآن في فصل الخريف، وهو يفعل بالأجساد كما يفعل بأوراق الشجر، وهواء الخريف يزيد العزلة والكآبة، ويتعب الكبد والمرارة..."، فالتفتُّ إلى يونس قائلاً: "احرص عليه ألا ينام تحت السماء والنجوم مباشرة"، ثم سألت يونس: "هل هناك حمام تأخذه إليه".

استدار حاجبا يونس بالدهشة وقال: "سيدي، مولاي من الأشراف ولا يخالط حمامات العامة... ولدينا هنا في المنزل حمامه الخاص به الذي أجريت له قناة خاصة من النيل".

قلت له بصوت واثق هادئ حتى أنني خمنت هازئاً أن جالينوس سيقهقه لمسمعي: "بعد أن يأخذ هذا الحمام وتتواءم أخلاطه ما بين الهواء والماء والنار والتراب داخل الحمام، سنسقيه منقوع الزبيب".

فوجئت السيدة وبدت مصدومة، وهتفت: "لكن الزبيب حجب عن الأسواق". لم أجبها، بل التفتُّ إلى يونس وقلت له وأنا أتهيأ للخروج من المنزل: "لا تنس ما طلبت منك، فإذا انتهى من حمامه اسكب على قدميه منقوع الريحان، فأبخرة الشر تخرج من القدمين، فتنتظم عندها أخلاطه الأربع، فينام بعمق... سأعوده بعد صلاة العشاء".

خرجت وصوت المؤذن لصلاة العشاء ينحدر من المأذنة بتدفق وموجات غامرة تتكسر على ضفاف النيل كأنه يناجي ويستدعي حبيباً...

غائباً. يتردد الصوت وأصداؤه بين الممرات والأروقة تمسح عنها شقاء النهار.

ذهبت إلى منزلي وأخرجت من أغراضي الزبيب والمريمية. جهزت منقوعها في جرة ماء صغيرة، وخرجت صليت في المسجد، ثم عدت وقلبت في كتاب جالينوس قليلاً: هل المجذوب من أصحاب المزاج السوداوي حيث يذكر جالينوس عن أبقراط أن طبعهم ماليخولي ولون شعرهم داكن ودورتهم الدموية بطيئة... بالإضافة إلى دخول موسم الخريف؟

هو يرى أن علاجهم ليس فصد الدماء، بل إخراج الفضلات من البطن، فحملت منقوع الزبيب والمريمية، إذ يقال أنّهما ملينان وهرعت بهما إلى منزل المجذوب.

كان قد هدأ بعد الحمام، وقد علت وجهه نظرة متعبة نعسة، ودُهن شعرة المشعث بزيت معطر، وارتدى حلة بيضاء قطنية فوقها قفطان صوفي بلون الزيتون. ناولته الجرة فهرع يونس يسكب له منها في كوب زجاجي. رائحة أعشاب المريمية كانت قوية حتى ظننت لوهلة أن زليخا ستلج من هذه البوابة.

عاودني الشعور بأنني مراقب هذه المرة على نحو ملحّ، قبل أن أرفع رأسي لأجد عند الباب صبية ذهبية تحدق بي وعلى وجهها ابتسامة. كانت لامعة لدرجة أبقتني مشدوهاً.

بشرتها كمسحوق الذهب وعيناها براقتان بلون الكهرمان. كانت تتقدم نحونا ببطء وعيناها العابثتان مسمرتان علي. لم تأبه إلى وجود يونس ولم تبالِ به، وحين وصلتنا، اقتربت من المجذوب وهمست: "سيدي"، وخللت أصابعها المحناة في شعره. كان منكساً فانتبه، وطوق

خصرها وأجلسها في حضنه، ودس وجهه في نحرها، وقبل شفتيها ليس بشهوة، بل كقطة مرت به فداعبها بحنو، فاستجابت له بدعة واستسلام كأنه يفعل هذا الأمر كل يوم عشرات المرات. بقيت ترمقني بعينين متفحصتين ونظرة تضمر أمراً.

قلت كي أداري حرجي من حضورها: "يبدو الآن أن سيدنا بخير... أتمنى له ليلة هانئة، وإذا تسنى لي الغد، مررت به وجلبت له بعض النقوع".

***

في طريق عودتي، تقمصتني نشوة الكيميائي الذي يجعل المعدن الخسيس ثميناً، فقد هدأ المجذوب.

لكن من هي هذه الذهبية؟ هل هي إحدى جواريه؟ ظلت عيناها ترافقانني، وحينما وصلت منزلي، كنت قد عزمت أن أذهب غداً باكراً وأبتاع بعض الأعشاب التي في مدونة جالينوس: مردقوش وكمون، لتطهير أمعائه.

***

الطبيب يأخذ بعض خصال الإله حيث يلتقي بالبشر فوق أرض المعركة، معركة الرجاء والأمل، وبعد أن استلب المرض كل عنفوانهم وقلع أنيابهم، يعودون لترقب درب العودة بين يدي طبيب خارق سيسقيهم ترياق الحياة من جديد.

هل أدرج الطب مهنة لي، فهو سيختزل سنين من شقاء عمري ويكفيني مؤونة تقديم نفسي إلى أهل مصر: مرة تاجر ومرة بائع ومرة أخرى طالب

علم... الطبيب يخترق أشد البيوت منعة، وتشرع له الأبواب، وتنزع له البراقع، ويجلس في رأس المجلس، ويقدم إليه أطيب الطعام.

أخذت حفنة أخرى من الزبيب ونقعته في كوب وأوكأته. العنب قد ذكر في أحد عشر موضعاً في القرآن الكريم. سأذهب به غداً إلى المجذوب ذي المزاج السوداوي لأرى ما سيكون من أمره.

وبين المنام واليقظة، سمعت صوت أوتار العود... ما زالت حزينة للغاية ولم تغادرها اللواعج وتسجيع الطيور المهاجرة.

***

ذهبت لعيادة المجذوب في اليوم التالي بعد المغرب. طرقت الباب ففتح لي الفتى مبروك وهو يغدق علي الترحيب، لأنه يرى أن هناك ما يجمعنا، بل يفوق كوني زائراً سيده.

أدخلني على الإيوان. كانت تجلس المرأة الإوزة، أو أم الولد كما كانوا ينادونها عند رأسه، تمسد شعره الجعد وتضمخه بزيت الصندل والياسمين، أما هو، فمستلقٍ على ظهره واضعاً يديه خلف رأسه يتأمل السقف كأنه يفر من النظر إليها.

لمّا سمع صوتي، انبلج وجهه عن ابتسامة واسعة، وقام واعتدل وقال: "أهلاً بمن آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب. صدق الجاحظ عندما قال إن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض: أدمغة اليونان، وأيدي أهل الصين، وألسنة العرب... لقد نمت البارحة بعمق لم أشهده منذ دهور".

فاجأتني أطواره، فهو يبدو الآن متزناً وقوراً، فناولته المزيد من منقوع زبيب العنب، وقلت: "هذا نصيبك منه الليلة".

فرحت أم الولد بتهلله وقالت: "يا مزيد، يا ليتك تظل مجاوراً لنا فحالته تحسنت من البارحة... فلو كنت عبداً، ابتعناك من سيدك، ولو كنت سيداً، استبقيناك".

أزعجني كلامها؛ تريد أن تبتاعني، ويبدو أن وجهي تمعر. عندذاك التفت المجذوب نحوها بحنق: "يكبون على ألسنتهم حصاد ألسنتهم، طوال عمرك حمقاء لا تحسنين منطقاً...

لا خيل عندك تعطيها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال".

لم هذا التباغض بينهما ويتعايشان؟ ما الذي صنعت به حتى يضمر لها كل هذه الكره؟

ولكي أداري جو الحرج الذي هيمن على الغرفة، قلت: "احرص الليلة على منقوع العنب المجفف، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يحب العنب، حتى أنه قال لأصحابه إنه نعم الطعام الزبيب يشد العصب، ويذهب الوصب، ويطفئ الغضب، ويطيب النكهة، ويذهب البلغم، ويصفي اللون... وإنه قد روي عن علي - كرم الله وجهه - قوله: من أكل في يوم إحدى وعشرين زبيبة حمراء لم ير في جسده ما يكره، وقد جاء في مدح العنب قول الشاعر:

كل الفواكه سلطان لها العنب حلو وصافٍ وريق كله عجب
إذ كل صنف له معنى يفوق به إلّا معانيه قدْ ضاقت بها الكتب".

يبدو أن كلامي هو ترياقه وليس منقوع العنب. تناول الكوب وتجرع كله، ومضغ زبيبه. وحين انتهى، تنهد، ورفع رأسه ليونس، وطلب منه أن يدون جميع ما قلت.

غاب يونس قليلاً وعاد مهرولاً يحمل الأقلام والدواة والقراطيس،

وطلب مني بلطف أن أدون ما قلت لسيده حول العنب، فهو لم يتابع ما قلت. كنت أدون بحرص ودقة، وعدت أرى عيني الكهرمان تطوفان فوق وجهي كجمرتين.

***

غداً الجمعة الثانية التي أمضيها في مصر. بعث إلي رشيد بن علي دعوة مع ابنه عطاء إلى اجتماع غداء ما بعد صلاة الجمعة. صغر سنه لم يمنع تعمق صداقتنا. يقول لي عطاء معابثاً: "ليس الأعاريب عند الله من أحد"، فأجيبه: "أهل مصر قد عبدوا ملوكهم؛ ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾".

عنفوان عطاء يجعله كأنه يتجهز في حياته لمهمة كبرى. حاضر البديهة نهم للاطلاع، ولكن لا يجعل الكتب تستعبده وتسوسه مثلي، بل يغزوها غزوة مفاجئة فيلتهمها ويقرض كتاباً كاملاً بيوم وليلة. بعد ذلك، قد يترك القراءة لمدة قد توازي الشهر لينخرط في الصيد أو مجالسة رواد مجلس أبيه، أو التبختر فوق فرسه في القطائع فقط، وهو يعلم أن هناك الكثير من الأعين تتلصص وتتوجّد عليه.

حضوره يطمئنني فهو عيني على مصر، ويبقي دربي مفتوحة مع رشيد بن علي. أسرد لعطاء عن المجذوب وأطواره ما بين التيه والغياب والألمعية والفطنة، فيقول لي: "لا تستغرب، فربّما قد رأيت منه الأكثر... كُثر يقولون إنه ادعى الجنون حتى ينجو من مهمة القاضي التي أوكلها إليه حاكم مصر، فهو يردد في مجالسه الخاصة أن العلماء يحشرون مع الأنبياء، والقضاة يحشرون في زمرة السلطان".

***

لم أعرض أياً من الكتب حتى الآن. ما برحت أخشى العيون المتلصصة. عمرو القيسي قال: "كتب السراة هي عقلهم وسلالتهم ونطفهم، فاحترز أين تضعها"، ورشيد بن علي يقول لي: "لا بأس من المغالاة في أسعارها فتحجبها عن السوقة والعامة، وتجعلها لدى النبلاء والأجلاء، فمن يرومها، يبذل دونها الغالي والرخيص، واحذر أن تبيعها لتقضي بثمنها حاجة لك، بل اجعل لك مهنة تكفيك مؤونة السؤال".

رغم أنه باتت تصرف لي مكافأة مع طلاب الأزهر، لكن الغنى أنس في غير الوطن، ومن لم يأنف، لم يشرف. لا بد أن أجد حرفة أعتاش منها، وتؤمن لي معاشي اليومي. وكنت قد اتفقت مع الفتى مبروك ليقوم على شؤون منزلي مقابل مكافأة يسيرة أقدمها إليه مع كل هلال.

***

ذلك اليوم حين خرجت لصلاة الجمعة، وجدت خواناً عظيماً قد امتد أمام بوابة المسجد يقوم عليه غلمان وعبيد يصيحون بأصوات مرتفعة: "رزق القائد ظفر الإسلام قائد مولاي الحاكم البارحة بابن ذكر سمّاه حسيناً، فادعوا له بطول العمر".

وقد ازدحم قاصدو المسجد على الخوان الذي صفت فوقه طيافير الزلابية، وأكواب ماء الورد، وصحون تراكم فوقها السمك البوري.

كان من عادة أهل مصر أنهم يضربون على جوامعهم شراعاً وقت خطبة صلاة الجمعة التي بدأها خطيب الجامع الأزهر ذلك اليوم بقوله: "اللهم صل على محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين

الحاكم بأمر الله...".

هل ستظل قائمة أهل البيت تحتشد بالأسماء عاماً تلو الآخر، فعندئذ سيمضي الإمام ما بين جمعتين ليتلو أسماء السلالة جميعهم. الفاطميون من عاداتهم إذا ذهبوا إلى غزو، أخذوا معهم توابيت آبائهم، يا للحمق! ثم انتبهتُ إلى طفرات تفكيري الناشز، فاستعذت من الشيطان.

لا إله إلّا الله، فأنا منذ انخرطت مع السراة لا أكاد أخطو خطوة خارج المسجد حتى أشرع بتعريض ما سمعت للسؤال والتدبر ومساءلة الأمر خولي وتفكيكه إلى لقم صغيرة كثيراً ما يغص بها عقلي، بل إن هواجسي باتت تتربص بي في صحن المسجد... الله المستعان.

***

ألفيت مجلس رشيد بن علي كعادته عامراً بوجوه القاهرة وكبار التجار واللغط داخله كان مرتفعاً بما يفوق الزيارة الأولى، وذلك بعد قرار اتخذه الحاكم بأن يُكتب علي المساجد والجوامع سب أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعائشة، وطلحة، والزبير، ومعاوية، وعمرو بن العاص.

قال شيخ أهتم بلا أسنان كان يجلس بموازاة رشيد بن علي: "اعتدنا سب النواصب فوق المآذن، بعد صلاة الجمعة فقط، ولكن أن تنقش على جدران المساجد، فهذا إثم كبير، وسيصحبها فتن مهلكة، وأهل مصر جديدو عهد بالتشيع".

فأجابه رجل أهتم بلا أسنان يجاوره: "هل نسُبُّ الشيخين وأحدهما كان ثاني اثنين إذ هما بالغار، هل نسُب عائشة أم المؤمنين وهي من مات سيد الأنام في حجرها... عليه أفضل الصلاة والسلام؟".

عندذاك، هتف أحد شيوخ الحلقات الذين ألمحهم دائماً تحت أعمدة

الأزهر: "لا ندري ماذا يخبئ لنا هذا، وإلى أين تأخذنا مراكبنا؟ فملك الحبشة المسيحي بات يأخذ جزية من المسلمين هناك، كما نأخذها من الأقباط هنا. والطامة الكبرى أن حرق كنيسة القيامة جعل ملوك أوروبا يطلقون النفير للحرب المقدسة، وقد اتحد ملك البلغار وملك الروم لينطلقوا دفاعاً عن المقدسات المسيحية، وعلى رأسها كنيسة من بتنا نسميها قمامة، فيما هي موطن قبر عيسى – عليه السلام – ومكان قيامته".

انكمشت في حضرة هذا الحنق المهيمن والمجاهرة بالغضب والاستياء، هل أمن هذا المجلس العيون؟ لم يعلق مضيفنا بل كان يهز رأسه الضخمة بأسى وينصت ويستمع. كنت قد اطمأننت إلى أنه مع ازدحام المجلس لم يفطن لحضوري، ولكن يبدو أنه لمحني، فاستغل لحظة صمت وقال: "ما رأيك، يا مزيد النجدي، بهذا؟".

تمتمت في أعماقي: تباً لمزيد الذي لم يوجد غيره في هذه القاعة، فلا أدري كم عيناً تتربص بي، وفي عمري ما زال هناك الكثير يستحق أن يعاش، ولا أود أن يغدر بي خنجر في طريقي أو يدحرج رأسي من فوق المقطم.

ولكن لا بد أن أقول أمراً يليق بمجلس العلم ولا يعكس الخوف والتخاذل، وأن أقدم ما يليق بثقة السائل التي خصني بها دوناً عن جلاسه. تمتمت في سري أن التورية والمجاز لم تخلق إلّا لهذا، وسأتكلم بالقول الذي يأخذني في المعاني إلى كل مذهب... فلا أسقط في زلل.

فقلت: "اللهم صل وسلم على نبينا محمد وعلى آله الأشراف الطيبين، إنما جعل الإنسان في هذه الأرض لعمارها وتنفيذ مقاصد الشريعة الكبرى فيها، فلا تتنابزوا فتذهب ريحكم وتفشلوا... من يضلله الله فلا هادي له، ومن يهدي فلا ضال له، وبني الإنسان على قيمة التوحيد

والعدل... وآخر كلامنا أن الحمد لله رب العالمين".

لمحت فوق وجه رشيد بن علي ابتسامة هازئة تستخف بالكلام، وما لبث أن دعا لنكمل حديثنا أثناء الطعام. فغدا الحوار ألطف وأيسر، والجميع قد انخرطوا في حديث العبث والمزاح ومزاج الانشراح، ولاسيما أن الصحون التي اصطفت فوق السمط كانت تحوي الخشكنان الرقيق، ولحم جدي، وصدور دجاج بالخل والباذنجان، وفراريج مغلية بعصير الرمان، وإوزاً مشوياً بالقارص، وسويقاً منخول عليه السكر.

فما كان من العجوز الأهتم إلّا أن قال: "أمام هذه المائدة تآخى علي ومعاوية، وكفّا عن التنابز والطعون، وأخذا بتداول الصحون وملء البطون".

***

بعد الطعام ينفض عادة مجلس رشيد بن علي، فنذهب، أنا وعطاء، في جولة على ضفاف النهر أو إلى الفسطاط، ولربّما تمتد رحلتنا فنستقل قارباً حتى نصل الجزيرة وسط النيل، ونعود مع صلاة المغرب.

تلك الليلة عاد العود يعزف صوتاً نائحاً ملتاعاً، وكأن عرائس النيل اصطففن على المصاطب يندبن شبابهن الذي التهمه النهر، وبقين أرواحاً هائمة ترفرف فوقه.

***

لم أعد أرى المجذوب كثيراً في المسجد، وبات حين يحتاجني، يستدعيني. وفي يوم وجدت فيه مبروك ينتظرني عند درجة منزلي وهو يقول: "سيدي يرغب في رؤيتك".

رافقت مبروك إليه وداخلي توجس متحفز. دوماً في منزله سأجد ما يتركني مشدوهاً لأسبوع، ولم يخب ظني هذه المرة أيضاً، فقد كان يجلس وحيداً وفي حضنه جاريته الذهبية، وبيدها أوراق وقريباً منها دواة وقلم. طأطأت حين رأيتها وتراجعت، لكنه دعاني وقال: "ما عليك تقدم"، ثم أردف بحماسة: "عليك يا مزيد أن تجيز لنا وتتأكد من صحة ما كتبنا أو تحديداً ما نقلنا عنك... اقرئي ما كتبت يا كهرمانة"، هل قال كهرمانة، أم هُيِّئ لي أن هذا اسمها بعد أن ارتبط بلون عينيها؟

رفعت مخطوطة ورقية بين يديها وهتفت بصوت عذب في قاعه شرخ: "إن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يحب العنب حتى أنه قال لأصحابه إنه نعم الطعام الزبيب يشد العصب، ويذهب الوصب، ويطفئ الغضب..."، وأكملت بصوت لعوب ذي غنة الكلامَ إلى آخر ما قلته عن العنب في تلك الليلة.

وكانت أحياناً تقطع الكلام وتتأملني، وتلعق شفتيها بشهوة، فما يلبث سيدها أن ينخزها: "أكملي"، فهتفت مشدوهاً: "لكن الكلام ليس لي بل نقلته عن بعض..."، قاطعني الشريف المجذوب الذي كان يتبدّى وهو في قمة الحكمة: "فليكن، ولكن كل الذي نريده عن فضائل العنب – الذي منعه الطاغية – موجود فيها".

وفوجئت أنّهما قد نسخا عشرات الرقاع من حديث العنب، ولفاها بعناية بخيط صوف بحجم البنصر، وكوّماها بحرص فوق الخوان.

عدت إلى المنزل وأنا أعرف أن هذه الدارة الشريفة تستدرجني إليها يوماً إثر آخر لأنغمر بلجتها، ولم أكن أعلم أنها تلك الليلة بالتحديد التي سأغرق فيها.

***

بعد صلاة العشاء أصعد عادة إلى الشرفة المتصلة بالسطح. أتلصص على أحاديث النجوم مع قاهرة المعز. أترقب صوت العود الذي سيخترق أمسيتي كشهاب من البهجة. أصيخ السمع إلى أصوات الطيور النهرية التي تأبى أن تؤوي إلى أعشاشها وتظل محلقة تصيح صيحات غامضة.

واعتدت أن أفرد هذا الوقت للترنم ببعض القصائد من محفوظاتي خشية أن تضيع وتتفلت من رأسي، وشرعت أردد قصيدة عمر بن أبي ربيعة:

قالت الكبرى: أتعرفن الفتى؟ قالت الوسطى: نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر

يفصل الغرفة العلوية ومقدمتها عن باقي السطح حائط طيني قصير، رصف مبروك فوقه أحواض الريحان، وهو الذي يفصلني عن بقية أجزاء دارة المجذوب.

***

في الليل، تبدأ الأشياء تحت عباءة الظلمة تتحرك، وتدب، وتخرج من مكمنها، فتموء القطط، وتصفر الجنادب، ويهسهس أوراق الشجر، وتبزغ الأشباح من مكامنها.

فجأة ارتطم قط كبير بأرض السطح. كان الصوت قادماً من الحائط الذي يفصلني عن دارة الشريف المجذوب. كمنت في مكاني وقد ارتعدت فرائصي ووقفت مترقباً كتلة سوداء تتقدم نحوي بخطى سريعة متلاحقة. خشيت أن أحد الشياطين التي تعبث برأس المجذوب قد انفلت نحوي، ولكن حين أصبح على بعد عشرة أذرع مني، برقت

وسط الظلمة عينان بلون الكهرمان.

همست: "هل أفزعتك؟".

عندما اقتربت مني كان لأنفاسها رائحة القرنفل، ثم هتفت بصوت خافت: "كيف أمسيت أيها العربي؟".

تراجعت بعيداً عنها خطوتين إلى الوراء، وخشية منها أن أتمترس أو أصدها، حطت عباءتها عنها، ولم يكن تحتها سوى جسدها الذي انسكب ضوء قمير صغير فوقه، فظهر بلون المشمش. يبدو أنها أتت وقد حسمت أمرها.

توسدنا عباءتها. وحين لمحت اضطرابي، عانقتني وقالت: "لنبدأ برشف الماء من الغدير قبل أن نسبح"، لا أدري إلى ماذا ترمز؟ لكنها فطنت إلى سذاجتي وقلة خبرتي، فأخذت تدل يدي تحت عتمة الضوء، وذهبنا إلى الغدير.

خفت في تلك اللحظة من الذي تفجر في أعماقي، والذي اشتعل في أنحائي. كانت تضحك، لربّما لرعونتي وشدة إقبالي واندفاعي وفمي النهم الذي يقضمها ويرشف غدير السكر بين ثناياها.

فجأة فتحت كفها عن منديل حريري أحمر وقالت: "ضعه، فما زلت أخاف أن يعاقبني ربي من تلويث الأنساب". لا أدري أين وضعته، وهل وضعته! كانت هي تقودني بغواية وأنا أشرب بلهفة حصان قادم من رحلة ألف يوم من العطش.

لا أدري متى ذهبت. كنت كالمخدر لكنني أظن أنني سمعت حفيفها بجانبي عند الفجر.

***

حضورها طوفان غمرني ولجة أغرقتني. أخذت أهيم مع الضوء في أزقة القاهرة وخرجت من بوابتها صوب النهر لعلي أتلقط شتات عقلي الذي تناثر في الهواء، وظللت شارداً إلى غياب الشمس، والأصيل يسكب جرار الذهب على النهر. كان هناك الكثير من الصيادين والمتنزهين، وبعض الصبية يتدافعون ويسبحون، وبعضهم يحاولون اصطياد السمك بشباك صغيرة مهلهلة، فيما ينهرهم الصيادون خشية أن يفرقوا أسراب السمك...

لم يستطع الحاكم أن يحجب أهل مصر عن نيلهم رغم قانونه القاضي بمنع التنزه بجوار النيل، فيظل النيل أباهم وشريانهم. إذا حجبه عن حياتهم، جفت وتساقطت.

كل الذي يفعلونه إذا سمعوا بمرور أي من رجال الشرطة أنهم يتوارون ويكمنون بين شجر الخيزران الطويل الذي يحف النهر، أو خلف شجر السنط المتهدل الأغصان في النهر، في حين أن أسراباً من الغرانيق تحط وتسبح حول الماء دون أن تخشى البشر، فقد ألفت وداعة المصريين.

ولحم طير مما تشتهون... هل لو أكلت، أنا القادم من جزيرة العرب، لحم الغرانيق، سيفيد جسدي؟ وأبقراط يقول كل عليل يداوى بعقاقير أرضه، وأرجو أن يكون الزبيب علاجاً ناجعاً مع المجذوب، فقد ابتعته من العريش.

وكأنني أسررت في تلك اللحظة للكون بهواجسي، فقد اقترب مني مجموعة صبية وبيدهم رقاقة ورق يتناقلونها ويتقاذفونها بطيش. تقدم مني أحدهم وقال لي: "هل تجيد القراءة يا رجل؟". أومأت برأسي، فمدّ إلي الرقاقة، وفوجئت بأنها لم تكن سوى إحدى اللفافات التي خطتها البارحة كهرمانة عن حديث العنب!

امتقع وجهي: ما الذي جلب هذه المخطوطة هنا؟ ماذا أصنع به؟ قلت للفتية الذين لمحوا ارتباكي وارتجافي فتجمعوا واتسعت دائرتهم، ولم أملك عندها إلّا أن أقول لهم: "انتبهوا إنها تعويذة شريرة منذ زمن النبي موسى، كل من تلاها انقلب إلى خنزير نهر".

تراجعوا خائفين يقولون إن هناك الكثير منها قد انتشر في أرجاء المدينة. مزقتها مسرعاً ورميت مِزقها في النهر، وهرعت مسرعاً إلى دارة المجذوب حانقاً أريد جواباً عمّا يحدث.

كان حقاً ما قاله الصبية، فلفائف حديث العنب في كل مكان. لمحت واحدة على أفريز نافذة، وأخرى أسفل عتبة مسجد وأمام بائع التين الشوكي: فوائد العنب تملأ سماء مدينة المعز وتتحدى أوامر الحاكم الذي منعه. التقطت اثنتين وأخفيتهما في كمي، وهرعت إلى زقاق المجذوب.

ماذا يحدث هنا؟ الحاكم يمنع العنب والزبيب وصحيفة العنب ترفرف بين الأزقة. لم يبق إلّا أن تعلّق على باب الشرطة! ما الذي يتحداه المجذوب؟

***

حين وصلت بابه، طرقت الباب، ففتح الباب سريعاً كأنه كان ينتظرني غلام أبهق أبيض البشرة، حتى رموش عينيه بيضاء وعيناه حمراوان كأعين الأرانب. ارتددت قليلاً؛ أخافني منظره، لكن استطعت أن أسيطر على انفعالاتي فلا يتبدى له مني ما يكدر خاطره.

تذكرت في تلك اللحظة أنس، ابن أحد المزارعين في حجر اليمامة، كان هكذا بلا لون مغسول، وكان الأولاد يرفضون اللعب معه وينعتونه

بالأبرص. يقولون إنه قد بال عليه الشيطان لأنه نام من دون وضوء أو صلاة، فذهبت عنه ألوانه، رغم كونهم جميعاً كانوا يعرفون أنه ولد هكذا، وأنه ولد كسير ودمث، وباستطاعته أن يسبقهم لو تسابقوا، لكنهم كانوا يصرون على معايرته والتندر عليه، ولاسيما أنه كان يفضل الجلوس في الظلمة والغرف الباردة لأن الشمس كانت تزعج عينيه وجلده، فكان الصبية آنذاك يتهامسون أنه يفضل الظلمة ليختلي بوالده الشيطان.

لك الله يا يمامة نجد كم أنت قاسية! مات أنس صبياً... وكانت أمه في مأتمه تبكي وتقول: "حسبي الله ونعم الوكيل، ابني مات من الغبن والمغثة التي طوقه بها صبية حجر اليمامة".

قال الفتى الواقف بالباب بصوت منخفض دمث: "لا أحد في المنزل"، فسألته: "ماذا عن يونس؟"، فأجابني: "هو أيضاً ذهب برفقة سيدي ولم يعودوا إلى الآن". تخطفتني الظنون، ما أنا ماضٍ إليه وماذا يكمن بين أسوار هذا البيت الغامض؟ أين تراها كهرمانة... هل ذهبت برفقتهم؟

تقهقرت، وقبل خطوات من وصولي باب منزلي، سمعت خطوات تهرول ورائي لاهثة وصوت يقول: "أيها الطبيب أيها الطبيب"، كان الغلام الأبهق وقد احمر وجهه للغاية من الركض خلفي، فقال: "سيدتي أم الولد ترغب في الحديث إليك".

ترددت في العودة، وكدت أتحجج بحجة واهية تكفكفني عن المزيد من الغوص في هذه العائلة العجيبة، ولكن الفتى الأبهق قال لي: "تقول الأمر مهم للغاية"، والحقيقة أن أمرها كان مهماً إلى درجة جعلت ظنوني تتأكد، فأم الولد تقول لي إن من كتب هذه المنشورات هو زوجها الذي أمضى الليالي السابقة يستنسخها ويدبجها، وكلما نفدت أحباره وأوراقه،

صاح بأهل البيت ليجلبوا له حاجته منها من مخزن يقع في الطرف الآخر من الدارة. فلمّا أصبح، جعل تلك الأوراق على شكل لفائف ووضعها في مزودته، وذهب ينثرها في أنحاء القاهرة، وأضاف أنه سينتقل بها أيضاً إلى الفسطاط والقطائع كي تثور الناس وتتحدى حكم طاغية مصر.

في تلك اللحظة، طأطأت رأسها وغطت وجهها بجزء من خمارها، وأخذت بالنشيج قائلة: "أنت تعرف أن الشوارع والطرقات مليئة بالأعين والمتربصين، وأي وشاية هامسة في أذن الفتى الأرعن من الممكن أن تذهب برأسه، ليس هذا فقط، بل يضعون يدهم على أملاكه ويدخلونها إلى بيت مال الدولة"، ثم أضافت بصوت متخابث: "قد يصل أذاه لك، فأنت من أخبرته عن فوائد العنب".

هل ترغب في تخويفي أو ترمي إلى استقطابي في فريقها؟ لكنها كانت متفجعة بائسة واسترسلت: "منذ تناول منقوع الزبيب وهو في تحسن، ولاسيما أنه في هذا الموسم لم يجروْ أي مزارع في مصر على زراعة العنب بعدما قذفت محاصيل العام الماضي في النهر، وأنشبوا النيران في جميع الكروم تحت شبهة أنها معاصر للخمر، ولم يبال باحتجاجات المزارعين... ولم يعوضهم".

وفجأة نطق الفتى الأبهق الذي كان واقفاً بجوار الباب وكنت قد نسيت وجوده: "أيضاً سيدتي، في السوق وجدت الباعة في الأمس لا يعيون الملوخية أو سمك القرموط بأمر من الحاكم"، خبطت يديها ببعضهما بعضاً وقالت: "لا حول ولا قوة إلّا بالله، يا إلهي هل سلطت علينا هذا الحاكم بذنوبنا؟".

مر بجوار حمام نسائي، فلمّا سمع ضحكاتهن وقهقهاتهن، أمر بالبناء على باب الحمام وسده وهن داخله. تذكرت أن هذه الحكاية قد قصها

حسن المصري علي ونحن في بغداد. كم أشتاقه! ليته معي في وطنه. ستبدو الأمور برفقته أكثر معقولية ووضوحاً.

كانت أم الولد قد نكست رأسها وصمتت قبل أنت تبدأ النشيج بصوت مرتفع: "يا الله ماذا أفعل؟"، وأخذت تقول بين نهنهاتها إن ابنة خالتها وابنتها الصبية الفتية كانتا مع نساء الحمام، "ولم أستطع الذهاب لتعزيتها إلّا خلسة وأنا أرتدي ثياب خادم بعد أن مُنعت الحرائر عن الشارع".

أجفلت وتذكرت امرأة الباذنجان في دار الشرطة. إذاً، ماذا يأكل المصريون والحاكم يختار لهم حتى ما يرصف فوق موائدهم؟

توقفت أم الولد عن النشيج ورفعت رأسها تتأمل الضوء الملون المنسكب من إحدى النوافذ على وجهها، فبدت فاتنة رغم الكحل الذي يلطخ عينيها إثر البكاء.

وفجأة قالت وهي شبه غائبة: "بعد موت جاريته لميس التي كانت تحمل ابنه، وحالته في تردٍّ... دوماً دسست له جَواريَ في فراشه، وأخبره أنهن أخوات للميس، فلا يصدق ويبقى هائماً يبحث عنها. وفي سويعات صحوه وثبات رشده، يأتي بحديث وحكم لا يستطيع أن يأتي بها شيوخ أجلاء، وأثناء إحدى تجليات العقل والحكمة نسخ لفائف العنب، ووضعها بين ثيابه وخرج في الفجر لا يلوي على شيء، وقد عادت إليه تلك النظرة الهائمة السابقة بعد أن كان قد تحسن قليلاً بعد منقوع العنب الذي جلبته".

***

هذا هو جانب الحكاية الذي روته لي أم الولد، ولكن الحكاية التي

روتها لي كهرمانة بعد عدة ليالٍ، وهي بين ذراعي، والمرقد حولنا يتجمر ويترمد ثم يعود ليشتعل من جديد، كانت مختلفة تماماً... أم أن ريق كهرمانة جعلته أدعى للتصديق.

"كانت لميس جارية سيدها المفضلة، وقدمها إليه الحاكم بأمر الله داخل هذه الدارة بعد أن قبل دعوته إلى مصر، فالحاكم يطمح إلى تكثيف وجود العلويين في القاهرة كبطانة وحاشية تمده بالقوة وتلهمه الرأي، وإلى الآن والخدم وأهل الدار يهجسون بتلك الحورية لميس، التي تميس وتتثنى، وتعزف العود فتتجلى، فشغف بها سيدها حباً، وبات يمضي الساعات الطوال برفقتها، فتفوته صلاة الفجر ويتأخر عن الجُمع. أما في المساء، فتهيئ لها متكأ فوق السطح وتبدأ العزف، فتصمت الحناجر ويخيم الصمت، وتصبح المدينة كلها آذاناً منصتة مترقبة، وباتت القاهرة تترقب الليالي التي ستعزف فيها الجارية لميس... كل هذا وسيدي يزداد تدلهاً بها".

"كان للميس عادة غريبة، إذ تأخذ من ورق السوسن وتجعله في فمها، ثم تطلق من بين الأوراق صفيراً شجياً. كانت أم الولد تقول إنها تنادي الشياطين الذين تكبل بهم عقل سيدي، وهم بالفعل قد كبلوه تولّهاً بها، فلمّا رأت الحيزبون، أم الولد، مقدار تدله سيدي بها، حرصت على أن تسقيها كل ليلة منقوع نبات النيم مع الشعير خشية أن تحمل وتنجب، وتشارك أبناءها أموالهم".

"وحينما استبطأ سيدي حملها، نذر ليحج بها ويتشفعا بسيد البشر ليفتح قفل رحمها، ولمّا قدم موسم الحج، أعلن النفير إلى أرض الحجاز، وانتظمت القوافل، فألحت أم الولد على مصاحبتهم، لكن سيدي رفض متعذراً بأن الحج غير آمن، وأنها لا بد أن تبقى برفقة أطفالهما وهو لا

يدري إلى من سيدعو إمام الحرم ذلك العام".

"عندما توقفت لميس عن تغصص أكواب نبات النيم ونبات الشعير، عادت من رحلة الحج حبلى بشفاعة المزار الشريف، وطاش صواب أم الولد، فمعنى حملها أنه سيكون هناك أخ يزاحم أبناءها السيادة والجاه، فما كان منها إلّا أن صنعت لها الدمية!".

"... يقول مبروك إنها دمى تصنعها أم الولد من الخرق وبقايا الصوف، وكانت إذا انتصف الليل، أتت بالدمية، وأخذت بوخزها بالدبابيس والدعاء على لميس كل ليلة بلا توقف، إلى أن أصيبت لميس بالجدري، فقيل أنه عدوى موسم الحج، وقيل أنها شربت ماء ملوثاً، ولكن مبروك يقول إنه ظهرت على جسد لميس دمامل الجدري بعدد وخزات الدبابيس التي وخزت بها الدمية، فتعفنت وماتت، ودفنوها في مقبرة بعيدة بعد أن ذروا فوقها الرماد".

"غادروا المنزل ومكثوا في أحد ضياع سيدي التي تبعد عن القاهرة مسيرة يوم وليلة حتى يتطهر المنزل من بقايا الجدري، وظل مبروك ويونس به يبخران البيت بالشيح ويغسلانه بماء النهر ويعرضان أثاثه للشمس، كما أحرقا ملابس لميس كلها إلى أن تطهر المنزل وعاد الجميع إلى قاهرة المعز عدا عقل سيدي، فقد بات جسداً بلا روح وهيكل رجل، فلا يسمع في أذنه سوى أنغام لميس وعودها وقصائدها، ولا يرى سوى طيفها يحوم حوله، وأصبح في البداية يجلس في باب الدار مذهولاً رافضاً أن يستحم أو يتوضأ، ولاحقاً بدأ يدور في الأزقة الشوارع نافراً من المكوث في المنزل".

"اضطرت سيدتي أن ترسل يونس إلى الأندلس وبلاد المغرب كي يجد من يسليه ويطفئ لوعته... فابتاعوا جارية بألف دينار، ولكنها

وجدت أمامها هيكل رجل، فلا يقربها إلّا إذا صففت شعرها بأربعة جدائل، ووضعت عمامة فيها دنانير فضية وأنزلت طرتها على جبينها كلميس. وفي العتمة، تندس بجواره هامسة: يا سيدي وجمرة فؤادي... وهي الكلمة التي كانت لميس تنادي بها له، وعلى الغالب سيربت على كتفها ويقبل خدها، ثم يستسلم لنوم عميق، لعله يلاقي في إحدى ردهات عقله لميس، فيما ظلت أم الولد تحرص على مشروب النيم والشعير والمنديل الأحمر".

حديثها أذهلني! هل تتحدث عن نفسها؟

شعرت أنني أريد أن أضمها وأخبئها تحت أقواس صدري بعيداً عن الأكواب التي يجرعونها لها وبعيداً عن أم الولد والدبابيس والجدري، لكن الكهرمانة اللكاع تريد أكثر. كانت تود أن تعبث وتضحك، وتجرجر الحصان إلى الغدير.

الذئاب المسلوخة ورايات قريش

دأبت على الذهاب إلى مجلس رشيد بن علي الذي يقع خلف متجره، ففيه وبه تصب الأخبار وتعود تنطلق، ورواده يطلقون عليه "سقيفة بني ساعدة"، وهو يتحرج من هذا الاسم ويطلب منهم ألا يرددونه خشية أن توصله الآذان والعيون إلى الإمام صاحب العصمة، فيظن أن قريشاً ترفع راياتها ضد حكم آل البيت.

ذلك اليوم كان حديثهم عن الذئاب المسلوخة التي باتوا يرون أجسادها ملقاة في القطائع على نحو يثير الريبة والذعر... من الذي يسلخها ويأخذ رؤوسها وجلدها ويبقي أجسادها؟ كان من الواضح أن

الذي فعل هذا يرمي إلى عمل سحر شيطاني سفلي، فهو السحر الذي اعتاده وثنيّو جنوبي مصر للنيل من أعدائهم.

كنت ألمح وثنيّي مصر أحياناً في الطريق غامقي البشرة طوال الأجساد، يسيرون في شوارع الفسطاط حفاة عراة عدا إزار يغطي عوراتهم. ويجعلون فوق رؤوسهم عمائم عجيبة مصنوعة من الصدف أو جلد الحيوان أو ريش الطيور، ويتهامس عندذلك أهل الفسطاط بخوف أن الإمام المعصوم يستضيفهم في قصره، حيث جعلوه يتآخى مع الشيطان، فيذهب للقائه كل ليلة على قمة جبل المقطم وقد ارتدى رأس ذئب أو فهد بعد أن زين له سحرة من بلاد السودان هذا، واعدين إياه بشجاعة الفهد ومكر الثعلب ورضوخ الرعية.

ثرثرة كثيرة كانت تدور في الشوارع، وها هي انتقلت إلى دارة رشيد بن علي، حتى إذا ما وجدها رشيد بن علي قد بالغت وأسرفت، يشرع في البعد عن الحديث، ويطلب مني أن أنشد بعض القصائد.

لم يشر لي رشيد بن علي إلى الآن إلى مشترٍ للكتب، هل أنتظره أم أشرع في تقصي شُرائي؟

إذا عشق، ظرف ولطف

منذ بدأت كهرمانة تتسلل إلي وأنا أواظب الخروج إلى الحمام المجاور، فلا أخرج منه إلّا مقلّماً أظفاري مرجلاً شعري. وأكملت زينتي بثياب جديدة تعهّد مبروك غسلها والعناية بها، لا شيء يشذب الرجل المتوحش إلّا غنج جارية فاتنة. جدي كان يردد ما قاله الأعرابي، عندما قالوا له إن ابنك قد عشق، فأجاب: "وأي بأس أو عيب في هذا، إنه إذا عشق، نظف

وظرف ولطف"، والله، أيها الأعرابي، لم تقل إلّا حقاً.

***

بت أعود إلى الدار بلهفة وقد غادرني انكماش المغترب. مازج صدري هواء مصر وخالط دمائي نيلها... لم أعد أجمع وأقصر في الصلاة كالمسافرين العابرين، ووالله لو نودي للنفير العام للدفاع عنها، لخرجت مع أهلها!

***

أشترك وعطاء في حلقة من حلقات الجامع، كنا نتدارس كتاب الطبري، وكان شيخ الحلقة عندما يأتي الكتاب على ذكر الشيخين، أو أي من بني أمية يلعنهم، ويردف لعنهم بقوله: "هم ومن يواليهم"، ثم يحدق فيّ وفي عطاء باستفزاز وهو مطبق شفتيه بشدة، ولكي لا نمكنه من استدراجنا إلى الجدل، نصمت.

لعل رفقتي المتواصلة مع عطاء جعلته يدرجني في حكم النواصب، فعائلة رشيد بن علي من البيوتات التجارية العريقة في مصر. حضر جدهم مع جيوش ابن طولون كقائد سرية، فأقطعه ابن طولون قطعة أرض استقر فيها وعمل بالتجارة التي توارثتها سلالته من بعده.

وظل شيخ الحلقة يستطرد ويسهب ويلمز بالنواصب حتى أتى على قصة الراهب والطير التي يقول فيها على لسان ابن يونس: "قدم علينا شيخ كبير راهب، كان في مدينة ميافرقين، فحدثنا أنه كان مترهباً في شبابه في صومعة، وأنه أشرف في يوم كثير الضباب إلى طائر سقط بحيث يراه، ويحمل في فمه قطعة لحم، ثم تركها وأتى بأخرى، إلى أن أتى بعدة قطع،

ثم إن قطع اللحم اجتمعت حتى صارت شخص رجل، ثم أقبل الطائر عليه ينقره ويقطعه ويأكله وهو يستغيث... قال الراهب: فلمّا نظرت إليه، صحت به وقلت له: ما قصتك يا إنسان، وما الذي أرى بك؟ قال: أنا عبد الرحمن بن ملجم، قاتل علي بن أبي طالب - صلوات الله عليه - وقد وكل الله بي هذا الطائر يفعل بي ما ترى، وينقلني من موضع إلى موضع، فقال الراهب: فلمّا نظرت منه ما رأيت، انحدرت من الصومعة فأسلمت".

كان الشيخ يسرد وقد تملكه اليقين وهو يجعل يديه على شكل قطع اللحم التي تتجمع. عند ذلك، بدأ عطاء يهمس في أذني كلماته الساخرة: "هذا الشيخ قرمان ويتشهى اللحم، فاخترع لنا هذه القصة، ولعل ابن ملجم يعطيه يداً أو كتفاً تشبعه". وعندما شعرنا أن ضحكنا المكتوم بدأ يتسرب ويثير حنق من حولنا، انسربنا بهدوء وعطاء يقول: "هلمّ بنا قبل أن يقضي هذا على البقية المتبقية من عقولنا".

***

دارة المجذوب هي جزء من أجنحة القصر الشرقية. لذا على الغالب تنحسر جيئتي وذهابي بينه وبين الجامع. وجود عطاء دوماً برفقتي سيبقيني على اتصال برشيد بن علي الذي ما زال يحذرني من توزيع الكتب في الأزهر، فهي ملغمة بالعيون.

لكن تلك العيون الأزهرية لم تفطن إلى شيخ فارسي يدعى ضياء الدين الكرماني يدرّس تجويد تلاوة القرآن مستعيناً بكتب الفارابي عن الموسيقا، فينطلق بحرية وتدفق والحلقة حوله تتسع. لعل قضية تكفير وزندقة الفارابي اقتصرت على بغداد؟

كنا نستغرب: من الذي أجاز للكرماني التدريس في حوزة الأزهر؟ فهو ما برح فتياً ودم الشباب يبرق في وجنتيه، وله أنف وأعين الطيور الجوارح. ورغم أصوله الأعجمية، فصاحته بالعربية مذهلة. يهدر في كلامه قائلاً: "لا تجويد دون أذن موسيقية، والموسيقا مواضع ووقفات، هي كالألوان كما تراها بعينك فتعرف الأحمر والأزرق والأبيض، كذلك هي المقامات الموسيقية، لا تعرفها دون أن تسمعها وتتشرب شخصياتها"، ثم لا يلبث أن يقرأ من كتاب الفارابي قوله: "الإيقاع هو النقلة على النغم في أزمنة محدودة المقادير"، وأخذ يطرق على يد مقعده قائلاً: "خفيف الرمل نقراته نقرتان نقرتان خفيفتان: ت نتن، ت نتن، نقرة واحدة ثقيلة تن، وأدغم النون وأثقلها، ثم ت نتن خفيفة بعدها"، ثم ينطلق مرتلاً سورة الرحمن مبيناً مواضع الوقفات والسكنات، فيستقر المسجد إنصاتاً خاشعاً مجلاً.

***

رغم دخول فصل الخريف، كانت تمر على القاهرة بعض الأيام الخانقة الحارة، فتصاب حلقات المسجد بالخمول واللزوجة، فلا ترى سوى مهشات يلوح بها شيوخ الحلقات لطرد الذباب والنعاس عن وجوههم.

كنا عند ذلك، نذهب، أنا وعطاء، إلى ضفة النيل في مكان قريب من الجزيرة التي تتوسطه، حيث بعض المزارع التي يملكها آل علي، عائلة عطاء.

وحينما يلمح الصيادون عطاء، يتهجون بقدومه، فيهرعون لإعداد متكأ لنا، ويفرشون بسطاً ويقف صبيان بمظلتين تقياننا حرارة الشمس. وتأتي إلينا زوجة الصياد بحزم مغسولة ومقطعة من جذوع قصب السكر.

لم يكن يسبح أحد في تلك الناحية من النهر لوجود الدوامات المائية والتماسيح. وعوضاً عن هذا، كانوا يجهزون لنا حبالاً لنربطها على أوساطنا لو أردنا أن نخوض ونبترد قليلاً قرب ضفاف النهر. وحينما نخرج، يكونون قد أعدوا سمكاً مشوياً طازجاً من سلالهم، فيما تجعلنا ثيابنا المبتلة نرتعش من البرد.

***

وعندما تنتعش الأرواح وتمتلئ البطون، وهي اللحظة التي يبدأ فيها البشر التبطر على النعم والخوض في الحقائق واليقينيات والثرثرة التي تصل مشارف الهرطقة، نتهامس، أنا وعطاء، حول ولعه الفائق بعلوم الإغريق. يقول لي: "هل تذكر في محاورات تيتانوس لأفلاطون عندما نفى وجود الحقائق الثابتة؟"، فقلت له: "لو استرجعتها لي، تذكرتها".

فأردف: "عندما قال له: ألا يحدث أن هواء بعينه يرتعش منه الواحد ولا يرتعش منه الآخر، ويكون خفيفاً على الواحد عنيفاً على الآخر، فماذاعسى أن يكون في هذا الوقت الهواء في ذاته؟ هل نقول إنه بارد أم نقول إنه ليس بارداً؟ أم نسلم أنه بارد عند الذي يرتعش ليس ببارد عند الآخر؟".

وأردف عطاء: "إذن، لا يوجد شيء هو واحد في ذاته وبذاته". قلت له: "لربّما هذا ما أطلق عليه الفلاسفة المشرقيون مذهب العندية، ينكرون فيه ثبوت الحقائق، وأن الأشياء هي بالنسبة إليّ على ما تبدو لي، وهي بالنسبة إليك على ما تبدو لك".

***

رائحة الزرع الكثيفة والنبات المتجاور، وصياح الطيور الموسمية، ولقالق النهر، والكراكي، والغرانيق، ونقيق الضفادع المتقافزة، وقطع الغيم الأبيض فوق الرأس كل غيمة لها حكاية، والغيمة فوق رأسي ممتقعة لكن لم تبدأ في البكاء... ممسك بالحبل يقصيني ويدنيني والمياه تؤرجحني، أدفعها فترتد إليّ معابثة. هذا الحبل الذي يربطني بالشاطئ يشبهني، ولا يجعل التيارات والأفكار تعبث بي، فما إن أغلق الكتاب من هرطقة أرسطو، حتى أهرع إلى صلاتي أعفر جبيني بين يدي خالقي لعلي جبان لا أستطيع السباحة دون حبل.

كان عطاء يستلقي على الحصير على قفاه ويتأمل تدفق الماء. صاح بي من على الشاطئ: "انظر إلى النهر، يقول هيرقليطيس لا يمكن أن تنزل النهر نفسه مرتين".

فخرجت إليه وأنا أقول: "الزمن محدث متغير، وليس أزلياً، إنه نهر"، فأجابني: "هل سمعت ما قاله الكرماني اليوم في درس التجويد عن الفارابي، أشعر أنه مهرطق، يحاول أن يدس أحاديث الفارابي دون أن يكون لها موضع للاستشهاد، فهو قفز من حديثه عن الموسيقا إلى قول الفارابي إن الله واحد لا فرق بين ذاته وعقله... فهو العقل والعاقل والمعقول وهو العلم والعالم والمعلوم".

أجبته وأنا أتربع: "لكن أتدري يا عطاء، إنه أعطاني جواباً عمّا كان يؤرقني، أي أن الله مؤزل والعالم متغير، والمتغير لا يصدر عن غير المتغير". فعدل من من جلسته وانطلق يقول: "هل تقصد القضية التي حلها الفارابي عبر فكرة الفيوض؟".

قلت له متبرماً: "نعم، هو قد يكون جواباً، ولكن أخشى أن يكون حديث الفيوض ليس إلّا زندقة وهرطقة عجم وفرس".

عندما كنت في بغداد، كانوا يتكلمون عن هذه الأمور همساً.

مدّ عنقه نحوي وبرقت عينيه وعاد يقول لي: "ليست هرطقة بل هي تحميك من الهرطقة وتحملك على التفكر، فقد قال الفارابي إن وجود الأشياء عن الله - سبحانه وتعالى - لا من جهة قصد يشبه قصودنا، وإنما ظهرت الأشياء عنه لكونه عالماً بذاته وأنه مبدأ الخير في الوجود، وهكذا فاضت عنه عشرة عقول آخرها العقل البشري الخاص بنا، والآن أجد أن كثيراً من شيوخ الأزهر يتحدثون عن العقول العشرة".

صمتُّ؛ لا أدري، لم يرق لي كلامه. أحسسته نوعاً من الأجوبة السريعة المختزلة، لربّما تلائم هذا اليافع الذي اطمأن إلى اكتمال يقينه، ولديه رغبة جامحة في المحاججة وإخضاع الخصم، ولربّما هي العالم كما يراه هذا الفتى المنعم الذي لم يعرف جوعاً أو خوفاً.

والتوحيد كما جاء في الوصية الخامسة للسراة (كل واحد يوجده من حيث مبلغ عقله، وما تنبسط فيه استطاعته) يغدو عندها رحلة مقدسة، لا يستطيع كائن أن يمرر لك معالم الدرب، فلا بد أن تخوضها وحدك، بكشاف عقلك، وهمس قلبك.

***

مرات نادرة نستقل فيها، أنا وعطاء، مركباً إلى الضفة الأخرى للنهر، ثم نسير حتى نشارف على مبانٍ حجرية شاهقة أعظم من الجبال يدعوها المصريون أهرامات الجيزة. كان قلبي ينقبض بجوارها لمعرفتي أنها قبور لملوكهم الغابرين، فنتسلق أحجارها ونمضي في تأمل القاهرة المعزية والفسطاط ونهر النيل من علٍ كما تراها الآلهة.

ومع الغروب ننتكب طَريق عودتنا والسماء تحتشد بالطيور:

أسراب هائلة تمر فوقنا قادمة من الشمال تتنادى في ما بينها وهي ناحرة الجنوب.

يقول عطاء إن تبدل الفصول هو موسمها، فتحضر من الشمال جاذبة بمناقيرها الهواء البارد. قلت له: "أشعر أنها متألمة مذعورة"، فابتسم عطاء قال لي: "هل سبق أن قرأت قصة الملك اليوناني مع طيور الكركي؟". قلت له: "أعتقد، سبق أن مر علي شيء مشابه، ذكّرني بها...".

قال: "يحكي أن أحد ملوك اليونان كتب إلى كنتس الشاعر أن يزوده بما عنده من كتب فلسفية، فجمع كنتس ما لديه من كتب في صندوق ضخم وارتحل قاصداً الملك، فتربص به قطاع طرق طمعوا في ماله وهموا بقتله، فناشدهم الله ألا يقتلوه وأن يأخذوا ماله ويخلوه، فأبوا، فحار ونظر يميناً وشمالاً يتلمس معيناً وناصراً فلم يجد، فرفع رأسه إلى السماء ومد طرفه في الهواء، فرأى كراكي تطير محلقة، فصاح: أيتها الكراكي الطائرة قد أعجزني المعين والناصر، فكوني المطالبة بدمي والآخذة بثأري. ضحك اللصوص وقال بعضهم لبعض: هذا أنقص الناس عقلاً، ثم قتلوه وأخذوا ماله، واقتسموه وعادوا إلى المدينة. فلمّا وصل الأمر أهل مدينته، حزنوا وأعظموا ذلك، وتبعوا أثر قتلته واجتهدوا، فلم يجدوهم ولم يقفوا على شيء".

"اجتمعت أمة اليونان جميعها في مراسم جنازته، ومن بينهم قطاع الطرق القتلة، فاختلطوا بالناس وشاركوهم مدعين الحزن عليه، وبينما هم على ذلك، مرت فوق رؤوسهم الكراكي تتناغى وتصيح، فرفع اللصوص أعينهم ووجوههم إلى السماء، فإذا الكراكي تصيح وتطير وتسد الجو، فتضاحكوا، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء طالبو دم كنتس الجاهل، وكانوا

يستهزئون. فسمع كلامهم من كان قريباً منهم، فسرب الخبر إلى الملك، فأخذهم وشدد عليهم وطالبهم، فأقروا بقتله، فقتلهم، وأخذت الكراكي ثأر الشاعر".

***

هطل المساء بما يشبه النشيج. قلبي منقبض وصدري يضيق حول قبور الملوك الآلهة، ورغاء إبل منهكة جائعة... وحشة المكان، وقصة تاجر الكتب القتيل الذي أخذت بثأره الكراكي.

في أحيان كثيرة تحضر السيدة العدالة... لكن متأخرة، لكنها تحضر حتماً ولا تتخلف قط. ولم أكن أدري في ذلك الوقت أنها قد تأتي لتشي بالقتلة، لكن على شكل جنية بارعة الجمال.

***

أقصد الفسطاط حينما أتشهى خبز الدبس فوق الصفائح الساخنة، وأحياناً تجعله البائعات في أفران بنيت في الجدران، وحينما يخرجن الرغيف ساخناً تتصاعد منه الأبخرة، يصببن عليه دبساً أسود، ويناولنك الرغيف الملفوف بابتسامة طروب مقابل درهم. إنهن اللعوب اللواتي أذهلن ابن العاص، ولكن لم يدوخني أمر قط كجسد كهرمانة. أزهرت وتفتحت كزنبقة فوق ظلمة ماء روحي وعتمتها.

أهل الفسطاط أكثر ظرفاً وبشاشة من عسكر القاهرة، فرغم أن الشارع قلق ومتوتر يترقب بتشنج أوامر الإمام المعصوم التي ستحط عليهم كالدواهي من القصر الشرقي في القاهرة، فإن ناس الفسطاط هناك يترنمون ويتضاحكون ويتهامسون ويسمون سراً حيواناتهم ودوابهم

بأسماء حاكمهم وعسكره.

يتذمر أحياناً عطاء من إصرار والده وأعمامه على المكوث في القطائع، فجانبها الشرقي مهدم منذ ما يقارب مئة عام على يد الوزير العباسي محمد بن سليمان، الذي أعمل يده فيها تهديماً وتخريباً فلم يبقِ منها إلّا خرائب يقطنها اللصوص والحيوانات السائمة، لكن ظل الكثير من مبانيها قائماً في الجانب الغربي.

يقول عطاء: "ضياع عائلتي وقصورهم تحف مسجد ابن طولون. لذا، بقيت قائمة مع بعض الميادين المرصوفة، والحمامات، وحوانيت التجار، ويقال أنها نجت بحيلة ذكية من جدي على جيش القائد محمد بن سليمان. فعندما حاصر الجيش العباسي القطائع، تسلل أحد عبيد أجدادي العصاة الأنجاس تحت جنح الليل إلى ثكنات الجيش، ووشى بأسياده، وأخبر الأعداء عن أماكن البوابات، وأعداد الحرس، وحتى أماكن غرفات النساء، ولكنهم يقولون إن الله عاقبه على خيانته بأن أصابه مرض الشهاق في طريق عودته، فصار يشهق، ويجاذب الأنفاس بصعوبة حتى وجوده مرمياً ميتاً عند البوابة في الفجر، لكن جدي الأكبر تدارك الموضوع بأن أولم للجند وليمة أكل منها الجيش العباسي وسباع البر والبحر، فعتقوا من نيران التهديم، وظلت بعدها عائلتي تردد شعاراً لها: كن حذراً ممن تعاشر، ففي تقلب الأحوال علم جواهر الرجال".

***

نلج إلى بيوتات آل علي من البوابة الغربية، تبدو كالقلاع المصفدة الشاهقة تشرع بواباتها حينما يلمحوننا قادمين من أول الدرب، فتنفتح

البوابة على بساتين برتقال وجوافة مسورة بسور طويل من الحجر مرتفعاً ما يوازي قامة أربعة رجال.

***

كل شيء في مصر كثير ومتدفق وافر. طلب أخيراً رشيد بن علي مني أن أدون قائمة بالكتب التي أمتلكها، وأشرع في عرضها على الراغبين الثقات أو أشخاص يرشحهم لي، وما من داعٍ أن يعرف أحد موضع الكتب في منزلي، فقد تصلها نيران الشك والرِّيبة وترمدها.

لكن حينما رأيت مكتبة منزلة ومحتواها وعناوينها، علمت أن صندوقي الهزيل إنما هو رف من أرفف مكتبته. مكتبة لا أعتقد أن فرداً واحداً يستطيع أن يجمعها، فقد تبدى لي أن أجيالاً قد توارثت رصف هذا الكتب وتصنيفها متجاورة، ما بين علوم، ومترجمات، وسير، ومقابسات، ودواوين.

وبدأت تنجلي أمامي الصورة ويرسب كدرها: رشيد بن علي يحرص على استبقاء علوم السراة حية بين الأيدي وفي الصدور، وبث كتبهم، واستقطاب الأتباع، وليس له في كتبي مرام. لا بد أن أمرر السر الأعظم إلى أحدهم في كل مدينة أحل بها، وأبذر بذار أهل العقل في ظلمات العقول. لم أستقر على شخص أصطفيه مريداً إلى الآن، في القدس كان هملقار... لكن ماذا عن القاهرة؟

***

أصادف في مجلس رشيد بن علي بعض الأحيان الأندلسيين الذين سبق أن شاهدتهم في متجر السجاد، ولم يبتاعوا من السجاد أثمنه وأجوده

فقط، بل باتوا يترددون على سقيفة بني ساعدة، ويبدون اهتماماً فائقاً بالعلوم والمعارف، وعندما يتحدث رشيد بن علي، تشرئب أعناقهم نحوه وينصتون بخشوع.

وحدهم من رشحهم رشيد بن علي لي بقوة كشراة مناسبين، يجلون العلوم، ويتلهفون على المعارف، وستسافر الكتب برفقتهم إلى الأندلس.

تحيّنت إحدى الجمع وعرضت عليهم قوائم من الكتب التي لدي، وقبل أن يتخذوا قراراً بشأنها، التفوا حول سيدهم البدين يتهامسون ويسرقون النظر إلي بين فينة وأخرى حتى شعرت بالقلق والاضطراب. تعرقت يداي وفكرت أن أغادر المجلس متسللاً، وذلك قبل أن يتقدم صبي معهم يبدو أنه الغلام الذي يقوم على شؤونهم، ويهمس في أذني: "سيدي يرغب في اقتناء مدونة جالينوس الأصلية، ونسخة من رسائل **إخوان الصفا**، ونسخة من **الفلاحة النبطية** لابن وحشية، وكتاب صغير هو رسالة لابن الكندي **في إبطال دعوى من يدعي صنعة الذهب والفضة**".

رضخوا للثمن الباهظ الذي عرضت الكتب به: ألف درهم لكل نسخة، وهو يوازي ثمن عبد صغير من سوق النخاسة. رغم هذا، لم يمنعهم هذا الثمن عن اقتناء الكتب، ما جعلني أهرول إلى المنزل وأعود بها مخبأة بين أعطافي وثنايا ثيابي.

تأملتهم وهم يقلبون ما جلبته بفضول واهتمام: وجوههم كبيرة مستديرة وناصعة، وأعناقهم ضخمة، وثيابهم معطرة. أخذت أقارنهم بورّاقي الفسطاط البائسين: عجاف، سُمر، رائحتهم برائحة عرق الأزقة. لقد جار العسكر على أهل الفسطاط واستأثروا بخراج مصر ولم يخلفوا لهم إلّا الفتات.

جلّ اهتمام ولهفة الأندلسيين ينصب على مترجمات الكتب الإغريقية،

ويحرصون على أن تكون الأصلية، فيطليون النظر فيها وتقليبها بعد أن فشا النسخ والوضع بين ورّاقي بغداد والقاهرة.

***

كان المجلس في ذلك اليوم قد انشغل بالجدل حول عقيدة الجبر، فكان سيد الأندلسيين البدين يربت على بطنه وهو يقول لرشيد بن علي معابثاً: "يا رشيد بن علي إليك عنا، فما نحن سوى مسيّرين، وإلّا ما الذي يجعلنا ندفع هذه الأثمان الباهظة في كتب وسجاد؟". فيجيبهم وقد انعقد حاجباه باهتمام: "وهل أنتم إلّا مخيّرون وقد اخترتم هذه الكتب عن وعي وإصرار وتمام الإرادة؟ ولو لم تكن تهمكم، لمررتم بها كما تمرون بالحصى والدمن!... فيا أهل أندلس، أتيتم لتستبدلوا الظلمات بالنور، في حين أن الجبرية هم الخانعون المطأطئون وهم وقود الطغاة يتخذون من ظهورهم سلماً إلى عروشهم".

وهم يهمون بالخروج، اقترب مني الأندلسي البدين الذي يبدو أنه سيد قومه: "سنكتفي بهذه الكتب... لكن لعلك، يا مزيد، تجلب البقية لنا في قرطبة".

كانت تلك الكلمة هي الفخ الذي استدرجني وظل داخلي إلى أن وجدت نفسي في يوم ما فوق راحلتي ومعي صندوقي متجهاً إلى الأندلس. فهل أنا مسيّر أم مخيّر... أم في منزلة بين المنزلتين؟ كلا الجوابين فيه حمولة من حق وأخرى من باطل، وأقدارنا تطرق الباب فقط، وبإرادتنا نفتح الباب لها أو نرفض.

***

كهرمانة ما برحت تتسلل إليّ وأنا أهيم بها وأغرق. مخيفة هي الملذات التي يختزنها هذا الجسد. أمضي يوماً ذاهلاً أستعيد ليلتنا. أحس وأنا في حلقة المسجد أنفاسها تطوف بوجهي وتستبدل عزفها العود ولواعج أوتاره بصوت غطيطها الشهي في أذني.

فطن لي عطاء وسألني معابثاً: "ما بالك أحياناً تبدو ساهماً مختطفاً؟ هل تسرف في أكل التين؟ يقولون إنه يرقق القلب، أم تديم السماع؟ فالغناء لا تطرب له الأذن فقط لكنه يشجي القلب، فتنهداتك كالحجارة"، ثم أردف بمعابثة ماكرة: "ما شأنك هل أنت مهموم... أم عاشق؟".

أربكني سؤاله وجعلني أتبعثر إلى حدّ جعلني عاجزاً عن مسايرته بالسخرية، ولعل غمغمتي وارتباكي أكدت شكوكه، فقال لي: "من؟ وأين؟"، فتملصت منه قائلاً: "هل صدقت أيها العابث؟ من يستطيع أن يفوز بقلب مزيد الحنفي، أنا السري من سرب الغرانيق".

كيف انفلتت كلمة السراة والغرانيق من لساني؟ هل العشق بدأ يجعلني أهذي؟

لم تستوقف عطاء إشارتي إلى السراة الغرانيق، وإن كان هو الألمعي الذي لا تفوته شاردة أو واردة. يبدو أنه هو من سيقع اختياري على يمناه لتحمل شعلة السراة في مصر، لكن لا بد أن أشرّبه الأمر تشريباً هادئاً سلساً، ففؤاد الفتى ما برح تتلاطمه الرياح، ولم تستقر سفينته على جودي اليقين بعد.

في ذلك اليوم، ما إن انتهت حلقتنا، حتى أعاد عليّ طلبه الماجن في زيارة النخاس شعبان في الفسطاط. يقول لي إنه نخاس ماكر، جعل في مقدمة دارة ساحة يعرض فيها عبيده، لكن له بستان خلف منزله جعل فيه

حجرات، وفي كل حجرة، تكمن جارية كالدرة المكنونة. وأخذ يصفهن كالجائع الذي يتشهى الطعام. يقول لي هناك هندية حسنة القوام لها حظ وافر من الجمال مع صفرة وصفاء بشرة وطيب نكهة ولين نعمة. فرفعت حاجبي وقلت له بخبث: "هل ذقت نكهتها؟".

فأجاب: "يا رب، اغفر لنا اللمم". وهناك قندهاريات الثيب منهن تعود كالبكر، ويوجد لديه سندية دقيقة الخصر بملاحة مع طول الشعر، ثم استدرك كأنه تذكر أمراً ما: "آه لديه، فتاة تقول إنها مدينية، اجتمع فيها حلاوة القول، ونعمة الجسم، وملاحة ودل".

ثم ضرب يده على جبينه وهو يتمايل: "والمكية إنها حورية، خنثة، لينة الرسغ، لونها أبيض مشرب بسمرة، قدها حسن، وجسمها ملتف... جواري النخاس شعبان ثغورهن نقية باردة، وعيونهن مراض فاترة".

صحت به: "توقف يا عطاء، لقد فتر جسمي من حديثك، انظر فوقك فنحن تحت قبة المسجد"، فطأطأ رأسه بحياء متخابث، وقال: "أستغفر الله، يا رب، اغفر لي اللمم".

***

زيارات كهرمانة غير منتظمة، فهي تجعلها وفق الرقابة. فإذا غفلت عينا يونس أو سيدتها أم الولد، وكانت تجعل سيدها ينام، تتسلل إلي، فمرات تأتيني ثلاث ليالٍ متواليات حتى تتهشم روحي بين يديها، ولكن أحياناً تباعد بين الزيارات، فيستبد بي الشوق إليها، وتنام القاهرة فلا يظل سهران فيها إلّا أنا وجرار الفول النحاسية التي يغمر قاعها في الجمر لإفطار القاهرة.

في الصباح، أكاد أذهب إلى بيت المجذوب لعلي ألمحها. أحاول

أن أتسقط أخبارها من مبروك لكنه حذر وحريص على ألا يفشي أسرار بيت سيده.

كانت تقول لي: "في الشتاء سيغدو من الصعب التسلل إليك"، لأن سيدها سينام بالغرفة الشرقية التي تطل على السطح. أحياناً استيقظ الفجر فأجدها قد وضعت لي صحناً فيه ثلاث تفاحات معضوضات بأسنانها، فأنهشها متلذذاً بتفاحها.

***

أمضينا على هذا ردحاً طويلاً من الزمان حتى تفتت وتلاشت رغبتي في مغادرة القاهرة إلى المزيد من الأمصار لتوزيع كتب الغرانيق. وكمنت هناك راغباً في جوارها، قبل أن تغضب مني وينقطع حبل وصالها.

عابثتها قبل أسبوع قائلاً: "كم يداً قطفت هذه الثمار الدانية، وكم عطشانَ شرب من هذا الغدير قبلي؟". كانت تبدو أريبة، تعرف أين تذهب يدي وتقودها، وتضحك من غفلتي وسذاجتي في بعض المواقف. في تلك الليلة، رغم جلال الليل وسكونه وغياب الأصوات، جلست في المرقد كالملدوغة، ولطمتني على صدغي وأخذت تنتحب، وتقول: "كنت أظنك تجلّ هذا العطاء والمخاطرة، وأنا لطالما حافظت على نفسي بين أسواق النخاسين والغلمان... الأعين المتربصة، والأيدي المتلمسة، والكلمات المتفحشة، حتى إذا جئتك تصفني بالتهتك والفجور؟ بينما بريق عينيك يشي بغلمتك العارمة، فأردت أن أعطيك المتعة إلى أقصاها حتى لا تقف شهوتك حائلاً بيني وبين الوصول إلى قلبك. لم أشأ أن أتمنع وأتصنع الصد والدلال لأثيرك كما تفعل كل نساء الأرض، أردت أن أختصر هذه المخاتلة الأبدية وأنام في حضنك للفجر

ليس بيننا سوى روحين تعالقتا... لا محابل ومصائد أنثرها في دربنا ما بين صد ووصال. أردت أن أكسر هذه الجرة التي تفور بالشهوة بين الذكر والأنثى، وهذا الحقل الذي يحصران صهيلهما داخله...".

كانت تتكلم بشهقات وعيناها تنهمران بالدمع بغزارة، وصدرها يعلو وينخفض بطريقة عجيبة، ظننت معه أنها حتماً ستختنق. أردت أن أحتضنها وأخفف عنها ما بها... وحلفت لها أنني الليلة لن أقترب منها، سأترنم فقط بمعلقة امرئ القيس في أذنها، أو أبيات "أدَلالاً هجرتني أو ملالاً؟".

ولكنها دفعتني عنها بعنف ولملمت ثيابها واختفت بين أستار الظلمة. وعندما سمعت وقع قدميها على السطح وهي تقفز حائط الشيح والريحان، أحسست بوحشة وشوق شديدين لها... وشعرت قلبي يعتصر كيوم وفاة جدي.

مرّ أسبوع لم أرها فيه، وحتى لم أسمع عزفها، هل ما زالت غضبى؟

***

يبدو أن مأزقي ليس مع كهرمانة بل مع نفسي، فأنا إلى الآن عاجز عن ترجمة مشاعر العشق والإفصاح عنها، وهل ما أشعره نحوها هو العشق أم طوفان من الرغبات العارمة ومصائد اليفاعة والشباب؟

في اليمامة بعض الضحكات الخافتة المتغنجة والنظرات من خلف اللثام، وفي بغداد، لم يطر بلبّي سوى المزهرة الزاهرة، ولكنها كانت كوكباً درياً يبرق ويخطف البصر ثم يغطس في الأفق بعيداً، ورفضتُ كل العروض التي كان حسن المصري يقدمها إليّ للذهاب برفقته إلى الحانة خوفاً من أن يقال أن كاتب الشيخ التميمي يرتاد الحانات.

في القدس، كادت تغويني فتنة السريانيات الفاتنات، ونضارة إليسار ووداعة حنة، أختي هملقار... الليونة والنضارة، كأن ينبوعاً قد انصب للتو في تقاسيمهن، ولكن تلك الفتنة كبرق خلب يختفي عندما تزل السحابة فوق أرض الصحراوي وتغادر.

لكن كهرمانة حمى اجتاحتني وقرضتني، وأولجتني عوالم مهراقة الماء والأمطار والعطر والنغم. ملمس جسدها المشدود الحار، والغدير الذي بين ثناياها... هي نوع من الجنون، جنية أمسكتني من عقالي كالبعير الهائم وقادتني إلى مرعى خصب فيه من كل زوج بهيج. كهرمانة! كأنني معها أتدحرج فوق جبل من زبد؟

لا أدري ولكنها ما برحت غضبى منذ أيام ولم تأتِ، ولم تعد تعزف...

أتخبط في ليلي ما بين الشرفة والباب. في النهاية، استقر بي الأمر أن جهزت شراب المريمية وذهبت به لزيارة المجذوب رغم أنني كنت قد عاهدت نفسي ألّا أزوره بعد حادثة لفافات العنب، لكن الشوق ساقني كالطلي إليه، فوجدته زائغ العينين مضطجعاً يحلق في الفراغ، فيما يجول سواك في فمه.

حينما يراني، يستبشر ويتطلق محياه ويغب في جوفه بسرعة ما جلبت له، ويأمرني أن أتلو عليه بعض سور القرآن، أو أنشد معلقة أعشى حنيفة، ثم يسألني من هو الخليفة الذي يقول: "أوتيت النساء حتى ما أبالي امرأة أتيت أم أتاناً، وأكلت الملذات حتى بت لا أدري لها طعماً أحلو أم حامض، ولم يتبقّ لي عدا لذة المعارف ومنادمة العارفين وأهل العلم؟ كل شيء تمله وتعافه نفسك عدا العلم، فإن كثرته أشهى وأعذب في النفس. فنادمني أيها الحنفي العارف".

فأجيبه: "ولم تقل إلّا حقاً يا حكيمنا"، ثم أتمتم في سري: لكن من

يفهم هذا لجسد كهرمانة الفائر كأنها نار السعير.

ألمحها تمر أو تحضر لتجلب أمراً ما. كنت أحرص على ألّا تلتقي عينانا، فالصب تفضحه عيونه، وعينا يونس شديدتا التفرس والتأمل رغم أنه حينما أحضر لزيارتهم يجلس على مقعده وينزع حزام بطنه فيتهدل قليلاً ويقهقر عمامته... ويتركني أسلي سيده، فيما يأخذ إغفاءات خاطفة، فهو يعرف أن سيده ليس بحاجة إلى عناية مباشرة وهو مستأنس بحضوري.

لم أعرف أن يونس خصي إلّا بعد أن أخبرتني كهْرمانة بهذا. كان دوماً يشاطرنا جلسة المجذوب، فيتبدى فحلاً مكتمل الرجولة: صوته وهيئته وقبضة يده، ولم تكن فيه تلك الخنوثة والتهدل والمكر الذي يكون للخصيان.

في يوم ما مع تباشير الفجر، عندما أخذت كهرمانة تتأهب للرحيل وترفع صحني حلوى تناولناهما معاً، همست على عجل: "يجب أن أغادر الآن قبل أن يحضر المخصي... ليوقظ سيده".

كنت أظنها تعني مبروكاً، ولكنها غمزت بعينها قائلة: "لا الكبير، يونس الرومي الذي رافق سيدي منذ مطالع صباه، لكن لا أدري متى أخصوه". جذبتها بعنف إلى جواري معابثاً وأنا لا أود أن تفارقني، وقلت لها: "وما أدراك أنه خصيّ؟ هل ذهبت إليه تبحثين عن أمر ما... فوجدته لا يمتلكه؟".

كورت قبضتها وضربتني بكتفي بدلال... "آه أيها الأعاريب، تظل ظنونكم سيئة".

كانت بشوشة لكعاء تجاريني في المزاح، فماذا حل بها وهجرتني واختفت؟

***

طلب المجذوب مني أن أرتل القرآن، فما إن أتلو كلمتين من مطلع السورة حتى يكملها، وأنعطف على الأحاديث فيسردها متتالية دون حرف ساقط، بل يأخذني إلى منعطفات وعلوم في القراءات أجهلها، فيقول لي كأنه يخبرني بنبأ عظيم: "ألا تعلم يا مزيد أن القرآن نزل على سبع قراءات مثل كشكشة تميم في قوله تعالى: قد جعل ربش من تحتش سرياً، في سورة مريم، أو استنطاء قبيلة هذيل فيقولون: إنا أنطيناك الكوثر". يسقط في يدي من القراءات القرآنية، ويستدرجني إلى منطقة لا أعرفها ولا أعي سهلها من وعرها.

فأقول له زاعماً المعرفة: "أضف على هذا أننا من حنيفة، وتظهر الكسكسة في لغتنا ولغة تميم أيضاً: قد جعل ربس من تحتس سرياً، نبدل الكاف للأنثى المخاطبة سيناً".

يستمع فيطرب ويهز رأسه إعجاباً، ويظل مسترسلاً بالحديث حتى أشعر بالدوار، وهو يحاول أن يستردّ ذاكرته المضيعة بين ولاية القضاء ولفائف أخرى يود أن ينشرها خلسة تمرداً على جور الحاكم.

فلمّا أعلن له رغبتي في الذهاب إلى المسجد، يستبقيني قائلاً: "إلى أين تريد، في مصر الظالمة، ألم تسمع أبا الطيب يقول:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها   فقد بشمن وما تفنى العناقيد"

فأرجوه ألّا يعيد توزيع فوائد العنب سراً، فيضحك من خوفي ساخراً ويقول: "سنرى".

قرع قلبي بشدة وتعلقت عيناي بوجهه. في تلك اللحظة، تيقنت أن هذا الرجل لن يتوقف عن توزيع القراطيس ضد الحاكم.

***

كتاب أبو قراط، وتلميذه جاليونسٍ، مررا لي صولجان الطبابة والحكمة في مصر، فبت الطبيب المزيف أقصد للعلاج. لا أعلم من روج لهذا، ولكن على الغالب هي أم الولد الثرثارة.

صيتي بدأ ينتشر على نطاق ضيق، فبعض الطلبة في الأزهر كانوا يأتون لي يشكون تغيراً في أمعائهم، ووهناً في أبدانهم، وانتفاخاً في بطونهم، فأطلب منهم أن يغلوا ماء الشرب ويعقموه بقشر الأترج قبل شربه، وينقوا جرار ماء الشرب ويبخروها بالمستكة قبل حفظ الماء فيها، لتبرأ أكبادهم ويعود رونق وجوههم. وبعضهم، شيوخ حلقات، يشكون مفاصلهم لطول الجلوس وثني الركب، فأطلب منهم أن يسخنوا زيت الخروع ويدهنوها بها، ثم يهرسون بذور الحلبة ليجعلوها لبخات يلفون بها الركب، فهي بإذن الله تشفيها. وأحرص على أن أختم قولي: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، حافظاً على خط رجعة يحفظ لي ماء وجهي، عندما يكتَشفونَ أنني طبيب دعي متطفل على المهنة.

ولكن بمشيئة الرحمن، كانت الأجساد تستجيب، فإن تناولوا الدواء بنية الشفاء، صحوا وغادرهم المرض.

أجسادنا خلقت لتشفى وتطرح سمومها وهمومها، وإذا توازنت أخلاطها، تحقق لها ما سماه جالينوس "طيب العيش". أما أكثر الخزعبلات التي كنت أفعلها وتمتعني حتى كدت أصدقها، فهي قانون المماثلة! الإغريق جعلوا لكل داء دواء من جنسه أو مماثلاً يقارب هيئته، فمن يشكو الصداع أو النسيان، أصف له الجوز لأنه يشبه الدماغ، ومن يشكو الشحوب والاصفرار، أصف له الطماطم والشمندر ليقوي الدم، ومن يشكو وجعاً في أذنيه، أصف له حب الفاصوليا لقربه من شكل

الأذن، ثم أهز رأسي مدعياً الحكمة وأقول: "المماثلة والمضاهاة هما نصف العلاج كما يشير إلى هذا أبو الأطباء أبقراط".

لكن مفاجأتي الكبرى كطبيب زائف كانت عندما استدعتني أم عطاء، زوجة رشيد بن علي لمعالجتها، وكنت في إحدى زياراتي إلى عطاء، فقال لي بلكاعة ودون تحرج: "أمي تريد أن تراك، أيها الطبيب الأريب".

امتقع وجهي، فهو لم يحدثني عنها قط، ولا أشعر بنساء البيت حين دخوله عدا جارية تجهز ضيافتنا، ولجم علي؛ فماذا لو كان داؤها عضالاً وعجزت عن طبه؟

فكرت بطريقة للتملص لولا أنه كان قد وقف وسار أمامي طالباً مني أن أتبعه إلى مجلس أمه.

خرجنا من الباب الذي يفضي إلى المكتبة، والتففنا حول المنزل متجهين إلى البوابة الجنوبية التي تشرف على بقية البساتين المتصلة بحقولهم وضياعهم. وفي ردهة في الداخل، جلست سيدة مضيئة، وأسفل قدميها جارية تدهن أقدامها بالزيت. كانت قد تحللت من خمار رأسها وتطلعت إلى السقف متوجعة، وحينما لمحتنا قادمين، انبلج وجهها بالانشراح لرؤية عطاء، وحينما لمحتني خلفه، قالت لي: "اقترب، فأنت بمقام عطاء ولن أحتجب عنك".

بدت العجمة واضحة في لسانها، وعرفت عندما اقتربت منها لماذا لم يحدثني عطاء عنها، فامرأة تنجب هذا العدد من الأبناء، وتبلغ هذا العمر، وتبقى محتفظة بهذه النضارة المجلوة، لا بد أن يحذر أهلها الحديث عنها للأغراب.

وضيئة باسمة بمفرق أشقر، يلوح عطاء في تقاطيعها، في حين أن بقية تقاسيم وجهها تحيلنا إلى عمق أرض الروم.

وما كدت أقف بين يديها، حتى بدأت تشكو لي تسلط البعوض على جسدها وعقصاته التي تتورم وتتقيح أحياناً، وقد تصيبها بالحمى. تقول لي: "٢٥ عاماً في مصر ولم يرتوِ بعوضها من دمي".

كان واضحاً أنها شركسية أو من الصقالبة، فهذا اللون من بياض البشرة الذي يظهر عروقها، وشفافية زرقة العين، لم أخبرهما من قبل بين السريان.

فقلت لها مطأطئاً الرأس دون أن أجرؤ على أن أحدق فيها: "سيدتي دمك حلو، فعقصات البعوض لا تكتفي بالجلد، بل تتورم وتتقرح، وشفاؤك لن يكون بإذن الله إلّا مع معجون أوراق الريحان والمردقوش، تعجن بماء الورد فتدهن به المواضع المكشوفة من جسدك".

والحقيقة أن هذا ما كنت أستعمله شخصياً، فهذه ليست وصفة جالينوس، بل وصفة شما الوائلية التي قاومت بها نفسي بعوض النيل الشرس. وعندما أحبت كهرمانة رائحته في فراشي وثيابي، أصبح دهن المعجون دأبي كل ليلة.

التفتُّ إلى عطاء أحادثه تحشماً عن الحديث مع أمه: "سأعجن بعضها وأجلبه، فإذا راقت لك، أعطيتك مقادير عجينة البعوض".

قال عطاء مقهقهاً في ذلك الوقت: "استعملي وصفة مزيد، يا أماه، وإن لم تجدي نفعاً، أخبريني كي أجعل منه وليمة لتماسيح النيل".

***

انقضى الخريف ومصر وأهلها منشغلون بمواسم الحصاد وإعداد الحقول للموسم الجديد. وكانت النهارات قد بدأت تقصر، في حين أن أصوات أسراب الطيور المهاجرة من الشمال تصخب وتملأ الفضاء،

وتنثر أشواقها فوق أسطح المنازل، فتنتابني اللواعج، وأذكر أسطح منازل حجر اليمامة، وأخمن أنها امتلأت الآن بعذوق التمر، استعداداً لجمعها ولكبسها حتى يتقاطر الدبس منها. هناك برج خاص من أبراج منزلنا أعد لحفظ التمر، كان له رائحة تسكنه طوال العام شذية كالعسل.

أترنم بأبيات ميسون بنت بحدل الكلبية الأعرابية عندما غادرت مراتع صباها في البادية، واستقلت إلى الشام زوجة لمعاوية:

وما ذنب أعرابية قذفت بها	صروف النوى من حيث لم تك ظنت
تمنت أحاليب الرعاة وخيمة	بنجد فلم يقضَ لها ما تمنت
إذا ذكرت ماء العذيب وطيبه	وبرد حصاه آخر الليل، أنّت
لها أنّة عند العشاء وأنّة سحيراً	ولولا أنّتاها لجُنّت

تشوّق الأوطان يشظيك، ويشطر روحك بين مكانين، مغدقة مصر كنيلها... إلى أن كان يوم الدمية.

يوم الدمية

روي يوم الدمية بصيغ كثيرة، وكتبه المؤرخون بتفاصيل مختلفة، ولاحقاً عرفت أنه لم يكن في تاريخ مصر في عهد الحاكم دمية واحدة، فقد حكي عن الكثير من الدمى المطالبة بالحق سواها.

***

عندما أزور منزل آل علي، لا نبرح، أنا وعطاء، عادة مكانين: إما نمضي الليل بالمسامرة في مكتبة أبيه، وإما نستمتع بحديقة تفصل منزلهم

الداخلي عن السور الشمالي. حديقة يبدو أنها خاصة بمنزلهم دوناً عن بقية منازل أعمامه. وإذا أطلت السهر لدى عطاء، كان يطلب مني المبيت لأن الطريق إلى القاهرة ليلاً تمسي خطيرة، كما أن باب زويلة الجنوبي يغلق، ويصطف أمامه أشرس الحرس خلقاً وأكثرهم فظاظة.

كنت أحياناً أصر على العودة خشية أن تتسلل إلي كهرمانة فأخسر ليلة معها، وأحياناً أخرى كنت أمضي ليلتي في دارة رشيد بن علي بعد أن يغريني عطاء بوصول كتاب جديد أو حلوى زلابية بغاية اللذة يجيدون صنعها في منزلهم.

كنت أشتاق كهرمانة، وأشعر أنني يجب ألّا أكثر المبيت هنا، كما لا أدري عن موقف رشيد من مبيتي هنا، هل هو بموافقته أم نتيجة إلحاح ابنه فقط.

لذا، اعتمرت عمامتي وسرت وسط الممرات متجهاً إلى البوابة الغربية، ولم أنصت إلى إلحاح عطاء لنلعب الشطرنج. في بغداد، كانوا يتوجسون منها ويسمونها بيادق الشيطان، لكن هنا للغرابة رغم تحريمهم العنب والزبيب، كثيراً ما ألمح رقاع الشطرنج بين الأيدي وفي واجهات بعض الحوانيت.

فقلت له: "لا أود أن أجزي وقتنا في العبث، ألم تسمع جالينوس يقول: إياك الاستمتاع بشيء لا يعم نفعه...".

كنت أقول هذا أملاً أن يدعوني إلى مكتبة أبيه، فأنا لا أملّ الجلوس فيها وتنشّق رائحة الورق الصيني والكاغد الخراساني مرطباً برائحة ورق البردي. لكنه يبدو أنه وجد سبيلاً لا يقاوم لإرغامي على المكوث تلك الليلة. فصاح بي وأنا أبتعد: "هل ترغب في مشاهدة الشيطان؟".

رغم أن إلحاح عطاء قد يصل حد الحصار الذي لا بد أن أستجمع

قواي لأقفز فوقه، فإن هذا العرض استوقفني، فالتفتُّ إليه قائلاً: "ماذا تعني؟".

تمتم بصوت منخفض كي أعود إليه وأستمع للتفاصيل: "الحاكم المعصوم يمر في ليالٍ كثيرة من هنا في طريقه إلى جبل المقطم. يسير بين تعرجات الجبل فوق حمارته الرمادية إلى القمة لممارسة السحر والسيمياء وحساب الكواكب، فإذا صادفت الليلة ظهور نجم يترقبه، ستراه يخب جوار السور مع موكبه".

وعندما لمس فضولي واستدارة عيني بالدهشة، استرسل: "إحدى غرفات المنزل الغربية تطل على الطريق الذي يسلكه، وكثيراً ما نلمحه من النوافذ وهو في طريقه إلى خلوته فوق الجبل، ويقولون إن له إصابة بديعة في النجامة لا يشاركه فيها أحد".

وأضاف بنبرة مغوية: "ليلة دامسة والقمر محاق، ومتوقع مرور الشيطان في أي لحظة، فلنكمن له في الغرفة الغربية، نلعب الشطرنج ونترقب مروره".

***

تذكرت الأسقف سمعان في أحاديثه المطولة إلى جوار شجرة البرتقال التي كان يسعى بها إلى تنصيري. كان عندما يهب علينا شذى زهر البرتقال، يقول: "إن الملائكة حين ترفرف حولنا، يطوقك أرج الزهور والسكينة، أما الشياطين حين تحضر، فتعلن عن نفسها برائحة كريهة وتسمع طقطقة حوافر".

وفي تلك الليلة المترقبة للشيطان، لم أسمع أو أشم، قبل منتصف الليل فقط. وعندما بدأ النعاس يدب إلى جفني، باغتني شعور غريب هيمن عليّ

بأن هناك حضوراً في المكان إلى الدرجة التي جعلت عطاء يرفع عينيه عن رقعة الشطرنج ويصيخ السمع.

في البداية، سمعنا وقع حوافر وحمحمة خيل قادمة من بعيد تلتها قعقعة أسلحة. عندذاك، قبض عطاء على كتفي بقوة، وهمس بظفر وقد استدارت عيناه: "هسسس... يبدو أن الشيطان قد حضر".

تلبكت أحشائي فرقاً، وأطفأنا السراج الذي كان بيننا، وأبقينا ذبالة الفانوس الواهنة على الحائط، وكمنّا متلصصين خلف الزخرف الخشبي للنافذة.

موكب لجب في مقدمته أربعة جنود راجلة يحمل كل منهم مشعلاً وهاجاً كأنه ألسنة الشياطين (لم يدر في خلدي آنذاك أن تلك الألسن ستحرق يوماً ما القاهرة)، وعباءاتهم الحريرية تلتمع بوهج النيران، ومن خلفهم مجموعة من الفرسان تلتمع قلنسواتهم وتحمحم خيولهم. يبدون فوق خيولهم كالتماثيل الحجرية لا يحركون رقابهم أو أجسادهم. وعندما أصبحوا بمحاذاة السور، بدأنا نلمح تقاطيعهم تضيئُها ألسنة اللهب، فهم حتماً من جند كتامة.

هذا قبل أن نلمحه وسطهم... كان يمتطي أتاناً رمادية عظيمة بآذان كبيرة منتصبة، وحوافر ضخمة. تمشي بقلق وتهز رأسها ناقمة وهي وسط كوكبة الخيول المشرئبة الصاهلة. لماذا اختار هذه الأتان الغضبى مطية له وهو إمام هذه الأمة؟

فلمّا حاذانا، كتمنا أنفاسنا، وارتعدت فرائصي برؤيته وسط حُندس تضيئه نيران المشاعل، فقد جعل فوق هامته رأس نمر مشرعاً فكيه، في حين أن جلد النمر ينسدل على ظهره وصولاً إلى كفل حماره... ولا أدري في تلك اللحظة هل أخبره شيطانه عن وجودنا، أم أننا أصدرنا

حركة أثارت انتباهه لأنه رفع وجهه فجأة نحونا، وسمّر عينيه على النافذة حيث نكمن؟

ولمّا أخذ الحرس يبطئون مسيرهم استجابة لتوقف الخليفة، عاد وأشار إليهم بصولجان كان يحمله ليتقدموا. وجهه يبرق بين قدح المشاعل: وجه فتى يافع، عينان مستديرتان، شفاه رقيقة لا تتوازى مع شدقي النمر فوق هامته، لكن لعينيه بريق متوحش مخيف يخبرك أن لا شيء... لا شيء أبداً من الممكن أن يقف في طريقهما.

تلك اللمحة الخاطفة لوجهه جمّدت الدم في عروقي، وجعلتني أتيقن أنه سلالة نسل لا بشري عجيب، وسرعان ما توغل في الظلمة وهو يحمل في جراب أتانه لفافات وأوراقاً.

ظل فرسان المشاعل يماشونه ويضيئون له دربه. تخشبنا وجمدت أطرافنا ونحن نرقبه وهو يؤم الجبل، وحينما وصل مشارفه، رفع صولجانه، وأمرهم أن يعودوا، فيما توغل وحيداً متصعداً داخل عتمات دروب المقطم.

***

أمضيت ليلتي حائراً متفكراً أقلب الموضوع على جميع أوجهه، إذ يتأبى أن يدخل في دائرة المعقول، ما الذي جلب هذا على عرش مصر؟ مصر وكل رجالاتها وعلمائها وفقهائها ينضوون تحت جناح هذا الفتى الذي يعتمر رأس نمر ويقصد كهوف المقطم... لأجد في الصباح الجواب ينفرش على مائدة إفطار رشيد بن علي بكلمة واحدة مقتضبة: "الطغيان... ونشوة السلطان، وصولة المتغلب".

نبس عطاء وهو يغمس لقمته بالعسل: "هل حقيقة أنه قد قتل المعلم

الذي رباه براجون؟". رفع رشيد رأسه وأخذ يتأمل ساهماً الفراغ وقال: "براجون كان قبطياً نبيلاً ووصياً على عرشه، وكان بصراحته يخشى الزلات، ولكن لا يستطيع خدمة السلطان إلّا فاجر مصانع ينال حاجته بفجوره ويسلم بمصانعته وريائه، أو مغفل لا يحسده أحد".

***

لم يكن رشيد بن علي فقط يستأثر بالجواب، فقد حملت الأسابيع التالية بعض إجابة، وذلك عندما فُرضت مكوس على محصول القمح والشعير والذرة، فسرت بين الناس حركة غضب وتململ عارمة، بدأت بين أزقة الفسطاط، ووصلت إلى نصب الدمية.

***

كانت دمية هائلة الحجم قد صنعت من بقايا الأثواب القديمة والقراطيس، كتلك التي تجعل في الحقول لتخويف الطيور، ونصبوها في درب الإمام المعصوم وهو في طريقه الليلي إلى المقطم، وعلقوا على يدها رقعة قد دُوّن فوق سطورها سبّ الحاكم وأسلافه وعهده، وفيها يعيرونه بأمه النصرانية، ويتهمونه بأنه ابن زنا، فأفعاله وجوره وطغيانه لا يفعلها إلّا أبناء الحرام، وأنهم قريباً سيهجمون على قصره ويقطعونه وينثرونه بين أنياب السباع وبطون الطير.

كان الناس يمرون بالدمية، ثم يهرلون مسرعين، ويخشون الاقتراب منها لفحش الكلام الذي سُطّر فوق تلك الرقعة.

وما إن حل المساء حتى أصبح فوق كل عضو من أعضاء الدمية مظلمة. أما شعرها، فكان لفافة طويلة من جلد الماعز وضعها النصارى

بعد أن قسموها إلى نصفين: نصف بأسماء كنائسهم التي هدمت، وقسم آخر بأسماء الأقباط الذين قتلوا وصرفوا من أعمالهم بعد تهديم كنائسهم، وكانت تلك اللفافة طويلة تلامس الأرض.

خفت وتذكرت لفافات وصفة العنب، هل فعلها المجذوب مرة أخرى ونصب هذه الدمية؟

تركت حلقتي بعدما أمرونا أن ننصرف باكراً ذلك اليوم ونخلي باحات المسجد الداخلية، لأن صاحبة المقام المصون السلطانة ست الملك أخت الحاكم سوف تحضر الليلة كي تسلم جوائز ومكافآت للنساء المتخرجات من حلقات الأزهر.

ليت أنها، بما لها من سطوة وحظوة، ترفع عنهن السجن الأبدي داخل منازلهن، فالآن لا إسكافي يجرؤ على صناعة أحذية للنساء في القاهرة!

رغم هذا، تنعقد الحلقات بهن في الأزهر. كيف يصلن هناك، هل يلففن على أقدامهن الخرق؟ لكن ربّما يلذن بسطوة ست الملك التي يقال أن الحاكم يخشاها، فصنعت حلقات عِلم للنساء لم أشهدها في بغداد ولا في القدس، حتى في اليمامة حيث كانت أمي تتعشق العلوم كان متاحاً لها فقط أن تنصت خلسة إلى حلقة جدي كي تأخذ عنه وتحفظ، وترده مزهوة بين النسوة.

خرجت من المسجد وهرولت إلى دارة المجذوب لكنني لم أجده، قال لي الغلام مبروك: "لقد خرج"، بالتأكيد سيكون لدى كهرمانة طرف علم لو كانت الدمية من صنعه، يا ليتها تحضر الليلة، فترفو ثقوب قلبي.

دار المجذوب لها حذاقة في صناعة الدمى، فدوماً كنت أجد على الأرفف دمى صغيرة بثياب ملونة، وعيون مشدوهة، متناثرة هنا وهناك. قالت لي يوماً أم الولد إنها دمى تصنعها لتلعب بها صغيراتها، لكن كهرمانة

كذبتها. تقول هي "حيزبون ساحرة تصنعها لتوقع الأذى والمكروه بأعدائها، فتظل تتلفظ اسم عدوها، وتنفث وتغرز الإبر والدبابيس فوق الدمية المشخصنة بعدوها إلى أن يهلك".

لم يحل مساء ذاك النهار حتى كانت الدمية التي غرزت على باب زويلة قد انتزعت من مكانها وجلبت بين يدي الإمام المعصوم.

ولم يكتف الحرس الذين جلبوها بذلك، بل إنهم نسخوا بعض ما كتب في الرقعة ليُطلعوا عليه رؤساءهم.

أنا على يقين أن حرس القاهرة يترقبون ذلك اليوم الذي يعطيهم الإمام المعصوم الإذن ليستبيحوا أهل الفسطاط لغثاثتهم وللجاجهم ولكثرة خداعهم وتطاولهم على الحرس، وتسمية دوابهم بأسمائهم.

***

عادت الرقع مجهولة المصدر التي تذكر فوائد العنب الذي حرمه الحاكم تعم القاهرة. كل هذا كان قبل أيام قليلة من الفجيعة التي اشتعلت ليلة الأربعاء.

من شهد الوقيعة يخبرنا أن الحاكم بنفسه وهو في طريقه إلى المقطم قد أعاد غرس الدمية مكانها وأشعل النيران فيها، وبعضهم يقولون إنه كلف قائد الجيش فعل هذا.

كان القمر في ذلك الوقت في ربعه الأول عندما صدر أمر الإمام المعصوم لجنوده أن يستبيحوا ويحرقوا الحارة الموالية لمكان زرع الدمية، هي والحارات خلفها، وتحرّي جميع من يجيد الكتابة في تلك الحارات وتقطيع أصابعهم.

***

كَمَن الناس في منازلهم جاثمين كقوم صالح بعد الصيحة، فيما ظلت الريح تنقل لنا رائحة شواء، وأصوات عويل وعواء، ونحيب، وزمجرة، وصلصة، لا يبدو أنها تنطلق من حناجر بشرية.

***

مع الفجر سكتت الأصوات تماماً، عدا مؤذن الأزهر الذي رفع الأذان، فما إن سمعه المجذوب، حتى انطلق إلى الطريق صارخاً صاخباً يصرخ:

أبرق وأرعد يا يزيـ ... ـد فما وعيدك لي بضائر

وقبع الناس في بيوتهم لمدة ثلاثة أيام لم يجسروا حتى على الخروج لدفن موتاهم. لزمت غرفتي وأنا أنتفض ببوادر حمى، فإذا تماسكت قليلاً ونهضت، هرعت إلى إخراج البوصلة والإسطرلاب وأمضيت ليلي في تقليبها لمعرفة اتجاهات النجوم ومساراتها بعد أن حجبتها غمامة هائلة سوداء من دخان لم تزل عن القاهرة منذ ليلة الحريق، وبقيت الأشلاء البشرية بجوار البوابة الغربية لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها سوى المجذوب الذي يتحين أي باب موارب ليدخله صائحاً:

أبرق وأرعد يا يزيـ ... ـد فما وعيدك لي بضائر

يقول لي عطاء إن مصر ظلت في حالة وجوم إلى أن خرج آل علي بالجرادل والأواني وشرعوا في تحدي الحرس وإطفاء النيران متذرعين بأنها قد تأتي على ضياعهم وحقولهم، فلمّا شاهدهم الناس، تشجعوا، وطفقوا يخرجون من بوابات منازلهم المواربة وفي أيديهم الأوعية والقرب لإطفاء النيران.

وعندما تقابلت الوجوه، وشاهدوا ما فعله الذعر والخوف وقلة النوم بها، التف عدد من وجهاء مصر حول عزم بأن يذهبوا إلى الحاكم يستعطفونه بدفن الأشلاء والبقايا حتى لا تكتسح القاهرة الجرذان والوباء، واعدين إياه بأنهم سيتقصون أمر من صنع الدمية وتطاول على جنابه، وأكدوا له أنهم من رعاع الفسطاط... وليسوا من أفراد خاصته.

ومع بدء دفن الموتى، قيل أن قتلى الأقباط ١٣٠٠، والمسلمين ١٥٠٠، لكن لم يتعرفوا على كثيرين منهم بعدما سُلخت فروة رؤوسهم.

***

مدن العقيق، المعجونة بالدماء والعويل، لم يبق لي إلّا أن أمضي الأيام والليالي في الصلاة وتأمل النجوم، فلم أعد أسمع نواح العود أو صياح الغرانيق والكراكي فوق النيل. كنا نسمع أحياناً طرقات على الأبواب فلا أدري هل هي للاجئ يريد أن يلوذ بأي باب هرباً من ملاحقة الجند، أم مريض يبحث عن الطبيب المزعوم، أم هم أحد أفراد الشرطة، بعد أن قيل أن دائرة القتل قد اتسعت، ووصلت بعض الأشخاص المريبين أو الباعة القادمين إلى القاهرة من الفسطاط.

ليت كهرمانة هنا. كنت في السابق أوبخها على تهورها ونزقها ومغامرتها بالتردد الدائم، والآن أتمنى أن ألمحها فقط!

ما سر غيابها؟ لم أعد أرى في معية المجذوب إلّا يونس. يدعوه سيده ميمون الناصية، ويتفاءل به، فيونس هو الذي قاده إلى النخاس الذي جلب له لميس. لكن أذكر أن كهرمانة أخبرتني بانكسار بأنهم يدعونها مشؤومة الناصية لأنها مع حضورها تنازل سيدها عن البقية الباقية من

ذهنه وأصبح يهيم على وجهه في الشوارع.

كان انكسارها وأنفاسها التي لها رائحة التفاح تشجيني، فأضمها وأرشف جميع ما فيها حتى ناصيتها المشؤومة.

***

احتاجت قاهرة المعز شهوراً لتلعق جروحها وترمم أشلاءها. جف الدم من على الطرقات والأبواب، وجف من عروق الموتى، وبات شيوخ الأزهر في خطب الجمع والحلقات لا ينفكون يحذرون من الفتن التي تعقب الخروج عن الحاكم، وضرورة الانصياع لأوامره حقناً للدم والعرض.

وبعد حريق الدمية، أصبح للقصر عادة جديدة، فقبل أذان الظهر، يحضر من القصر الشرقي أربعة عبيد نوبيون يحملون قدراً عظيمة تحتوي على رز وعدس، وكل طالب أو مصلّ خارج من المسجد يغرفون له مغرفة من القدر، ومعظمهم باتوا يصطحبون إناء ترقباً لمغرفة الأرز، ومن يفاجأ بها، يرفع ثوبه ويجعل فيه مغرفة الأرز، فينصرف وهو يدعو للحاكم بأمر الله الفاطمي بطول العمر.

***

هل آن أوان رحيلي الآن، لقد أمضيت في مصر عاماً وثلاثة أشهر، وبعت عدداً يسيراً من الكتب، وكثيرون من الناس هنا يبدون راغبين عن القراءة مبلبلي الفكر، مشتتي الذهن، كأنهم ينتظرون غيم البلاء أن ينقشع، لكن هل أطيق فراق كهرمانة؟

بقيت ساهماً ذلك اليوم أتحاشى الخروج من باب قدر العدس

والأرز، الذي ينثر في بطون الناس، كما ينثر الحب لجياع الطير فيتكالبون عليه.

***

أخبرني عطاء أن أباه يرغب في رؤيتي، فسرت إليه من فوري، فأنا من ناحية، لم أره من بعد حادثة الدمية، ومن ناحية أخرى، أريد أن أعلمه أن مقامي في مصر قد تم واستتم ويجب أن أغادر إلى... قرطبة.

لكن يبقى أن أناول عطاء مشعل السراة، ومهما عبث وتماجن، فليس خلف جبينه الوضيء سوى سيماء النبوغ والنجابة.

أما حاجتي المهمة والأخيرة التي يستحيل أن أغادر مصر دون أن أحققها، فهي لقاء البصراوي الحبيس ابن الهيثم، الذي يقبع مسجوناً تحت مخلب الإمام المعصوم. إذا تركت مصر ولم أجالسه وأحادثه وآخذ عنه، ستظل ندبة في صدري، وانتقاصاً من معرفتي.

لعل رشيد بن علي يجد لي درباً إليه. لكن قبل هذه التدابير كلها، هل سأطيق فراق كهرمانة التي تلاشت في عتمة الشرفة ولم تعد تظهر؟

خرجنا من باب زويلة باتجاه القطائع وكان الجنود ما برحوا يتفرسون في الداخل والخارج بتفحص وريبة. كنت أبحث في أعينهم عن التشفي وجبروت الانتصار ونشوة الغلبة، فلم أجد سوى التعب والملل. أسندوا ظهورهم على الجدار الذي يجاور البوابة، الذي ما برح متفحماً وقد تهدم جزء منه بعد أن أكلته النيران، ويلمعون دروعهم بخرق متسخة يتداولونها.

خارج السور كان الصيادون قد تسللوا من جديد إلى ضفة النهر متلفتين بوجل، فيما عاد بعض الباعة المتجولين يدفعون عرباتهم أمامهم

بخطوات حذرة. لم يكونوا ينادون على بضاعتهم بتلك الطريقة الموسقة الهازئة، كانوا يهيمون بعرباتهم بصمت فقط كأنهم يسيرون في جنازة عظمى.

***

ولم أرَ وجه رشيد بن علي مربداً غامقاً كما رأيته في ذلك اليوم. كان وحيداً في مجلسه عدا اثنين من أبنائه، وكاتبه، وياقوت عامل متجره.

لم يكن يحمل في يده كتاباً كعادته، ولم يكن يجلس مشرئباً كأنه سيلقي على القوم نبأ عظيماً. كان ينقل عينيه فقط في من حوله، ومن يقترب منه، يستطيع أن يلمح في غوريهما خطوطاً حمراء وعظم الفجيعة.

كان حاسراً بلا عمامة، فقبلت رأسه، وبدأ يتمتم: "وضعوا الخلافة في آل البيت فقط حتى لو أحرقوا البلد فوق رؤوسنا، فهل الإمام هو الوسيلة الوحيدة لإحكام الإرادة الإلهية على الأرض ودرء الفتن؟ وهل فتنة في الدنيا تفوق الفظائع التي مرت على مصر، وخلفت الدور المحرقة والثكالى والأيتام... الجند الذين سلطهم للفتك بالأهالي لم ينجُ من بطشهم أحد، وإن كانوا قد أجرموا في القبط"، وما إن تلفظ باسم القبط، حتى قال له كاتبه على يمينه كأنه يعزيه: "وما ذنبهم؟ فهم ليسوا إلّا أهل ذمة".

صاح به رشيد بن علي: "لا تقل أهل ذمة، فإن هذا سيبقيهم في درك الذلة والاستعباد، هم فقط من بني الإنسان، الذين خصهم الله بالكرامة في البر والبحر"، ثم أردف بأسى: "يقول الشاعر البستي:

يا أيها السائل عن مذهبي ليقتدي فيه بمنهاجي
منهاجي العدل، وقمع الهوى فهل لمنهاجي من هاجي؟".

التفت رشيد بن علي إليّ، وأحسست رأسه قد تضخم وغدا ثقيلاً، فقال: "أتذكر الحمال الذي نقل حاجياتك وانتهى به الأمر في السجن؟"، فأومأت برأسي مجيباً، فأكمل: "لقد قتلوه!".

شهقت برعب، قبل أن يكمل: "لقد كان أسقفاً في كنيسة الإسكندرية، رفض أن يهاجر إلى بلاد الروم بعد أن هُدمت كنيسته، بل ظل هنا قابعاً في مصر راغباً عن مغادرة مكان عاش فيه أسلافه منذ مئات السنين، يعمل في أحقر الأعمال، ويرضى باليسير من الأجر، حتى لا يكتشف أحد يوماً ما أنه وعائلته باتوا يشحذون، ومعظمهم بعد تحريق كنائسهم يعيشون بالكروة وأجرة ما يتقنون".

وأكمل عطاء بصوت منخفض مقدراً حزن والده: "وحديقتنا هذه التي لطالما أعجبتك، من يقوم على شؤونها هو قبطي وعائلته، يهتمون بزروعها وطيورها بنفس مطمئنة راضية، وألسنتهم لا تكف عن ترديد: طوبى لمن عرف دربه إلى الرب".

قلت لأخفف من وطء الحنق وكنوع من المسايرة: "حتى في بغداد هناك أمر مشابه، فحينما ثارت العوام على النصارى في بغداد، نهبوا كنيستهم التي في قطيعة الدقيق وأحرقوها، فسقطت على خلق، وماتوا".

كان هناك رجل من جلساء رشيد بن علي كهل بلغدين متهدلين، ألمحه دوماً دون أن أعرف شخصه، فقال ويبدو أنه أراد تحريك وتلطيف الهواء الساخن الثقيل على المجلس: "يقال أن نساء القبط لهن كثير من الحرية، وعلل بعضهم هذا بأنه لما غرق الرجال مع فرعون وقومه، لم يبق من الرجال إلّا العبيد والأجراء، ولم تصبر النساء عن الرجال، فطفقت المرأة تعتق عبدها ثم تتزوجه، وشرطن عليهم ألّا يفعلوا شيئاً إلّا بإذنهن،

فأجابوهن إلى ذلك، فكان أمر الرجال في مصر ينفذ إلى النساء".

لم تستطع هذه الطرفة أن ترفع مزاج المجلس. قال ياقوت الذي يعمل في متجر السجاد وقد طال صمته وشعر أنه لا بد أن يتحدث حديثاً يحسّن مزاج سيده: "صناعة النسيج في الدلتا المصرية صناعة منزلية، فنساء القبط يغزلن الكتان، والرجال ينسجونه، وتجار القماش يدفعون لهم أجرهم كل يوم، لكنهم لا يستطيعون البيع إلّا للسماسرة الذين تعينهم الحكومة، وأجرة النساج زهيدة للغاية لا تتجاوز نصف درهم، وهو لا يفي بثمن الخبز الذي يأكله، في حين أن ثمن قطعة القماش يرتفع بسبب المكوس والضرائب، لكن لا يطاولهم منها شيء، بل تذهب في بطن السماسرة".

لا أدري في ذلك الوقت لم شعرت أن ياقوت قبطي، فكلماته كانت مثقلة بالفجيعة، فتذكرت ما كان عمرو القيسي يردده لي دوماً: "إذا أردت أن تعرف عذوبة ماء بلد وخفته، فاذهب إلى البزازين والعطارين، فتصفح وجوههم، فإن رأيت فيها نضارة الماء، فاعلم أن عذوبته بمقدار ما ترى من نضارتهم، وإذا رأيتها كوجوه الموتى، ورأيتهم مطأطئي الرؤوس، فعجّل الخروج منها".

والآن لم يعد في مصر إلّا وجوه موتى.

***

حينما مد سمط الطعام كان متقشفاً لا يشبه تلك السفر الباذخة التي كان رشيد بن علي يجعلها مرآة لكرمه وسخائه، فقط ذلك الخبز المدهون بالزبد وعسل أسود يبيعونه في الفسطاط، وبعض الحليب المخلوط بالحبة السوداء وشرائح البطيخ.

والجميع كانوا يتمتمون: "والله لا نملأ الحواصل، وفي كل بيت ثكلى ويتيم".

***

بعد صلاة العصر بدأ مزاج المجلس بالتغير، فقد حضر كبير فقهاء الأزهر ليلقي حديثاً عن فضل الصدقة والزكاة، وبدأ بالتوافد مجموعة من التجار ووجهاء البلد الذين سيجمعون ما تيسر لإعادة تعمير الدور، وجبر المصاب، وإطعام الجائعين.

همس في أذني عطاء والخدم يقبلون ويدبرون في المجلس وهم يهيئون حلقة الشيخ: "يقال أن من أسباب ثورة الحاكم أنه أرسل خطاباً إلى محمود حاكم غزنة لينضوي تحت سلطته، لكن ما كان من محمود إلّا أن خرق الرسالة وبصق عليها، ثم أرسلها إلى الخليفة العباسي، ما جعل الحاكم يجن جنونه".

همست له مطأطئاً: "بوركت يدا الغزنوي".

وبدأ الشيخ الأزهري يهدر ويستجمع الآيات والأحاديث التي تحث على صدقة تطفئ غضب الرب، وهدر وهذر وأطال، لكن لم يمتلئ نصف القصعة التي جعلها رشيد بن علي لجمع دراهم الصدقة.

وفي المساء، عندما هممت بالرجوع إلى منزلي، خمنت أنه الوقت المناسب لإخبار رشيد بن علي نيتي في الرحيل. فما كدت أعلمه بهذا، حتى طلب مني أن أجلس بجواره وسألني: "هل تعلم أنك قبل أن تغادر مصر، لا بد أن تكون قد أعددت مريداً يتصعّد في درب السراة؟".

فأجبته من الفور: "وقد وجدته".

أمال برأسه مستفسراً، فأجبته: "وهل سوى نسل الكرام يمسي كريماً؟"، ثم أشرت بطرف خفي إلى حيث يجلس عطاء. فطأطأ ولاح على وجهه لأول مرة منذ مدة طويلة شبح ابتسامة، كانت علامة الموافقة لأمضي في ما أنا عازم عليه.

***

إذاً، العالم حولي يلملم أغراضه، ويجب أن أرحل، ولكن ليس قبل أن أمرر المشعل إلى عطاء، وفي عطاء بعض الخفة والطيش، من الممكن أن يقصياه عن رفقة السراة التي تتطلب الحذر والتريث، ولن تكون مهمة سهلة نقل الوصايا والتعاليم إليه، إذ يجب أن يتشربها بالتدريج، كما أنه على دراية بالفلسفة والمنطق والتاريخ، فلن أبهره بها.

ولكن على كل حال، رغم صعوبة المهمة، لن تكون أكثر مشقة من مهمة أبي العباس الحداد الفارسي - يرحمه الله - وهو يدعوني إلى درب السراة، فكم طاوله استخفاف كثير مني، ولامبالاة تصل حد الازدراء، وتبدى لي رأسه الضخم المجزوز في دكانه، كرأس الجزور الذي يحوم حوله الذباب في البصرة. رأس الجزور مرآة كانت تعكس الغيب لي، كنت يجب في ذلك الوقت أن ألزم الحذر والحيطة، لكن مرايا روحي كانت معتمة لم تستطع أن ترى، ولا استطاع عقلي أن يفقه.

ليس عليّ أن أستدرج عطاء فقط، بل أخذ العهد عليه بالسرية في أن يكون فرداً في جماعة غامضة مبهمة، حتى أعضاؤها لا يعرفون بعضهم بعضاً: جسد كبير ممتد فوق الصحاري والبلدان، لا يُعرف له رأس من بدن.

جدي كان يقول: "الحكمة كالترياق، إذا تجرعتها مرة واحدة،

قتلتك، ولكن تلقين الحكمة يكون قطرة فقطرة، فاختيار الأمثلة والدلالات والاستعارات هي وفقاً للمستمع، فإن كان خياطاً، فحدثه عن الإبرة والخيط وثقب الإبرة والمقصات، وإن كان راعياً، فمدخله عصاه وقطيعه".

عطاء في غاية الذكاء، فما مدخلي إليه؟

***

حينما دعاني إلى المكوث عنده تلك الليلة، قبلت بلا تردد، فحديث داخل المكتبة سيفتق لنا دروباً شتى.

ولم أستجب لطلبه في الكمون لموكب الشيطان، بل قلت له: "هو حتماً مستشر الآن بعد حريق القاهرة، وعلى استعداد أن يفتك بأي كان يمر أمام وجه، فهو كالبومة يرى في العتمة، ما برح يمتطي حمارته وسرجها المذهب ويقصد المقطم".

همس عطاء ساخراً: "أبي دائماً يقول: السرج المذهب لا يجعل الحمار حصاناً".

ولأن الأعاجيب تباغتنا دون أن نتوقع أو تستأذن منا، فنضطر أن نسميها مصادفات عجيبة أو أقداراً مرسومة... أو هي مشيئة كونية تظهر عبر اللمحات والإشارات، فقد همس عطاء وهو يحدق بي: "ليتنا نستطيع أن نراه ولا يرانا... لو أن لدينا قمرة ذلك الرجل البائس ابن الهيثم، لاستطعنا أن نراه دون أن نتحرك من مكاننا".

فهتفت بعدما التفتُّ إليه بكل جسدي: "وما قمرة ابن الهيثم؟".

قال لي: "يقولون إن لديه غرفة سوداء ينسرب منها ضوء، الشياطين تجعله يرى ما هو خارجها".

بلعت ريقي لا أود أن يلمح لهفتي الفائقة للتعرف على ابن الهيثم، فقد كان يتحدث عنه باستخفاف كأنه يتحدث عن مختل. وسألته: "ماذا تقصد؟".

فأجابني: "سمعتهم في مجلس أبي يتحدثون عن غرفته المظلمة الملأى بالعفاريت، ويزعمون أنه مجنون. لذا، هناك حرس يحرسون دارته ويمنعوه الخروج إلّا بأمر من الإمام المعصوم".

قلت له بصوت متردد: "لكن قد يكون بالفعل مجنوناً... ويفتك بمن يزوره".

كوّر عطاء فمه ببؤس وقال: "لاااا، إنه مسكين بائس كالطير الذي وقع في قبضة التنين، فقد جلبه صاحب الأتان من بغداد بعد أن قال إن لديه حلاً لفيضان ماء النيل السنوي، ولكن بعد أن أمضى عدداً من الشهور، وبنى بعض السدود الخشبية والنواعير، وجرب أن يجري ماء النيل عبرها، فشل في أن يمنع الفيضان، وخشية من بطش الحاكم، ولاسيما أنه صرف على تجاربه خراج دمشق لذلك العام، تظاهر بالجنون، وبات يعتاش من استنساخ الكتب، ويقال أنه نال خمسة وسبعين درهماً مقابل استنساخه كتاب البصريات لأقليدس، وهو مقدار يعتاش عليه ستة أشهر".

قبضت على معصم عطاء وقلت: "هل من سبيل إليه؟".

صاح بي: "ماذا دهاك؟ أقول لك يدعي الجنون ومحروس من الحرس، وأنت تطلب مشاهدته".

فقلت له بصوت خافت: "إذا استطعنا أن نقنع الحرس حوله أننا طلاب من الأزهر الشريف، وأننا مبعوثون لنقرأ عليه بعض الآيات القرآنية التي تذهب عنه الجنون، استطعنا اللقاء به".

وأروع ما يكون صديق أهوج لا يقيس خطواته، كونه يستجيب لكل

نزواتك المفاجئة، فقد برقت عينا عطاء وقال: "سنرى...".

وبت أهجس بقمرة... ابن الهيثم.

ولا بد لذي الحاجة أن يحظى بحاجته... ولمدمن القرع للأبواب أن يلجَ.

***

لم يكن الطريق إلى ابن الهيثم بهذا اليسر الذي صوّرته لي أحلامي، ولاسيما أننا كنا نتحرك في تلك المسافة المتوترة بين جند الحاكم وشعبه، فالشعب محتقن والجند غاضبون، ولم يعد يقتصر الأمر على سخرية حامضة يسمون فيها الجند بأسماء بغالهم وحميرهم وكلابهم، بل بات الجند يجدون دوابهم قد سممت أو يكتشفون روثاً أمام مقراتهم، والباعة في الحوانيت ما برحوا يرفضون البيع لهم متعذرين بأن البضاعة قديمة أو بائتة، فإذا أرغموا، خبّؤوا عنهم بضاعتهم الجيدة. أما صاحب الشرطة الطاغية الذي تخشاه مصر كلها، فاستيقظ ذات صباح ليجدهم قد ربطوا حماراً ميتاً بباب بيته.

في هذه المساحة المليئة بالشك والسم والألقاب، كيف لنا أن نصل إلى ابن الهيثم؟

قال لي عطاء باستخفاف وهو يسير مزهواً بخطواته مائقاً كعادته، ويرفع طرف ثوبه عن تراب الطريق: "لا عليك، لعل هذا الانشقاق بين الناس والجند يخلق ثغرات نستطيع أن نمرق عبرها إلي ابن الهيثم".

لم يكن اختياري عطاء عضواً قادماً من السراة خطأً أبداً، فاكتشفت في تلك اللحظة لم أشعر بالغيرة منه، لا لذكائه ووضاءته وجاه أهله، بل تحديداً من هذه الروح الحرة المتعالية على الهموم والعقبات، ومن هذا

الجموح المترفع الذي يجعله كالصقر يحلق ويحوم فوق المعضلة لمدة، ثم ينقض عليها بمهارة ويسر.

هذا بالتحديد ما كان من أمره حينما شاهدته اليوم التالي في المسجد، فقد كانت حدقتاه تبرقان، وأشار لي بإيماءة ماكرة من رأسه إلى أن هناك أمراً لديه... هذا الفتى لا يعجزه شيء قط.

انفضت حلقة الشيخ لسعال مفاجئ أصابه. كان الشيخ عبد الواحد يدرسنا كتاب **المفضليات** المتضمن الأشعار التي جمعها المفضل من عيون الشعر العربي للخليفة المنصور. شيخنا الأزهري لم يكن يمتلك الفصاحة ولسانه تعوزه البلاغة. كان يلحن في النطق ويعبث في الأوزان، ولسانه لسان قروي ركيك، وشفتاه دائماً ناشفتان رغم رذاذ لعابه المتطاير. لذا، أنقذتنا منه نوبة سعال انتابته لم تنقطع إلّا مع أذان الظهر.

قال لي عطاء هامساً ونحن نخرج من الميضأة: "ابن الهيثم قبل أن يحبسه الحاكم ويضع يده على أمواله، كان يعمل في ديوان الرواتب، وهو العمل الذي يفعله الآن المنقري، أتذكره؟ في مجلس أبي؟".

قلت له: "مجلس أبيك دوماً مزدحم، كيف لي أن أذكره؟".

فأجاب: "الطويل النحيل كطائر أبي منجل، الذي يقصد بيت أبي دوماً... له وجه ماكر، ويرتدي عمائم ملونة غريبة؟".

تظاهرت أنني تذكرته كي لا تفتر حماسة عطاء الذي أردف: "سنذهب إليه وسنستعير بعض الملفات من ديوان الرواتب زاعمين أننا سنتدرب على ترتيبها وفهرستها لمهمة أوكلها إلينا والدي، وحتماً سيكون فوق تلك السجلات والدفاتر ختم بيت الرواتب وختم الخليفة، ثم نأخذها إلى المنزل الذي يحبس فيه ابن الهيثم، ونزعم أننا عمال في بيت الرواتب نريد أن نراجع وإياه سجلات سابقة لقصور

اكتشفناه فيها أيام إشرافه على بيت الرواتب".

كان يتكلم بسرعة ويتلفت خشية أن يسمعنا أحد. بدا أن الأمر قد اكتمل، فما كان لي إلّا أن أومئ برأسي مستجيباً لأي درب ستفضي بي إلى ابن الهيثم.

ثم همس: "حتماً الحراس الأميون الجهلة على باب منزله، حينما يلمحون الأختام، سيشرعون لنا البوابات ولن يدققوا ماذا في الدفاتر".

خفت في تلك اللحظة وقلت: "وإذا شكوا في أمرنا؟"، متمنياً أن يكون قد أعد خطة للتراجع.

لكن كعادة عطاء الجامح قال: "لنحاول، فلن نخسر شيئاً... نحن نريد أن نتأكد أن عقله ما برح معه، فهم يقولون إنهم يسمعون هرولته وهو يطارد ظله في ممرات منزله أو سجنه، كما يسمعونه في منتصف الليل وهو يهدر بتحريك رحى الطحين".

اصطففنا لصلاة الظهر، وقبل أن يكبر الإمام، قال لي عطاء: "سأسلم من الصلاة وسأهرول إلى المنقري أبي منجل، فإذا منحني ما أريد، قصدنا منزل الرجل الحبيس غداً".

***

يبدو أن المشيئة الإلهية قد أعلنت موافقتها، فانبلجت أمامنا الأبواب واحداً إثر الآخر. ففي اليوم التالي، وقت الزوال، وعندما اختفى ظلّانا عن الأرض، كنا نقف أمام المنزل، أو السجن، الذي يقبع فيه ابن الهيثم.

واختلفنا قبل أن نصله، هل نخبره أسماءنا الحقيقية أم نكتفي بأننا طلاب علم؟

قلت له: "تريث، فحال ابن الهيثم هي التي ستحدد لنا مصبات الكلام".

***

لحسن الحظ، كان حارس البوابة نعساً متراخياً. قلب الإضبارة بين يديه بملل دون أن يدققها، وطلب منا الانتظار.

شد بملل وفتور حبلاً يتدلى جواره، فسمعنا صوت قرع ناقوس، وما هي إلّا لحظات حتى تناهى إلى أسماعنا أزيز الباب الخشبي وهو يفتح، والحارس يومئ برأسه سامحاً لنا بالدخول.

صعدنا ثلاث درجات حجرية، واكتمل افتتاح البوابة عن كهل خمسيني بلحية رمادية مدببة: وجه ممتقع دهشة وقد تعلقت عيناه بوجوهنا دون أن يغادر الباب ويفسح لنا إذناً بالدخول، فانبرى عطاء قائلاً بعد أن اشرأب برأسه كالنبلاء: "هل أبو علي موجود؟".

فأومأ للكهل برأسه مجيباً بـ"نعم". كان يرتدي ثوباً قطنياً خفيفاً وحزاماً عريضاً على وسطه لا يشبه أردية رجال مصر، بل هو مقارب إلى رداء أولئك الخدم الذين كنت أشاهدهم في القدس وبصرى، فقال عطاء بالرأس المشرئبة نفسها: "تكرماً أخبره أننا من ديوان الرواتب".

يا إلهي! ماذا صنع عطاء؟ كلمته كانت ككلمة اللصوص أمام مغارة الكنز، فقد جعلت الرجل يشرع البوابة على اتساعها ويطلب منا الدخول، ويشير إلى مقاعد من القش اصطفت داخل الردهة الداخلية للمنزل ثم يختفي مهرولاً في أحد الأروقة.

كانت ردهة واسعة مطوقة برواق جميل تحيط به الأعمدة، ويبدو أنه كان بيتاً لنجيب أو وجيه لكنه بات موحشاً وردهته مهملة الآن. يتناثر في

جنبات الردهة لفائف حبال وأخشاب وأكياس مصنوعة من الكتان فيها بعض الحجارة عجيبة الشكل مع مطارق ومسامير بأطوال متفاوتة. ردهة قابضة مهجورة لا يرطب قسوتها تثني النساء وتقافز خطوات الأطفال في جنباتها.

همست لعطاء: "ماذا نقول له؟ كيف نطمأنه من ناحيتنا وهو الذي يقال أنه ادعى الإصابة بالجنون ليفر من المساءلة؟".

فأجابني: "لا شيء.. سننتظر بماذا سيبادرنا ثم نحدد كيف سندخل إلى صومعة الجنون. يقال أنه قد غادره وعيه وهو يهذر بكلام غير معقول ولا مفهوم، ولكن أبي يجزم أنه في كامل عقله، لكنه يتقي البطش".

فجأة صمتنا لأننا اكتشفنا أن أصواتنا تتردد عالية في الأقواس الحجرية فوقنا، فسمعنا عندها همهمات وأصوات خطوات تقترب قبل أن يظهر لنا في آخر الرواق رجلان أحدهما الكهل الذي فتح لنا الباب، والآخر يبدو أنه...

تقدم ببطء نحونا بالنحو الذي مكنني من تأمله وهو يخطو بين أعمدة الرواق وبين الظل والضوء. كان ضئيل الجسم يرتدي ثوباً أخضر من القطن، وفوقه عباءة حريرية حمراء يضيع فيها جسمه الضئيل. حينما اقترب، وقفنا هاشين له، فيما تريث قليلاً، فلعل اسم ديوان الرواتب أقلقه، فوضع عمامته فوق رأسه كيفما اتفق، فانغرست مكونة ثلاثة خطوط في جبينه. فوق حاجبين كثين، وعينين حمراوين تلمح في غوريهما تلك العبقرية المنقطعة إلى أرض الجنون، بريق يشبه ذلك الذي في قاع عيني المجذوب... كم مطارد في مصر فرّ من البطش إلى أرض الجنون!

توقف على ما يقارب خمس خطوات منا، ولم يتقدم ليصافح أيدينا

المرفوعة إليه، رفع يده فقط محيياً وقال: "الشمس لا تضيء بضوء قنديل..."

عرفت عند ذلك أن مهمتنا لن تكون يسيرة، وأن الرجل ماضٍ في دروب التيه.

اخترق عطاء بذلاقته ولطافته المصرية جمود وتخشب الموقف، وقال: "أسعد الله مساء أبي علي، الحسن ابن الهيثم، مخترعنا الجليل وصاحب كتاب **الهيئة والدوائر**".

فلمّا لم يرد السلام، ثنّى عطاء قائلاً: "نحن قادمان من ديوان الرواتب من لدى سيدي المنقري، نود أن نسألك عن بعض التفاصيل"، فلم يتحرك من مكانه، بل همهم بصمت، ثم أطرق، فأردف عطاء: "خذ وقتك أيها العالم الجليل، فسيدي المنقري ليس في عجلة من أمره... وإليك الكتاب، وسوف نمر بك بعد ثلاثة أيام لنرى ماذا يكون من أمره".

كنت قد دسست في الكتاب ورقة كتبتها بخط مجوّد معجم محبّر بما يأتي:

> حضرة سيدي العالم الجليل والشيخ الجهبذ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...
>
> يسعدنا أن نمر برياض معرفتك، وننهل من غزير علمك، ونستقي من عظيم أدبك، وصل الله قولك بالصواب، وفعلك بالتوفيق.
>
> اسمح لي سيدي أن أقدم إليك نفسي: أنا مزيد النجدي الحنفي، بائع كتب، وفي شوق عارم للتفكر في ملكوت الله وبديع صنعه، وهو الذي خص الإنسان بالعقل وكرمه في البر والبحر، وهو الذي حمّله الأمانة.

سيدي لن أطيل عليك، فإنما أنا الآن في منزلة بين المنزلتين،
ما بين التنعم بجوارك، أو الارتداد مدحوراً خائباً...
أدام الله فضلكم
مزيد النجدي الحنفي

لا أدري أي جنون غامرت به لكتابة هذه الرسالة التي حبرتها البارحة ودفعتها إليه بين دفتي الإضبارة. استثنيت ذكر عطاء فيها، فلا أنوي توريطه، فهي ستقودني إما إلى فتح مغاليق ابن الهيثم، أو سيشي بي إلى الحراس وستكون عاقبتي وخيمة.

حتى سيدي ذو السطوة والجاه، رشيد بن علي، لن يستطع إخراجي منها، فقد لمست عجزه وقلة حيلته أمام بطش الحاكم أثناء مصيبة الدمية. ولم أكتفِ بهذا، بل أدرجت مفتاح السراة في رسالتي: منزلة بين المنزلتين، مخمناً أنه منهم.

حتى لو افترضنا أنه من السُراة، فإنه حتماً سيستريب مني، فالسراة عادة لهم ممراتهم الحذرة، ولا يأتون ويقتحمون بهذه الصورة الخرقاء.

لا أدري، لكن وجدت أنه السبيل الوحيد الذي سيشرع لي به ابن الهيثم عالمه السحري الخارق المتماوج بين مراكب الضوء وأنهار الظلمة.

***

أمضيت ثلاثة أيام بلياليها في حال من القلق والتوتر، ما بين حلقات المسجد والمنزل. حتى عطاء لم أره بعدما افترقنا أمام بوابة ابن الهيثم.

ما يسيطر على تفكيري الرسالة التي دسستها في إضبارة ديوان

الرواتب، هل ستفتح لي مغارة أبي الهيثم السحرية أم ستدحرج رأسي إلى تماسيح النيل؟

***

صباح اليوم الرابع كنت قد اغتسلت وارتديت ملابسي، وتهيأت للخروج للجامع، ولكن سمعت طرقاً شرساً على بابي، فقلت: "قادم... قادم"، محاولاً أن أطمئن نفسي أنه خادم المسجد يبعثه الشيخ عادة ليوبخ الطلبة الذين تأخروا عن صلاة الفجر.

ولكن سمعت صوت الفتى مبروك يناديني، فنزلت مهرولاً إلى الباب. وحينما فتحته، كان هناك أحد رجال الشرطة، غشى بريق قلنسوته الحديدية عيني، وتوكأت على الباب خشية أن أتهاوى! ها قد وصلني جند الشرطة، هل أتقهقر وأفر... لكن إلى أين وقد نامت نواطير مصر عن ثعالبها.

بادرني الفتى مبروك بلهجته الممططة التي تشوبها السذاجة: "هذا الجندي يقول إن قائد الشرطة يعاني من مرض، وهو بحاجة إليك أيها الطبيب".

تنهدت كأنه أزيح المقطم عن صدري، واستمهلته قليلاً لألحق به، ولكن احتجت بعض الوقت لتنتظم أنفاسي، ويهدأ ارتعاش أطرافي. ارتشفت بضع رشفات من ماء منقوع قشر الأترج، فهو جيد لصفاء الكبد كما يقول جالينوس الطبيب العظيم لمزيد الطبيب المزيف.

سرنا بين الأزقة والممرات والناس مهطعون إلى أعمالهم يرمقون باستغراب هذا الرجل الذي يماشيه الجندي حتى وصلنا إلى السور الشرقي، حيث أسفله دارة واسعة يحفها النخل ويقف على بوابتها

حارسان أشارا إلي بالدخول.

وفي زاوية من صحن الدار، جلس رجل واهناً نحيلاً كقط مجوع فوق نمارق ووسائد مخملية لكنها كالحة. فقط عندما وقف لتحيتي تبينته، فلم يكن سوى قائد الشرطة الفظ الغليظ، رأس الثور، الذي وضع يده على مقتنياتي، وقذف بالحمال القبطي إلى غياهب السجن لأن الصليب على رقبته لا يتوافق مع ما طلبه الإمام المعصوم في وزن الصلبان المعلقة على رقاب القبط، أن يكون طولها ذراعاً ونصف، وزنتها خمسة أرطال وتختم بالرصاص!

رأس الثور الذي جعل في كل بيت من بيوت مصر داهية ومظلمة تآكله المرض بغتة، وعلاه اصفرار وتهدل كتفاه. كان يحمل بيده طاسة ماء يرتشف منها مردداً: "لا أرتوي، لا أرتوي... في حالة عطش دائم، ولساني كأنه عظم، وكأن هناك دبابيس تخزّ أطرافي مع حالة وهن".

هل آن الأوان ليجلده الله بالمرض. لكن ليس هذا وقت التشفي الساذج، وهذا الوجه النحيل الذي يتفرس بي ينتظر علاجاً، ورغم ذبوله، لم تغادر تقاسيمه التوحش والشراسة.

جميع الأعراض التي ذكرها تتطابق مع ما ذكره الأسقف سمعان ويصفه جاليونس عن مرض الدماء الحلوة التي تقتات على البدن وتجفف نضارته وحيويته. اقتربت منه وجسست يده: كان نبضه منتظماً، سليماً من الحمى.

قلت بصوت خافت بعد تردد: "هل هناك بيت للنمل هنا؟".

تلفتوا باستغراب ظناً منهم أن هذه طلبات مشعوذ، ولكنني عدت أكرر لهم بصوت حاولت أن أجعل منه ثابتاً، فأشار قائد الشرطة برأسه إلى غلام كان يجاوره وقال له بصوت واهن: "افعل ما تؤمر".

ولم يغب الغلام كثيراً قبل أن يعود وهو يشير بإصبعه إلى السطح. توكأ قائد الشرطة على ساعده ومضينا نصعد الدرج إلى هناك. كان السطح متسعاً ومطوقاً بأقنان الدجاج وأعشاش الحمام، قبل أن نقف على كومة رمل جعلها النمل منزلاً له. وعندما طلبت منه أن يتبول فوقها، أخذ يتلفت ويردد الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾، فكدت أنفجر بالضحك، هل يشعر بالمهانة والحرج؟

قلت له بلهجة صارمة وأنا أكتشف أن مهنة الطبيب منحتني سطوة ما كانت ستكون لي أمام هذا الثور: "قلت دعك من مخاطبة النمل، تبول فوقه فقط". وتركنا له البقية الباقية من سمته ووقاره، وابتعدنا عنه إلى طرف السطح ليتبول.

قبل أن نسمع صوت خطواته قادماً إلينا. حينما شاهدت وجهه واهناً عطشاً يكاد يتهاوى، طلبت من غلامه أن يساعده إلى الأسفل، فيما ذهبت لأتحقق من بيت النمل، فوجدت أن صفوف النمل قد بدأت تستدير فوق الرمل الرطب.

حمدت ربي أنه المرض الحلو، فأقلّ الأمر أنني إذا وصفت له وصفة، فستكون ناجعة.

نزلت الدرج وأنا أقول: "إنه مرض الدماء الحلوة، إذا لم ينظم طعامه التهمته دماؤه، علاجه الوحيد هو الحمية... اجعل غذاءك دواءك، واكتفِ باليسير من الطعام... أصول الأسقام من فضول الطعام، كما أن الهم يهدم البدن، وعليك بماء الأترج فهو ينقي دمك ويصفيه من الأوشاب".

بدا مرتاحاً كأن زيارتي بحد ذاتها كانت حلاً له بعد أن أشرف على الهلاك، فلمحت الدماء عادت إلى وجنتيه. طلبت من غلامه أن يعد له حساء ممّا تخرج أرض مصر، فبقول مصر مقدسة وورد ذكرها في

القرآن. تلوت عليهم: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

وأضفت متفصحنناً مقطعاً قرأته في كتاب **الفلاحة النبطية**، ورأيت أنه سيفيد في إضفاء سيماء الطبيب العارف علي: "إياك والجمع ما بين السمك والبقلاء، فإنّهما موهنان للعقل ومفسدان لمزاج المعدة، وإياك أن تسرف في البقول، فأبقراط يقول: الإقلال من الضار خير من الإكثار من النافع".

عند باب الخروج أنقدني الجندي صرة صغيرة لم أفتحها ولم أنظر ما فيها، بل التقطتها واضعاً على وجهي سيماء التعفف.

استوقفني بعض الجند وأنا أهم بالخروج، فأحدهم كشف لي عن تقرح في معصمه كان واضحاً الدود داخله، فقلت: "ليس لك إلّا الكي، فابحث عمن يكوي قروحك وستبرأ بإذن الله". أما الآخر، فكشف عن بطن متضخم وكان صفار عينيه واضحاً، فعلمت أنه كسل الكبد الذي يغلب على أمراض أهل مصر، ولمّا لم أكن أعرف له علاجاً ناجعاً، أوصيته بماء الأترج مع مغلي ورق الجوافة. أنا أعلم أن ورق الجوافة لتقوية الباه، ولكن خمنت أن الشهوة هي من أبرز علامات العافية، وهي التي تستعيد طاقات الحياة والخلق للبشر. لذا، حتماً إذا لم تفده، فهي لن تضره.

تملصت منهم بسرعة قبل أن يكتشفوا عجز الطبيب المزعوم، وعدت إلى منزلي قبيل صلاة العصر خشية أن يصطف أهل تلك الحارة أمامي، في حين أن اليوم هو موعد ذهابنا، أنا وعطاء، إلى ابن الهيثم، ولا أرغب من أحد أن يستل حيويتي وتركيزي، فسيحدث الكثير هناك.

***

البيت الذي يقطنه ابن الهيثم يقبع وحيداً فوق تلة لا تبتعد عن سور القاهرة كثيراً. عندما اقتربنا، أخذ قلبي يقرع بشدة وأنا أتمتم في أعماقي أن ما فعلته خطوة خرقاء للغاية، ومن شأنها أن تخلخل نسيج السراة وتشي بهم، فهم لهم قوانينهم المهيمنة الصارمة بالتكتم، لكن لا بأس إن لم يكن ابن الهيثم منهم، فهو لن يفهم مرادي ومقصدي، وإن كان منهم... فسيعمل عقله، ويقدر شوق طالب علم عطش إلى علمه ومعرفته.

عندما لمحنا الحارس مقبلين، هز رأسه بسخريه قائلاً: "في الأمس رفيقكما أقض مضجعنا يسأل عنكما ويطلب مني إحضاركما، فهو يزعم أن له القدرة على الرؤية في الظلمة"، ثم أردف هازئاً وقد ظهر صف أسنانه المصفرة: "ما هو إلّا مشعوذ".

همست لعطاء حانقاً من بين أسناني: "حقاً عندما قالوا لا تنثر الدر عند الخنازير، فهو لا يعي شيئاً عن عقل هذا الرجل العظيم الذي يقبع في الداخل".

وقبل أن نصل إلى الدرجات الحجرية الثلاث التي تصعد بنا إلى الدار، فتح الباب وخرج منه خادمه المسن وفي يده ثلاثة كتب، لكن حينما شاهدنا، توقف فجأة ورمقنا بأعين مستفسرة... فأخبرناه عن رغبتنا في رؤية سيده. لم ينطق بكلمة، تقهقر إلى الداخل فقط وأطبق الباب قائلاً: "انتظروا قليلاً، فهو يود رؤيتكم أيضاً".

وعاشق للكتب مثلي سيلمح حتماً أسماء الكتب بين يديه: **الأصول** لإقليدس في الهندسة، وكنت أود أن أهديه كتاباً مشابهاً ولا أدري هل هي التي ترجمها حنين بن إسحاق أم نسخ أخرى، والكتاب الثاني هو **المجسطي** لبطليموس، والثالث لم أتبينه، لكن أغلفتها الجلدية هي أغلفة مكتبة دار العلوم التي في الأزهر، فماذا تصنع هنا لدى هذا البصراوي السجين؟

المكتبة الأزهرية أقل ما يقال عنها أنها عظيمة، متاحة مباحة شرط ألا يخرج كتاب أو مخطوطة أو حتى رقعة خارج الأزهر إلّا بعد أن يتيقنوا من عودته سالماً إلى رفه، وظلت محتفظة بهيبتها وسمتها ولم يطاولها الحرق والإتلاف؛ يبدو أن شيطانهم قد انشغل بنعال النساء والدمى ومنع الملوخية، وترك العلماء منكبين على مكتبة دار العلم بصمت بعيداً عن اهتمامه ووعيه.

عاد الخادم وأشرع لنا البوابة، وقال: "كنت ذاهباً في طريقي إلى مكتبة الأزهر لأعيد هذه الكتب التي استعارها سيدي، الطريقة التي يلتهم بها الكتب عجيبة فهو يمضي أوقاته يرسل كتباً ويسترد أخرى، ولكن طوال أيام خدمتي له لم أره مبتهجاً كبهجته بحضوركما. لذا، على الغالب سيستبقيكما على العشاء، ولا بد أن أعود سريعاً لأعده لكما".

كنت أود أن أقول للخادم: لم نطلب منك كل هذه المعلومات، لست ملزماً بعشاء لنا، لكن لمحنا البصراوي الحبيس قادماً إلينا مهرولاً وقد مد كفيه الاثنتين معاً للمصافحة.

كنت أنتظر التقاء عيني بعينه، فالنظرة الأولى ستفسر لي كل شيء حول موقفه وجنونه ومعرفته بالسراة، ولكنه حرص على ألّا تلتقي الأعين، قال فقط على عجل: "مرحباً بكما. هلما إلى الأعلى فقد أعددت مدونة الرواتب وراجعتها".

لم نعلق، فقد علمنا أنه عرف مرادنا، وبات يتواطأ معنا، فما كدنا نتوسط الردهة، حتى التفت إلينا هامساً: "دع مدونة الرواتب معي الليلة، فهي ستصبح مسوغاً لحضوركما غداً صباحاً... سأريكما أشباح القمرة، لكن الآن الشمس غادرت موقعها".

في صباح اليوم التالي، لم نجد صعوبة تُذكر في الولوج إلى منزل ابن الهيثم، فبدلاً من نثر الدر عند الخنازير، وضع عطاء في يد الحارس درهمين، فنفحنا ابتسامة ووارب لنا الباب، ويبدو أن كل شيء يروض ويفقد خشونته وحذره بالألفة والتعود.

أذهب الصبح عن ردهة الدار بعض كآبتها، وكانت هناك رائحة خبز ساخن وزع على خوان اصطفت فوقه صحون عسل وزبد وبعض حبات من الفجل والقثاء. كان أبو علي لا يزال سعيداً متوثباً بنا، واسترد حيويته ونحن نشاركه إفطاره، فسألني: "لا تبدو من أهل مصر وإن كانت لهجتك تقترب من البغاددة، من أين أنت؟". فأجبت بعد تردد: "أنا مزيد، مزيد الحنفي النجدي... طالب علم".

فأجاب وهو لا يزال يحدق بي حتى رأيت عروق عينيه المحمرتين: "العلوم... آه نيران أشواق العلم التي لا تطفئها أنهار العالم حتى ترد بصاحبها إلى موارد التهلكة"، ثم همس وهو يمد رأسه فوق الخوان ويقرّبه منا: "هلموا معي فساريكم عجباً".

لماذا لم يشر إلى منزلة بين المنزلتين؟ أتراه لا يعي ما هي أم أن هذا الاحتفاء كان بسببها؟

***

سار بنا إلى آخر الرواق وفتح باب إحدى الغرف المطلة على الردهة قائلاً مع ارتجافة طفيفة في قاع صوته: "صنع الحراس ثقباً في جدار هذه الغرفة ليتلصصوا علي عندما أكون نائماً خشية أن أتظاهر بالنوم وأفر

عبر السطح"، ثم أخذ يربت على موضوع الثقب وهو يقول: "من هذا الثقب تكوّن مخروط الضوء"، وأشار بيده السمراء النحيلة المعروقة: "يمتد من الثقب إلى الجدار المقابل، ويتسع حتى يصبح دائرة ينسكب فوقها الضوء حاملاً سره".

"في بدايات أيام سجني كنت مذعوراً مستوحشاً، وظللت في أحد الصباحات أتأمل خيط الضوء طويلاً، فقد كان هو علاقتي الوحيدة مع العالم الخارجي قبل أن أكتشف أنه أشفق علي وأخذ ينقل إلي صور المارة في الشارع ولكن مقلوبة".

استدارت عيناه ببعض الجحوظ المنتصر، وابتلع ريقه وأكمل كأنه نبي يتلو علينا نبوءته: "من هناك بدأت رحلتي في تتبع انتقال الضوء بين الأوساط الشفيفة والغليظة".

كانت قمرته معتمة لا يضيئها سوى عينيه القادحتين ببريق حاد يخالطه لوثة جنون. اقشعر جلدي ولا أدري لَمَ شعرت أن القمرة كانت محتشدة بأنفاس غامضة وحضور مهيب، رغم أنه لم يكن داخلها سوى ثلاثتنا.

همس وهو يطبق الباب بهدوء قائلاً: "يا مرحباً بالسراة...". ارتعشت أطرافي، إذاً كما خمنت، فهو سريّ أيضاً. خشيت أن يستفسر منه عطاء عن معنى اسم السراة لكنه لم ينتبه، فعطاء رغم ذكائه الشديد، كان كعادته مشغولاً في الطريقة المثلى لإبهار ابن الهيثم بمعلوماته وذكائه.

طلب منا أن نجلس على حصير في تلك الغرفة المظلمة التي طمست نوافذها، وأشار بإصبعه إلى فمه أن اسكتوا، فسيظهر لنا الجني الآن.

ارتعشت أطرافي وضممت ركبتي إلى صدري وقبعت أترقب. خيم الصمت وثلاثة رجال يتتبعون بذهول وتبتل خيطاً ضئيلاً من الضوء يتسرب من ثقب، ثم لا يلبث أن يتسع فوق الجدار.

أول الأمر لم أرَ سوى تلك الذرات السابحة بخمول داخل خيط الضوء، ولم ألبث طويلاً حتى رأيت دويبات بالغة الصغر تومض وتتحرك فوق الجدار كأنها سراب بقيعة، ثم أخذت تتضح معالمها وتطول أرجلها، حتى رأينا غبش عربة وحمار ورجلين، وبقينا نحدق بالجدار قبل أن نكتشف أن ذلك لم يكن سوى طيف الخادم الكهل وعمامته الخضراء قد خرج إلى الشارع جوار المنزل، يجاوره بائع خضار وعربته وحماره، ويبدو أنه كان يتجادل مع الخادم على الأثمان، وظلا يحركان أيديهما لبعض الوقت، قبل أن يلتقط الخادم ما ابتاعه ويقصد المنزل.

فجأة قفز ابن الهيثم من مكانه كقط جسور، وأزال الحصير عن نافذة الغرفة، وفتح الباب، فرأينا الخادم يدخل من بوابة الدار حاملاً بين يديه قثاء وبطاطس.

تقهقرت عمامة أبي علي بن الهيثم إلى منتصف رأسه. كان فاغراً فاه وعليه سيماء ذلك الانتصار المذهول، حتى أنني جفلت خشية أن يكون جنونه قد باغته الآن، لكنه همس لنا: "أرأيتم ماذا يحمل الضوء؟ هو يحمل الكون برمته، يحمل جميع ما يمر به من أطياف، هيئ له متكأ فقط، واجعله يسكب العالم على جدارك". ثم أردف وهو يهز رأسه: "ما من أمر خفف عليّ وحشة السجن ولواعج الغربة سوى مخاتلة الضوء للظل".

كنت أتقافز من الفرحة وإياه شاعراً بنشوة عجيبة، وعندما خرجنا من القمرة، رسم بعصاً على تراب باحة منزله شكل مخروط في قمته عدسة عين وهو يقول: "انظروا هكذا... هذا هو الضوء... في كتب الإغريق".

سألته مبهوراً: "لكن ذلك ما نقله السريان إلى العربية، وما نقلوه بدورهم عن الإغريق، فالإغريق بيننا وبينهم السريان، فما تقول بمعانٍ

متحولة من النقل عن لغة اليونان التي عفّت منذ سنين، وباد أهلها، وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها".

فرد علي ابن الهيثم بعنفوان وقد انتصبت قامته: "ونحن لدينا عقول تفوق ما قالوه، فالضوء ليس مصدره عيوننا كما كانوا يظنون، بدليل أننا لا نرى في الظلمة، لا ضوء خارجاً منّا".

أجاب عطاء الذي كان شديد التعصب لليونان: "يونان وإن بادت مع لغتها، فإن الترجمة حفظت الأغراض وأدت المعاني، وأخلصت للحقائق".

أجاب ابن الهيثم: "حقيقة، إن اليونان قد أخطؤوا عندما قالوا إن الضوء مصدره العين، لكن أرأيت لو كان هناك جذوة تضيء قوافل المسافرين في التاريخ، ستخشى القوافل كلها أن تنطفئ، فسيان مصدر الزيت الذي سيديم شعلتها، كل ما مرت بقوم أو ملة، سكبوا على الشعلة قليلاً من زيتهم لتظل متوقدة..."، ثم تريث قبل أن يقول وهو يهز رأسه: "نعم، المعول أن تظل متوقدة تنير دروب قوافل البشرية".

"قال اليونان في علومهم، فبنيت على ما قالوا، وزدت ما نقص فيها بمقدار ما أعطاني ربي من عقل، وسيأتي من بعدي من يقول على قولي... ويعمر الأرض، فلماذا ننشغل بممالك السماء عن مملكة الأرض، حيث الظلم والجور وسفك الدماء ويد السلاطين المطلقة في العباد؟".

يبدو أن جملته الأخيرة أنهكته واستجلبت خوفه من جديد، فجلس بعد أن ظل واقفاً، وصمت... ولم يحدثنا عقبها قط.

***

قبّلنا رأسه وغادرنا، وكنت أقول لعطاء: "ما نطقه هذا البصراوي العظيم

هي الكلمة الجامعة المانعة، اختصر وأصاب... تلك هي حكمة السراة".

***

في طريق العودة، كنت أشعر بنشوة غريبة؛ هل هي دهشة المعرفة التي تهز أوصالنا، هل لأنني علمت أن السراة لا ينضم إليهم وينساق في دروبهم إلّا العظماء النادرون، وميزني ربي بأن أكون منهم إلى جوار سيد الظل والضوء، ابن الهيثم؟

كان عطاء مذهولاً مثلي، وقد خرج من ذاته المائقة واستغرقه الأمر. حسناً هذا سيجعل من الأمر أسهل بالنسبة إلي.

طلب مني عطاء أن نتنزه قليلاً باتجاه النهر، فماشيته والكون يشرع البوابات، فما كدت أن أقول له: "جذوة ابن الهيثم لا تخصه وحده، بل هي لعموم أهل العدل والتوحيد، أولئك الذين طهروا عقولهم من الخزعبلات والعنعنة، واستبدلوا النقل بالعقل..."، فنبس عطاء مقاطعاً بصوت ماكر: "هل تقصد السراة القابعين في منزلة بين المنزلتين؟".

وقفت وأنا أشعر بخجل شخص بوغت متعرياً... قبل أن يربت عطاء على كتفي بتخابث ويقول: "لله درك أيها الأعرابي، تتسارر أنت وأبي بأحوال السراة وشؤونهم ولا ينقطع السراة عن مجلس أبي، وتظهر خوفاً شديداً على كتب ومقتنايتك كأنها بناتك القُصر، ثم تطلبون مني أن أبقى كالغر الجاهل لا أعي أمرًا!".

حدقت به، فاسترسل: "لم تكن أنت الأول، ولن تكون آخر السراة الذين يمرون بمنزلنا، يا مزيد، لكن ما جمعنا ألفة وصداقة وغواية الشباب وأشواق المعارف... أنت صديقي ورفيقي وعقل يتوقد في ظلمات حيرتي وأسئلتي"، ثم أجابني ضاحكاً وهو يعاود المسير، وكنت قد

توقفت فاغراً فاهي أنظر إليه: "لا بأس يامزيد، سأكون المريد الذي ستدرجه إلى جماعة السراة، وهو الأمر الذي لا أود أن يحدث قريباً، فهذا يعني أنك... سترحل عنا".

هززت رأسي بعجب وابتسمت، وكان هناك سرب من الكراكي يمر فوق رأسينا.

***

شعرت في تلك اللحظة بشوق شديد إلى كهرمانة، شوق يجعلني أعانقها حتى ينفرط عقدها ويتهاوى جدار الصد بيننا.

جلبت رقعة وخططت فوقها أبيات المتنبي:

الحبُّ ما مَنَعَ الكَلامَ الأَلسُنا
وَأَلَذُّ شَكوى عاشِقٍ ما أَعلَنا
لَيتَ الحَبيبَ الهاجِري هَجرَ الكَرى
مِن غَيرِ جُرمٍ واصِلي صِلَةَ الضَنا

إن كانت قد أسرفت في الصد والتمنع، سأبادرها وأقتحمها، وهو الأمر الذي دوماً حذرتني منه خشية أن تستريب العيون حولها، ولكن يجب أن تعرف أنني سأخاتلها وأترقبها أينما مضت.

غليت مريمية وبعض الأعشاب المسكنة لوجع الرأس كما قال لي العطار، وسكبتها في ركوة، وهرعت بها إلى دارة المجذوب.

استقبلني الفتى مبروك عند الباب وأخبرني أن سيده ليس موجوداً، ولعله خرج ينصت إلى إحدى حلقات المسجد، أو أنه يجول بين أزقة القاهرة، أو ربّما هو واقف على بوابة زويلة يرقب الغادين والآتين، ثم

أردف: "خرج يونس لتقصي موضعه، حتماً سيحضران بعد صلاة العشاء ليأوي سيدي إلى فراشه".

ورغم أن مبروك قد دعاني تأدباً إلى الدخول، فإنني اعتذرت منه، فليس من المروءة أن أدخل بيتاً غائب صاحبه. كنت أتمنى أن تسمع أم الولد صوتي وتدعوني لتثرثر وإياي، أو تطلب وصفات نسوية تجملها، لكنها لم تفعل.

قبل أن أغادر، تغشاني شعور غامر بعينين تحدقان بي. تلفتُّ حولي قبل أن أسمع طقطقة النافذة العلوية الخشبية فوق بوابة المنزل.

جلب مبروك كوباً لأسكب فيه المرامية لسيده، وحين هممت بالرحيل، وقفت أرتشف بقايا المريمية في الركوة وأنا أتلصص على النافذة فوقي، فلم ألمح سوى الظلال وطقطقة الخشب.

رجعت من الزقاق إلى منزلي وقد تثقب صدري باللواعج، وغادرتني نشوة الجن الذين يتحركون على جدار ابن الهيثم. هل أشرفت على الحقيقة التي دوماً أجلتها وأهلت فوقها تراب التناسي والتغاضي... هل هي النهاية مع كهرمانة؟

هل قررت أن تختفي؟ كيف سيمر الهواء إلى صدري وهي خالية منه دون غنجها وضحكها وعطرها؟ كنت أظنها متاحة موجودة أزلية كنبع لا ينضب، لكن لماذا أغلقت فوهتها دوني وغطست في الظلمة؟

كم بدت القاهرة موحشة وبدأت أشم في أرجائها رائحة الموتى والدم! منعونا الذهاب إلى المسجد اليوم أيضاً، فستحضر ست الملك أخت الخليفة لتفتح عزاء جماعياً على أرواح الموتى، وستولم لجميع أهل القاهرة.

كنت ألمحها أحياناً عن كثب وهي مسدلة غطاء خارجة من مركبتها القادمة من قصرها الشرقي، لكن القلة التي نالت شرف البقاء داخل

المسجد وقت حضورها تقول إنها عندما تسفر، ينتشر بهاؤها بين الأعمدة والقباب كسدرة من ضوء، فهي لا تبالي بالأحكام التي تقتضي رفض خروج النساء في الليل أو كشف وجوههن خلف الجنائز.

يقول عطاء إنها وحدها التي تبقى كفتى الميزان متعادلة في حكم العبيديين. "أرسلت وزراءها ومناديبها إلى كبار ووجهاء المصريين ملوحة بالوعود والعطايا. قربت أخوالها من المسيحيين والقبط، وجبرت خواطرهم، ووضعت فوق جراحهم بلسم المناصب والهبات، وبثت بين الناس بشارات بالفرج وقرب انقشاع الغمة. ولولا وعودها بانفراجة قريبة، لاشتعلت ثورة عارمة"، ثم أردف بتخابث: "يشيعون أنها تعشقت أحد الوزراء وقربته، بل يقال أنها أدخلته مخدعها فأصبح يدها الخفية، وباتا يحكمان مصر من هناك".

***

ذلك المساء بعد مغادرة ست الملك من الجامع، شاهدت مجاميع من النساء والأطفال وقد خرجوا خلفها من المسجد كشأنهم يوم العيد، وفي أيديهم دراهم فضية، ولوز، وقطع تفاح قد غُمست بالعسل.

ما برحت لفافة أبيات المتنبي في جيبي والوحشة تقرضني.

بقيت في المكتبة أسفل داري. خشيت الصعود إلى أعلى حيث الأرائك والوسائد الماكرة تبدأ تشاغبني، وتنثر في وجهي ما برح عابقاً بها من عطر كهرمانة، ولا قبل لي بهذا، فسينفطر فؤادي.

أريد أن أبحث عن كتاب النظرية اليونانية لكل من أقليدس وبطليموس، وأذكر أنه يتضمن كلامهم عن الرؤية وكيف تحصل من انبعاث شعاع ضوئي من العين إلى الجسم المرئي. أريد أن أتتبع ما خطّأهم به ابن

الهيثم، لعلي أجدهما غداً في مكتبة دار العلوم في الأزهر.

من أين يأتي الضوء فعتمة قلبي موجعة؟ سأدعو غداً عطاء إلى منزلي، وسأطلعه على مجموعتي من الكتب، وليرَ ما يود أن يقتني، وما يود أن يضيف إليها قبل أن أغادر.

لكن، ماذا لو حضرت كهرمانة وهو موجود ولمحت طلعته البهية فأغرمت به وأسرفت في هجري؟ هو سيضع في كيس ديباج ١٥٠٠ قطعة ذهبية وينالها. المجذوب لا يشعر بها حوله، ولن تتردد أم الولد في بيعها، فهي ستغطي مصاريفهم لعام بما فيها إقران حجة وعمرة، وترميم الصهريج في منزلهم.

انتبهت من أفكاري لأكتشف أن العشق يأخذك إلى مشارف السفه والخبل. سأترك الغيرة تقرض صدري، وأصبر كسبع على عضات ابن آوى، فلا أظهر توجعي. الغيرة تحط مروءة السري، أو هذا على الأقل ما سأحاول أن أزعمه أمام عطاء.

***

مصر تغفر وتصفح، وتتوضأ من درن أحزانها. كان هناك رذاذ خفيف يهطل فوقنا، والسماء تعد بالمزيد، حتى إننا اضطررنا لتأدية صلاة العشاء في الرواق الداخلي؛ شتاء مبكر.

في اليمامة، مطالع الغيم يسمونها نوء الوسم، وهنا في مصر كان المطر ينزل فوق ثقوب الدروب التي سالت بالدم والرعب فيغسلها.

قصدت منزلي مع عطاء. كنت أنوي أن أذهب لأبتاع لنا عشاءً لولا أنني وجدت مبروكاً في الباب يحمل بيده قدراً ويقول: "هذه هدية من سيدتي أم الولد، رز وعدس، وزعتها على الجيرة احتفاء بالمطر،

وخصتك أنت بهلام التين، وجواذب سكر".

أبهجني هذا، فهل هو مقدمة لحضور كهرمانة الليلة؟ لم أرد أن أستفسر، طلبت من مبروك أن يهيئ لنا مجلسنا، وأوقدت القناديل، وتركت عطاء يجول بعينيه فوق الأرفف.

قلت له وفي نيتي أن ألمز في علوم اليونان لأسمع تجليات وبروق عقله: "هذه معظمها كتب اليونان، من تراجم بيت الحكمة، لكن الميتافيزيقيا اليونانية ملحدة بطبيعتها وتعتقد بفناء الفرد وخلود النوع".

أجابني: "هل تقصد ما قال شيخنا حول الفارابي؟". ماحكته قائلاً: "لا، الفارابي منشغل بعقيدة الفيض، والعقول العشرة للكون، لكن اليونان استبدلوا الجنة العلوية بمفهوم... العيش الطيب".

أجابني وضحكة خبيثة على محياه: "كلٌ يلزم الحكاية التي تروق له".

لم يكن عطاء بحاجة إلى رفيق، فهو يتصعد في معراج السراة كما الخيل النجيبة، وسأتركه في مصر بين ثلاث أهرامات: ابن الهيثم ورشيد بن علي ومكتبة أبيه.

البقية الآن أن أدس له نسخة من الوصايا السبع.

***

نواح طائر الكهرمان

غادر عطاء بعد أن توقف المطر، ولم أستطع أن أمنع خيبة طفولية ساذجة تملكتني لأن كهرمانة لم تتسلل. كنت أود أن أتباهى بها أمام عطاء: انظر أيها المائق، فهذه الفاتنة تتعشقني!

صعدت إلى السطح فوجدت أن زرابي الشرفة ابتلت والوسائد

تشبعت بماء المطر، فعمّت رائحة القش السطح. أتأمل الجدار الذي كانت تقفز منه قادمة نحوي بلوعة، فرمقني بدوره بكثير من السخرية. المزاريب وحدها ظلت ترسل آخر قطراتها إلى الدروب.

***

اختلسنا زيارة أخرى إلى ابن الهيثم، لكن مزاجه كان معكّراً فلم يبد احتفاءه وترحيبه السابقين. لعله يعالج أقفال اختراع جديد ولا يود من أحد أن يفسد عليه ملكوته وخلوته، خلوة النسور على قمم الجبال وهي تنصت إلى تنفس الكون حوله.

أصبحت وعطاء نمضي الكثير من الوقت في منزلي، ولم تظهر كهرمانة قط... هل انفلتت من يدي مشؤومة الناصية؟

***

لوعتي جعلتني مرة أتجاسر في أسئلتي إلى حد الحمق. فذات مساء سألت مبروك وهو يرفع بقايا العشاء، وقلت له مطأطئاً دون أن أنظر إلى وجهه: كيف هي كهرمانة؟ فهتف بصوت يحمل خبثاً تخالطه دهشة: "من كهرمانة؟".

من هي؟ هل يخفيها عني أم أنني قد بدأت أهذي بها؟

تذكرت فجأة أنها لم تخبرني أن اسمها كهرمانة. قدح عينيها بلون الكهرمان جعلني أطلق عليها هذا الاسم.

كهرمانة وحجرا عينيها كحدقتي نمرة، وعناقيدها المغطسة بالعسل، والمنديل الأحمر هو في طيات فراشي... ذهولي جعل مبروك يربت على كتفي ويقول: "سيدي، هل أنت بخير؟".

قلت: "هل جارية سيدك اسمها كهرمانة؟".

من هناك بدأت الحجب تهطل وتتوارى وتتلاشى، وابتدأت الحكاية يصبح لها لون آخر، ولم تحملني قدماي. جلست، وظللت أسأل... بينما خلع مبروك عمامته وأخذ يحك رأسه، ولم تغادره ضحكته الساخرة، لكنه قال لي مذهولاً: "المرأة التي تصفها ليست إلّا لميس يرحمها الله... ولا يوجد برفقة سيدي الآن سوى أم الولد".

هل لميس/ كهرمانة كانت هي الكراكي التي تطلب الثأر الذي لا يندثر؟ لكن كيف؟ كهرمانة غدير السكر... ورائحة نداها المذاب بالشهوات والعطور في مرقدي لا تكون لشبح أو خيال أبداً، هل من المعقول أن تخطو إليّ من البرزخ ثم تغادر؟ أتحسس جسدي، هل أنا هنا؟ هل ذبحتها أم الولد، ثم رمتها في بئر المنزل، وهددت الخدم أنهم سيلقون مصيرها إن أفشوا سرها؟ أين هي؟

يجب أن أغادر. لا أدري من الشخص القادم الذي سيقذف به في بئر الماء العذبة التي تتوسط بيت المجذوب. الوصية الرابعة تأمرني أن احتكم إلى عقلي وقلبي، وكلاهما يطلب الرحيل.

أنا لا أهذي، لكن من أشرع البرزخ وجلب لميس تصيح كسرب الكراكي وتشي بالقتلة؟

حتى لا أتهم بالهذيان والجنون والشعوذة، يجب أن أصمت وأقبض على جمري ولواعجي. ملكوتنا الجواني نعيشه وتتشربه أرواحنا بوحشة الوحدة، تستمتع بالامتياز والاصطفاء، كحلم إذا باشر الضوء، فسد... لكن أين مضت كهرمانة؟

***

تطلب وداع رشيد بن علي عدة زيارات حتى أستطيع أن أحلحل حبال الود والألفة من أعماقي وأمضي إلى الأندلس مخلفاً ورائي مواجع الفراق.

عند الباب سأقطع وعوداً شتى بأنني سأعود. حتماً سأعود، ولربّما استقررت في مصر... جميع تلك الوعود التي يقطعها المغادرون عادة فوق عتبات الفراق، وعلى الغالب، لا يوفون بها.

في الزيارة الأخيرة، دسست لعطاء نسخة من الوصايا السبع، فيما مرر إلي رشيد بن علي خطاباً مكتوباً بخط منمق على ورق سمرقندي تطبق عليه أسطوانة نحاسية منقوشة صقيلة، وقال لي باقتضاب هامس: "ادفعه إلى بهاء الزمان في المسجد الجامع في قرطبة".

لم تكن الكتب التي أعطاني رشيد كثيرة لكنها ثمينة، أحدها أو أهمها ترجمة ثابت بن قرة لكتاب **المجسطي** لبطليموس.

حتماً سيجد عطاء من يأخذ بيده. أبوه كان راضياً عن أدائي في مصر، فقد وزعت ثلاثين كتاباً، وأنقذت من الحرق أربعين أخرى كانت لدى بعض وراقي الفسطاط. ومع فوضى الحريق، هدد العسكر بحرق كتب المهرطقة التي جلبت الآثام والشرور إلى مصر، فابتعت مجموعة أبقراط والمعلم الأكبر من وراقي الفسطاط، وصففتها في عربة بائع بقولات تحت البصل والقثاء وعروق النعناع، وتسللت بها إلى القاهرة، واحتفظت بها في مكتبتي. علاجي قائد العسكر منحني حظوة استطعت عبرها إطلاق سراح بعض المنكوبين ممن كانوا يأخذون كجماعات ويقذف بهم في السجون بلا ذنب سوى أن منازلهم كانت تجاور السور الذي رفعت عنده الدمية.

ومن شيوخ الأزهر حزت إجازة في علم التجويد والقراءات واللغة والأدب.

لا أود المكوث إلى نهاية العام، فقد قالوا إن الإمام المعصوم، الحاكم بأمر الله، سيحتفي بالمجازين، وسيوزع عليهم الهبات والعطايا. وتذكرت وجهه ورأس النمر الذي يعتم به وهو في طريقه إلى المقطم، وعرفت أن الرحيل هو النجاة.

عدت إلى المنزل ذاك اليوم فوجدته كالقبر. تلك اللحظة فقط اكتشفت ضيق غرفاته وانخفاض سقوفها، والدرجات المتفاوتة في حجمها. هي وحدها كهرمانة كانت تسكب فيه روحها فتضيئه.

ستمضي القافلة فجراً، وظل هناك أمر أخير لا بد أن أفعله: وريقة الجبان، وريقة كتبتها كالعادة بيدي اليسار، وفيها:

> إذا أردتم أن يمضي سلطان العدل في مصر، ففتشوا بئر منزل المجذوب التي وسط داره، واسألوا أم الولد عن السحر الذي قتل لميس.

ثم لففتها بعناية بحجم البنصر، ودسستها بين مصراع الباب الخارجي وحجارة الجدار.

***

أصبحت مصر خلفي. أمضي بدوابي وصناديق كتبي التي لم تعد تفارقني وبت أشعر أنها تلتصق بي كحدبة على ظهري.

قاهرة المعز تفتح أبوابها لأهل الفسطاط والأقباط فلاحي النجوع صباحاً، فيكدون ويشقون بين ممراتها الفاخرة، وتمتص نسغهم وحيويتهم، وفي المساء، تلفظهم وتغلق الباب دونهم.

مصر تستحم من جراحها، وسماؤها تلتمع بالأرجواني، وسلطانها ما

برح يقصد المقطم يسأل النجوم، وجن ابن الهيثم يرقصون على الجدران كل ليلة، والدمى القاتلة، ورشيد بن علي يبقى ثابتاً كأحد أهراماتها حتى لا تميد الأرض بمصر، في حين أنه في بئر داخل منزل المجذوب هناك صبية ذهبية قد غرقت لأنها عرفت كثيراً...

تبتعد مصر خلف ظهري، ولا يظل سوى بريق العقيق.

الفصل الخامس

القيروان

١٥ - ٧ - ٤٠٤

٢٠ - ١ - ١٠١٤

لا أدري هل هو حُسن حظي أو سوؤه ما جعلني التحق بقافلة عظيمة يهابها اللصوص والشطار، ولكنها ظالمة جائرة، مسافروها ما بين تجار وحجاج قافلين إلى الأندلس. يحرسها عشرة من الفرسان وعشرون من الراجلة، لكنها لن تبقى هكذا، فستتفرق شيعاً.

فرع من القافلة سينزل في المهدية، وسيركب البحر من هناك إلى الأندلس، وبعض آخر سيمضي إلى المغرب.

أخلف المعز لدين الله على تونس قبيلة الصنهاجة البربرية. انقرص قلبي بذكرى كهرمانة/لميس البربرية... عطرها وضحكها ومسحوق الذهب الذي ينتثر من جلدها. العقل المتغطرس يحاول أن يقول لي إنها وهم كأحلام غبش الصباح، لكن لا أبالي به. كانت حقيقة كنبض العروق في رسغي وطعم الماء في فمي.

من كتم داءه أعياه شفاؤه

يقول حنين بن إسحاق: "كان منقوشاً على فص خاتم جالينوس: من كتم داءه أعياه شفاؤه". كنت أظن أنني خلفت مصر وراء ظهري، ولم أدرِ أنها تماشيني في دربي، فالهم يفتك بالأعضاء ويقتات على رونق الصبا.

كنت قد رافقت فرع القافلة الذي يقصد المهدية لأستقل البحر منها إلى المرية الأندلسية. فلم تغب شمس اليوم الخامس عشر، حتى أشرفنا على القيروان، وما كدنا ننيخ على مشارفها حتى تمكنت مني الحمّى المهلكة.

تسللت إليّ في البداية على شكل وهن وغثيان حتى اجتاحت جسدي فأخذت أرتعد. لم أعد قادراً على ركوب راحلتي وتوسدت الأرض، وأخذت أهذي ولم أعد أشعر بمن حولي. جوفي فيه نيران مشتعلة، وكنت ألمح غلاماً من خدم القافلة يأتي ويمرر قطعة مبتلة على شفتي ويحاول أن يسقيني سويقة مخففة بماء وبعض العسل. لكن لم أستطع أن أدخل قطرة واحدة إلى جوفي. أخذت أذوي وأتهالك، وعند الفجر، ما بين إغماضة وإفاقة، تبدى لي سهيل الجنوبي يتأملني متفجعاً.

أخذت أهذي بقصيدة ابن الريب وهو يحتضر:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة

بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

أقول لأصحابي ارفعوني لأنني

يقر بعيني أن سهيل بدا ليا

ولكن لم يرفعني أحد من صحبي، بل تشاءم أهل القافلة من نواحي وأنيني، وتبعثروا عني، وسمعتهم يتشاورون هل نيمم وجهه القبلة، أم

ننظره حتى اليوم التالي؟... يبدو أنه يحتضر لنحفر له قبراً.

لا نستطيع الدخول به بمعيتنا إلى القيروان وهو على هذه الحال، فسيمنعوننا ظناً أننا جالبو الوباء إلى مدينتهم.

ارتعدت، لا أود أن أموت هنا في هذه الصحراء. أريد أن أعود. أخذت أصيح بملء صوتي أو هكذا خيل لي: أريد أن أعود، لكن يبدو أنهم لم يسمعونني، فلم يلتفتوا إلي رغم وقوفهم برأسي. وفي النهاية، استقروا على أن يحفروا لي قبراً تحت شجرة طلح كبيرة يسجونني فيه، ويضعون جواري زاداً وماء وكيس دقيق وحراقاً لإشعال النار.

فإذا عتقت من الحمى، استيقظت وتبعتهم، وإلّا سيكون أسفل شجرة الطلح قبري الذي ستسف الرياح الرمال فوقه.

من سيخبر شما الوائلية عني؟ ومن سيوزع كتب الغرانيق؟ أخذت أنشج بصوت مرتفع حتى غبت، ورأيت في المنام شما فوق رأسي تمسحه وتغسلني بماء بئر اليمامة، وهي تهمس: "يا رب الناس أذهب الباس... اشف أنت الشافي...". وظلت شما تغسلني إلى أن حضر تحت شجرة الطلح سبع عظيم، وفرقت فرقاً شديداً منه، وظننته الموت، ولكنه قبع أسفل قدمي يحرسني، فيما أخذ لسان مزيد المهرطق يتمتم بمقولة أرسطو في كتاب **الثالوجيا**: "إنني ربّما خلوت بنفسي، خلعت بدني، وصرت كأنني جوهر مجرد بلا بدن، فأكون داخلاً في ذاتي خارجاً من جميع الأشياء، فأرى في ذاتي من الحسن والبهاء ما أبقى منه متعجباً باهتاً، فأعلم أنني جزء من أجزاء العالم الأعلى الفاضل الشريف".

لا أدري كم من الوقت مضى، ولكن حين تنبهت، لمحت وأنا وسط القبر ظلال بغلي يهز رأسه، وجملي يرغي، مربوطين بجواري، والقافلة قد غادرت، فذهبت في غفوة طويلة أخرى.

فلم أتنبه إلّا على امرأة مبرقعة تحوم حولي وتطل علي، فلمّا تحاملت وخرجت من قبري وجلست على حافته أحدق في قاعه بوحشة، تجاسرت واقتربت مني. راعية غنم بدوية تسكن قريباً من هنا حاملة بيدها جرة صغيرة. قالت: "لا بأس عليك، اشرب من هذه الجرة، وستبرأ وستدخلك العافية بإذن الله، فهي من عين بروطه، ويسمونها زمزم القيروان، لأن عروق البئر تتصل بعروق زمزم في البلاد المقدسة، وماء زمزم لما شرب له".

أصابتني الدهشة، هل قدمت أيضاً هذه الراعية البدوية من عند شما الوائلية؟ فعندما كنت أغيب عن الوعي، كان الهواء حولي يفوح برائحة زهر تلال الربيع.

توضأت وصليت، وتفقدت متاعي وصناديق كتبي، فوجدتها قد سفها التراب، ولكنها ما برحت مغلقة ومفاتيحها معلقة في صدري، فعدت لأنام. لم أستيقظ إلّا بعدما استوت الشمس في السماء وأنا أشعر بجوع شديد لكل شيء: الطعام والحركة... والحياة.

المعين

دخلت القيروان وقد أخذ مني المرض والهزال ووعثاء السفر كل مأخذ، فباتت العيون تتقحمني بفضول، لكن الدراهم التي في حزامي أمنت لي غرفة أريد أن أمكث فيها إلى أن أسترد عافيتي تماماً.

طرق بابي عصر اليوم الأول الذي وصلت فيه فتى بوجه طويل وضيء مستدق الملامح، وله وجه يشبه الأرنب، وعينان واسعتان على جانبي وجهه، وأسنان بارزة، فقال: "أنا معين"، فقلت له بوهن وملل: "معين،

من ستعين يا معين؟".

وانطلق يهدر: "أحد أفراد القافلة التي كنت معهم، خاف الله فيك، وأحس بتأنيب وندم، لأنهم حفروا لك قبراً دون أن تموت، ودلني على مكانك وطلب مني أن أتفقدك وأطعمك وأسقيك، ونفحني ديناراً ذهبياً مقابل هذا، وذكر لي أنك عالم قادم من جزيرة العرب، ورأسك مليء بالمعارف والعلوم، وصناديقك تزدحم بالكتب، فإذا أحسنت إليك واهتممت بتطبيبك، لربّما أخذت صنعتك وطرفاً من مجدك، ومن الممكن أن تصحبني إلى الأندلس كغلام ومعاون لك".

فطلبت منه أن يدخل لأصمته، ففرح واستبشر، وقلت له لما صرنا وسط الدار: "لكن أين كنت؟ لماذا لم تأتِ؟"، فأجاب من الفور: "لم يعلمني الرجل عنك إلّا البارحة، وذهبت للتو إلى شجرة الطلح فلم أجدك، ولكن وجدت راعية غنم أخبرتني أنك قد تعافيت وامتطيت دوابك ودخلت القيروان، فعدت القيروان أتقصى عنك، حتى وجدتك".

رحبت به بعد أن جعل حضوره النشط نصف همومي تتساقط. له ضحكة مجلجلة منعشة جعلتني أسأله معابثاً: "اسمك مُعين بضم الميم من العون، أو مَعين بفتحها وهي التي تدل على موضع نبع الماء"، فقال: "ادعني ما تشاء أيها العربي، فأنتم النبع"، عندئذ، عرفت أنه يعرف عني بعض الشيء.

"ولكن اسمي: مَعين الصنهاجي"، وأخبرني أن هناك امرأة في آخر السوق لديها عشة تربي فيها الدواجن، وتبيع البيض والدجاج، كما أن لديها حليب ماعز وتمر، وأضاف بتأدب: "هذه الأطعمة هي جل ما تحتاجه لنقاهتك، فجسدك واضح الهزال".

وما بين ذهابه وإيابه لحظات قصيرة أمضيتها مستلقياً على فراشي قبل أن يدخل وقد جلب فاكهة ولحم الدجاج وهو يتلو: "فاكهة ولحم طير

مما تشتهون... لتستعيد عافيتك، هيا، ماذا تفعل فوق فراشك؟ فهناك الكثير ينتظرك في الخارج".

لم تكن الفاكهة ولحم الدجاج ما أعاد عافيتي فقط، بل كان ماء الشباب في العروق. الشباب خير ترياق عرفه البشر ضد المرض والوهن.

لم يمر بي أكثر دناءة وخسة من أصحاب القوافل، فقائد القافلة كان يريد أن يتخلص مني بأي وسيلة خشية أن أكون حاملاً وباء معدياً، فيجتاح قافلته ويمنعه دخول القيروان، وأصحاب المراكب ليسوا بأفضل منهم؛ هم حذرون في اختيار ركابهم على ما سمعت، وأي شخص تصيبه حمى لا يترددون في قذفه إلى البحر.

إنها الدنيا أم البراقع، في كل مرة تنزع برقعاً لترينا وجهاً يفوق في دمامته سابقه.

ولدتني شما الوائلية مرة أخرى بجانب ذلك القبر. عدت إلى الحياة من جديد بأحزان شيخ وإهاب شاب فتي. عدت وقد خلفت همومي في القبر، وخرجت نحيلاً خفيفاً متعطشاً للينابيع. ولعجبي خرجت من القبر وقد غابت عن ذهني تماماً لواعج فراق مصر، وشوق كهرمانة، وحديث الكراكي!

تقشر عن جلدي وتساقط، وظل في قاع القبر تسفها الرياح، مخاض منهك مهول تطلّبه خروجي من مصر... وخروجها مني.

***

كان أول خروج لي من الدار هو الذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة. أخذ معين يناديني باسم الطبيب العربي. لذا، غادرتني الحمى ولصق بي اسم الطبيب، فيأخذ أهل القيروان في تفحصي، فلا يجدون في ملامحي

حكمة الشيوخ أو وقار العلماء. لم يكن هناك سوى فتى عربي تبرق عيناه من تحت أهدابه الطويلة إذا مرت به النساء.

كان الأذان بولاية علي، ودعا الإمام للخليفة الفاطمي، والوالي الصنهاجي الذي خلفه، وعدا ذلك، لم أشهد مما يدل على تشيعهم لآل البيت.

بعد صلاة الجمعة مكث بعضهم في مسجد القيروان، وأخذت الحلقة تتسع وتكبر حول شيخ يدعونه أبا إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، ولزمه خلق كثير جلهم فتيان يدونون كل ما نطق به بتبتل وحرص.

كان يتحدث عن علم العروض والعلل والزحافات التي تصيب أبيات الشعر.

لم أمكث طويلاً في حلقته، فلم يكن فيها ما يفوق ما تركته في الأزهر، فخرجت أتقصى أحوال القيروان. وجدت أن معظم من غادر المسجد بعد صلاة الجمعة قد ذهب إلى مقام الصحابي أبي زمعة البلوي.

***

المقام ينتصب قريباً من المسجد الجامع بقبة زرقاء شاهقة، وضريح زين بفسيفساء زُخرفت برسوم طيور على رؤوسها تيجان ذهبية.

يخرجون من الجمعة للسلام عليه والتضرع عنده في رفع البلاء، ودفع المصائب وجلب الرزق، فهو الولي والوسيلة، الذي يحتفظ بثلاث شعرات من لحية الرسول الكريم، إذ يقولون إنه كان حلاق الرسول عليه الصلاة والسلام.

تذكرت قبر القرمطي، والأهرامات... لماذا يتركون الحياة ويلوذون

بالموتى ليحلوا لهم أحزانهم وآلامهم؟ هل الموت قاضٍ عادل؟

لم استوقفتني القيروان، فقد كنت أقصد مرفأ المهدية؟ ما الرسالة التي تريد أن تخبرني بها، أم منحتني معيناً؟

أهلها يتحدثون بالرطانة نفسها التي كان يتحدث بها الكتامة عسكر القاهرة، ولكن إن صادفت من يتحدث العربية، أدهشتك فصاحته وبلاغته. لا أعرف أحداً من سراتها، وفي هوائها نكهة شهية لذيذة كرائحة حلوى التمر. سأجوب مساجدها ومكتباتها وأجلس إلى حلقات شيوخها بضعة أيام حتى أسترد عافيتي تماماً ثم أواصل المسير.

كتبهم لم تكن متاحة للجميع، فقد كانت توضع في خزائن بواجهات مزخرفة داخل المساجد لكنها مغلقة بقفل، ولم تكن مصفوفة فوق الأرفف عدا بعض كتب الأخبار، ومدونات السير.

***

لبثت في القيروان ما يقارب الشهر، ثم أخبرت معين كي يشرع في ترقب القوافل بحثاً عن أنسبها سعراً لنستقلها إلى المهدية.

والحقيقة، كان معين يبذل كل ما باستطاعته كي يقنعني أنه مفيد لي بصورة أو بأخرى؛ قليل الكلام مهذب لا يتكلم دون أن يسأل، وإذا تكلم، قدم كلاماً منمقاً يدل على ذكاء ولماحة تتجاوز عمره. ولم يسألني عن صناديق الكتب رغم تفطنه إلى حرصي واهتمامي بها حين أفتحها وأقلب محتواها.

كان يعتقد أن الحديث مع أعرابي قادم من جزيرة العرب هو الحل للكنته البربرية. للحقيقة، وجوده كان يؤنسني... ولا أدري الآن وأنا في حالة النقاهة. لكن ماذا عن مرافقته الدائمة لي كرفيق ومعين؟ فدوماً استطبت

وحشتي ووحدتي. على كل حال، لم يكن وجود معين ضاجاً بل مؤنساً.

لولا خصلة غريبة فيه تظهر في الحديث عن أحلامه وأخيلته، فقد أخبرني عن الشخوص المتعددين الذين كانوا يتلصصون علي أثناء نومي العميق إثر المرض، والأسد الذي أقعى أسفل أقدامي، أو الرجل الأصلع الذي يحمل بيده طبلاً ويطل علي من خلف باب موارب، أو السيدة التي لمحها تقطع الغرفة من أقصاها إلى أقصاها وهي ترتدي وشاحاً أصفر منقوشاً بالزهور، فتنتشر رائحة أزهاره في المكان.

وعندما لمح عيني تبرقان بالسخرية، قال لي: "هو أمر معروف لدينا هنا يشبه الكرامة في القبائل الصنهاجية".

شعرت أن لدى معين الكثير من هذه الحكايات، ولكنني لذت بالصمت، فلا أريد المزيد من طيور الكراكي أن تحط فوق سطح منزلي من جديد.

***

اتفق معين مع قافلة لتوصلنا إلى ميناء مدينة المهدية، ومن هناك نستقل البحر إلى المرية الأندلسية.

كم كنت أرجو قافلة برية تأخذنا إلى مشارف جبل طارق، فيكون وقت مكوثنا في البحر قصيراً؛ أخشى أياماً سأمضيها من المهدية إلى المرية فوق هذه الأرض الزرقاء الرجراجة الماكرة. أنا ابن الصحراء، وحدها الرمال تحتضن أقدامي وتدفئها.

لكن يبدو أن لمعين رأياً آخر، فهو يرى أن الطريق البحري أسرع وأقل كلفة.

***

حين وصلنا المهدية، وجدناها ساجمة واجمة كالثكلى، يحتضنها البحر من جهاتها الثلاثة، ولا يوصلها بالبر سوى برزخ من الجهة الغربية. ينسكب فوق طرقتها غلالة حزن النساء المهجورات رغم ضجيج البحارة والمسافرين وأصحاب الحوانيت حول المرفأ.

السفينة التي سنستقلها إلى المرية اسمها الناجية، وجل المبحرين فوقها من التجار، فهي سفينة هائلة ناقلة بضائع ومؤن. وقفت على المرفأ أتامل معين وهو ينقل أمتعتنا على متنها مع أكياس امتلأت بالقمح والقُنّب والقرفة. كانت تخزن وتتراكم في مستودع السفينة، وقلبي يدق فزعاً؛ كيف ستبحر هذه الدابة العظيمة وفي جوفها كل هذه الأثقال؟

وحينما تأكد معين من نقل أمتعتنا وقمرة مكوثنا داخل السفينة، عاد مبهور الأنفاس وهو يقول: "إبحارنا غداً فجراً".

***

الناجية

تركت المهدية وما برحت ساجمة واجمة، لكن عندما يلتهم البحر الجهات الأربع ويحدق بك متعجرفاً متربصاً، لا بد للصحراوي أن يداخله فزع ووحشة عظيمان.

النهر في بغداد والقاهرة ينساب بين ضفتين رقراقاً كأنه نسمة هواء منعشة تمر بين عاشقين. يحمل المراكب الصغيرة، ويُحيي البشر، وينصت إلى شجواهم. يغسل أحزان النهار بنسيمه فتصبح المدن النهرية ودودة متعطشة دوماً للهوى، ومخصبة بالطمي الحار الذي يشبه نفثة الخلق الأولى.

لكنه البحر، لم أصادقه ولا أظنني سأفعل ذلك. نبحر فوقه كأننا مجموعة أقزام مذعورة تدب فوق جسد مارد متماوج مزرق، لا نعلم متى سيستيقظ فجأة ليلتهمنا.

قمرتنا فوق المركب لها نافذة على الدكة. سنمضي فوق المركب من أسبوع إلى خمسة أيام، ما بين المهدية والمرية، وفق مزاج البحر، وسنرسو في بعض المدن. قد يصعد مسافرون جدد، وقد ينزل بعضهم في الموانئ، وسنظل بين يدي هذا المخلوق المَلْح المتجهم أياماً بلياليها.

وقفت على الدكة أحييه وأتأمله، فما كان منه إلّا أن لطمني على وجهي بموجة مَلْحة أغرقت خياشيمي ووصلت قاع رأسي.

في الليلة الثانية أيضاً، لم يكن النوم يسيراً، فقد ارتفع هدير الموج إلى درجة أخرجتني من قمرتي مستطلعاً، وفي الخارج، كان القمر يمارس لعبته المفضلة في نبش اللواعج واستدناء الشجوى، وقد استدرج بعض المسافرين أيضاً، منهم اثنان من التجار الأندلسيين اعتادا أن يسافرا بكم هائل من المسك والعود وصناديق الدارصيني إلى الأندلس. ما جلبوه من بضاعة تجاوز الحد المتاح لكل مسافر فوق المركب، وهددهم القبطان الشرس بقذف الزائد إلى البحر، فسلامة الناجية لدى القبطان جل ما يأبه له، وكل يوم يضع آنية من سمن وأرز على الدكة طعاماً للملائكة التي تحمي المركب.

وأمام حيرة التاجرين وتصلب القبطان، كان لدينا في قمرتنا حيز من الممكن أن يحمل بعض بضائعهما منحناه لهما بطيب خاطر. ورغم أن قمرتنا تكدست بصناديقهما الزائدة قبل أن نبحر، فإن مقدار الامتنان الذي أبدوه يستحق هذه التضحية، كما أنهم أصبحوا ينادونني الشريف العربي، فأشعر بالزهو مطمئناً نفسي إلى أن الإكثار من الإخوة والأصدقاء

في بلد غريب حكمة، فلا تدري متى تكون حاجتك إليهم.

***

كان القمر يتكسر فوق صفحة الماء وأنا أقلب بوصلتي وإسطرلابي محاولاً تتبع النجوم والمسارات، فيما أخذ التاجران يذمان القبطان الجشع القاسي ويحلفان أنّهما لن يرافقاه في رحلة قادمة مستقبلاً... هذا قبل أن نبدأ سماع صياح النساء. تلفتُّ مذعوراً حولي بحثاً عن مصدر الصوت قبل أن ألمحهن.

بدَوْن على وجه الماء حاسرات بشعور كثة طويلة تبرق تحت ضوء القمر وهن يلوحن بشدة ويستغثن. أصواتهن عجيبة، لها بغبغة وصياح كأصوات النوارس. كن ثلاث نسوة تصعد وتهبط بهن الأمواج، عاريات الصدور، وشعورهن الطويلة تسبح بجوارهن، اقتربن من المركب حتى أنني ميزت ملامحهن، من أين حضرن؟

صحت مفزوعاً من قعر حلقي: "توقفوا... توقفوا... هناك غرقى".

تضاحك التاجران الأندلسيان بعدما تفرسا في الماء موضع النساء الثلاث، وقالوا: "لا، لا، على رسلك وهدئ من روعك، دعك منهن، هؤلاء السيرينات، شيطانات البحر، يلوحن للبحارة الوحيدين الذين أمضوا شهوراً في البحر بلا نساء، فتغويهم كغريقة، ثم عندما تستدرج البحار لإنقاذها تسحبه إلى أعماق البحار، وتولم به لأهلها".

اقشعر جلدي؛ تذكرت جنيات اليمامة اللواتي يخترن فتى يتعشقنه ويطرن به فوق جذع نخلة إلى عمان، ولكن جنيات جذوع النخل لا يتبدين إلّا للذين نسوا صلاة العشاء، في حين أن السيرينات يراهُن الجميع ويلوحون لهن.

فجأة اقترب أحد التاجرين من حافة الدكة، وأخذ متهكماً يقلد أصواتهن، ثم يلوحِ لهن بإشارات بذيئة بأصابعه، ويبصق عليهن، فما كان من إحداهن إلّا أن لطمته بقنديل بحر لزج على وجهه.

عندذاك، أقبل من آخر المركب أحد البحارة غاضباً وصاح به: "لا تمازحهن أو تُثِرهن، هن شيطانات البحر، قد ينقلب غضبهن على السفينة وركابها جميعهم".

ولأنني وديع لم أعتد أن أؤذي مخلوقاً، بت أخرج كل ليلة إلى الدكة أتأملهن، وفي نيتي أن أنشدهن خلسة ما كان من أمر كهرمانة. لكن عندما يلمحني أحد البحارة، يطلب مني أن أسد أذني بالقطن، لأن غناءهن مغوٍ يسلب اللب ويجعل البحارة يتقافزون نحوهن بلا إدراك.

بقين يطفون بصدور مشرئبة وشعور طويلة كأن فوقها نثار ملتمع، وأذرع لامعة مفتولة، في حين أن أعينهن المتسعة تبرق بالشهوة.

***

كم يتربص بنا هذا البحر بالعجائب والمتع، وبالأهوال أيضاً، ففي اليوم الرابع لإبحارنا، أصبحنا على رياح قوية محملة برذاذ مطر كثيف، تمايل إثرها المركب وتبعثرت أغراضنا. خرجت من قمرتي أشعر بغثيان وخطواتي تتعثر فوق المركب، وأكاد لشدة خوفي أن أغيب عن الوعي، فوجدت البحارة غير مبالين. أما القبطان، فتمسك بأحد الأعمدة بشدة. يداه كبيرتان وقويتان، وشفتاه تتمتمان بالأدعية. كان أربعينياً وعيناه ضيقتان مقطبتان تغوران بين ثنايا جلده الذي لوحته الشمس.

اقتربت منه مستفسراً وقد جمدني الرعب. تفحصني لوهلة قبل أن يبدأ إخباري بصوت مرتفع يحاول أن يجعله يعلو على صوت الرياح ورذاذ

المطر: "لا تخف، نحن مررنا فقط فوق قبر الرجل الصالح الذي دفن في البحر، ولا بد أن نترحم عليه وندعو له. اسمه السري السقطي، من أتقى وأصلح أهل زمانه، حتى أن الدنيا كانت تأتي له على هيئة عجوز، فتكنس بيته وتحمل إليه في كل يوم رغيفين، ومن كراماته أنه مات فوق مركب، فجهز فوق المركب وصلوا عليه، وأرادوا إلقاءه في البحر، لكن جف البحر فجأة، ونزلت السفينة، فحفروا له القبر ودفنوه، فلمّا فرغوا، استوى الماء وارتفع المركب".

كانت أمواج البحر قد بدأت تهدأ وتوقف المطر، وأخذ المسافرون كل يطل برأسه من قمرته وقد اصفرت وجوههم من الذعر.

عندذاك، صاح القبطان بصوت عالٍ: "اطمأنوا لقد تجاوزنا قبر الرجل الصالح أبي الكرامات، ولكن أعظَم الكرامات التي من الممكن أن ينالها بنو البشر هي أن يكرمك الله بإبدالك خُلقاً مذموماً من أخلاقك بآخر حسن، فلا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع".

ظلت حكمة القبطان تتردد في رأسي طوال ذلك اليوم، فهي كحبة الجمان التي دسها في يدي. الحكمة ضالة المؤمن، حتى لو كانت من هذا القبطان البدائي الشرس ذي العينين الناريتين، لكن ما الخصلة التي داخلي وأدعو الله أن يكرمني بإبدالها... هل هي العصيان؟

الفصل السادس

مرآة المرية

بعد صلاة الفجر ظهرت أولى علامات أرض الأندلس، نادى الرجل الذي في أعلى السارية قائلاً: "رحم الله كل من قال: الله أكبر! إنها المرية"، فأخذ البحارة ومن خلفهم المسافرون يرددون: "الله أكبر... الله أكبر"، وهم يتباشرون ويتعانقون، بل إن بعضهم أجهش بالبكاء.

حينما اقتربنا من اليابسة، ومض ضوء ساطع من برج يشرئب فوق التلة التي تطوق الميناء. كان يبدو كاحتدام قطعتي مرو هائلتين. همس لنا أحد البحارة: "المرية ثغر من ثغور المسلمين، يعلنون السفن القادمة بانعكاس الضوء على المرايا، فوميضان للسفن التجارية، في حين أن أربعة هي سفينة مهددة للأعداء، ووميضان ثم سكون فوميضان، هي سفينة مشكوك في أمرها، فليتفطن الحرس".

"أما إذا أصبح الوميض متصلاً لا ينقطع، فالنورمان المجوس قد هجموا، فيقرع الجنود الطبول ويشعلون النيران".

تكمن المرية بين جبلين وبينهما سهل معمور. نزلناها قبل أن نصل إلى يابستها، فبيوتها وشوارعها ونخيلها انعكست على البحر الذي ينداح أسفلنا كالمرآة الهائلة، إذ يرى القادم شوارعها ومآذنها حتى دوابها

تمضي على الطرقات منعكسة فوق صفحة الماء.

هي مدينة غارقة أسفلي وأنا ذاهب إلى حلمها.

***

بقينا في المركب كما طلب منا حتى يحضر بعض الجنود من اليابسة لتفتيشنا، وللتأكد من أننا لا نحمل أسلحة أو أوبئة.

لم يقترب منا أحد طوال الصباح والظهر. فالميناء كان مزدحماً بالسفن. مكثنا فوق دكة السفينة إلى بعد أذان العصر، ثم اقترب مركبان يقلان بعض الجنود وشمس العصيرة تلتمع فوق رماحهم.

طريقة تجديفهم وليونة أذرعهم وحذاقة لفهم الحبال الصاعدة إلى مركبنا تشير إلى أنهم أبناء بحر عريقون، وخشيت أن يفتشونا بقسوة ويفرضون الباهظ من المكوس، فالمركب قادم من المهدية، وذاكرتهم ما برحت مليئة بندوب الفاطميين وهجماتهم المتصلة على المرية.

وأي من قدم من هناك فهو في محل ريبة. خفق قلبي بعنف؛ الكتب، هل سيطاولها التدمير أو الشكوك؟ جعلت فوقها صناديق التاجرين. كان في أحدها بخور هندي أزرق ثمين، والأخرى كانت صناديق خشبية رديئة الصنع عبئت بالزبيب.

ومن ينال هذين، لن يفكر بالكتب، فهم يأخذون مكوساً في الأندلس نصف العشر، وعلى الخمر العشر، ولكن ماذا عن الكتب؟

لحسن الحظ، بسبب احتشاد الميناء ووصول العديد من السفن في وقت واحد، أُنهك الجند. كان معظمهم من الصقالبة بيض الوجوه، وحمر اللحى، وبقلنسوات مدببة وأوشحة خضراء. بعد انتهائهم من

التفتيش تريثوا قليلاً ينتظرون انتهاء مندوب بيت المال من جباية المكوس من التجار، ثم ما لبث أن صاح بهم قائدهم: "اصطفاف!"، فاصطفوا على الدكة. أكتافهم مشدودة وذقونهم مشرئبة، وتتابعوا في النزول عن المركب عبر سلالم الحبال، فيما جلس طبيبهم فوق أحد صناديق المركب بجوار الحبال، فلا يغادر أحدنا قبل أن يجس حرارته ونبضه، ويشم فاه، ثم يدمغه بختم على ظاهر يده. عندئذ، يسمح له بالنزول إلى المركب الذي سيقله إلى اليابسة.

ما كاد الجند يبتعدون مسافة قليلة عن السفينة، وكان قد خرج معظم الركاب إلى الدكة، وطويت الأشرعة، حتى انطلقت نحونا عشرات من المراكب الصغيرة، فوقها بحارة مفتولون عاريو الصدور، يرتدون سراويل بيضاء واسعة، ويضعون فوق رؤوسهم عمامات لُفّت على عجل. يجدفون بسرعة ويتسابقون نحو مركبنا، وعندما بدؤوا رمي سلالهم وحبالهم على مركبنا، صاح بهم قبطان المركب بشراسة: "رويدكم! تمهلوا انتظموا! لن ينال أيّ منكم حمولة دون انتظام".

تخلى القبطان عن الثياب الرثة التي كان يرتديها ونحن في البحر، وارتدى جلباباً حريرياً وفوقه عباءة مسبلة من الديباج المقصب. وقف مشرئباً طالباً من بحارته السيطرة على فوضى الحمالين الذين تقاطروا على السفينة وهو يقول لنا: "هؤلاء من سينقل حاجياتكم إلى البر، وسنبدأ تفريغ السفينة عبر الحمولات الصغيرة... ولأن غالبية المسافرين من التجار، الذين يحمل كل منهم ما يزيد على عشرة صناديق، سنؤجلهم إلى الغد، أما ما دون ذلك، فليتقدموا للنزول".

هرع معين ورأيته يجاور القبطان، ويهمس في أذنه بأمر، فالتفت إليه القبطان بنظرة شزرة متقحمة من عينيه الضيقتين في البداية، لكنه للعجب

أشار بيده إلى أحد البحارة، فصفر وابتدأ أصحاب المراكب يصعدون على سلالم الحبال التي طوقت السفينة، وما إن أطلوا برؤوسهم، حتى هرع إليهم معين يفاوضهم، حتى قبل أن يضعوا أخمص أقدامهم فوق سطح المركب.

حادثهم برطانته في البداية، وعندما لم يميزوا حديثه، تحدث العربية إلى أن أتاني في النهاية متلهوجاً متحمساً يقول لي: "جميعهم يطلبون في تنزيل الصناديق عشرة دنانير لكل صندوق خمسة". أبت نفسي أن أفاصل بالسعر، فأنا الآن سيد، ولدي غلام يقوم على خدمتي، ويجب أن أتصرف كالنبلاء.

تقدم منا يافعان حافيان حلقا شعريهما تماماً حتى التمع رأسهما مخضراً، عضلاتهما بارزة، وأكفهما ضخمة بعروق نافرة. يبدوان كمخلوقي بحر خرجا من بين الأصداف للتو، فسلما بحماسة لا تشوبها توجس الغرباء وهما يسألان: "هل أنتما من المهدية؟".

فأجابهما معين: "نعم، ولكن سيدي من جزيرة العرب".

برقت عيونهما فرحاً: "من أين؟". فأجبتهما بحذر: "حنفي من اليمامة"، فرحبا بي بكلمات تتقافز كالصهيل من أشداقهما، وقالا: "نحن من قضاعة اليمن، والقضاعيون هم الذين أسند الأمويون إليهم حراسة هذه المنطقة وعمارتها بما لديهم من خبرة ملاحية قديمة في المشرق، ولذا سميت المرية بأرض أهل اليمن، أي عطيتهم وإقطاعهم".

كانا خلال حديثهما يربطان الصناديق بالحبال بهمة ونشاط، ويدفعانها لتتزحلق فوق الألواح الخشبية، التي اصطفت على حافات السفينة إلى قاربهما، فلمّا استقرت الصناديق هناك، تبعناها، أنا ومعين، منحدرين على سلالم الحبال. الشاطئ ليس بعيداً عن المركب، وإن

أظهره ماء البحر كذلك، فلا يزال هواء البحر لزجاً ملْحاً على جلدي، لم آلفه... ولن.

***

خلّفنا هدير البحر خلفنا ورائحة مطر وغيوم تتجمع فوق رؤوسنا، وصياح المراكبية، وطيور البحر. وصلنا اليابسة وبنفسج المغيب يبرق فوق منازل المرية الهنية. تتصعد بيوتها متدرجة فوق جبلين. حجارتها بيضاء ونوافذها بلون الموج.

التفتُّ إلى معين فوجدته منشغلاً في مجادلة بائع أحذية وأخفاف، ثم هرول لي وقال: "سيدي، لا بد أن نقتني حذاءين جديدين تفاؤلا بالأرض الجديدة التي ندوسها".

معين دوماً لا يعدم وسيلة يستخرج بها المال المكتنز حول حزامي.

من الخطوة الأولى داخل هذه المدينة، تغشاني مزاج حلو عذب كحضن فاتنة، في حين أنني مأخوذ أقلب وجهي وأنتشي. رأيت عينا معين تتعلقان بوجهي بسؤال: "ماذا الآن؟".

مع معين تغيرت الأمور الآن، فطوال عمري تعودت أن أسير على ضفاف الدنيا ولا أقتحمها، ولا أبادر ولا أتخذ قراراً. أترك الأيام تلوح بي، لكن معه بصحبتي صار يتحتم عليّ أن أتخذ قراراً، وأن يكون قراري صائباً مقنعاً يليق بسيد. لا أود التصدي لهذا؛ أريد الفتى مزيد النجدي الطليق المحلق الذي يرقب ويخاتل بحذر قبل أن ينقض. ولكن عيني معين المستفسرتين المعلقتين بوجهي جعلتاني أقول: "يجب أن نجد نزلاً نقيم فيه. سنمكث في المرية بعض الوقت قبل أن نكمل إلى قرطبة".

في النهاية، قررنا أن نكتري عربة لحمل أمتعتنا، ثم نمضي إلى السوق،

فهناك ربّما تتفتح لنا أبواب لم نألفها.

يهطل المساء على المرية بوداعة غريبة كأنها يد أب يداعب ابنته التي ظلت تنتظره طوال النهار.

وبين احتدام الألوان وهدير الأصوات، لم أجد مزيد النجدي... ولا أدري متى سألتقيه.

***

تكثفت الغيوم حولنا، وبدأت الدنيا ترعد وتبرق، ما جعل معين يسرع في البحث عمّن ينقل أمتعتنا، والسماء بدأ يصيب رذاذها وجوهنا. تأملت وجوه حمالي الأمتعة حولنا: لم تكن مريحة، كانوا كمجموعة من الحداءات التي تترقب من أين تنقض على فريستها.

في النهاية، استطاع معين الحصول على عربة مهلهلة يجرها بغل هرم ومتعب أشفقت على رأسه المطأطئ بالعبودية الأبدية التي لا انفكاك من قيدها إلّا في القبر.

لماذا أشعر بالأسى على مصير البغل؟ كم حاولت طوال التنقل والترحال أن تصبح علاقتي مع الأشياء مؤقتة وطارئة وخاطفة لا أعطيها إلّا جزءاً يسيراً من قلبي خشية أن يتشتت وينفرط فوق الطرق وعتبات المدن! لكن عبثاً أحاول!

***

ما إن أخذت العربة تتصعّد بنا في دروب المرية، حتى أخذ النخل يغني! التفت إلينا سائق العربة متسائلاً: "هل أنتم سيارة طارئون أم تجار مقيمون؟".

كنت حذراً في إجابتي جداً، لأنها ستحدد النزل الذي سيقلنا إليه وينال به إكراميته من صاحب النزل... أنا وصناديقي الثقيلة المريبة وغلامي المتأنق المشرئب الرأس دوماً. فأجبته: "الآن نبحث عن سكن مؤقت، ولنا أهل ومعارف ينتظروننا في السوق الكبير"، محاولاً أن أبدي له أن لنا عزوة وقوماً.

ظلت العربة تخب بنا متصعدة ورذاذ المطر يزداد فوق رؤوسنا حتى وصلنا ساحة جزء منها جُعل لبئر وحوض هائل تشرب منه الدواب، ومقابله بعض الحوانيت التي أخذت بإغلاق أبوابها وإدخال بضائعها عن المطر، فواصلنا الصعود.

كنا نترقب توقف المطر، وبدلاً من هذا ومض برق كثيف وفرقع الرعد بصوت هائل، ولم يلبث أن أخذ المطر ينهمر بشدة في الدروب، فخشيت أن تنزلق بنا العربة إلى أسفل البحر، لكن السائق ضرب بسوطه البغل المسكين، فتحرك حتى لاذ أسفل شرفة أحد المنازل، وكمنّا هناك نترقب هدوء المطر، فيما يتلفت السائق إلينا باسماً ويقول: "لم تنل المرية نصيبها من المطر هذا العام، يبدو أنكما أحضرتما الغيم داخل عباءتيكما"، لكنني كنت مشغولاً أتلفت على صناديقي راجياً ألّا ينسرب إليها الماء.

كان يسد الدرب أمامنا سور حجري لأحد المنازل تنبت أسفله حديقة مبهجة. ولكي نواصل مسيرنا إلى السوق، لا بد أن نلتف من أمام الحديقة ونعود إلى الطريق الواسعة التي تشق المرية من جديد، هذا قبل أن يقرر الحوذي التوقف قليلاً تحت شرفة إلى أن يهدأ المطر.

***

ولأن التحولات الكبرى في أقدارنا تحدث فجأة تماماً كوميض البرق، ودون أن تسرف كثيراً من الوقت في استئذاننا، انفتح باب المنزل الذي يقابل الشرفة لتطل منه امرأة قد تجللت بخمار أزرق تلفتت في الطريق بحذر قبل أن تمد خمارها ليقي رأسها من المطر. أخذت تخطو بخطوات سريعة صوبنا وهي تقول: "أها وصلتم أخيراً... لقد انتظرتكم طويلاً... أيها الغرباء".

تلفتنا حولنا وقد ظننا أنها تخاطب غيرنا، فلمّا أصبحت بموازاتنا، هتفت بصوت مرتفع: "لم تأخرتما؟". رفعت عيني نحوها متسائلاً، كانت مكتهلة وقد لمحت على ذقنها وشماً أخضر يتفرع كقدم الحمامة، أو لعل التجاعيد جعلته كذلك.

لماذا تنتظر وصولنا إلى منزلها؟

التفتُّ إلى السائس فوجدته غير مبالٍ بما يحدث، بل يتفقد لجام بغله ويترقب توقف المطر، فبقيت في مقام الغرباء الذين تتخطفهم الأسئلة، وتطوقهم الحيرة، ولا يصلون إلى جواب سوى أن ينكمشوا خلف وجوم التأدب.

بادرتها خشية أن يرد معين بما لا يليق: "بل كلنا غرباء، فما الحياة الدنيا إلّا ممر ودار عبور".

وكأنها لم تسمع ما قلت، فهتفت: "لدي غرفة للكراء في نزلي إذا أردتماها".

ثم اقتربت منا ومدت عنقها نحونا، فبات باستطاعتنا أن نلمح بريق ابتسامة على محياها وهي تقول: "بالإضافة إلى غرفتي الزاهية الباهية، التي فيها صهريج خاص بها وحوض ماء، بإمكانكم قطف البرتقال والأترج من حديقة المنزل، والشرب من بئر الدار، ولكما كوبا حليب

البقر كل صباح، مقابل ٢٠ ديناراً في الأسبوع".

... في قاهرة المعز، وهي المدينة الجديدة النضرة، كراء غرفتي سبعة دنانير فقط! فماذا لدى هذه العجوز الموشومة ليجعلها تطلب في غرفتها هذا الثمن؟

مبلغ كبير! قيل لي في مصر أن الأندلس دار غلاء، وأهلها كلفون بالجمال وتزيين الدور، وزخرفة الملابس، وترجيل الشعر بالعطور، والاستحمام بالصابون المخلط بالمسك، ولكن يظل مبلغ عشرين ديناراً باهظاً للأسبوع الواحد. لكنه الأسبوع الوحيد الذي سأمضيه في المرية، فلا بأس أن أتقلب في النعيم لوهلة.

كنت في تلك اللحظة في اشتياق إلى اليابسة، فمفاصلي مفككة، وأود أن أرقد على فراش ثابت تحتي لا تميد به الأمواج، ونشرب من حليب شويهة أو بقرة هذه المرأة. أود أن أنام ليلاً بطوله من غروب إلى شروق دون أن أفز فجأة ظاناً أن البحر قد التهمنا، أو أنني بت في بطن حوت.

فلْألج هذه البوابة التي أشرعت لي... لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة أن هذه البوابة هي التي ستفضي به إلى متاهة أرض لن أنعتق من دروبها.

***

خطوتنا الأولى داخل الغرفة التي اكتريناها بررت لي كروتها الباهظة: غرفة رئيسية على يسار المدخل الأمامي، وثيرة تشبه الإيوان، متصلة بغرفة أصغر منها للمنام، وفي زاويتها درج صغير يصعد إلى غريفة الغلام أو المرافق. كان سقفها مبطناً بالخشب المصدف، ولها نافذتان إحداهما على حديقة الدار الخلفية، والأخرى على الشارع. أسدل فوقهما ستائر بيضاء منعشة، وفي طياتها شيء يشبه الفرح. البسط السندية المتينة

المنسوجة بصوف وعول الجبال تغطي الأرض، وأما أرائك الديباج الأخضر، فتحف المكان مع تلك الطنافس والمنحوتات التي لم أر ما يدانيها إلّا في القصور.

نومي في تلك الغرفة سكب في أطرافي رحيق الخزامى. تسرب حتى إلى أحلامي تلك الليلة، ما جعل صباحي رائقاً متوثباً مع خطوات تريد أن تلم بكل زاوية ومنعطف بالمرية.

يجب أن أنطلق إلى المدينة أستقصيها. تركت معيناً يرتب ويصف متاعنا داخلها، وخرجت أماشي فلول غيم البارحة فقد أصبح الشارع بعده نضراً مزهراً، والنحاس الذي يزخرف البوابة لامعاً، في حين أن قلبي يهزج كصناجات الغجر.

***

الطرقات في المدينة معبدة بالحجارة، والسواقي في جنباتها خالية من مخلفات وقاذورات المباني التي تمر بها، ولا يكاد يخلو منزل من شرفة، فهي سمة ملازمة في كل البيوت كوجود الباب والنوافذ، وجلّ شرفات المنازل محملة بأصص زهر وريحان.

يتوسط المرية قيسريتها. لم تكن ضخمة متفرعة الأزقة كتلك التي في بغداد أو الفسطاط لكنها محتشدة بالحوانيت، ومعظمها كانت للبزازين الذي يبيعون أقمشة الحرير.

ابتعت لي حلة من أحد البزازين، وذهبت بها إلى الحمام. وكعادتي في الظلمة وعبق المكان بالبخار، أسترق السمع إلى ثرثرة رواد الحمام، فهي التي تسرب لي مفاتيح المدينة؛ التحشم والحذر والوقار كله يتساقط مع الملابس داخل الحمام.

عند البوابة الرئيسية استقبلني غلام قال لي وهو يتفحصني إن هناك في الحمام حوضين: حوض بدرهمين، وحوض بدينارين، فأيهما تختار؟ قالها كأنه يسألني: هل أنت من علية القوم أم السفلة؟ ففضلت حوض الدينارين. لا أريد أن أستحم مع أولئك الذين يتمخطون ويبصقون في الحوض.

رغم هذا، يبدو أهل المرية مشعين مائقين، فأردية المارة ناصعة مهندمة، ولا يوجد حفاة في الشارع، بل يرفعون أثوابهم ترفاً عند المسير. وعندما تخلصت من ملابسي القديمة، لم يحتفظ بها صبية الحمام كما العادة في كل بلدة أمر بها، بل قذفوا بها لتحترق في جمر تنور كان يسخن الحوض.

دخلت لجة البخار كامناً لكن أذنيّ مشرئبتان. ولم أمكث طويلاً هناك لأكتشف أن الجميع يتحدثون عن خيران العامري وأفلح الصقلي.

خيران العامري

كانت أخبار الحاجب العامري تفصيل لبعض ما تداوله عنه جُلّاس رشيد بن علي في مصر، فهو أحد رجالات الخليفة الحكم زهاء ربع قرن، وكان في البداية حاجباً قبل أن يصبح وصياً على عرش هشام ابن الحكم الأموي، المسمى المؤيد، بعد وفاة الحكم.

أحسن العامري تصريف شؤون الدولة في البداية وباقة من جنوده الصقالبة الأشداء، وكانت له غزوات صوائف وشوات يحمي فيها الثغور من هجمات الفرنجة، لكن بعد أن أصابته شهوة السلطان، قبض على الخلافة وخنقها بقبضة سبع شره، فأفنى خلالها رجالات الأندلس، وأذل

الأمويين، وأقصى بني أمية. لذا، عندما توفّي، انهارت الدولة، وانتهب الناس قصره الباذخ المسمى الزاهر، وطردوا قواده وغلمانه، وكان من أولئك القواد خيران العامري الذي فر من قرطبة، وقصد المرية واستقل فيها وأصبح أميراً عليها، فأحسن إدارتها وسياستها، والذود عنها من هجمات المجوس القادمين من أعالي البحار.

***

في الحمام، يغطس الجميع في الغمامة المكونة من البخار وعبق رائحة الصابون وعطر عشبي ثقيل يسكب على الرؤوس بعد الانتهاء.

وأحاديث هامسة غامقة عن غرق إحدى مراكب أسطول خيران وهي في طريقها إلى صقلية، فأسمع بعضهم يقولون إنه لن يضيره غرق سفينة واحدة، فهو يمتلك أسطولاً عظيماً سفنه تمخر بحار العالم، وصوت رديف يهمس: "بريع تجارة أسطوله يرسخ أمور مملكته ويحسّن أحوالها، ويشتري ذمم من لا يرغب أن يكون أميره عبد من الصقالبة".

يعقب هذا صمت متوجس ليعود الحديث، لكن هذه المرة يحمل نبرة امتنان عميقة وإعجاب موارب بخيران، الذي لولا حسن إدارته وذكاء سياسته، لم تزدهر المرية وتستقر تجارتها وتنمو ويأمن أهلها على أرواحهم وأموالهم. خمنت في ذلك الوقت أن الرجل الذي يثرثر بهذا هو أحد مالكي المراكب.

غلام الحمام يقلبني دعكاً وفركاً، لم أتبين الوجوه أو المتحدث، ولكن لاحقاً في الردهة التي نبترد فيها من بخار الحمام، والتي يوزعون علينا فيها مشروب النعناع والحبق، تحقق حدسي، بعد أن عرفت أن

المتحدث هو قبطان لمركب تجاري يعمل في نقل الحرير بين المرية والقسطنطينية.

كانت له هيئة قرصان وعنفوان سيد يفاخر بقضاعة اليمن. أجداده نزحوا إلى الأندلس مع مطالع الفتوحات.

قلت له: "أنت أيضاً من قضاعة؟".

فأجاب كأنه يقر واقعاً أزلياً: "وما قضاعة إلّا اليمن، يسمونها المرية".

كان اسمه أبو نصر، وله عينان حادتان لامعتان كحجر يشب، وجبينه واسع، لكن أسنانه السوداء المهشمة تعطيه هيئة الضبع.

عندما قلت له إنني تاجر كتب، أجاب بضحكة نصف متهكمة: "ههها، أي بائع قراطيس، لكن القرطاس يبلى وتأكله الأرضة ويفسده الماء"، فأجبته وأنا أسعى إلى توسيع دائرة الحديث معه متغاضياً عن سخريته: "إذا ذهب ما في الرأس، بقي ما في القرطاس".

استغربت هذا الاستخفاف الذي أبداه؛ لا أدري هل هذا مذهبه مع الغرباء يحط من شأنهم حتى يسبر أغوارهم أم أنه كان حقاً يستخف بالورّاقين؟

ولمّا حاولت أن أستزيد منه عن أخبار المرية وخيران العامري، هتف بي: "احذر! فالفتنة على أشدها بين العامريين والبربر، والعيون مبثوثة، والآذان متنصتة، وإن اكتفيت ببيع الكتب فقط، فلا بأس عليك".

فقلت له بسخرية وقد أغاظتني نبرته الوعظية الموبخة ونصائحه التي لم أطلبها منه: "إذاً، هل ينفع التحدث عن التجارة؟". ومستطرداً قلت: "كيف رحلاتك إلى القسطنطينية وأنت تشق بحر الروم؟"، فأجاب: "حقاً أنت رجل ذكي، فقد وصلت إلى الأمر الذي يتحدث عنه الجميع في المرية: تجارة الخز".

"المرية أهم مغزل للحرير في العالم"، وتلفت حوله كأنه يود أن يشهد الجميع، واسترسل: "يقال أن جامعي المكوس أحصوا عدد الأنوال فيها بنحو ٥٨٠٠ نول". وعاد يحدثني قائلاً: "كبار التجار هنا جميعهم يتجارون بالحرير، حتى يروى أن تاجراً منهم في ما مضى من الزمان استضاف الحاجب المنصور بن أبي عامر عندما قصد المرية وجيشه الذي يقدر بالآلاف مدة أربعة عشر يوماً".

لا أدري عن صدق أو كذب حكايات هذا الرجل، ولكنه يبدو دجالاً، فمروياته متعددة ومتداخلة، فحيناً يدعو بطول العمر لخيران الصقلي، وحيناً يهمس بأن المرية كانت أكثر أمناً ورخصاً في عهد حاكمها السابق أفلح الصقلي. يبدو بأنه تربية أزقة، وعبثاً تستطع الدنيا أن تهذب ذلك الأمر النافر المتوحش داخل من تربيه الأزقة.

ودّعت القبطان أبا نصر على وعد بلقاء. أخبرني أنه موجود دائماً في متجره داخل دار الصناعة التي أسست بجوار ميناء المرية وجعلت لصناعة السفن البحرية وأسلحة الحرب؛ أراد الأمويون منها أن تمد جيوشهم بالسفن والعتاد لرد هجمات المجوس من النورمانديين.

ثم أردف مختالاً أنه لا يبيع في متجره بعض الأسلحة البحرية فقط، بل أقواساً وسهاماً وسواها من أدوات الصيد، فالجنود الصقلابة مغرمون بالصيد، وكل من ينزل بالمرية للتجارة يقصده رغم أنه غير موجود داخل المتجر طوال العام بسبب رحلاته البحرية الطويلة، لكن أبناءه وعماله يؤدّون الواجب على أكمل وجه.

أبو نصر الثرثار الممتلئ بنفسه هو أفضل نافذة أطل بها على المرية. حتماً سأزوره في متجره.

***

بعد الحمام بات هواء الخريف منعشاً رغم لذعة برودته، ورائحة البحر تتغلغل الجدران والأزقة، وكلما تصعدنا في المرية شمالاً وخلّفنا البحر وراءنا، تبدّت لنا أسطح المنازل في الأسفل: أفنية فيها أطفال يتلاحقون، ونساء يهرولن وبأيديهن أطباق تتوازعها البيوت، وفتيات ظريفات ينثرن ثيابهن على حبال يراقصها الهواء.

***

استغرقني للعودة إلى خان السيدة بائعة الحرير وقت طويل، فلقد تهت في دروب قيسارية المرية المتداخلة المتشابكة، فلم أعرف أي المنعطفات والدروب أسلك، فاضطررت أن أعود إلى الميناء وأبدأ من هناك.

وحين وصلت البيت، وجدت معين بات صديقاً لنصف سكان النزل. أهل البحر يتقنون مسايرة الطارئين وإشراع نوافذ الوداد وبوابات الألفة للغرباء.

نزل حمدونة

عندما كنت أتقصى دربي عائداً، لم يتطلب الأمر كثيراً من السؤال كي أعرف أن كل من في المرية يعرف نزل حمدونة الذي أقطنه: منزل هائل على أطراف قيسارية المرية. يقولون إنها ورثته عن أحد أزواج متعددين دخلوا حياتها وخرجوا، فهم إما اندرجوا في دروب لم تعد بهم، وإما سارت بهم نعوش غرستهم تحت الأرض. وعندما ذوى الجمال وذابت الملاحة، ولم تجد زوجاً ثرياً يقوم على شؤونها، شطرت منزلها شطرين: شطر جعلتها نزلاً فخماً للتجار واقتطعت حيزاً منه إسطبلاً لرواحلهم،

والشطر الآخر جعلته مصنعاً للحرير وحياكة ثياب الخز الفاخرة.

وصلت نزل حمدونة ولنجوم المرية فوق رأسي لمعان غريب، وكان رأسي لا يزال يموج كأنني فوق المركب. وجدت معين قد جهز لي بعض الطعام: تين وعسل، وبعض أقراص دقيق الشوفان. ونمت إلى اليوم التالي نوماً عميقاً لم أذقه منذ دهور. غرست رأسي على وسائد الكتان الأبيض المعطرة بزيت زهر النارنج، فيما أطلت متسلقة ياسمين من النافذة وبقيت حارسة أمام بوابة الليل لم تسمح بدخول الكوابيس التي تحدق بي دوماً عند نزولي أرض جديدة.

ولم أستفق إلّا على صوت أذان الفجر: "حي على الصلاة حي على الفلاح... الله أكبر الله أكبر". لا يتشيع أهل الأندلس لآل البيت في أذانهم ولا يدعون لهم؛ إنهم السلالات المروانية التي جعلت الخلافة ملكاً عضوضاً، سمعتهم يكبّرون ثلاثاً في صلاة الفجر فقط، فهي سمة المرابطين وسكان الثغور، وكمنت في مرقدي أنصت إلى وقع أقدام الذاهبين إلى المسجد.

توضأت في الحوض الحجري الذي يعلوه صنبور نحاسي ويقبع في زاوية الغرفة، ثم صليت، وكنت طوال الوقت أنصت إلى حركة نشطة خلف الدار تصلني من نافذة علوية صغيرة في أعلى الغرفة. رقيت الدرجات التي تؤدي إلى غرفة معين بهدوء خشية أن أوقظه، فأنا أريد أن أختلي بمزيد.

لم أكد أستطيع أن أصل إلى النافذة وأنظر إلى الحديقة الخلفية في الأسفل حتى رأيت مناضد خشبية مستطيلة طويلة صفت متجاورة، وفي زاوية الحديقة هناك سبعة قدور نحاسية هائلة الحجم تغلي وسطها كرات كالبيض، وفتاة ذات وشاح معصفر، وفي يدها عصاً خشبية طويلة تقلب

الكرات برقة وتتأملها باستغراق. تراجعتُ من الفور خشية أن تظنني متلصصاً، وأخذت أرتدي ملابسي بهدوء لأخرج.

فناء النزل تتوسطه نافورة من الفسيفساء المتآكلة المشققة، لكن تحفها شتلات نعناعٍ تميل برأسها على الماء بولهٍ وغنج. لون أعمدة الأروقة ما برح موشحاً ببنفسجِ الفجر، لكن كان هناك بعض الأبواب قد أشرعت وخطوات تدب برفق على رخام الأروقة.

وضعت في كمي كتاب أبي هذيل العلاف المعتزلي، وسأقصد باعة الكتب. لا يمنع أن أبحث عن مريدي الكتب وباعتها أثناء مكوثي الخاطف هنا، فلا أدري، لعلي أصرف بعضها في المرية؟

لن أنتظر وصولي قرطبة، فأنا أعلم أن أهل الأندلس يتضورون لكتاب مثل الحجج والقوالب للعلاف المعتزلي، ففيه الكثير من حجج أهل العدل والتوحيد على بقية الفرق، ويقطن قرطبة ثلة منهم.

***

في طريقي إلى الخروج، لمحت حمدونة تجلس في أحد أركان الرواق فوق مقعد خشبي طويل تحفها مجموعة من الوسائد الحريرية الخضراء تقارب تلك التي في غرفتي. تشرئب برقبتها كأنها ترقب خروجي. لا بد أن أذهب وأحييها وأسايرها قليلاً، حتى لو اقتضى مني الأمر التأخر عن حلقة ما بعد صلاة الفجر في الجامع، التي تكون عادة أهمها وأغناها. في حلقة الفجر، أعرف مفاتيح علوم ومعارف المدينة، ومن هم أبرز علمائها وفقهائها، وإلى أي قبلة يحج عقلها. الأحاديث والهمسات الجانبية ستقودني إلى الرجال، والرجال سيقودونني إلى دروب السراة.

أشعر ببهجة قابض على حفنة من نجوم السماء لينثرها في الأرض.

تداخلني نشوة استزراع الحقول بالأجنة، أجنة الشك والسؤال الذي يخاتل فقهاء الجدل والدجل.

لكن المرية تبدو محتدمة ومتشنجة، وعندما تصلصل سيوف الجند، تبيخ وتنطفئ حلقات المنطق والشعر والكلام، وتنتقل لتجلجل في ساحات الوغى.

يقف إلى جوار حمدونة غلام رقيع لين الأعطاف يتقصع مع فتور في الأجفان وتكسر في الكلام. يناولها حبات من الجوز، ويدلك أكتافها وهو يسرد عليها أموراً هامسة تبدو وشاية أو نميمة، فيما بدت في الصبح أكثر نضارة ونداوة، ولا تشبه تلك المكتهلة التي تعلقت في عربتنا يوم وصولنا بين زخات المطر.

فور أن رأتني، أشارت إلي بيدها أن تعال. حماستها تجعلني أتيقن أنها قبعت هناك ترقبني. أفسحت لي مقعداً بوسائد وقالت بتودد: "اجلس"، فيما هرول غلامها الرقيع وجدائله على كتفيه تهتزان، فبدا كعنز نشطة. جلب كأس حليب وصحنا فيه تين جاف لإفطاري.

كنت متحرجاً بم أناديها؟ باسمها أو سيدة؟ فبعض النساء يزعجهن أن نناديهن بأسماء خالتي أو والدتي، فهذا قد يهين شباباً آفلاً، فتواجه بشيخوخة لم يعد يجدي ترميمها الصبغ والتبرج.

قلت: "ما كنيتك سيدتي؟". قالت بسرعة كأنها تحسم أمراً هامشياً: "ناديني حمدونة فقط... حمدونة المريّة"، ثم انبرت تقول: "هل تذكر ساعة وصولكم حينما قلت لك: لقد انتظرتكم طويلاً؟".

أومأت برأسي وأنا أقول: "نعم، نعم... كنت على وشك أن أنشدك عنها".

أجابت بابتسامة واسعة: "لأنني أعلم أن قانون المضاهاة والمشابهة

سيسوقكما إليّ".

عقدت حاجبي بضحكة ساخرة، وأملت رأسي مستفهماً.

قالت: "قبل نزولك بعدة أيام غرست فوق سور داري بيرقاً أخضر ورمحاً، وها هو اليوم البيرق المشرقي القادم من جزيرة العرب يجالسني".

طربت لظرف وتودد الأندلسيين؛ جعلتني بيرقاً وهي في حقيقتها ما كانت ستجد من ينفحها عشرين ديناراً أجرة الغرفة، والمرية مليئة بالنزول الفارغة الغرف، فما هي سوى عتبة أولى لا يلبث أن يغادرها من نزل شواطئها ليتوغل الأندلس.

كانت تبتسم عن أسنان منتظمة لم ينل منها الزمن، وعصابة رأس قرمزية تعلق فيها دنانير من فضة. أحببت أن أعابثها، فرفعت كأس الحليب وقلت لها: "هذا الحليب ماذا سيجلب وفق قانون المشاكلة والمشابهة؟"، فقالت لي بابتسامة مشرقة: "هو لا يجلب سوى القلوب البيضاء النقية".

لا أدري لم سألتها وأنا أنهض مستئذناً في المغادرة: "ما سر غناء النخيل في المرية، يا حمدونة؟".

طأطأت قليلاً وقالت: "أيغني؟"، فأومأت برأسي إيجاباً مرة أخرى، فقالت وهي تخشى أن تفقد دور الحكيمة العالمة: "لربّما لأنه أقرب النبات إلى الحيوان، فيه ذكر وأنثى، وله رأس إذا قطع مات".

ما أدرى حمدونة بكلام الجاحظ عن النخيل؟ حقاً من يعاشر الغرباء كل يوم يعرف كثيراً!

***

قفلت راجعاً من جولة اليوم الأول خائباً دون نتيجة. مررت داخل قيسرية المرية ببائع عسل يعرض بعضه في جرار، والآخر قطع شمع مستديرة

هائلة، فتشهيته وابتعت جرة، وفي الطريق أخذت أتفكر ماذا ستجلب لي جرة العسل وفقاً لقانون حمدونة في المشابهة والمضاهاة.

في تلك الليلة داخل غرفتي، جفلت عندما بدأت أسمع شجر التوت خلف المنزل أخذ يغني أيضاً مع النخيل. علقت جرة العسل على رف جصي نحت في قلب الجدار، ولم أفطن إلى الذي أخذ في التشكل والتكون فوق جدار غرفتي، وأن قانون حمدونة في الجلب عبر المضاهاة والتشابه لا يخصها فقط، بل أيضاً يسري على سُكان نزلها.

***

لم أعد أشاهد معيناً كثيراً فهو يبدو مشغولاً بصداقات كثيرة يقيمها بيسر وسهولة. لم أبحث عنه، ولكن طلبت منه توقياً ألا يشير إلى أنه صنهاجي، فهذه القبيلة البربرية ليس مرحباً بها عند الأندلسيين بسلب ولائها للفاطميين في تونس.

أجابني معين بضحكة فيها بعض الاستخفاف: "لا تبالِ يا سيدي، فهناك الكثيرمن الصنهاجيين في الأندلس، لأن من رؤساء البربر وحماتها وأنجادها من بلغت فروسيته وشدته القدر الكبير، وقد حضروا بطلب من منصورالعامري يرحمه الله، ولكن الآن لم يعد أحد يفرق بين قبائل البربر، فالفتنة الآن بين الأمويين والعامريين. وما دام قد سرت مجاوراً الجدار ولم تمتشق سيفك، فلن يلتفت إليك أحد".

***

لم يلبث معين كعادته أن بدأ ينشر متباهياً أنني طبيب. لم أشأ أن أوقفه (لم آمر بذلك ولم يسؤني)، فرغم أنه قد يجلب إلي العيون والأنظار

المتطفلة، لكن لم أستطع مقاومة هذا المجد الزائف.

سأذهب غداً صباحاً إلى المسجد الجامع من جديد أستمع إلى الشيوخ وأتقصى الحلقات، وأتتبع أين أستطيع أن أصرف كتبي هنا. لم يخبرني رشيد مصر إلّا عن البهاء الذي ينتظرني في قرطبة في منزلة بين المنزلتين، ولكن لم يخمن أنني سأتوقف في القيروان والمرية.

قرأت آية ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ ليحمي الله صناديق كتبي، وأكملت قيافتي وهندامي. وضعت كتاب العلاف داخل كمي مرة أخرى وقصدت حلقات المسجد الجامع في المرية، فكانت المفاجأة.

***

رغم بوابات المسجد الثماني الفاخرة، وأعمدته الرخامية، وأروقته المنقوشة السقوف، لم تكن هناك داخله سوى حلقتي درس: إحداها كانت للتجويد وشيخ يتلو سورة العلق ثم يرددها خلفه تلامذته، والثانية على النقيض منها كانت كبيرة هائلة ويستدير حول الحلقة ما يربو عن عشرة صفوف. وعدا هذا كان هناك عدد من الأفراد المتناثرين في باحة المسجد وهم مكبون على كتبهم.

اقتربت من الحلقة المزدحمة. كان شيخها بديناً يجلس بثنيات بطن متعددة وصوت فيه خنة وصفير سائس خيل لا وقار شيخ.

كان يقول: "الفلاسفة والمهرطقة والزنادقة لعنهم الله، من جهة انفردوا بآرائهم وعقولهم، ومن جهة أخرى تكلموا بمقتضى ظنونهم من غير التفات إلى الأنبياء".

انكمشت عندئذ، هل كان ينتظر دخولي المسجد كي يصب هذا في

أذني؟ دفعت هذا الظن عن خاطري، فأنا أصبحت كالمريب الذي يقول خذوني، لكن أين ما كانوا يزعمونه حول الأندلس التي تحتفي بعلوم الكلام والحكمة والفلسفة وتجل شيوخها؟ يبدو أنه حينما يدخل الجند من الباب، تخرج الفلسفة من النافذة!

المنصور العامري زهاء ربع قرن وهو مسيطر على أمور الدولة، فأفنى علماءها وفلاسفتها، وأذل الأمويين، وها هو غلامه خيران العامري يكمل ما بدأه المنصور.

الفلسفة طائر خجول حذر مصنوع من غيم جفول شارد، يظل يحوم ولا يحل أو يستقر، لأنه يعلم أنه ما إن يطل من نافذة المسجد ليأخذ حصيلته من العقول إلى أرض العجائب، حتى ترفع له مطارق التبديع والتفسيق، وتسن له سكاكين التكفير.

أدخلت الكتاب حول حزامي حتى لا يلمحه أحد، وكبرت لأصلي تحية للمسجد. وفي الركوع، كانت النوافذ تجلب إلي صوت الشجر الذي ما برح يغني.

سلمت ونهضت متجهاً إلى بوابة الخروج عازفاً عن المكوث؛ لا أعتقد أنني سأجد شراة لكتبي هنا، ولكن سأجرب قلعة القصبة، فإن كان خيران الصقلبي من العجم، فلا بد أن يكون بين كتبته وجلاسه من أدركته حرفة الأدب.

أفلاك الحرير

علمني التنقل والترحال أن لكل مدينة قلباً أو جوهراً تدور أفلاكها حوله، فمنه تنبع وإليه تعود، وتأتمر بأمرته وتخضع لقانونه وتتلون بطيفه.

بغداد، كنت أشعر أن قلبها المدينة المدورة، وجسر الرصافة المجدول فوق نهر يربط بين قصور الخلافة وبين العامة.

القدس قلبها قبور أنبيائها منسوجة بنبوءاتهم وبطولات قديسيها، وحزن أزلي لوجه تقصقصه الأساطير، وكل راية تريد حيزاً من ذلك الوجه.

النيل هو مصر، القرب من ضفافه أو البعد عنها هو الذي يحدد حظك من مصر. حجبني المرض عن القيروان، لكنْ هنا لم يكن سوى خيران وقلعته قلباً للمرية.

القصبة قلعة خيران تلتف حولها ودونها المدينة، وتنبع دروب المرية منها، وتصب فيها وهي تتناقل أخبار مراكبه التجارية، ومعاركه مع المجوس النورمانديين، وصولاته مع فلول الأمويين.

يحكم قبضته جيداً على أمن المرية، فرجاله يجوبون الأسواق ويقلبون البضائع، ويتفرسون الوجوه، والبارحة بعد منتصف الليل، تبدّى لي طيف حارسين يحملان المشاعل يمران تحت نافذتي ويسيران ببطء منتظم... هل نبأ إلى علمهم خبر الغريب القادم إلى المرية فأرسلت العيون تتقصى خبره، أم أنّهما فقط يتفقدان النزل العجيب الذي يستدرج نزلاءه بالمحاكاة والمشابهة؟

***

أفقت صبح اليوم على أصوات أحاديث نسائية هامسة اكتشفتها كغيمة اندست بين أغطيتي ودثاري: زقزقات وهمهمات وأصوات رقيقة متقافزة وسريعة. حينما تكون أصوات النساء، هناك مرباع وفيض رائحة شذية تضوع في الأنحاء، وأنامل رخصة، وطعام لذيذ ساخن، وأفنية براقة،

وشتلات ريحان تكتم أسرار الغرف، فيما تعيد سحب النرجس نشرها وفضحها.

سئمت خشونة نبرات الذكور والأمر المضمر في تلافيفها. دوماً في أحاديثهم ما يقول: تحدث كي أراك، انشر ثوبك واستعرض وأرني ما لديك. داخل كل رجل هناك محارب كامن يترقب الفرص كي ينازلك. يمر مستعرضاً علمه أو ثروته أو قوته الجسدية... أيها، لكنه يبادر استعراضه من الجولة الأولى، فيجب أن تكون عندئذ متأهباً للنزال.

البارحة، القبطان الذي تحدث عن جولاته في البحار وعن تجارته دون أن أسأله يفرد أجنحته أمامي كذكر الحبارى الذي يخيف الغرباء في الصحراء.

وجهه الغريب وجفناه الثقيلان ما برحا راسخين في عقلي. علاقاته الواسعة قد تفيديني في توزيع بعض الكتب، ولكنها أيضاً قد تضرني لأنه ليس ثرثاراً فقط، ولكنه يبدو دعياً متربصاً.

طعم المياه المنساب من صنبور غرفتي عذب شهي. أسلست قيادي لهرطقات حمدونة التي لا تعقل، وابتعت جرة عسل بترقب قانون التماثل والمضاهاة.

في أحاديث حمدونة أمومة لا أستطيع أن أمنع نفسي عن دفئها ويقينها، وسنلتقي، أنا وإياها، في منتصف الدرب بين الشعوذة والعقل، فأرسطو يقول إن الفضيلة منزلة بين رذيلتين.

وها هي الوسائد البيضاء الزاهية والوثائر التي تنتثر في غرفتي تجعلني أتأنق وأتهندم، وأضع على شاربي مسحة من عطر قبل الخروج. أحضر معين إفطاري: عسل، وبذور، وحليب، وأقراص من خبز دقيق الذرة، فيما أخذ يلف عمامتي الحريرية على رأسي.

لا بد أن أبيع بعض الكتب التي بمعيتي. كنت قد حُذرت أن أصعد إلى القصبة، فما أدري عن ميل خيران الصقلبي إلى الكتب، فهو محض علج أعجمي من فتيان أبي منصور بن عامر قفزعلى السلطة، واستقل بالمرية، ولكن أيضاً هناك حتماً من بطانته وخاصته من الوزراء وكتبة ديوانه والفقهاء من يجل الكتب.

لا أود أن أبدو بمظهر البائع المتسول الذي يبذل بضاعته. أريد أن أنزه صناعتي عن الدناءة، فلا أكون كبائعي صناديق الخوخ الذين ينحدرون من الضيع والكور قاصدين قلعة خيران كل صباح.

ظللت على هذا الأمر طويلاً أقلبه على وجوهه إلى أن عزمت وحسمت أمري وأخرجت قرطاساً صقيلاً من حزمة الرقاع، وخططت في رأسه:

بسم الله الرحمن الرحيم المعطي المعين
والصلاة والسلام على نبي الهدى وخير المرسلين
إلى المنصور المظفر صاحب العدل والفضل والنبل
أمير المرية خيران الصقلبي العامري
أطال الله في عمره، ومكنه في الأرض، ونصره على أعدائه
وأرغم أنوف حساده.
أنا خادمكم مزيد بن عبد الله الحنفي، حللت في مدينتكم
العامرة وبحوزتي مجموعة من الكتب الثمينة النادرة جلها
من مقتنيات دار الحكمة في بغداد. فإن تفضلتم عليّ بالنظر
فيها، فخادمكم يصلي فروضه في الجامع الكبير للمرية.

لففتها بعناية وربطتها بخيط من حرير ووضعتها في جيبي وتهيأت للخروج.

كالعادة، كانت حمدونة تجلس على مقعد وأمامها منضدة قد اصطف فوقها دورق وأكواب زجاجية. قدمت لي كأساً برائحة شذية وهي تقول: "اسق صباحك ماء زهر البرتقال لتزهر لحظاته وهنيهاته".

أجبتها: "من ينزل نزلك، يسقى كؤوس النعيم".

قالت: "حينما يقرر الله أن يمنحك، فافتح يديك".

جفلت متأملاً مدة، فأذكر أنني سمعت هذا الكلام من قبل.

ثم سألتني: "من أين ترجع بنسبك؟"، فقلت: "أنا من بني حنيفة".

قالت بعجب: "أنعم بك وأكرم. أنا عربية مثلك، ولكن واشجت دمي الكثير من العروق، فجدتي لأبي بربرية، وأمي من البشكنس... انظر"، وأرتني وشماً على ظهر كفها كدوائر متداخلة، وهتفت: "إنه وشم قبيلة جدتي البربرية".

في تلك اللحظة، سمعنا صلصلة وجلبة عند الباب: أصوات رجال، وحمحمة خيول، وقعقعة عجلات عربات تتوقف. اشرأبت حمدونة بعنقها ونادت من هن بالداخل قائلة: "هلموا فقد وصلت الشرانق"، فخرج من باب داخلي في أقصى الردهة سرب من الفتيات الخفرات الحييات يسرعن مهرولات باتجاه بوابة الدار. خمنت عند ذلك أنهن قدمن من الحديقة الخلفية، فإحداهن كانت ذات الوشاح المعصفر التي استرقت النظر إليها من غرفتي وهي تقلب القدر الكبير. يتقصع خلفهن غلام حمدونة بخطوات عجلى، وما لبثن إلّا قليلاً حتى عدن وهن يحملن فوق رؤوسهن نعوشاً خشبية كبيرة صف فوقها كرات بيضاء لامعة كأنها البيض المكنون.

قالت حمدونة بنبرة الخبير المتمرس: "هذه هي شرانق دودة القز".

أخذت تلك النعوش الهائلة المحمولة على الرؤوس تلج إلى الباب

الخشبي الذي يفضي إلى الحديقة الخلفية الواحد تلو الآخر.

تفطنت عند ذلك إلى أن تلك القدور النحاسية الهائلة كانت تنتظر الشرانق تدلق فيها وعصي الفتيات يقلبنها بلطف ورقة داخل الماء المغلي.

لمحت حمدونة حاجبي المرفوعين واستغراقي، فقالت: "من هناك تبدأ رحلة الحرير، منذ شرائها من مربي الدود في مزارع شجر التوت إلى أن ينسدل فوق جسد حسناء، أو قميص فوق أكتاف شاب بهي الطلعة مثلك".

أطربني إطراؤها، وشجعني أن أستجيب لدعوتها لمشاهدة المزيد. قفزت وسارت أمامي بخطوات نشطة وتبعتها. وبعد أن اجتزنا البوابة الخشبية في زاوية الردهة، ولجنا دهليزاً معتماً رطباً يتقاطر سقفه أفضى بنا إلى الحديقة الخلفية للنزل التي كنت أرقبها من نافذة غرفتي. لم تكن الحديقة كبيرة، لكن جدرانها عالية. لذا، عبقت برائحة الحطب والبخار المتصاعد من القدور الهائلة.

الفتيات ينشطن بحضور حمدونة مع زائر غريب. إحداهن تتأمل القدر وتقلبه برقة عبر عصاً طويلة في يدها، وأخرى تحمل ما يشبه مكنسة القش تحركها بلطف وخفة فوق القدور التي تغلي، فيعلق بها من الشرانق خيوط حرير مشعثة متداخلة، فتجمعها فوق منضدة خشبية كبرى. أما بقية الفتيات، فيلتقطن الخيوط بحرص، وكما تفعل النساء في اليمامة مع صوف الخراف والمغزل، تجلس فتيات حمدونة وراء مغازل أسفل الجدار وينسلن من كرة الحرير المشعثة خيطاً رقيقاً لامعاً، ثم يلففنه على مغازل كبيرة فيها عجلتان والكثير من الرؤوس والأسنة. وفي النهاية، يخرج من تلك المغازل أضمومة حرير لامعة يجمعها غلام حمدونة في سلة كبيرة ليأخذها إلى المصبغة تلونها قبل أن تضع أضمومات الخيوط

فوق أنوال النسيج.

خجل الفتيات أصبح بعد قليل من دخولنا ضحكات وبسمات وهمسات متبادلة. صبايا الحرير يشغبن داخل قلبك يا مزيد... وجوههن المنداة بالبخار وأعينهن المدعجة، لله درك عندما أبقيت على وقارك ولم تعابثهن بالبسمات والغمزات!

قالت حمدونة برنة متباهية: "رغم أن هذا المصنع واحد من مئات في المرية، لكنه يظل مطروقاً بكثافة، حتى أنه تأتينا طلبات من قرطبة نفسها، وتحديداً من الأميرات الأمويات لخياطة ثيابهن، ولاسيما بعد ثوبنا الشهير الذي خطناه لولادة بنت المستكفي".

ثم أخذت تهز رأسها ضاحكة وهي تقول: "هذا الثوب حكايته طويلة، وهو الذي جعل من حرير حمدونة أعجوبة تسير بها الركبان، فقد طلبت منا الأميرة ولادة أن نطرز بعض أبيات الشعر على ثوبها، ولأنها لم تحدد ما أبيات الشعر التي تريدها، فقد طلبت من شاعر ماجن يبدو أنه من العامريين ويضمر العداء لأمراء بني مروان، بعض أبيات من الشعر تتغزل بها، فأعطاني أبياتاً زعم أنها لولادة نفسها يقول فيها:

أنا والله أصلح للمعالي	وأمشي مشيتي وأتيه تيهاً
وأمكن عاشقي من صحن خدي	وأمنح قبلتي من يشتهيها

وكنت قد اكتفيت بالبيت الأول يصفها وهي تجر ثوب خيلائها، لكن المطرزات لربّما عن خبث أو بلاهة أضفن دون علمي البيت الأخير. فغلف الثوب بالدمقس وأُرسل إلى قرطبة دون أن أفطن إلى البيت الذي أضيف".

"الحمد والشكر للرحمن أن ولادة لم تغضب، بل ارتدته وماست به في مجلسها، بل لم تتوقف عن طلب عباءاتها من مشغلنا، فمحمل ثياب

الحرير يذهب من هنا إلى قرطبة مرتين في العام: مرة في الصيف ومرة في الشتاء... عباءات بلون زهر الزعفران، وأوشحة لها لون المشمش في أول موسمه، وقفاطين بلون توقّد الشمس وهي وراء غيمة، وأحزمة كرقاب الحمام، فلا يستطيع مشغل في المرية مجاراة حرير حمدونة. وباتت الطلبات تصلنا تباعاً من أميرات البيت المرواني جميعهن، وكل أميرة نخصها ببيت شعر يمتدح جمالها ونسبه"!.

ثم أردفت، وهي تضع يدها على رأسها: "لكنني بت فطنة، ولم أعد أرضى أن تخرج أي عباءة أو ثوب حريري من مشغلي دون أن أراه وأدقق النظر في أبياته".

وقالت ونحن نخرج عابرين الدهليز المعتم الذي يفصل النزل عن الحديقة الخلفية: "ولله الحمد، مرت قضية البيتين بسلام، رغم أن بعضهم أوعز إلى العاهرات أن يغنين الأبيات في الخمارات، فيرقصن على أنغامها تعريضاً بالبيت المرواني. لكن لم ينلني من كل هذا شر؛ هو قانون المشاكلة والمضاهاة، فالأرواح تتحرك تحركاً شوقياً بفعل ما لها من نفوس وعقول، فأنا أعمل بالحرير، وكل ما يصلني يجذبه النعومة واللمعان والترف. هذا هو الذي أجعله يبرق في أنحاء مكاني، وأبعد نفسي عن الصوف والكتان الخشنين، وأنظف أكفّي من المال الحرام".

***

غادرت نزل حمدونة وأنا ملتف بحديث الحرير، فيما بدأت خيوط الشمس تتسلق جدران فنائه، والشارع في الخارج يأزّ بصوت العربات والمارة.

ذهبت إلى المسجد الجامع وعقلي يقلب قانون المضاهاة والمشاكلة

على جميع أوجهه، أدفعه عن تفكيري حيناً كونه محض شعوذة وخزعبلات، ولكن يتربص بي قول أرسطو: لا شيء ينتج عن لا شيء".

فهو يرى أن الفاعل لا يخترع الصورة، بل عنده أن منشأ الصورة كامن في المادة بالقوة، وأنها تتحول بسبب التحريك والإخراج. فالصورة لديه موجودة قبل الإخراج والتحويل أو بعدهما، ففي المادة يكون وجودها بالقوة، وبعد الإخراج والتحويل يصبح وجودها أمراً واقعاً بالفعل.

حسناً! سأبدأ اللعب مع هذه القانون وأنتظر ماذا ستجلب إلي جرة العسل في غرفتي؟

***

صحن المسجد الخارجي تتجاور فيه أشجار البرتقال والنارنج بكثافة بأحواض يكاد يتطابق قطرها بشكل لم أر نظيره في مسجد سابق.

في ذاك اليوم أيضاً، لم يكن في الداخل سوى حلقات حفاظ القرآن وعدد من الصبية يرددون الآيات خلف شيخ ساهم متبرم، يوقفهم أحياناً لتحسين التجويد ومخارج القلقلة في التلاوة، ثم يعود إلى سهومه.

أين البقية؟ هل انفضوا بعد الفجر، أم أن علماء المرية وفقهاءها لهم أيام محددة يجلسون خلالها؟ ففي زمن الجيوش والاحتراب، ينزوي العقل، ويستبدل بالفتاوى التي تغدو نفيراً للحروب.

أرجو أن تكون قرطبة خلاف هذا، فكتبي والله ثمينة لا يطاولها إلّا الخيول النجيبة: كتاب **المنطق** لأرسطو، وكتاب **جوامع كتاب أرسطوطاليس في معرفة طبائع الحيوان** الذي ترجمه إسحاق بن حنين، ونقل عنه الجاحظ الكثير في كتابه **الحيوان**، ونسخة منقحة من **رسائل إخوان الصفا**، وكتاب العلاف المعتزلي.

على كل حال، لن يليق بها سوى مكتبات قرطبة.

هل هو نزل حمدونة الوثير الأثير الذي جعلني أتلكأ في المدينة؟

لا يصح لي في مدينة يحكمها قائد جند أن أطلب أكثر من طرقات آمنة، وشوارع مضاءة، وعسس يتجولون داخلها ويحدقون بتضاريس الوجه ويفتحون الأكف: هل داخلها خنجر أم كيس نقود... أم كتاب؟

القبطان

المرية صغيرة وشوارعها ملتفة يفضي بعضها إلى بعض، وتشاهد الوجوه عدة مرات باليوم. رغم كثرة السفن والمراكب التي ترسو على مينائها، فإنها تظل دار عبور، ينفذ منها الواصلون إلى الأندلس ثم تفرقهم دروبها باتجاه مرسية أو غرناطة أو إشبيلية. لذا، كان من المألوف أن أصادف القبطان القضاعي مرة أخرى. لمحته عند بوابة السوق: جفناه الثقيلان وأسنانه المبقعة التي توحي بهيئة الضبع.

كان يعتمر عمامة سوداء حريرية وقفطاناً فاخراً، لكن بزته الجليلة لم ترمم ذلك الأمر الغامض في محياه، الذي يشير إلى أنه تربى في الأزقة، وكان يساوم بائع خزف على آنية يرفعها ويقلبها بيده. لم يكن يبدو أنه جاد في المساومة، فعيناه لم تكونا تنظران إلى السلعة أو البائع، بل كان يقلبهما في المارة، وركزهما تحديداً عليّ.

ثم ما لبث أن اقترب مرحباً بي، قائلاً: "أهلاً بحنفي جزيرة العرب". صوته العالي المجلجل، جعل الرؤوس تلتفت إليّ. أجفل هذا طبعي الحذر، إضافة إلى أن ما كنت أحمله من كتب في كمي آنذاك يضاعف وجلي ويجعلني حذراً أبحث عن الظلال المتوارية الهامسة بعيداً عن

الضوء. قال لي: "كيف أمسيت في المرية، هل طاب لك هواؤها؟".

لا أحب هذا الرجل ولا أريد أن أتبسط في الحديث معه؛ فيه شيء منفر يجعلني أبتعد عنه. هل هو تنفجه واستعراضه الدائم لنفسه، أم عيناه الثقيلتان اللتان تخفيان الكثير من الخبث؟ لم أتوقف، بل قلت له على عجل: "مدينة مرية، مرية كما اسمها، بارك الله لأهلها بها".

حاولت أن أواصل المسير وأنا أرفع يدي محيياً له، ولكنه أمسك كفي بقوة وجذبني إليه هامساً: "ما أخبار الكتب؟ هل وجدت لها شراة؟".

وعاد يقترب وأخفض صوته أكثر وقال: "انتبه! هذه الأيام لا يبالون بالكتب، بل جل وقتهم في الحرب والنزال، ويقال أن في قرطبة الكثير من المكتبات قد نهبت وسرقت".

ندمت في تلك اللحظة أنني أخبرت هذا الدعي بأنني تاجر كتب وأدخلته عميقاً في خصوصياتي، فالسراة حذرون ويضعون بينهم وبين الآخر مسافات من الغموض والإيهام، ولكنها لوثة الحمام المعطر الساخن الذي يجعلنا نتحلل من حذرنا مع ثيابنا.

عبثاً أحاول أن أرمم الموضوع، فقلت: "على كل حال، ليس لدي الكثير من الكتب، هي محض مخطوطات فاخرة مجلدة ومصنوعة بالخط الفاطمي، وبعض المؤلفات لسيرة ابن هشام، وكتب فحول الشعراء".

ولوهلة عرفت أنني قد وقعت في هفوة أخرى هنا عندما أتيت على ذكر الفاطميين، فالنفوس لم تهدأ بعد في المرية ضدهم. ولم أجد حلاً سوى أن أتملص بسرعة من القبطان وأهرول إلى دربي نحو المسجد.

***

دخلت المسجد وصليت العصر، وترقبت أن تعقد الحلقات كما هي العادة في الجامع الكبير، ولكن ظل خاوياً إلّا من بعض الشيوخ الذين يجلسون تحت الأعمدة دون مريدين.

أخذت أقلب بصري في الأرفف والجدران بحثاً عن خزائن الكتب، لكن فجأة بدأت أسمع صوت ضحكات عالية وقعقعة أسلحة وهديراً وجلبة عند بوابة المسجد الشرقية، قبل أن يأخذ في التسلل تباعاً بين الأروقة. كان بعض الفتية يرتدون حلل الجنود فرادى وأزواجاً، حمر الوجوه صفر الشعر.

سألت أحد قومة المسجد عنهم، فقال لي بلا مبالاة: "هم صقالبة من جنود خيران وبعضهم من العبيد النصارى حديثي العهد بالإسلام. يؤتى بهم لتتفصح ألسنتهم بالعربية بقراءة القرآن على يد الشيخ المُعافى".

أخذت أعدادهم تتضاعف بسرعة حتى اكتظ بهم فناء المسجد، وسرعان ما التفوا حول الشيخ المعافى بتلكؤ وملل، ولم يكن يبدو أن أحدهم يكترث لتلاوة الشيخ وصوته الأخن المنخفض، بل أمضوا الدرس ما بين العصر والمغرب في التهامس والتسارر والضحك وتقليب أسلحتهم وتأملها، فيما كنت أمشط بعيني مخطوطات متناثرة على الأرفف لأجزاء من المصحف وأوراق جمع فيها كيفما اتفق سيرة ابن هشام.

داخلتني الخيبة، ووقع في روعي أن ليس في المرية من يرغبفي الكتب ويقتنيها، فالصقالبة بعد أن انتهوا من صلاة المغرب، هرولوا إلى ساحة السوق التي تقابل المسجد الجامع، وشرعوا يتبارزون، ويجلجلون، ويقهقهون بصوت مرتفع، ويستعرضون بطولاتهم بالترس والسيف والرماح، ويعبثون ببضائع الباعة المتجولين، ويظهرون مهاراتهم في دقة رمي السهام على

معروضات الحوانيت، فقد استوقفوا بائع قثاء يدفع عربته متثاقلاً آخر النهار، وأخذوا يطلبون منه أن يضع قثاء فوق رأسه ثم يصوبون عليه. ورغم أنهم أنقدوه في النهاية ثمن بضاعته، كان واضحاً أن استعراضهم وزعيقهم كان متبجحاً أرعن، وكأنه يستقصد إرهاب تلك الأعين المارة التي تراهم وتتأملهم، هذا قبل أن يصيح بهم قائدهم: "صف"، فانضبطوا صفاً طويلاً مزدوجاً من جنديين، رافعي الهامات، مشرئبي الصدور، واتخذوا طريقهم متصعدين إلى قلعة خيران التي تربض شمال المدينة على طرف جبل غُدر. هائلة منيعة ممتدة كعش طائر عنقاء هائل يشرف على المدينة.

أحسست بالهواء المحتقن المتوتر الذي يبرق فوقه سيوف الجند ودروعهم كرائحة بغداد وأسواقها عندما يمخر جنود بني بويه الأسواق متفرسين في الوجوه بتحدٍّ وقمأة، فلا يعلمون من أين سينقض الخطر عليهم أو ينقضون عليه.

يبدو أن مشهد الرعونة والعبث الذي يسيطر على الجند أزال هيبتي منهم وشد أزري، فلن أضيع هذه الفرصة النادرة، بل سأغتنمها قبل أن تنزلق من بين يدي.

هرولت وراء صفوف الجند وعيونهم تتقحمني شزراً حتى أدركت قائدهم ذا القلنسوة النحاسية الهائلة والوجه الأحمر المحتقن، وأخرجت رسالتي إلى خيران ودفعتها إليه ورجوته أن يوصلها.

ولم يبدِ استغراباً من فعلي، بل على العكس، كان يبدو كأنه حقق امتيازاً بين جنده. ويبدو أن التراسل بالورق والرقاع بين خيران ورعيته شأن مألوف في المرية.

توقفت أسفل درب القلعة أتابع كتيبة الصقالبة في تصعّدها إلى أعلاها.

***

مررت في طريق عودتي بالدرب الساحلي الذي يجاور الميناء وما زال خط الأفق يكتظ بالسفن وآخرِ خيوط الشمس. بعضها رست والأخرى تنتظر أن يؤذن لها، والمرايا فوق الجبال ما برحت تبرق، وفق طبيعة السفن القادمة.

لكن الجميع يتحدثون بخوف وقلق عن أساطيل النورمانديين الوثنين زاعمين أنه قد اقترب عام هجومهم رغم أن الأسطول العامري بات عظيماً مهيباً بمئات السفن، لكنّ من يسمونهم المجوس لا ينفكون يهجمون على الموانئ، فهم ذوو قوة وبأس، إذا خرجوا، خلت السواحل لهم خشية وخوفاً، ولا يخرجون إلّا على رأس كل ست أو سبع سنوات، ويغلبون كل من يصادفهم ويأسرونه. يأتون بما بين ٤٥ و ١٠٠ مركب، فيعيثون بالموانئ التي يمرون بها بطشاً وتقتيلاً وتحريقاً، ويأخذون بعض الناس أسرى ويغادرون.

لا يُسمح للمارة بالدنو من مصنع السفن الهائل، فهو حوض مائي كبير مطوق بسور حجري مرتفع. خشيت أن أقترب، فأفسر على أنني أحد العيون والجواسيس. لم يكن هناك أحدٌ عدا العاملين والبحارة الخارجين منه والذاهبين إليه وبعض الباعة يبيعون أقراصاً من الشعير المُحلى، وتيناً مجففاً الواصلين الجدد من الميناء.

لكن ريح الشك تعصف في صدري، والقلق يتملكني، هل أصبت حينما دسست رسالتي إلى خيران، فهو محض جندي أعجمي؟

مقام جرة العسل

معلقاً بين اليأس والرجاء ظللت أرقب أن يصلني خبر من القلعة. أصلي بعض فروضي في المسجد الجامع وأترقب. ولم يتبدّ أمر حتى الآن؛

هل تم إيصال اللفافة؟ هل وصلت خيران أم وقعت بين يدي أحد الكتبة الذي واراها ساخراً من طموح بائع كتب متسول على أبواب السلاطين؟

في طريق أوبتي في المساء، يبدأ العمال ينكمشون عن الشاطئ رويداً رويداً، وتتوقف أصوات المطارق في دار الصناعة، ويعود الصيادون من جوف البحر تتبعهم النوارس متربصة بالمتساقط من سلالهم، وتبدأ المدينة تحتضن أقدام الرجال وتوزعها على المنازل. أدب بين طرقات المرية ويفوح من النوافذ أرَج المنازل الحميمة والزوجات اللواتي يعددن وجبة ساخنة ومخدة شذية لأكتاف الرجال المتعبة.

أحسست بشجن ووحشة، وانبعثت في رأسي رائحة اليمامة، وورد السواقي الأبيض الذي يغلق أكمامه وينام عند المساء، وأحاديث سعف النخيل لنجوم أول العتمة.

***

النسيم القادم من أعلى المرية له نكهة برقوق مجفف، والشجر ما برح يغني بصوت مرتفع مجلجل هذه المرة عزيفاً ناعماً وإيقاعاً مرخماً أطرقع أصابعي وأهز رأسي على وقعه... هل أبتاع طعامي من السوق أم أكتفي بما سيكون معين قد أعده لعشائنا؟

حينما أصل غرفتي، سأنزل جرة العسل وألتهمها. استمتع بها يا مزيد النجدي ولا تتأملها محروماً بأمر من خزعبلات المضاهاة والمشاكلة مثل الأعاريب الذين صنعوا إلها من تمر وأكلوه حينما جاعوا. دع عنك الخرافة، فلا إماماً للسراة سوى عقولهم.

كنت قد اكتشفت طريقاً مختصراً إلى النزل يلتف خلف قيسرية المرية ويقودني مباشرة إلى بوابة نزل حمدونة، ولكن عندما اقتربت، فوجئت

بجلبة ومجموعة من الرجال يقفون بجوار عربة أميرية فخمة وعجلاتها متينة ومقاعدها وثيرة تحفها أعمدة، وينسدل من سقفها ستائر خضراء لامعة، ويقودها سائسان حبشيان، ويجرها بغلان قويان برأسين ضخمين.

ظننت في البداية أنها لإحدى الأميرات الأمويات أو لأحد تجار الشرانق، فالرجال الواقفون بجوار العربة أشداء بأردية مزركشة ثمينة وشوارب مفتولة إلى أعلى كعادة مستظرفي بغداد، لا أدري، لكن أشعر أنني رأيتهم سابقاً.

هل هم نزلاء جدد يحطون في نزل حمدونة؟ هل هم من حاشية إحدى المروانيات اللواتي يرسلن لابتياع عباءات الحرير؟

دخلت الدهليز وباب غرفتي أول باب يساره، ودفعني فضولي أن أسير خطوات لأطل في الرواق والردهة الداخلية، لكنني ترددت. لا بأس، فباب غرفتي إذا أشرعته حتى أقصاه، سيظهر لي جزء كبير من الباحة الداخلية والنافورة وأعمدة الرواق، وأيضاً المقعد الذي اعتادت أن تجلس فوقه حمدونة.

ومعين حتماً سيجلب لي أخبار الزوار المبجلين الذين ضج بحضورهم الشارع.

وما كدت أخطو خطوتي الأولى داخل الدهليز، حتى فاجأني صوت حمدونة وهي تجادل أشخاصاً حولها بنبرة قوية آمرة، وما إن سمعت قرقعة باب غرفتي، حتى صاحت: "تعال يا مزيد... اقترب وافصل الأمر بيننا".

عدلت وضع عمامتي فوق رأسي، وبوجل، اتجهت إلى حيث تجلس لأجدها مشرئبة على مقعدها المعتاد وبجوارها يقف كهل نحيل، فيما تفترش امرأتان المقاعد بجوارها وقد نثرت بين أيديهم وفوق الوسائد

قطع الحرير الأرجواني والبحري والقرمزي والذهبي مهفهفاً براقاً.

وفي تلك اللحظة، تداخلت لدي الأزمنة والأمكنة، فلوهلة اختطفت من المكان، واحتجت أن أمسك مقبض الباب لأتوازن: الشعر ستائر الليل، والخناجر البراقة، وعنق إبريق الفضة، هل هي الزاهرة؟

نفحة نسرين

ليست سوى الزاهرة، لن أتوه عنها ولو أمضيت ألف عام بعيداً عن بغداد! هل بت أرى كل جميلات الأرض فيها أم تجلى طيفها لي؟

عندما وجدتني حمدونة متسمراً واقفاً في أقصى الردهة كالأبله، عادت تلح: "تعال أيها العربي المتأنق وشاركنا بذوقك في ما تراه جميلاً، فهذا الرجل"، مشيرة إلى الكهل النحيل، "يصر على أن الأزرق هو ما يلائم بشرة هذه الفاتنة".

كانت الزاهرة تجلس وقد نثرت شعرها متحللة ومتغنجة على طرف المقعد، وامرأة بجوارها ترقب تفاصيل وجه سيدتها وما يوافقها من ألوان الثياب، فيما كان فتى حمدونة الرقيع يهرول هنا وهناك جالباً المزيد من قطع الحرير.

لم يكن وسط الحلقة قطع الحرير الفاخر فقط، بل أيضاً قفاطين الديباج وأخفاف نسائية ظريفة بألوان القفاطين وأوشحة وأحزمة وعصائب رأس.

قصدتها بخطى متبعثرة محاولاً أن أبقي على هامتي مشرئبة.

التفت الجميع نحوي، لكنني لم أستطع أن أنزع عينيّ عنها. أعارتني نظرة خاطفة. حدقت فيّ قليلاً كأنها تسترجع هيئتي، ثم أشاحت بلا اكتراث كمن تعودت أن تحط العيون كالذباب عليها أينما حلت فتهشها

باستخفاف. لا أدري كيف كنت أبدو، ولكن بالتأكيد بدوت كمعتوة مستلب، وليس ذاك الفتى الألمعي الذي سمعته يصدح بالقصيد في دارة الهاشمي، هل تذكرتني؟

أنزلت ستار المتعالم حجاباً دون اضطرابي وتبعثري والتقطت أنفاسي وقلت بصوت مرتجف: "الناسك المتعبد مسكين الدارمي في المدينة المنورة قال قصائد في ذات الخمار الأسود:

قل للمليحة في الخمار الأسود	ماذا فعلت بزاهد متعبد؟
قد كان شمر للصلاة ثيابه	حتى خطرت له بباب المسجد
ردي عليه صلاته وصيامه	لا تقتليه بحق دين محمد".

البيت الأخير أنشدته بسماع مموسق لعلها تسترجعني بذاكرتها قبل سنوات في بغداد عندما أنشدت معلقة الأعشى.

كانت تتأملني وقد تغشى وجهها طيف ابتسامة، فطرت فؤادي وجعلتني أقول: "من يرتدي الثوب هو من يختار لونه، وإكرام النفس هواها، ودعوا صاحبة الشأن تختار". استوت الزاهرة في مقعدها، وكان يبدو أنها ستقول أمراً، ثم تراجعت وصمتت.

تذكرت وجه الكهل النحيل الذي يقف بجوار حمدونة، كان ذلك الكهل الغاضب نفسه الذي يمشي خلف هودجها ببغلته. تأملني من فوق أكتافه وقلب شفتيه بسخرية قائلاً: "اللهم لا تجعلنا من تُبّاع الأهواء".

أما حمدونة، فصاحت: "يا للجمال! هلّا كتبت لنا أيها الوضيئ أبياتك على رقعة لأدفعها إلى لفتيات ينقشنها فوق العباءات الحريرية السوداء".

أضفت وما زلت مبهور الأنفاس: "هناك أيضاً أبيات جميلة لنقشها

على العباءات". وسردت أبيات النواسي التي عادة ترافق ظهور الزاهرة أمام جلاسها:

ألا يا قمر الدار ويا مسكة العطار
ويا نفحة نسرين ويا وردة أشجار
ويا كعبين من عاج ويا طنبور شطار
ويا عرش سليمان إذا همّ بأسفار
وكعبة بيت اللـ ـه ذا ركن وأستار
لقد أصبحت من حبـ ـك بين الخلد والنار

ازداد اتساع ضحكة الزاهرة، فيما ترنّمت رفيقتها معي بالشطر الأخير، وهمست: "هل أنت بغدادي؟"، فيما اكتفت الزاهرة بتحريك أهدابها بغنج وهي تسترق النظرات إلي.

أزعج الكهل تبسطهن وضحكاتهن المجلجلة، وتحرك متبرماً ليقطع عليهن الحديث، فقال: "في المرية عشرات مصانع الحرير، ولعلنا قصدناك يا حمدونة دونها كلها لعلمنا بجودة نسيجك، وجمال تصميمك ولكن لا تنسي أيضاً أن أثوابك حينما تلتف حول الزاهرة سيطير بأخبارها الركبان، فلنحظ بأثمان رحيمة للأثواب".

أجابته حمدونة بسرعة من لا تعوزها بديهة: "حرير وقفاطين حمدونة ارتدتها أميرات البيت الأموي، فلا حاجة إلي بالركبان أمد الله في عمرك، لكن أنتم لكم متسع في القلب والخاطر، ومتى وصلتم منزل حمدونة لن تخرجوا إلّا وأنتم منشرحو النفس والخاطر".

واغتنمت فرصة انشغالهم بتقليب قطع الحرير والأثواب ووضعها قرب وجه الزاهرة وفوق ذراعها ليروا انعكاسها على بشرتها، وتقهقرت

إلى غرفتي خلسة أحدق في جرة العسل مشدوهاً وأنا أسألها: هل جلبت الزاهرة؟ انتزعتها من قاع بغداد إلى دار حمدونة؟ هل ستستقر في المرية أم هو مرور عابر؟

يبدو أنها ما برحت تمارس مهنتها القديمة، فبرفقتها الكهل الغاضب، والفتية الأحباش، وجاريات المعازف. الكهل الكريه لم أكن أعرف أنه يدس أنفه حتى في لون ثيابها، هل هو صائغ يجلو جوهرته؟

رغم انثيالها على المقعد بدلال، فإنها تبدو منطفئة متبرمة، هل ملت؟ أين الفوران والغنج الذي اجتاح إيوان الهاشمي كعاصفة شهب؟

تهاويت على فراشي وأنا أحاول أن أجمع أنفاسي، وفجأة سمعت طرقات على الباب ورأس معين يطل وهو يقول: "هل أجلب طعامك، سيدي؟". فقلت له وأنا مأخوذ: "لا رغبة لي في طعام الليلة".

أقلقته هيئتي المضطربة ووجهي الممتقع، فقال: "سيدي، هل أنت بخير؟"، فأجبته بصوت من لا يود الإلحاح بالكلام: "أنا بألف خير، أطبق الباب خلفك فقط"، انسحب وهو لا يزال يرمقني بفضول.

عندما أطبق الباب، أظلمت الغرفة قليلاً، فتجاسرت أشباحها على الظهور، وأخذت تدب بهدوء نحو جرة العسل لتلعقها، وتغني:

ألا يا قمر الدار	ويا مسكة العطار
ويا نفحة نسرين	ويا وردة أشجار
ويا كعبين من عاج	ويا طنبور شطار
ويا عرش سليمان	إذا همّ بأسفار
وكعبة بيت اللـ	ـه ذا ركن وأستار
لقد أصبحت من حبـ	ـك بين الخلد والنار

كم تغور عميقاً في صدري هذه المرأة، وما افتناني بفتيات القدس، أو الجنية كهرمانة، إنما هي تنوعيات على تدلّه موجع بها كامن في جوفي!

يا لعارك يا مزيد الحنفي! أيها السريّ، استلبتك غانية تبذل مفاتنها لتستدر الدنانير من أيدي الرجال، وما أنا إلّا واحد ضمن مئات صرعى سحرها، أم هو المغوي يزينها لي؟ ولكن أقسم أنني الآن لمحت في عينيها بريقاً أخاذاً ودعوة مضمرة، وتجاذب الأرواح من الأسرار الربانية السارية في عالم الأكوان.

ماذا أصنع؟ هل أشتري قفلاً وأضعه بجانب جرة العسل كي يجلبها؟ ولكن قد يقفل دربي إليها؟ ماذا أصنع؟ هل أستشير حمدونة؟ هل بدأت أشعوذ وأطرق أبواب قارئات الفأل، والسحرة، والدجالين؟ ماذا يحل بنا عندما يتغشانا الهوى والعشق ويطيش بصوابنا ولا يجعلنا نقترف الخطايا فقطن بل يسوغها، ما اسم هذا الذي يصخب في أعماقي؟

السريّ صقر لا يؤم إلّا القمة المتأبية، وينفر من اللحم الذي تعاقبته الكواسر والجوارح، ولكنها الزاهرة قمة عالية من ينالها؟

ألم يقل لي حسن المصري في بغداد إنها رفضت أن تكون ضمن حريم بلاط القادر بالله، وإنها تمنعت على البويهي وأبرمت عقد زواج صوري مع أحد العزّاف الذي يرافقونها لتكف الرجال عنها؟

حينما رأيتها في منزل الهاشمي، كانت في غاية تبرجها موجعة البهاء، ولكن اليوم عندما دنوت منها كانت امرأة فاتنة فقط وليست صاعقة. هناك طيف من لون غامق تحت عينيها بعد أن لوحتها الشمس، وذقنها طويلة ومدببة نوعاً ما، وكتفاها متهدلان، هل كان خيالي هو الذي ينشئها؟ لكن للمفارقة، هذا زادني شغفاً، فقد باتت تشبه النساء

المنزليات اللواتي قد تراهن في أفنية المنازل يطبخن، ويصخبن، ويلاحقن الصبية الصغار... ما نوع المنزل الذي ستهرول فيه الزاهرة ومن حولها أطفالها؟

وجفلت عندما أخذني تفكيري إلى هناك، فأنا من السراة، ولا تستدرجني أنثى تتقلب بين أذرع الرجال.

أحسست أنني بدأت أهدأ عندما أطلقت على الزاهرة هذا الاسم، فكأنني ألطخها! كيف أتشفى من فتنتها تلك المرأة التي تمر بجانب الأشجار فتجعلها تغني؟

أكملت ليلتي منزوياً في غرفتي خشية إلحاح الأسئلة عن سبب سهومي وامتقاع وجهي، ولكنني أضمرت أن يكون سؤالي فجراً عنها.

***

في الصباح، تريثت في غرفتي حتى سمعت صوت حمدونة وهي توجه جالبي شرانق دودة القز بالمرور، فخرجت وحييتها واقفاً بباب غرفتي متوقعاً أن تستدعيني إلى كوب حليب وبعض الثرثرة.

فبادرتها: "صباح الحرير الذي لا ينفك يستجلب النضارة والفتنة إلى منزل حمدونة".

فأجابت من الفور: "صباح الفتى العربي الذي تيمته ذات الخمار الأسود".

جفلت قليلاً، هل تشير إلى حادثة البارحة أم تستطرد عليها؟

لم أراوغها كثيراً، فهذه المرأة لا أعتقد أنه يجدي معها الاستذكاء والتعالم. قلت لها بتنهيدة ضاجة: "هل تعلمين أن المرأة التي كانت تنسدل على هذا المقعد البارحة هي أجمل قيان بغداد، وقد شاغلتهم

هناك بعذوبة صوتها وجمالها؟".

قالت بطريقتها المتباهية: "نعم، أعلم، ونحن هنا المصنع الأول الذي قصدتنا في المرية. لقد وصلت سمعة مصنعنا إلى بغداد"، ثم أردفت بمكر وقد التمع الوشم في ذقنها: "نعم، وأعلم أن الزاهرة قد خطفت قلوب الكثير من الرجال أيضاً".

آآه عادت تُعرض وتغمز وتلمز من جديد...

لا جدوى، سأقفز إلى موضوعي، ما من سبيل لمراوغتها، فقلت لها: "الحرير قد استجلب الزاهرة، والراية استجلبتني إلى منزلك، وما الأمر الذي يستبقي شخصاً في حياتي فلا يختفي منها؟ هل هو القفل؟".

قالت لي وقد رفعت حاجبيها وبدا على وجهها طيف حكمة: "ليس الأمر يتعلق بالصورة التي جلبتها، ولكن بالنية التي عقدت قلبك عليها، فإن جلبت قفلاً وعقدته على نية المكوث صار إلى ما جلبته له؛ العالم حولك هو رسائل ولمحات وإشارات، من تفطن لها وأعمل فيها عقله، فقد نجا".

طاطأت رأسها قليلاً وكانت الشمس قد تسللت إلى ردهة الدار، وبت أرى تجاعيدها وقاع عينها الذي يبرق بالأزرق الحاد بين بقايا الكحل.

قالت لي: "أيها العربي الوضيئ، قبل أن تغلق القفل، تريث، وتأمل طويلاً، فقد تستجلب إلى دارك شيطاناً أو ضبعاً فيدمر حياتك ويفنيها. تريث؛ الحكمة تتطلب منك أن تتفكر وتتدبر، فقانون المضاهاة والمشاكلة عبد مطيع يجلب ما تأمره به فقط دون أن يستعلم منك أهو خير أم شر؟".

يا ليتني انصعت لما قالته حمدونة بين أعمدة دارها ذلك الصباح... وتريثت.

لم تثرثر حمدونة في ذلك الوقت وتتبسط كثيراً كالعادة، بل استأذنت

منسحبة للذهاب إلى مشغل الحرير في الداخل، وتركتني واقفاً دون كأس الحليب.

***

رائحة بحر المرية تنسكب في صدر الزاهرة الآن. هواء أتشاركه معها تحت سماء مدينة تلونت جدرانها بأثواب الحرير.

ذهبت إلى المسجد وأنا لا أتوقع أن أجد الكثير عدا صياح الصبية وهم يجولون بين الحلقات إلى أن يختموا جزء عمّ.

ما هدفي إلّا مكاتب جوهرة العالم قرطبة. قيل لي أنه كان في مكتبة الخليفة الحكم المراوني ٤٠٠ ألف كتاب، فهل لا تزال هناك، وهو الذي دفع في كتاب **الأغاني** ألف دينار ذهبي؟

كلما هممت بالرحيل من المرية، استوقفني طارئ، هل أذهب إلى سوق المدينة وأبتاع قفلاً؟ لماذا تستوقفينني يا مرية؟ أنا الغرنوق المحلق! لماذا تنصب لي المدن شراكها دوماً؟

كل مرة غواية أشد فجوراً من سابقاتها لاستبقائي؟ كان يجب أن أكون في قرطبة منذ أيام، ماذا أصنع هنا؟

لعل خيراً قد استوقفني هنا ويقصيني عن شر يتربص بي في قرطبة، فهم يصفون أهل قرطبة بالجمل، إن خففت عنه الحمل، صاح، وإن أثقلته، صاح، ما تدري أين رضاه فتقصده، ولا أين سخطه فتتجنبه.

يقول القبطان إن هناك أسواقاً كاملة قد قامت وحوانيت نصبت في المرية، بل في جميع مدن الأندلس، من بيع ما انتهبته العامة والسراق من مدينة الزهراء الأموية والزاهرة العامرية: سجاد ومشغولات فضة وطنافس، حتى النوافذ والفوانيس قد قلعت من أماكنها وباتت تباع في

تلك الحوانيت، فأثناء فتنة قرطبة استبيح كل شيء.

اللهم احفظ الكتب. لا أدري الآن ما شأنها هناك.

***

يجب أن أوعز إلى معين أن يتهيأ لرحيلنا إلى قرطبة ويتوثق من قافلة كبيرة صاحبها جيد السمعة، فالطريق إلى قرطبة خطيرة ومليئة بالفتن والعيون، والمستعين بالله الأموي لا يطيق من قدم إليهم من مرية خيران الصقلبي، ولاسيما أن هناك إشاعات تقول إن خيران على علم بموضع الأمير المخلوع هشام المؤيد، بل يراسله أيضاً.

كما أن البربر في قرطبة تخوفوا من العامة، فإذا صهل فرس على فرس، قامت نفرة لتعصب العامة ضدهم وبغضهم فيهم، وهم رغم ذلك صابرون ينهون سفهاءهم وعبيدهم أن يمد أحدهم يده إلى أندلسي.

سأخبر معين أن يبحث لنا عن قافلة بلا تلكؤ أو تريث تتجه إلى قرطبة الأسبوع المقبل، وسأتدبر بنفسي لواعج صدري، وأستفيق من سلافتي وشطط عقلي، كي أنجو بمزيد الحنفي قبل أن يغرق في جرة عسل.

كان هذا ما عقدت العزم عليه لكن أقداري كانت تضمر أمراً آخر.

***

كان الإمام قد أقام الصلاة عندما فوجئت بالقبطان يلتفت نحوي ويرمقني من بين الصفوف المتقدمة. وبسرعة، تقهقر عدة صفوف ووقف جواري ليهمس: "لقد وجدت لك من يريد كتبك...".

ما زلت أنفر من جفنيه الثقيلين وعارضيه المبقعين بمواضع ينبت فيها الشعر ومواضع خالية منه.

ولمّا رابه صمتي، همس: "هل ما زال لديك كتب؟". يا إلهي! ما برح يدور ويلتف حول هذا، فقلت باقتضاب: "بعضها فقط، وهي ما أستعمله للعلم، وجلها ذهبت بها القوافل".

تدارك بعجل وبصوت هامس قبل التكبيرة الأولى: "القلعة تحتاج إلى كتبك".

ولعله لمح انتفاضة جفني بقوة وبلعي ريقي، هل وصلت رسالتي إلى خيران العامري؟

حمدت الله أن الإمام أطال في صلاته حتى أتدارك اضطرابي وأفكر في ما عرض علي القبطان، لكن عند بوابة المسجد الجامع، وجدته يتربص بي مرة أخرى، فواعدته أن أراه غداً، ولم أكن أدري في ذلك الوقت أن بنات القدر يتلصصن مقهقهات، لأنه في تلك اللحظة كانت تكتب فصول جديدة من رحلتي في اللوح المحفوظ.

***

خلّفت القبطان وراء ظهري واخترت أن أمضي إلى الشاطئ عبر قيسرية المرية، فالطريق هناك أقصر وأسهل. هل دعوة القبطان كانت نتيجة الرسالة التي دسستها لقائد الجند؟ ما نوع علاقته بأهل القلعة؟ هل أطمأن إليه أم هو وشاء نمام؟

لا أدري، ولكن ظللت أقلب وجهي في الحوانيت كدأبي لعلي أصادف وراقين في حوانيت منزوية لم ألمحها قبل في المرية. وبين الدعوات الملحة من أصحاب الحوانيت لي وهم يروجون لبضاعتهم، وتفرس بعضهم بفضول في الغريب الذي يمخر سوقهم، كنت أكفكف هذا عني بابتسامة متكلفة، وذلك بإيماءة من الرأس تقترب من التحية.

فجأة تناهى إلى سمعي صوت خافت لكنه ملحّ وهو يقول: "يا مسكين... أيها المسكين الدارمي الذي أذهلتك صاحبة الخمار الأسود".

لم أحتج كثيراً من الوقت لأتبين أن إحدى المرأتين المسدلتي الخمار كانت الزاهرة، فقد رأتها عينا فؤادي قبل بصري، واقتربت منهما كالمسلوب. كانت تقف هناك متجللة بخمار أزرق لا يبدي منها قلامة ظفر، وحسناً فعلت، فهي لو مرت في هذه القيسرية سافرة، فستقوم فتنة أخرى تقارب فتنة قرطبة. أما جاريتها، التي سمعتها تناديها ببستان، فاكتفت بلثام فوق وجنتيها.

هتفت حينما وقفت بهما بلكاعة: "أيها العربي، التاجر في المدينة وقد سوق بضاعته، فماذا عن الدارمي العابد، هل ما برح يتخطفه العشق؟".

يا مزيد الحنفي! هذه هي لحظة البازي النادرة التي قلما تأتي، سأخطفها أم أنهبها؟ هي لحظة الجسور، ولا يفوز باللذة إلّا الجسور... شيء طاش في دماغي، عيناها لم أكد أتبينهما تحت الخمار، بل تبدت لي أناملها الرقيقة التي كانت تلوح بخناجر الفضة. اقتربت منها لأتنشق أرجها، فما كان منها إلّا أن حسرت قليلاً عن وجهها، فلم أتدارك نفسي وأنا أقول: "إنني أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار. لا تحملي الخناجر في يدك وأنت ترقصين، لحظك خنجر، وجسدك رمح، وصمتك قول، وغناؤك تراتيل ملائكة". لم أكمل؛ غصصت بالكلمات بعد أن شعرت أن حقلي ومضماري بات مكشوفاً مشرعاً تماماً.

فعادت تغطي وجهها بغنج، وخشية أن تغادر وتغيب عن أنظاري جرة العسل، هتفت بها: "هل ترغبين في عسل صافٍ؟ أعرف بائع شهد لا يدانيه مثيل إلّا..."، وصمتّ وأنا أعض شفتي السفلى وأتقدمهما

مقتحمين قيسارية المرية.

ولعجبي، لم تترددا وسارتا خلفي نحو بائع العسل. دخلت القيسرية وحيداً وخرجت منها برفقة أجمل امرأة خطت فوق تراب المرية وجاريتها.

كانت بستان الجارية متبرمة تميل إليها وتهمس غاضبة، لكن الزاهرة لا تبالي بها وتغذّ الخطى خلفي وخمارها الأزرق يبعث بالطيوب، فيما يغني الشجر حولنا.

همست لي وهي تلاحق خطوي: "ما جلبك إلى المرية؟". فأجبتها على عجل: "ما أتى بك"، متحرزاً من الإشارة إلى اللواعج... وما تشاكل ائتلف، والمضاهاة والمشاكلة، وجميع الأمور التي تجعلني كالمشعوذ الأبله أمامها.

لم تلبث أن أردفت: "الحياة في بغداد باتت لا تطاق، فقد توازعها العيارون، والجند، وراجلة الحنابلة، والخليفة لا يملك إلّا أن يلوح لهم بوثيقته القادرية التي لا ينصت إليها أحد"، وقالت بعد تنهيدة: "لكنني هنا مرور مؤقت، وأنا ماضية إلى قرطبة، فيبدو أن الخليفة المستعين الأموي قد أمّن أنحاء المدينة".

فأجبتها بسرعة: "وأنا والله ما نزلت إلى هذا السوق إلّا لاختيار القافلة التي ستأخذني إلى قرطبة! آه لو تجمعني وإياك قافلة، سأمضي الرحلة وأنا أستمع إلى غناء الشجر".

وقالت: "أو غنائي...".

أجبت كأن بوابة النعيم انبلجت أمامي: "لقد رأيتك تلوحين بخناجر الفضة التي فرت كبدي، وسمعت صوتك في عيد الأشموني في بغداد، فلامس شغاف روحي...".

عادت جاريتها تلكزها بتوتر وبصوت متوسل: "بحق فاطمة الزهراء، هلّا توقفت عن الحديث معه". فقلت لها: "لا زهراء في هذا الكون إلّا أنت".

***

عند حانوت العسل، أخذ البائع يسرد لنا قصصاً عجيبة حول العسل الذي يبيعه، فيقول إنه قد جلبه من الجبال الموحشة البعيدة التي تحف بغرناطة، حيث يعيش هناك رجل ناسك متعبد يقف أمام الصخور ويقرأ: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾. عندئذ، تظهر خلية وتمتلئ بالنحل والشهد والعسل.

وخيّرنا بين عسل الجرار وعسل اليراع، فقلت له: "قد عرفنا عسل الجرار، فما هو عسل اليراع؟".

قال: "عسل اليراع يسخن في الشمس ثم يسكب في قصب اليراع، ثم يوضع القصب أياماً في مكان بارد حتى يعود إلى جموده، ثم تختم فوهة القصبة، فإذا أريد وضعه على الموائد، ضربت القصبة على الأرض، فانفلقت عن قصبة عسل تقطع بالسكاكين على طيفورية أو رغيف".

قلت متبختراً: "فلتجلبه جميعه"؛ الذكر لا يوفر رمحاً يتباهى بها أمام أنثاه، حتى رمح الدينار. ابتعت لها أربع جرار عسل وقصبتين من قصب اليراع، وصمت عن طمع التاجر الذي غالى في أثمانها وهو يرى تعلق بصري بالزاهرة وتخضعي لها.

فككت حزام نقودي وبذلت بسخاء، والزاهرة التي اعتادت عطايا وهبات السلاطين والأشراف تتلفت حولها بلا مبالاة، فيما بقيت مأخوذاً يخالطني بعض الخفة والطيش التي تصيب العشاق في حضرة المحبوب.

تذرعت بإيصال الجرار إلى منزلها كي أمضي المزيد من الوقت

بجانبها وأعرف في أي درب تنزل، فأنا مندفع جامح ولن أتوقف هذه المرة، ولن أغلق يدي عن ماء الكوثر الذي ينسكب فيها.

كل هذا وجاريتها بستان قلقة مضطربة تتلفت وتهمس في أذنها، ثم تتمتم: "يجب أن نعود، يجب ألّا نتأخر".

حملت جرتين، وحمل غلام بائع العسل البقية. ولأنه من سكان المرية، فكان دليلنا إلى منزل اكترته حال وصولها، لا يبعد إلّا زقاقين عن نزل حمدونة.

حينما أشرفنا على درب منزلها، ورأيت عربتها الفاخرة ذات الستائر الخضراء تقف ببوابته، مست بأناملها كفي تستوقفني قائلة: "يكفي إلى هنا، وسآتي بعد عدة أيام إلى نزل حمدونة لقياس بعض عباءات الحرير، لعلنا نراك".

ثم دون أن يبدو تعبير على وجهها انصرفت بخطوات عجلى تتبعها بستان، وقد خفّ تذمرها بعد جرار العسل. هل كانت الزاهرة تريد أن تتخلص مني أو تمنحني وعداً؟ ولكن لم أعد أبحث عن قافلة للرحيل عن المرية، فهي ما برحت تستبقيني أسيراً لها.

***

أمضيت وقتي هائماً ما بين النزل والمسجد، وأمرّ بالطريق الذي فيه منزلها لعلي أراها أو أرى من يراها. لن أدعها تذهب هذه المرة ولو اضطرني الأمر إلى اختطافها!

معين حدس بتبدلي ولم يسأل. فقط، بت ألمح في قاع عينيه بعض المكر المتواطئ. هو يختفي كثيراً هذه الأيام بعد أن أصبحت أصرفه عن الغرفة، ولكنني دوماً أحذره أن يبدي هويته البربرية أمام الحرس

العامريين، فكان يقول: "لا تبالِ سيدي، فالصنهاجيون أصبحوا ذوي جاه وسطوة ويمتلكون الآن مدينة البيرة بعد أن أمّرهم الخليفة الأموي المستعين عليها".

لم أفطن إلى ما يقول ولم أوله اهتمامي. سأستفسر منه لاحقاً، أريد الآن أن أختلي بنفسي وألم شعثي. أقفلت الباب وفتحت الصندوق وبحثت عن كتاب يأخذني بعيداً عن نفسي، فأقرأ سطراً من كتب إخوان الصفا، ونفوتني سطور.

***

"هلمّ نرقى إلى قصبة مولاي خيران"، هذا ما قاله القبطان صباح اليوم التالي بصوت آمر وهو واقف أمام نزل حمدونة.

ارتعد قلبي، ماذا يريد؟

همست: "الآن؟"، وكأنه لم يسمع ما قلت، إذ كرر: "هيا بنا... تبدو تائهاً مبلبلاً، ألم تنم البارحة؟"، وعاد يسألني: "هل بحوزتك الآن أي من قراطيسك؟".

أغاظني استهتاره بكتبي، ولعل اضطرابي جعلني أقول له بنبرة موبخة وأنا أحدق في قاع عينه: "القراطيس هي ما يوضع للبقر كطعام، أما ما هو معي، فتسمى كتباً ومدونات تمنّعت عن الجهلة والأغبياء، ولو عرف الملوك قيمتها، لنازعونا عليها بالسيوف... فيها علوم وأخبار تقلب القلوب بين إصبعين، كن فيكون".

لم يجب على ثورتي، بل أشاح عني واستمر محدقاً في الطريق، فأردفت: "أمهلني بعض الوقت، سأجلب بعضها قبل أن نرقى إلى القلعة".

أمام الصندوق حرت ماذا أحمل، وما مزاج من يطلبها" لا أريد كتاباً

يلامس ضفاف الهرطقة فينتهي رماداً، وآخر سامجاً بلا طعم فأهون في نظر المشتري. استقر بي الأمر على اختيار كتاب ابن الهيثم، وديوان الحماسة لأبي تمام، ومخطوطة كنت قد ابتعتها في الفسطاط نُسبت إلى الفارابي.

خرجت إلى القبطان الذي تبدى على سيمائه القلق والملل لطول انتظاره، فقبل أن أصل إليه، تقدمني مهرولاً إلى الدرب التي تنسرب بموازاة الميناء وتتصعد شمالاً إلى قلعة خيران.

أوصلتنا الدرب إلى جسر خشبي يعلو ساقية، ثم درجنا متصعدين في درب لون حجارتها عجيب، فقد كان قرمزياً يميل إلى الزرقة، وتخالف تلك التي كان يرقى منها الجنود الصقالبة. كان يجاورنا في صعودنا العديد من عربات الفلاحين التي تجرها الحمير والبغال. كان بعضها يحمل اليقطين والبقول، وبعضها الآخر كانت لجرار الحليب وسلال البيض.

يقول القبطان إن الفلاحين يجلبون إلى قصبة خيران قطفتهم الأولى خير محصولاتهم، حتى إذا اختارت القلعة وسكانها أجودها وأطيبها، قفلوا بها عائدين إلى سوق المرية ليصرفوا باقيها.

خطواتنا المهرولة وأرديتنا المنعمة تثير فضول المزارعين والحراس. غالبية الحرس من الجنود الذين لمحتهم في حلقة المسجد، طوال القامات، ببنى متينة، وعيون لامعة شهلاء كعيون القطط، يضيقونها متفرسين عندما نمر بهم، فأضمّ الكتب إلى صدري بحذر، ولكنني لم أكن خائفاً مترقباً فقط، فالكتب منذ عرفتها لم تجلب لي إلا خيراً، وها أنا أقصد ليس خيراً واحداً، بل... خيرين.

***

في غرفة شاسعة تقترب من الإيوان، وجدناه مطرقاً: كهل بوجه فتيّ أبيض كأنه لم تلوحه شمس قط، وفي عينيه الشهلاوين رعونة الفتيان وطيشهم، لكن فوق لمته الشائبة المائلة إلى الحمرة يربض الكثير من الحزن.

فلمّا وقفنا بين يديه، رمق القبطان باستفسار أولاً، ثم عاد ليتأملني قبل أن يشير بيده لنا إلى الجلوس.

انحنيت احتراماً له وقلت: "أسعد الله صباح مولاي خيران".

همس القبطان من بين شفتيه: "إنه ليس مولاك خيران".

جلست وقد داخلتني هيبة، فهذه الإشارة المتأنفة باليد لا تكون إلّا للملوك والسلاطين، حتى سيدي الهاشمي لم يلوح بها.

توجست؛ من يكون هذا الرجل الواجم الذي يشبه قصراً مهجوراً؟

لم يكن وحده، بل يقف خلف كتفه مطرقاً باحترام شيخ أبيض الشعر، حليق الذقن، أزرق العينين، كأنه ملاكه الحارس.

سألني وهو ساهم: "ما لديك من الكتب والمخطوطات؟ هل لديك كتب يعول عليها أم أنك من التجار الذين دنسوا المخطوطات وأدخلوا على سطورها مغازي ومقابسات الرعاع والعامة، وباتوا ينسخونها كيفما اتفق؟".

ثم التفت إلى الشيخ الذي يقف خلفه قائلاً: "بتنا نرى الكتاب ينسخه الأعجمي وهو لا يفقهه، فيأتي بالأعاجيب، فتجد سطراً مرقوماً وآخر لم يطاوله أي عجمة للحروف! كم يفسد هذا متعتنا بالكتاب!".

أطرق ولم تغادره سمة النبلاء رغم بعض الذهول الذي يخالط حديثه، لكنه سرعان ما أردف: "لا يهمني كوني ابناً للسلالات الأموية، فالسلف ولدوا أجسامنا، والفلاسفة أنجبوا نفوسنا، فأنا عندئذ أكون ابن الفلاسفة".

تطوع القبطان الذي ما برح واقفاً عاقداً يديه بتخضع، وناوله الكتب التي كانت بحوزتي، ومضى يقلبها، ثم أشار بيده لنا أن انصرفوا، متمتماً: "سأطلبك حتماً في وقت لاحق، اذهب الآن".

صرفنا كما تصرف القطط عن مائدة الطعام. لم أجرؤ أن أسأل القبطان من هو لكنني تيقنت أن هذا الكهل قد تقلب صولجان الحكم بين يديه زمناً طويلاً.

***

تلكأت الزاهرة، ولم تحضر لتجربة أثوابها إلّا بعد أسبوع. كنت طوال الوقت أوارب باب غرفتي من بعد أذان العصر ترقباً لها. لم أعد أجد تلك اللذة الفائقة وأنا أقلب كتاب أرسطو، فأقرأ سطراً، ثم تشهق موجة هائلة من خلفي تجرفني وتقذفني إلى حافة اللثام فوق خد الزاهرة. ماذا فعلت بي؟ مأخوذاً مشتتاً عازفاً عن الكلام، متخلياً عن عادتي في تقليب الكتب، أو تمرين حافظتي بأبيات شعر استودعها صدري، فتكون زاداً لي في المجالس وفوق المخطوطات.

أخذت بدلاً من هذا أتردد على حمدونة متحججاً بعرض أبيات عربية تنقشها على عباءات الحرير والقفاطين. وفجأة قالت لي حمدونة عندما أقبلت عليها للمرة الرابعة: "ما خطبك يا مزيد؟ ماذا يتغشاك؟ تبدو كأن عفريتاً يتخطفك؟".

حمدونة التي مر بها من ضروب الحب والعشاق بعدد شعر شيبتها همست لي بمكر كأنها تشي بسر: "ستحضر اليوم زاهرة بغداد لتجرب أثوابها التي أوصت بها، فتياتي يبدأن نسيجها وحياكتها كل يوم مع نور الفجر إلى منتصف الليل، فهي في عجلة من أمرها ويبدو أنها ستغادر

إلى قرطبة قريباً".

لا أدري في تلك اللحظة، هل هو الطيش الذي ينسبونه إلى الشباب أم الخبل الذي يرافق العشق، قد استعار لساني، أم تراها وداعة شما الوائلية التي تتبدى لي في حمدونة، التي جعلتني أقول: "سألتك بالله يا حمدونة، استبقيها...".

ضحكت حمدونة بأسى وقالت: "يا مزيد، والله ما أرى إلّا أن عشقها قد أتلف عقلك".

***

لم تحضر الزاهرة إلّا قبيل المغرب. كان برفقتها بستان والكهل الغاضب فقط، لمحته يهرول خلفها وهو يتلفت ويرمق أرجاء باحة نزل حمدونة بفضول. وعندما وازى الزاهرة تحت شجرة البرتقال، ظهر قميئاً ناشفاً، فقد كانت بقامتها الباذخة تفوقه طولاً بشبر.

هل هي تلك اللحظة التي قرر الله فيها أن يجعلها لي؟

"إذا أتتك الزاهرة، قولي لها: الفتى العربي، تاجر الكتب، قد شغف بك حباً"، هذه آخر جملة تلفظت بها لحمدونة، ولم أكن أتخيل أنها ستجمح بعبث متضاحك لخطبتها، ولم أستوقفها. فإذا كانت الأيام قد اختارت لي ذلك للقرب منها، فهو أقصى المنى. هذا قبل أن تنطلق الأحداث حولي كحصان عصيّ، وتلتف وتدور وتقذفني، أنا والزاهرة، في غرفة وتغلق علينا الباب، في حين أن بقية سكان النزل يهزجون احتفالاً بزفافنا في الخارج.

ما حدث بعد هذا أذكر منه شذراً ولمحات خاطفة: وجيب قلبي في أذني، وصدري يعلو ويهبط بأنفاس ثقيلة. أذكر أن الكهل الغاضب قد رفع حاجبيه مذهولاً ساخراً، فيما ألقت الزاهرة برأسها إلى الخلف وهي تشهق بضحكة مجلجلة قبل أن تستوي على مقعدها من جديد تستجمع نفسها، وتمسح دمع الضحك الذي طفر من عينيها، وترسم ملامح الجدة على محياها وتقول: "ولقد قبلت".

لم تنتظر رد الكهل رفيقها بل أردفت: "ومهري هو أربع جرار عسل قد دفعت لي".

في تلك اللحظة، مشدوهاً أقلب عيني في الوجوه، وأكتشف أن الكهل الذي يرافقها محض عباءة لا رجل داخلها. هو فقط بمقام مهشة تهش بها الزاهرة الذباب حولها بعد أن ظننته صائغاً يجلو جوهرته، إذ صاح بها محتجاً: "لا وقت للعبث، القافلة ستسير يوم الثلاثاء واليوم هو الخميس متى ستتزوجين؟".

عند ذلك، صدحت حمدونة، أو لعله معين: "لنجعل قرانكما يوم السبت"، لكن الزاهرة قالت وهي تقبض شفتين جازمتين ما برح بقايا الضحك فوقهما: "بل غداً الجمعة المباركة".

كل هذا والحصان منطلق متصعداً بي فوق الحصى والشوق والشوك وحقول البنفسج. وما لم أنسه أيضاً أن الزاهرة رمقتني بتغنج، وقالت بصوت ثابت غير مهتز: "سيكون قراني هو القران القيرواني الأندلسي، كنساء الأندلس"، أي أنها كانت قادرة على مفارقتي وخلعي ودفعي من حياتها أي لحظة.

لم أبالِ ليلتها، ولم أتوقف، ولم أستكنه ما تقول، فالحصان الجامح

لم يترك لي مهلة لالتقاط أنفاسي.

أذكر أيضاً أن حمدونة صاحت وأطلقت هلاهل: "عقد زفاف مبارك".

عدا هذا هو خلط ونتف من صور: ضحكات وغضب واستنكار ونعس، ومعين والفتى الرقيع يدخلان وسط الباحة يرقصان ابتهاجاً، وفتيات حمدونة يصفقن لهما، والزاهرة اختفت من أمام ناظري وقد جعل من فوقي وأمامي وخلفي سداً.

حقاً لم يستدرجني إلّا قدري... فالذي حدث بعد هذا كثير.

***

فجر يوم عرسي أخذت أتمتم: "أنا مزيد النجدي الحنفي الغرنوق السريّ، الذي يتبع إمام عقله، ماذا سأصنع الليلة؟".

ما أنا فاعل بعد أن اُصطفيت واحداً من السراة، أولئك الذين يكمن بين صدورهم شعلة هذه الأمة وعقلها، يخفونها خلف الضلوع خوفاً عليها من حريق النصوصيين الذين يحملون الكتب كما حمل اليهود أسفارهم؟

أنا سادن كتب السراة الذي يجب أن أستزرعها في كل جامع، وداخل كل مكتبة، وعند أرباب العلم وأولي المعارف، حتى لا تفنى.

ماذا سيصنع بي السراة وأنا مطالب بالسرية والتكتم والبعد عن الضوضاء والجلبة والضوء والبحث عن الظلال متوقياً الريبة والفضول، لكن بدلاً من هذا استجلبت كرة من لهب وفضة إلى حجري؟

هذه المرأة التي تعلن قدومها الأشجار فتغني، وتتبعها العيون فتشهق، وتتقافز خلف خطوها العقول، وبخناجرها الفضية تقطع نياط القلوب...

على ماذا أقدمت، وماذا صنعت؟

أنا الحنفي الصامت الغامض الذي كانت شما الوائلية تضع فوق وجهي لثاماً خوفاً عليّ من الأعين، دعوت كل الأعين إلى حديقتي، هل لدي وقت لأفر؟

تلك الأسئلة كانت تحوم في رأسي كهمس خافت قادم من خلف جدار أتبين بعضه ويفوتني جله، فأنا لم أكد أسمعه.

***

كان جدي يقول: "إذا أصابتك حيرة في أمر، فأسلمه للوقت، وتريث قبل قرارك...". لكن الحصان الجامح منطلق لا يلوي على شيء، أين سيقذف بي هذا الحصان؟

أهرول باتجاهها وروحي يخالطها بعض الحقد على الماضي وليالي الوحشة الوحيدة. أريد أن أنهلها كلها فتصبح لي ومني، وسأخفيها عن العيون وأخبئها بعباءتي، ولن يكون باستطاعة أي كان أن يلمح شعرة منها.

قمر الدار ومسكة العطار

لم أحر في اختيار امرأتي وزمان الزفاف ومكانه، فقد ساقتها الأقدار إلي. هل علامة الموافقة الإلهية هي التيسير؟ سيل محتطم يجرف كل شيء في طريقه لا أملك سبيلاً لمقاومته... أم تراهم ساقوني إليه كالكبش؟

تولت حمدونة الترتيبات كأنها خطوة لا بد أن تكملها بعد خطبتها الزاهرة لي، فقالت: "بإمكانك أن تتزوج هنا في نزلي، ولتصدح أرجاؤه

بالسرور والفرحة التي لم يشهدها منذ زفافي الأخير. سننشد ونغني، ونراقص الريح، وفروع الشجر، فهذا المكان لم يدخله غناء منذ زمن طويل، وبجانب هذه النافورة المطوقة بشتلات الفل والريحان سنعقد قرانكما كي تظل حياتكما خصبة كينبوع".

هرولت نحوها وقبلت رأسها، وأنقدتها بعض الدنانير الذهبية كي تقوم على الاحتياجات والترتيبات. أبدت في البداية بعض التمنع، لكنها سرعان ما وضعتها في صندوق حول خصرها وهي تقول: "غداً اذهب بعد صلاة الفجر إلى أحد الحمامات واستعد، وأنصحك بحمام فاخر، ستجده إذا خرجت من النزل وسرت يميناً في هذا الطريق نفسه. سينتهي بك في الساحة التي ينحدر إليها الفلاحون القادمون من قلعة خيران. ابتع منهم ريحاناً ليضعوه مع ماء الحمام، وابتع جوزاً فهو يجلو الأسنان، وابتع لك تفاحاً"، ومع نظرة خبث قالت لي: "فزفافك إلى تلك الفرس غداً، ويجب أن تكون خيالاً فحلاً".

أضافت: "هناك اسأل عن حمام نزهة المشتاق، وقل لصاحبه: أتيتك من طرف حمدونة كعريس وسيتكفل بك، ثم إذا انتهيت وصليت الجمعة، مرّ على سوق الصاغة، وابحث عن حانوت الصائغ اليهودي يعقوب، وابتع منه سواراً وخاتماً واجعلهما ثمينين. لا يغرك أنها قالت لك في الأمس إنها ستكتفي بجرار العسل، فالنساء تلتف الحلي على قلوبهم قبل أن تجد طريقها فوق أعناقهن. بعد هذا كله، عد إلي، وستجد أن كل شيء قد تهيأ بانتظار العربي الوضيء".

كيف يجعلني العشق ودوداً كريماً كالطلي الذي يماشي ضرع أمه؟

ليلتي تلك قضيتها في حضرة شما الوائلية، فقد رافقتني حتى الفجر، وحادثتني لكنها كانت مشيحة لم تنظر إلى وجهي كحالها عندما كنت

ألح للسفر إلى بغداد، هل هي غضبى؟ ورأيت أيضاً جدي لكنه كان مبهماً كسحابة من ضوء يظهر في الحلم ثم يعود ويختفي، كان لا يزال منكباً على أوراقه يكتب ويدوّن، ماذا كان يكتب؟ اقتربت منه كعادتي أتلصص على ما يخطه. كان يكتب رسالة إلى خيران... لكن لم يكن يسميه الصقلبي، بل خيران الأموي، لم يغادرني جدي إلّا مع مطلع الفجر.

عندما استيقظت من منامي، تسمرت عيناي في السقف، لماذا كان جدي يكتب خطاباً للقائد خيران ويسميه الأموي مع أن خيران ليس بينه وبين البيت المرواني الأموي كبير وداد، فسيده منصور بن أبي عامر هو الذي استل عرش الأمويين من هشام المؤيد؟

***

باكراً لففت ثيابي الجديدة في صرة وقصدت تلك الساحة التي تتوسط الجزء الغربي من المرية؟ كان أوائل الفلاحين قد قفلوا من القلعة واصطفوا على شكل حلقة وصوت ثغاء أغنامهم يعم الساحة. يعرضون محصولهم فوق عربات خشبية فرشت بالقش، ويصفون فوقها بواكير المشمش والتفاح، وجراراً فيها حليب، وآنية خزفية للزبدة والمخيض. كانت الفلاحات بشوشات يقدمن فاكهتهن مع ابتسامة، وعلى صدورهن أطفال يتبسمون للشراة. أما الفلاحون، فيكتفون بالتهليل والتكبير والترويج للبضاعة بأهازيج مموسقة.

في الصباح الفرح المتقافز في الساحة، ابتعت الريحان والجوز والتفاح، وحملته إلى حمام نزهة المشتاق، وبين البخار ورائحة الصابون عدت أسترجع حلم البارحة، هل شما متكدرة من قراني؟

رفضت كل نساء اليمامة الرشيقات الضامرات اللطيفات اللواتي كانت

ترشحهن لي، فما كنت أرى فيهن سوى قيد يربطني إليها... الفرار من حبال الذعر التي كانت تربطني بها وأنا صغير حتى لا أبتعد وألعب مع الصبية الكبار، فيقطفون الورد عن خدي، ولكن زاهرة الفرس قطفتني كلي.

أعلم أنها ليست المرأة التي تتمناها الأمهات عادة لأبنائهن؛ بكل هذا الضجيج حولها والفتنة والمفاتن المبتذلة، وبوجه صاحب الحسن يطيل عمر من يحدق به، وبيدين صنعتا من زبد وجُعلتا لنقوش الحناء والتثني فقط لا لعجن الدقيق أو حمل الأطفال.

***

كانت خطبة الجمعة لذلك اليوم عن فتنة النساء المتبرجات المائقات المغويات، وتمتمت في صدري: من يقصد الخطيب بهن؟ لم أشهد في السوق سوى فلاحات متعبات مشققات اليدين. من يقصد بالمائلات المميلات اللواتي يجررن أزارهن؟ هل مرت الزاهرة به أم بدأ الشيطان لعبته في رأسي؟

سوق الصاغة لم يكن بعيداً، أو هو تقريباً خلف حمام نزهة المشتاق. كانت بضعة حوانيت متجاورة تتفرع من القيسرية، اثنان منهما فقط يبيعان الحلي، فيما كانت الأخرى تبيع عطوراً ولفات من حرير ومساحيق الحمام إلى جوار المصاغ والحلي.

اليهودي يعقوب صديق حمدونة أخرج لي سواراً وهو يتفحصني لكي يحدد السعر الذي يعرضه به. كان له طبع التجار العريقين الذين تألفهم بعد جمل قصيرة، ويلاطفونك بوداد الرفاق القدماء، فأعطاني مقعداً صغيراً من القش، وقدم إلي مشروب ماء الزهر، وأخرج قطعة

من الديباج كان داخلها سوار ثمين نقش فوقه: "لادائم إلّا الله"، وعلى رأسه تلتقي حيتان.

قلت له بنوع من السخرية: "هي عروس. ولن أقدم إليها ثعابين وجملة تقال بجوار المقابر في ليلتي الأولى". استعاد السوار مني وقد عرف أن مرامي هدية عرس، وعرف أن أنثاي أثيرة لدي، فقال: "هناك حلية تليق بعروسك، ولكن لا أدري هل تقوم بثمنها؟"... الفخاخ الدائمة التي ينصبها البائع لفريسته، فقلت له باستخفاف: "لنر ما لديك؟".

فغاب صاعداً سلماً خشبياً يرقى إلى فتحة في سقف جانوته، وسمعت خطواته تدب فوق خشب الدكان قبل أن تطل قدماه النحيلتان من جديد، وينحدر وبيده كيس من ديباج أزرق.

وارب باب الحانوت قليلاً، وأوقد فانوساً ورفعه، وباليد الأخرى بدأ يفتح رباط كيس الديباج، واستل من داخله عقداً هائلاً كان على شكل تاج لكن يلتف على الرقبة، مرصع بالعقيق الأحمر القاني، مشغولاً بالذهب وعلى أطرافه حبات لؤلؤ تبرق كالدموع. لم تقع عيني على شبيه ذلك من قبل حتى في دكاكين صاغة بغداد.

وقف الصائغ اليهودي يتأمل تعابير وجهي عارم الصدر كأنه يسرد مزايا ابنة مدللة على خاطب متدله:

"هذه الأحجار مجلوبة من فارس، وهي عقيق نادر يتناثر حول كهف فيه معبد لا تنطفئ ناره، ويحرسه ثعبان هائل كلما اقترب أحدهم من النار، هجم عليه واعتصره، وأصبحت قطرات دماء الرجال هذه الأحجار المتناثرة على سفح الجبل، لا ينالها إلّا الجسورون، أولئك الذين يضعون أرواحهم على أكفهم ويستطيعون التسلل إلى الجبل ما بين فجة الضوء وشروق الشمس، وهو زمن غفوة صغيرة ينامها الثعبان الهائل، فيجمعون

هذه الأحجار على عجل، ويبيعونها على الصاغة بأثمان باهظة".

قلت وفي صوتي رنة من سخرية: "هل عدنا إلى الثعابين مرة أخرى؟"، محاولاً أن أستهين بالعقد وأقلل ثمنه أمام هذه القصة العجيبة التي اختلقها الصائغ. فقال: "أحجار العقيق هذه تنبض وتحس وتسمع، وتجلب الفأل الحسن".

ولم يخبرني في ذلك الوقت أنها تجلب أيضاً الشؤم والمصائب، فهي قطرات من دماء رجال وأحلامهم ومغامراتهم تحجرت وأصبحت قلادة مهيأة لتلتف على جيد حسناء.

لم أبالِ بالثمن الذي طلبه مني، إذ لم أكن أراه إلّا وقد التف على جيد الزاهرة، وقد أبدت بعض الدهشة واللهفة. كما غادرتها نظرتها اللامبالية الساهمة التي تشعرك أنها تمر مروزاً عابراً على الأشياء، فيما يكتنف أعماقها همٌّ يأخذها عن الموجودات.

***

قفلت راجعاً إلى النزل فوجدت الجلبة تستقبلني من أول الدرب، وأشخاص يدخلون ويخرجون من البوابة لم يسبق لي رؤيتهم. وعندما لمحوني مقبلاً، أخذوا يتهامسون باسمين، وقد فُرشت بسط في الطريق أمام البوابة الخارجية للنزل. أما في الردهة الداخلية، ففرشت زرابي هندية واصطفت أرائك تحت شجر البرتقال نثر بينها وسائد ملونة، وأمام كل وسادة كان هناك خوان صغير وضع فوقه بعضِ النقول والفواكة المجففة. وحول النافورة تجاورت دوارق فيها ماء منكه بالليمون والنعناع وآخر بالورد، وأوانٍ خزفية فيها لبن مغطى بمناديل من الحرير المزركش الأطراف بالخرز.

فما إن خطوت خطوتي الأولى من الباب، حتى هرعت العاملات يهزجن ويطلقن الهلاهيل، ويطقطقن بصنجات خشبية صغيرة بين أصابعهن، ويغنين أغاني أعجمية لا أدري هل هي للصقالبة أم للبربر، لكنها بعثت في نفسي البهجة والسرور. وفي الغرفة، كان معين والفتى الرقيع قد فتحا نوافذها، وأظهرا بسطها للشمس، ولمّعا أثاثها الصدفي وجلّيا مرآتها، ووضعا في جرارها ماء ورد، وجهزا أغطية ولحفاً جديدة معطرة بعطر النارنج.شعرت أنني أريد أن أهرب من كل هذا لألتقي بمزيد الحنفي وأسأله: هل أنت جاد في ما أنت مقدم عليه؟ زوج لغانية قد تركلك خارج خبائها أي لحظة؟

هل هذه الغرفة التي ستشاركني فيها الزاهرة الليلة؟

***

بعد صلاة العصر، بدأ الضيوف يتوافدون: أصدقاء حمدونة، وعاملات المشغل، والجيران. حتى صاحب الحمام وبعض صبيته، والصائغ اليهودي يعقوب، لبوا دعوة حمدونة، ولكن لم يبدُ أي من الزاهرة أو جماعتها.

لم تبعث حتى بحاجياتها إلى غرفتي؟ هل كانت تسخر مني ومن حمدونة، ومن الصائغ اليهودي، ومن الجميع، وهي الآن في طريقها نحو غرناطة تقهقه ساخرة والكهل الغاضب؟

لم يخفني هذا الهاجس بقدر ما أخافني الجزء الذي في أعماقي، الذي يتمنى حدوثه، فأنجو من شرنقة الحرير. ولكن قبل أن أبدأ في تقليب الأمر على وجوهه، تناهى إلى سمعي صوت العازفات يصدحن من أول الدرب:

ألا يا قمر الدار ويا مسكة العطار

ويا نفحة نسرينْ ويا وردة أشجار

ويا كعبين من عاج ويا طنبور شطار

ويا عرش سليمان إذا هم بأسفار

ألا لعنة الله عليهن. لم يجدن سوى هذه الأغنية التي كن يدخلن بها الزاهرة على عيون الرجال يفترسنها، فخرجت إليهن صائحاً: "توقفن عن المعازف في الحال، فالشيخ الذي سيعقد قراننا قد حضر، فاخرسن احتراماً له"، فقهقهن برقاعة ودخلن.

الزاهرة كانت مجللة بحرير أحمر مقصب من رأسها إلى أخمصيها، فلم أتبين وجهها. التقطت يدها، ضغطت على كفها لأتحقق منها، فهمست: "أنا خائفة ومرتبكة".

كنت أود أن أسألها هل هي المرة الأولى، هل سبق أن جربت، هل هي بكر أم ثيّب؟ هل هي عبدة أم حرة؟ لكن الشيخ الذي عقد النكاح تكفل هذا لأعرف عند عقد الزواج أن الزاهرة حرة لكنها ثيّب وعمرها ٢٦ عاماً، وسرعان ما وجدت نفسي أختم على وثيقة الزواج الأندلسية التي دوّن في أسفلها:

وطاع الناكح مزيد بن عبد الله الثاقب الحنفي، لزوجه أناهيد بنت نادر شاه الكرماني، بعد أن ملك عصمتها، استجلاباً لمودتها، وتقمناً لمسرتها، ألا يتزوج عليها، ولا يتسرى معها، ولا يتخذ أمّ ولد، فإن فعل شيئاً من ذلك، فالداخلة عليها بنكاح أو مراجعة طالق، والسرية وأم الولد حرتان، وألّا يضرها في نفسها، ولا في أخذ شيء من مالها، وألا

يغيب عنها أزيد من ستة أشهر إلّا في أداء حجة الفريضة،
وألّا يرحلها من موضع إلا برضاها، وألّا يمنعها من زيارة
أهلها، فإن فعل شيئاً من ذلك، فأمرها بيدها.

لم يلفت نظري من كل هذا إلّا أن الزاهرة اسمها الحقيقي أناهيد، فلمّا انتهيت من توقيعي وخاتمي أسفل الرقعة، دسوها للزاهرة تحت خمارها لتبصمها، ولتحتفظ بها.

هل أنا كبش ابتاعته الزاهرة واحتفظت بقيده؟ وقبل أن تبدأ شياطين الشك تعبث برأسي، بدأت العازفات بالهلاهل والدق بالطبول والصناجات، وافتتحوها:

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيهاً
وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلة من يشتهيها

وعندما دلفنا إليهم، كان المكان قد اكتظ والأنس اكتمل، والحضور استبشروا بسماع وطعام، ولا شأن لهم بأعرابي اقترن بغانية فارسية ظن أن اسمها الزاهرة، ولكنها في حقيقتها أناهيد.

***

كان هناك ركن قد أعد لنا: مقعدان قد تجاورا وحفتهما الوسائد وسلال فيها تفاح، وعقود نظمت من ريحان وفل رفعت كمظلة فوق المقعدين، فما إن استقرت الزاهرة عليه، حتى هرعت النسوة إليها يطلبنها لترقص.
جمدت دمائي في مواجهة الأسئلة التي قذفتها خلف ظهري وأنا أوقع عقد قراني.

سترقص... وتبذل مفاتنها، ومشقوق ثوبها، ويظهر أعلى فخذها ناصع

أملس؟ امتقع وجهي، ثقل تنفسي وأحسست بالاختناق كجرذ يحدق به سنور. رغم الألوان التي ظهرت على وجهي، لكنها لم تحجم، بل هي تسن قانونها الأول: ليست عذراء ملتفة بأثوابها ستجلس تحت قدمي.

رقصت ولم تسرف في التثني، بل نهضت متجللة بردائها ودارت دورة بخطوات متعجلة حول النافورة، واقتربت مني وعلقت على رقبتي عقداً من الفل والعازفات يصدحن:

يا كامل الحسن يا مدلّل   بالله فاقصر من الصدود
ارحم قُلَيْبي الذي مُدَرْول   لا تألف بالنفر والصدود

***

مع أذان المغرب بدأ الحضور يتسربون، فطلبت منا حمدونة أن ندور حول النافورة سبع دورات كأنه طواف حول الكعبة تماهياً مع حج نحجه العام المقبل معاً.

نطوف ونشوة تمطر فوق أطرافي... وعام كامل برفقة الزاهرة، عام بفصوله الأربعة، ثم ننهيه في أم القرى نشكر ربي على نعمه، وأوزّع كتب السراة على الحجاج. من هناك ستنتشر كضوء الشمس إلى كل فج عميق.

وبانتهاء الطواف، انسربنا إلى الغرفة، وأُغلق الباب علينا، أنا وجرة عسل.

أريد أن أمضي ليلتي الأولى وإياها وأنا أتأملها. استلقت منهكة فوق المخدة، وفردت شعرها فوق مخدتي وقالت: "أنشدني قصائدا". لمست بيدي حنكها الذي ينتهي بذقنها المستدقة، وقبلتها من جبينها، ودسست رأسي في جيدها وغفونا.

الفرخ

عندما استيقظت كانت لا تزال نائمة ترتدي غلالة من الحرير الأبيض، وشعرها ما برح يتماوج على المخدة. اقتربت بفمي من فتحتي أنفها وقطفت أنفاسها. كانت رتيبة لكنها ساخنة. حوض الماء في ركن الغرفة خُلط ماؤه بالفل وزهر البرتقال، فسكبت ماءه البارد على جسدي، وأخذت أرتدي ملابسي وأنا أترنح.

أريد صلاة شكر طويلة، أريد حديثاً هامساً طويلاً مع ربي ومع مزيد. وضعت العقد الثمين جوار رأسها على المخدة، وواربت الباب بهدوء وغادرت الغرفة، ليتلقفني عند الباب معين، ويبدو أنه كان ينتظرني: "نهارك طيب عامر بالمسرات".

فقلت له: "لك ألف عام من الطيب يا معين".

فقال بتحفز: "رجل يقف بالباب من بعد صلاة الفجر، ويود رؤيتك لشأن مهم".

لم يكن سوى القبطان كما خمنت. قال لي بكلمات مقتضبة: "القلعة تريدك"، وصمت دون أي تفاصيل.

لا ليس صباح عرسي يا قلعة خيران، فهل اقتربت من عرين الأسد؟ ومن يقترب هناك لا أعتقد أنه سيمر سالماً. برعونة، تصيدت مشترياً في قلعة خيران فكنت كمن وصفه أبو الطيب:

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده   تصيّده الضرغام في ما تصيّدا

***

أمضى القبطان الطريق المتصعد نحو القلعة مقطباً. حاولت أن أستدرجه حول سبب استدعائي لكنه انغمر في صمت عميق... إلى أين يقودني هذا الكريه؟ هل اكتشفوا الهرطقة في الكتب ويريدونني حطباً لتلك الكتب؟ يا لبؤس حظي! لم أمض مع الزاهرة سوى ليلة فقط...

قطعنا البوابة والأروقة دون أن يستوقفنا الجند، فيبدو أنهم ألفوا وجهي. وتمتمت وأنا أتلفت بوجل: هل سأخرج على أقدامي من هنا؟

***

وجدت السيد النبيل الغامض في إيوانه ينتظرنا. كان واقفاً يتمشى جيئة وذهاباً هذه المرة حاسر الرأس وعليه ثوب من الحرير الأزرق، وحزام مقصب يلتف على خصره فيبرز قصر ساقيه. فما إن اقتربت محيياً منحنياً، حتى بادرني دون أن يرد التحية: "وددت أن أسألك يا مزيد، يقال أن علي بن يحيى المنجم كان له خزانة كتب عظيمة في مجلسه سماها خزانة الحكمة، وكان يقصدها الناس ويتعلمون منها، والكتب والنفقة مبذولة من علي بن يحيى، هل تعرف مآل تلك الخزنة؟".

تذكرت مكتبة سيدي الهاشمي، فكانت أمراً مقارباً لها، فقلت له: "هل تقصد مكتبة وقف الهاشمي في بغداد؟"، فقال لي: "لا، تلك سمعنا بها، لكن ما أعنيه تلك المكتبة التي قصدها أبو معشر المنجم، وقد كان في طريقه إلى الحج، وهو إذ ذاك لا يحسن كثير شيء من النجوم، فأقام في المكتبة وأضرب عن الحج، وتعلم فيها علم النجوم وأغرق فيه حتى ألحد، فكان ذلك آخر عهد أبي معشر بالإسلام".

قلت له: "ما علمنا عن هذه يا مولاي، ولكن نعلم أن دخولك المكتبة كدخولك أرضاً مسبعة مضبعة، فيجب أن تشهر سيف عقلك وتصارعها،

وتنازل كل حقيقة تقترب منك، وإلّا انتهى بك الأمر أسير حقيقة واحدة، وفي بطن أحد السباع".

رمقني وقد ضيّق عينيه، ولعله راق له ما قلته، فالتقط ديوان **الحماسة** من أحد الأرفف، وقال لي: "هل لك علم بحكاية أبي تمام في بلاط الخليفة المعتصم؟". أخذت أكدّ وأعصر ذهني متلقطاً تفاصيلها من ردهات عقلي الذي ما برح يطقطق في دهاليزه منذ البارحة صناجات الخشب في أيدي السنديات.

قلت متلعثماً: "إن الشاعر أبا تمام كان شيخ المجددين في الشعر..."، فاستوقفني بإشارة من يده وهو يهتف: "لا أريد أن تسرد علي سيرته، بل أريد حكايته في بلاط المعتصم. عندما مدح ابنه ببيت الشعر:

إقدامُ عَمْرٍو في سَماحةِ حَاتِمٍ   في حِلمِ أحنَفَ في ذَكاءِ إيَاسِ

فقال أحد وزراء المعتصم: شبهت ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب".

يبدو أنه يعرف حكاية أبي تمام، لكن يطيب له سماعها وتردادها من جلاسه كشأن ذوي الجاه والمنزلة. فأجبته بعد أن أسعفتني ذاكرتي بأبياتها: "نعم، تذكرت الأبيات التي نظمها أبو تمام للحظته وببديهة عجيبة وهو واقف بين يدي الخليفة على الروي القافية نفسيهما رداً على الوزير الحاسد، فقال:

لا تنكروا ضربي له من دونه   مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره   مثلاً من المشكاة والنبراس".

عند ذلك هز الرجل النبيل الغامض رأسه بنشوة، وقال:

"نعم صدقت، وهنا أبو تمام يشير إلى الآية الكريمة: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾".

من هو هذا الكهل العليم المتفيقه؟ وقبل أن أسترسل في هواجسي وظنوني، التفت إلى الشيخ الأشيب ذي الأعين الزرقاء الذي يرافقه دوماً يقف خلف كتفه ويهمس: "أنقده ثمن الكتب".

في كلماته ولفتاته هيبة السلالات السلطانية، من هو؟ هل سيخبرني القبطان الشرس الغامض عنه؟ فلن أجد خيراً منه كمستودع لكتاب إخوان الصفا والكندي.

انحدرت وحيداً من قلعة خيران وفي جيبي نقود ذهبية نقش عليها: الخليفة هشام المؤيد عام ٣٩٦، نقود سكت في عهد الخليفة الصغير الذي أُختلس عرشه، وكانوا يسمونه الفرخ لضعفه وقلة حيلته. وبغيابه، اشتعلت الحروب والفتن بين المروانيين والبربر والعامريين.

ويقال أن الخليفة المستعين قد ذبحه، وبعضهم يقولون إنه فر متخفياً إلى الجزيرة الخضراء، وبعضهم يقولون إنه لجأ بزي كناف إلى المرية ولاذ بخيران العامري، هل...؟

ارتعشت أطرافي، ما هذه الضفاف التي أشرفت عليها يا مزيد؟

***

في المنزل، كانت الزاهرة قد تبرجت وتهيأت كحورية تسللت من مقصورتها. قالت لي: "هل ترغب في نزهة في دروب المرية؟".

التقطت يدها ومضيت أجرب كيف ستسقبلني الدروب وأنا بجانب امرأتي. وجدنا الكهل عند البوابة ولون عينيه كجناح ذبابة ملونة، تضيقان لتتصلا بأنفه الضخم. لم يعرني اهتماماً، قال فقط مخاطباً الزاهرة: "لا تتأخري يا أناهيد". غاظني تصرفه كأنني لم أكن موجوداً. قلت: "لِمَ يناديك باسمك الفارسي؟".

أجابت وهي تنظر إلي بغنج وتكسر: "أناهيد هو اسمي الحقيقي، ولكن أسمي نفسي بالزاهرة لأتبارك بسيدتنا فاطمة، وبركة آل البيت تحميني، وكم من مصائب دفعت عني وجللتني بخمار سترها، فيكون العيّار أمامي قد تربص بي وهمّ بخطفي، فيحال بينه وبيني فلا يراني".

أسدلت خمارها على وجهها وأمالت رأسها على كتفي، وقالت: "الزاهرة هي التي جلبتك إلي".

كانت قد ارتدت ثوباً من الديباج الأخضر بلون خفيها الرقيقين، وغطت وجهها بخمار حريري يتواءم مع لون ثوبها، وعصّبت جبينها بعصابة مشغولة باللؤلؤ. يتكشف عالم النساء لي بين يدي هذه الحورية: مكحلتها، وأمشاطها، وقوارير عطرها، وحنجور فيه معجون لؤلؤي تدهن به جبينها ويديها فتضيء.

***

عندما تتنزه برفقة امرأة تعشقها، لا تبالي أنها لا تنفك عن التوقف لتأمل واجهات الحوانيت أو أنها تسرف في التشكي من خفها الجديد، أو تتشهى التذوق من كل دكان حلوى نمر به، ثم تعطش بعدها وتطلب

ماء. كل ما يهمك ألا تصمت طيور الحبور عن الزقزقة في صوتها. وعند العطار عرض علينا عطراً قال إنه خليط لعطور ثلاثين زهرة، إحداها لا تنبت إلا خلف شلال وبين الصخور التي تفصله عن جبل وتظهر لأسبوعين في العام.

ليس هناك أكثر اتساعاً من مخيلة بائع كاذب. وضعته في كفها وقلت: "أريد أن ألعقه من تحت أذنك".

وما زالت الأشجار عندما تمر جوارها تغني.

***

في الصباح اليوم التالي، انتشلت أجزائي المبعثرة داخل حقول ياسمينها بصعوبة، وأخذت أتهيأ للخروج، لكنها تذمرت من غيابي المفاجئ عنها كل مرة، فدسست وجهي في جيدها وقلت لها: "سأعود سريعاً"، وهمست لها:

"وإذا قمت عنك لم أمش إلّا مشي عانٍ يقاد نحو الفناء

هناك رجل ينتظرني جوار المسجد، لا بد أن أبيعه بعض الكتب".

كان القبطان بجوار المسجد ومعه رجل وعربة. قال لي: "عرفت أنك ستجلب المزيد من كتبك وقراطيسك".

قلت له بتهكم فلم أعد أبالي باستفزازه: "هل تعرف ما قال المسيح عليه السلام: لا ترم الدر عند الخنازير، وأبو الطيب قال:

ذو العقل يشقى بالنعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم".

يبدو أنني نجحت في بعثرته، فقد قال متراجعاً: "اعذرني، لا بأس

عليك، فهذا هو شأن الجهلة وصغار العقول يقولون ما لا يفقهون، وإنني آليت على نفسي أن أمضي هذا العام في قراءة كتاب **العقد الفريد** لابن عبد ربه الأندلسي".

لم أبال بما يقول، فهو دعي، حتى لا يجرؤ على الجلوس في إيوان السيد النبيل ويظل واقفاً منكساً، وكنت قد جلبت كتاب إخوان الصفا، والكندي، وأبي العلاف المعتزلي، وكتاب **الحيوان** للجاحظ. وقلت له: "لا حاجة بنا إلى عربتك، فما أحمله مما خف حمله وغلا ثمنه".

كانت النوافير ونحن نتصعد صوب قلعة خيران تصدر صوتاً مبحوحاً عجيباً كأنه الشهيق، فيما يتدرب الفتية الصقالبة على المبارزة بصيحات وحمحمات صاخبة. ومضينا كالعادة إلى الجناح الغربي للقلعة.

***

دوناً عن المرات السابقة، هش وبش بحضورنا السيد النبيل. اقترب مني لتناول الكتب بلهفة وهو يسألني: "هل لديك شيء لأبي العلاء المعري؟".

هززت رأسي آسفاً وقلت: "قد زار بغداد وأمضى فيها زمناً، لكن لم أقابله، ولم أحظ بكتب أو دواوين له". فأردف: "يقال أنه وأبا حيان التوحيدي قد أسرفا بالعلوم حتى هرطقا". ارتعد قلبي، بماذا أجيبه؟ قلت: "يا سيدي، لو أعطينا أذننا لكل ما يقال، لقامت فتنة لن تنطفئ".

حينما مددت كتاب الجاحظ، التقطه بكلتا يديه وكاد يحتضنه وهو يهتف: "عمرو بن بحر الجاحظ... أشهد أنه بحر، لكن يقولون إنه نقل الكثير عن الإغريق ولاسيما كتابه **الحيوان** أخذه عن أرسطو؟"، فأجبته: "هم يقولون هذا يا سيدي، لكنه يقول إن المعاني مطروحة في الطريق، وفي الأدب ما يعول عليه جودة اللفظ، ونصاعة الأسلوب، وجمال

السبك، وهذا ما ينتظم كتب الجاحظ، وكثيرٌ الذي يتقوّله الوراقون".

فجأة زم شفتيه وتأملني بعينين ملتهبتين وهو يسألني: "هل أنت ماضٍ إلى قرطبة؟ أخبرني القبطان القضاعي بأنك تبحث عن قافلة إلى هناك".

فأجبته بتردد وأنا أحني رأسي: "نعم يا سيدي"، فأشار إلى ملاكه الحارس الذي يقف خلف كتفه بنبرة آمرة: "هل أتممت ما بدأت به؟".

فجأة في تلك اللحظة، سمعت جلبة عند الباب وهدير أقدام وصلصة أسلحة. صاح الحاجب بالباب: "سيدي خيران العامري - يحفظه الله - بالباب".

تعلقت عيناي بالباب وأنا أرى خيران يخطو نحو رجل السلالات السلطانية فارع القامة برأس ضخمة، وحاجبين أشيبين منعقدين تحت عينين خضراوين يقظتين تتنقلان فوق الوجوه بخفة، ولا تكادان تستقران. انحنى أمامه وقال: "أسعد الله صباح مولاي"، فلم يقف له رجل السلالات، قال بصوت خافت فقط: "وصباحك يا خيران".

استدارات عيناي بالذهول، من ذا الذي يخاطب خيران مسقطاً جميع ألقابه وهيبته التي تثرثر بها المرية صباح مساء؟ من ذا الذي حينما حاول خيران أن يشرع في الكلام، رفع يده الناعمة الرخصة وأمره أن يتوقف عن الكلام... ويجلس، فجلس خيران الصقلبي قائد المرية.

التفت الرجل النبيل إليّ قائلاً: "ماذا تروم من قرطبة وهناك الفتنة مشتعلة والسيوف مشرعة؟ اختفى الجنود الأمويون الذين كانوا زهرة البلادِ وزهوة الجيوش، لم يبقَ في جيش قائدها سوى الجزار والكناف... مكتبات قرطبة في عهد الحكم المستنصر - رحمه الله - كانت بالعشرات، فأين هي الآن؟".

بدا على خيران الارتباك والحرج من تبسطه في الكلام معي وقال: "مولاي...".

عاد يسكته بحركة من يده، وقال: "مزيد غريب عن البلاد لا يعرفه أحد فيها، وأيضاً من قرأ الكتب صُقلت روحه، وغادرته الخسة والنذالة... وعرف معنى سمو النفس ونبل الأخلاق"، ثم صمت قليلاً وقال وهو يحدق في عيني: "وهو الذي سأبعث بمعيته رسالة كي أعلم أمراء أمية بأنني حي أرزق، ولم أمت، وأن من ادعى أنني قد مُت كاذب، والذي صلوا عليه مع المستعين إنما هو يهودي يكاد يطابقني بالشبه، كي تجتمع كلمة الأمراء الأمويين ويخلعوا ذلك الفتى الأموي الطائش، الذي جعل له جيشاً نصفه من الخبازين والبنائين والحدادين، والنصف الآخر من البربر... ها هو الآن يحكم قرطبة برعونة ويقسم الأرض حولها على قادة البربر، تلك الأرض التي بذل بنو أمية في فتحها الروح والدم، وليس هذا فقط، بل سمى نفسه المستعين بالله تبطراً".

ثم عاد يحدق بي وقد تعرقت لحيته الحمراء من شدة انفعاله، وقال: "عندما تصل قرطبة، ستبحث عن تمام الصقلبي وتتأكد من هويته، وتسلمه الرقعة، وستكون مكافأتك عظيمة، ولربّما ولّيتك في حالة عاد إلي الأمر إحدى الولايات، واحذر أن يخدعك أحدهم بدعوى إيصالها إليه، فإذا كان تمام قد غادر قرطبة أو توفّي، فأحرقها من الفور، ولا تبقها بحوزتك".

قال خيران: "مولاي، ما الذي يجعلك تثق أن هذا الرجل سيوصل الرسالة ولن يخونك، ولمَ لا نبعثها مع أحد رجالنا؟"، فأجاب من الفور: "في رجالك رعونة لا يخطئها أهل قرطبة"، ثم التفت إليّ قائلاً بنبرة وعيد: "وإن وشى بنا هذا الحنفي، سأعرف أين أجده، وسأجلبه،

وأدحرج رأسه من نافذة القصبة".

***

خرجت من بين يدي هشام المؤيد، الخليفة المخلوع، وفي جيبي ألف دينار ذهبي، وفي كمي خطاب من ملك مخلوع إلى ملك متغلب، وأنا بينهم ليس إلّا كطرفة بن العبد حامل حتفه: خطاب ختم بالشمع الأحمر عليه: هشام بن الحكم بالله يعتصم، متغلب عليه ولا أمر له.

ما هذه الدرب المتجمرة التي تسير فيها يا مزيد؟ أدرجني أمراء أمية في حروبهم وتعصبهم، وبرقت الوصية السادسة أمام عيني:

الوصية السادسة

احذر من معاداة العلوم الحكيمة، والحمية، والعصبية لطائفة من الطوائف أو معرفة من المعارف، فإن من بغض علماً، فقد جهله.

لم أنصع في ذلك الوقت، كما يفعل الطائشون... ويا ليتني فعلت!

الفصل السابع

قافلة بني مرة

القافلة التي رافقناها إلى قرطبة ظهور جمالها قد اصفرت ألوانها لأنها تحمل الورس والزعفران اللذين جلبوهما من مدينتي تلمسان وفاس، وجلّ مسافريها من بني مُرة. يقولون إنهم قدموا من رحلة طويلة من قاع جزيرة العرب وتفرقوا: بعضهم استقر في مصر، وبعضهم الآخر ذهبوا إلى القيروان، والبقية واصلت إلى الأندلس.

صاحب القافلة سيضطر إلى استئجار المزيد من الحرس لحماية القافلة، وسألني بعد أن رأى الصناديق التي معي وينوء بحملها ثلاثة بغال: "ماذا تريد من قرطبة فقد جلا عنها أهلها؟".

قلت له بغموض من يريد أن يصده لكن يبقي حبل الوداد موصولاً: "رب كبير هاجه صغير... وفي البحور تغرق البحور".

***

في غرناطة، كان جلّ همي إبعاد الكهل الذي اسمه درباس عني والزاهرة. أقترب من محملها لأطل عليها وأجدها قد غالبها النعاس وتكاد تنكفئ

فتمد يديها لتحتضنني حين تراني، فأطلب منها أن أردفها فوق بعيري القوي فتنام على كتفي، وإذا قرر أن يهطل شهاب فوقنا، تقهقرنا عن القافلة، وتعابثنا بين هزيم الجن والينابيع لامعة الحصى.

أسألها كثيراً عن نفسها وأهلها وماضيها وطفولتها. أجوبتها على الغالب قصيرة ومقتضبة، ولا تود أن تسترسل، لكن هذا لل يثنيني عن التنقيب في أيامها وسنينها؛ أريد أن أكتسحها كلها حتى البقع الغامضة في ذاكرتها، ولا أود أن تظل محتجبة عني.

تحكي لي عن أبيها العواد وعائلتها التي تدرب بناتها على الرقص من سن باكرة. الذكور يتعلمون عزف العود وصناعته، والفتيات يتعلمن الرقص والغناء. تقول: "أجدادي كهنة لطائفة عتيقة خدموا معبد زرادشت عبر العصور، ولكن الله أنعم علينا بالإسلام، والزهراء احتوتنا تحت جناحها وغفرت لنا زلاتنا"، ثم تقول بغنج: "والزهراء من أرسلت لي هذا الفتى العربي الوضيء ليتعشقني بوله جامح، ولهِ لم أخبره قط في أعين كل من سبقوه".

لا أدري هل أطرب لبوحها أم انكسر وهي تتحدث عن ذلك الكل الذي مر بها؛ من وكيف وكم؟ ويحك يا مزيد! إلى متى ستصمد أمام الغيظ وهدير الأسئلة؟

في سوق البيازين في غرناطة، ابتاعت خلاخلاً وبراقع مزركشة بدراهم فضية. لم أسألها ماذا ستفعل بها في قرطبة، وهل ستعيد الزاهرة سيرتها عندما ترشق درة فوق سرتها وتعرضها للرجال؟ لن أسألها؛ قد نتشاجر، ولا قِبل لي بفراقها، على الأقل الآن.

عينا الذبابة درباس تتربص بنا وتتأملنا فلا أبالي، وأعرف أنها رخيصة الحرب التي دخلتها لأستأثر بقلب جارية، حرب لا تليق بأحد السراة،

ولكن سأظل أرشفها، وسأبقي على تلك الستارة السميكة التي تحجب كتبي عنها، وحين نصل قرطبة، سأكتري منزلاً وأفرض شروطي، فلن أقبل أن تعود الزاهرة لتتناثر بين شهوات الرجال.

قال لي رشيد بن علي في مصر إن أهل الأندلس وعامتها مالكيون ولا يميلون إلى أهل العدل والتوحيد، وإن خليفتها المنصور بن أبي عامر منع الفكر المعتزلي، ولكن تبقى مدينة ضاجة بالمكتبات وحلقات الفقهاء وبعض الواحات المعشبة، وحتماً لن تنجو من فكر أهل العدل والتوحيد. وأعطاني اسم رجلهم هناك بهاء الزمان، ولعل الزمان يتظافر وإيانا لندس في كل مكتبة كتاباً.

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

كنت أترقب من الزاهرة الضحكات الرقيعة المجلجة، والتغنج والتنهد والتكسر، وفحش القول والغمز والتهتك، والمرقد المشتعل بفنون الوصال الذي يخص الغواني، ولكن إلى الآن لم يتبدَّ لي سوى خصال فتاة منزلية ملتفة على حذرها، كأنني أخذتها من حجرات بيت لم تتجاوز عتبته... هل توارب دخيلتها عن زوجها الكبش؟

جفولها في حضرة الرجال، لقيمتها الصغيرة المختلسة، تمنُعها، وحياؤها... فلا أقربها إلّا في ظلمة. تُقبل علي عندما أتحدث فلا تشيح بنظرها كصبية لامس الغرام شغاف قلبها لأول مرة، وتستغرب كل ما أقوله ولو أنه عين المحال أو هرطقة الفلاسفة. تتعمد القعود بقربي والدنو مني والاستهانة بإلحاح ركاب القافلة لحثنا على المسير. تتذمر من كل ما يدعو إلى مفارقتي، وتتباطأ في مغادرتي.

وعندما أقرأ لها بعض القصائد الماجنة، يحمرّ وجهها وتغطيه بكفيها، وترجوني أن أكف قائلة: "والله ما تدلهت إلا بذلك العربي المتعفف الساهم، الذي يلقي القصائد كأنه يتلو المزامير، ويبيع الكتب كأنها الدر والجمان، ويسقط رأسه بين صفحات كتابه فيغيب عن الموجودات".

باتت الدرب إلى قرطبة تطول، ولاسيما أن قائدها كان يرسل أمامنا العيون التي تستطلع الدروب الآمنة الخالية من فلول جند أو من الشطار، فتعود العيون بما لايسر من الأخبار والدروب المقطعة بالثكنات والسرايا.

لذا، كانت القافلة تنزل متريثة على حافة نهر، أو أسفل إحدى ضياع الجبل. وعندما يشعر سكان تلك الضيع بمرور القافلة، يدرجون منحدرين عبر دروب الجبل، فيعرضون فواكه مجففة، ورقائق خبز، وحليباً وزبداً لذيذاً، فنمكث في جوارهم أياماً، نلين أجسادنا، ونلقط من أشجار الجوز ونأكل، ونفرك أسناننا بورقها لينصعها، ونوقد نيراناً تشوى فوقها جداء صغيرة ملفوفة بورق شجر، ومحشية بجوز وتين ومشمش، وقد نغيب، أنا والزاهرة، عن الأعين، في أحد كهوف الجبال التي تطل علينا من شاهق.

***

فوجئت أحد الأيام بالكهل درباس على باب الكهف ينتظرنا، فاشتعلت بالغضب وصحت به وقد عزمت على النيل منه هذه المرة: "ماذا تروم هنا؟ والله لترين ما يسوؤك، فقد جمعت بين الجهل وقلة الأدب مع ثاني اثنين إذ هما بالغار".

فرمقني بنظرة سخط وكراهية وقال قد: "جئت أطمئن على الزاهرة، فقد غابت طويلاً عن القافلة". لا يزال يتحدث عنها على نحو منفصل

عني! فصحت به: "للزاهرة زوج يحافظ عليها، فغادر الآن قبل أن أدحرجك عن قمة الجبل".

قالت الزاهرة مستعطفة: "مسكين! هو يريد الاطمئنان فقط"، فأجبتها بصوت غاضب يخرج من بين أسناني: "تمادى هذا الكلب"، وقد حدست في ذلك الوقت أن الخلاص من هذا الرجل لن يكون يسيراً.

***

الزاهرة تلتصق بي وتدس رأسها في كتابي الذي أفرد له مستوحداً شطر يومي، فأعطيتها كتاب **الأغاني** لتتلهى بسطوره، فقالت: "إليك عني، فما كُتب إلّا لبلاط السلاطين ومنادمتهم، وهذا ما أضعت فيه أيامي أسترجع وأحفظ قصائده لأتلوها عللى رؤوس السكارى في مجالس الأشراف... أعطني من الكتب التي تجعلك تتحدث كأنك شيخ عمره مئة عام".

فأعطيتها كتاب الفارابي آراء **أهل المدينة الفاضلة** لكي يعجز عن فهمها فتكف عني، ولم أدر أنه سيزلزلها ويفتح فوهة الفانوس للجني داخلها، وسيستلها بلطف إلى دروب المدن الفاضلة لتعجز عن الخروج منها.

فباتت تتلوه وتعيد فيه، وترف أهدابها الطويلة وهي تتأمل فقراته، وتستغرقها سطوره، ودرباس عندما يمر بها يتمتم ساخراً: "العصا من العصية... ولا تلد الحية إلّا حية".

كان يغيظني فضوله وتطفله، وكنت أتحين الفرص فقط لأنتف ذقنه الشائبة.

لكن الزاهرة لا تبالي به ول ايزعجها مروره، بل تلج في سؤالي عن المدينة الضرورية عند الفارابي، وهل يستطيع أهلها الاقتصار على الضروري مما تحيا به الأبدان من المأكول والمشروب وما يتعاونون على الفوز به؟

وتصف مدينة كرمان التي ولدت فيها في فارس، بمدينة الخسة، كما أطلق الفارابي على المدينة التي قصد أهلها التمتع باللذة المحسوسة من المأكول والمشروب، وإيثار الهزل واللعب بكل وجه ومن كل نحو.

تقلب شفتيها ساخطة فتبرز ذقنها المستدقة لتقول: "جميع المدن التي مررت بها في طريقي من بغداد إلى هنا لم أصادف منها ما يسميها الشيخ الفارابي مدينة الكرامة، وهي التي قصد أهلها التعاون على أن يصيروا مكرمين ذوي عظمة، وذوي ذكر وشهرة، وذلك بالقول والفعل".

فقلت لها بأسى: "في هذه الدرب، لا ترين سوى مدن العقيق التي تنبض بالدم والجراح، إنها مدن التغلب التي لا يروم ملوكها سوى السلطان".

***

أما ما كان يجعلنا نضحك ونتماجن بما يستجلب إلينا العيون، فهو إعجابها بالفكرة التي أخذها الفارابي عن أفلاطون في تشبيه المدينة بجسم الإنسان، فكما أن البدن التام الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه كلها على حفظ حياة الإنسان مختلفة متفاضلة، فهناك عضو رئيسي هو القلب.

كذلك المدينة أجزاؤها مختلفة الفطرة، متفاضلة الهيئات، وفيها إنسان هو رئيس، وكما أن في البدن أعضاء يخدم بعضها بعضاً كذلك في المدينة أشخاص يخدم بعضهم بعضاً.

كنا نقسم أجزاء جسدينا على شكل هيئات المدينة، فتقول: "اليد اليمنى للزرّاع الذين يعدون الغذاء"، فأقول لها: "واليسرى هي للشرطة التي تردع من يعتدي على جهد الزراع"، فتقول: "الرأس للحكماء"،

فأقول لها: "واللسان للشعراء"، ثم أضع يدي فوق نهدها وأقول: "هذا ما دوره؟"، فترفع يدي بخجل وتقول: "هذا صومعة قمح والآخر عسل"، فأسألها بتماجن: "هل هو لذة للشاربين؟"، فتنظر إلي بتأنيب قائلة: "للمتقين فقط".

لكن هذا التماجن لم يمنعها إدمان سؤالي، ولاسيما عن السبب الذي جعل الفارابي يسلم مفاتيح المدن الفاضلة للفلاسفة والحكماء، فيما يترك التمثيل والتصوير لعامة الشعب؟ فأفتح لها الكتاب على الصفحة التي يذكر فيها الفارابي أن الصفات تقوم على الاستعداد الطبيعي، أي الفطرة التي يولد الإنسان بها، وأستمرُ في القراءة لأشير لها إلى اثنتي عشرة خصلة يولد القائد بها.

لذا، القائد تختاره المدينة لخصاله الفاضلة، وليس متغلباً أو ابناً للسلالات السلطانية. ولم أدر وقتها أنني أغرس بذرة في تربة خصبة متشوقة أنبتت حقولاً من الأسئلة.

ماذا سيحل بها عندما تقرأ العقل الفعال لدى الفارابي؟

الرياح القرمزية

رأسي طرب بغناء النخل والشجر عندما تمر الزاهرة بجانبه، وما برحت لها لفتات العذارى في الأفنية المحجوبة. أتحين الفرص التي تتوقف فيها القافلة، كي أضمها وألثمها وأشم رائحة شعرها، وأدس يدي بين طيات ثيابها.

كانت قد انتهت من كتاب الفارابي وطلبت غيره ليملأ ساعات مسير طوال تمضيها بين تلافيف حرير محملها!

قلت لها: "هل تريدين كتاب معلم الفارابي، فهو ليس إلّا المعلم الثاني؟"، فقالت وكانت ما برحت مبهورة بالفارابي: "ما أظن لهذا العظيم معلماً؟ من يبزه ويفوقه في الدنيا؟".

قلت لها بحنو: "أخشى على هذا الرأس الصغير البديع أن تتخطفه الهواجس والهرطقات".

قالت لي وهي تنثني على كتفي بدلال: "لن أخشى شيئاً فالزهراء معي، وأنت معي، وفي كل يوم تستطيل الأجنحة التي ستحلق بي بعداً عن دروب الخنا".

هل تقول هذا لتوهمني أنها تخلت عن سيرتها الأولى؟ لا أعلم ولكن لا أود أن أخبرها أن الدرب وإياي ليست آمنة كما تظنها، فطيور الحيرة والشك تتخطفني أيضاً. ولم أخبرها أنني من شيعة آل البيت لأنني لا أدري هل ما زلت كذلك؛ غادرت اليمامة فهل أبقى على دين ملوكها؟

ولم أخبرها أنني من السراة أحمل وصاياي السبع لنشرها في البلاد، وأن بحوزتي خطاباً من ملك مخلوع يروم حكماً... يا للحمل الثقيل! لا بأس! لربّما ستعرف يوماً ما.

***

قبل وصولنا قرطبة بمسيرة نصف يوم، توقفنا في مرجة وسط الجبال تسمى وادي الجوز. قيل لنا أن هناك شلالاً قريباً من الوادي، لكن يتطلب الوصول إليه الالتفاف حول كتف الجبل في مسيرة وعرة دلنا عليها قائد القافلة كامتياز لعريسين أتلفتهما الدروب، ولم يتنعما بطمأنينة الأسقف الآمنة.

استغرقنا الدرب الوعر وقتاً طويلاً فلم نصله إلّا والشمس قد توسطت

السماء، وحين وجدناه لم يكن بتلك الغزارة التي وصفت لنا، لكن مصبه جدول رائق يلتمع الحصى في قاعه، وتحفه خزامى الجبل والشيح البري. انغمرنا فيه وسلخنا عن جلودنا وعثاء الدروب، وفركنا جلودنا بخزامى الجبل. أخذت الزاهرة تجمع في يدها دويبة ذات أجنحة حمراء تقول إنها جيدة لمعجون الحناء.

في تلك اللحظة، سمعنا سبعين يتقاتلان فوق أحد الجبال القريبة بضراوة عظيمة، وعصفت في الأرجاء حولنا رياح هائلة كان لونها قرمزياً غريباً لا نعلم من أين هبت، لها صوت وأنين كأنها تحكي.

قلت للزاهرة ونحن نهرول عائدين إلى مُناخ القافلة: "هل تسمعين صوت الرياح؟"، قالت: "والله يا سليمان الحكيم، يا من تسمع غناء الشجر والرياح، لم أسمع إلّا صوت قتال سبعين تقشعر منه الأبدان".

قرطبة تطوقها السباع المتقاتلة، وتعصف بها الرياح القرمزية.

وعندما لاحت نجمة المساء، كنا قد وصلنا أرباض قرطبة.

قنطرة مرمر ومدينة تتجمر

٢٩ - صفر - ٤٠٥

٢٩ - ٨ - ١٠١٤

كانت ليلة الترائي ليلة انتظار قمر شهر ربيع الأول وأهل القافلة يهللون: "اللهم أهلّه علينا باليمن والخير والبركة".

قطعت الكون لأصلك يا قرطبة، فماذا خبأت لي أبوابك وخزائنك؟

أرمقها من فوق تلة على الأرباض، والنهر والقنطرة يفصلاننا، قنطرة بناها الرومان دون أن يضمروا شطر قرطبة، لكنها نبتت على الضفتين.

المساء يهطل عليها والفوانيس بدأت تبرق فوق رداء العتمة. كالعادة أتوجس من دخول المدن في المساء. لن نرى طرقاتها وسيستريب منا أهلها وسنضلّ في طرقاتها. سنمكث بجوار القافلة إلى صبح يحمل فوق أجنحته البشارات.

أفواج راجلة على القنطرة خارجون من قرطبة يقصدون الأرباض. يبدون من الخدم والرقيق؛ ثيابهم مهلهلة، ووجوههم متعبة كئيبة. تتوازعهم دروب الأرباض التي يتشاطرون منازلها الطينية الكئيبة مع بعض أهل الذمة وقبائل الغجر.

محملاً بالهدايا لقرطبة: كتب السراة ووصاياهم، وأثواب حريرية أوصتنا حمدونة أن نوصلها إلى أميرات من البيت الأموي... ورسالة من ملكهم المخلوع.

كل هذا برفقة امرأة مزهرة تجتمع نساء الأرض بين أعطافها. أريد أن أوفر لها مسكناً لائقاً آمناً، ولاسيما أن معين كان صريحاً وإياي من بداية الرحلة، وقال لي إنه لن يتمكن من مرافقتي إلى قرطبة، وسيلتحق بقبيلة صنهاجة في بلدة البيرة.

غادر معين وتركني أعرج؛ لم يكن هناك من عصاً أتوكأ عليها وأهش بها على أعدائي، ولاسيما الكهل درباس الذي يبزغ لي بين فينة وأخرى وقد احمرت عيناه بالبغض والتربص.

كلما نزعت إلى النيل منه، همست لي الزاهرة بأن أحذره، فهو مر العداوة، ولم يوافق على زواجي إلّا بعد أن تأكد أن عقدنا زواج قيرواني... "يجعلني أصرفك في أي وقت"، ثم تهمس بنوع من الاستعطاف: "كان برفقتي طوال السنوات العشر الماضية، خيمة تظلني عن صنوف الدهر، وتقلبات الزمان، وكانت كثيرة في دربي، ومن حقه علينا أن نصرفه بما

يليق بكرامة شيخوخته".

لم أشأ وقتها أن أفتح استجواباً: من يكون؟ ولماذا تكن له الاحترام؟ ولمّا يحوم حولنا كضبع مترقب؟ فلم أكن أود سماع ما يضيق به صدري وينكد خاطري. اكتفيت بالصمت، وسأعالج هذه الأمور في أوانها.

أهم ما يدور في خلدي الآن أن أنفصل عن رهط الزاهرة ومعازفهم، وطبولهم، وراقصاتهم، وبغالهم، والكهل الماكر... وأنسل بها وحيدة إلى دارة صغيرة هادئة لا تستجلب العيون ولا تدس الأنوف.

***

مع الضوء انبلجت قرطبة أمامي شهية مجلوة كينبوع فضة. قطعت القنطرة ودخلتها من الباب القبلي الذي يعلوه تمثال لمريم العذراء؛ يقال أن سكانها النصارى الأولون سبق أن رشقوه وما برح هناك.

تمنيت لحظتها معين بصحبتي؛ لفطنته ودهائه، وقدرته على الوصول إلى غايته عبر أقصر الطرق. ما سمعه في المرية من حكايات وأهوال عن حروب البربر والأمويين جعله يتحرز الدخول إلى قرطبة وينأى عنها رغم استهانته بهذا في البداية.

عبثاً حاولت أن أستميله لمرافقتي، وأخبرته بأن الجميع في القافلة باتوا يثقون بأنه قد رفعت الوطأة عن البربر الآن، ولم تعد السيوف تشرع في وجوههم، بل باتت في يمناهم يشهرونها وقت ما يشأون، بعد أن استعان بهم الخليفة الأموي المستعين وأقطعهم الكور والضياع تعويضاً عن فعله سلفه المهدي الذي استباحهم ونكّل بهم! لكن جميع هذه التطمينات لم تقنع معيناً الذي أصر على المضي واعداً بزيارة قريبة.

كانت الزاهرة وجاريتها بستان تدرجان بجواري بصمت، وتقلبان

رأسيهما في الشرفات والممرات، وفي مدخل الخودرية حي اليهود، القريب من الجامع الكبير. صادفتا حماماً نسائياً ببوابة هائلة مطوقة بإطار من الفسيفساء ونقوش أسود تربض متقابلة كأنها وضعت لحماية حمام النساء. رائحة عبق العطور والصابون اجتذبتهما إلى الداخل، وطلبتا تمضية الضحى هناك على أن أعود إليهما بعد أن أنتهي من تدبير شؤوننا.

كان حسن المصري يبرر هازئاً عزوفه عن الزواج بأن من يتزوج يغدو بالتدريج بعيراً أجيراً ينوء بالأحمال والأثقال والهموم. هل أتحسس ظهري بحثاً عن سنام؟

جدي كان يردد مقولة الإمام علي: "الزواج مجبنة مبخلة"؛ امرأة تؤاكلك وتشاربك ولا بد أن تكون سبعاً يحميها من جور الزمان وعبوس الدهر. قدر مباغت قد لايتواءم مع سيرة المترحل مزيد الحنفي الذي انطلق من نجد في قاع الصحراء والآن هو على كتف العالم في قرطبة... هل هي أعذار بت أسوقها كي أفرّ من الزهراء الزاهرة، أناهيد الفارسية الخلابة التي ينام في لحظها المكحول سحر الفرس وشياطينهم كلها؟

ولكنها تبقى أنثى تثقل المسير، وتتطفل على حياتك، بل تفتح صناديق الكتب بفضول ونهم وتستخرج الكتب التي تروقها، وتمضي وقتها في اللجاج والمجادلة حولها.

هل هذه هواجس رجل لم يستفق بعد من نشوة امرأته، أو لعله يحاول أن ينجو من سطوتها على قلبه، ويجفف أجنحته من لزوجة غدير العطور ليحلق كسابق عهده؟

هربت من هواجسي وانطلقت أبحث عن منزل نكتريه. لم يكن أفضل المنازل لكنه كان مشمس الغرف لطيف الهواء بباحة تتوسطها نافورة، ويحف تلك الباحة غرفات بأبواب زرقاء لامعة، ويعلو نوافذه

شماسات بارزة تشبه الشرفات، وأرضه مبلطة. قال لي السمسار وهو يسوقه ويجمله في عيني: "هذا من ميزاته، فجلّ البيوت في قرطبة تغطى بالزرنيخ ولا تبلط".

ولأنه يحتوي على إسطبل ومعلف للدواب يكفي لاصطفاف بعيرين وأربعة بغال عنيدة، لم أجادل السمسار كثيراً عن كروته.

***

قفلت إلى مناخ القافلة كي أجلب ما يخصني والزاهرة وجاريتها فقط، ولكي أعلن انشطاراً واضحاً أمام بقية الحواة الذين كانوا يرافقونها من بغداد.

الكهل درباس عين الذبابة، بعد أن وبخته، لم يعد يحادثني، بل يتحاشى النظر إلي. لم أبال به، بل كنت أجمع الأغراض وأفصل الدواب بصمت وجبين مقطب واجم. قال أحد الفتية الأحباش الذين يرافقونها بصوت خاضع متودد: "أين سيدتي الزاهرة، وبستان؟".

فأجبت وأنا أنظر إليه بنظرة توبيخ مهددة: "هي الآن في منزلها، وحينما تحتاج أيّاً منكم ستبعث بطلبكم". ومضيت أجر الدواب والمتاع فوق القنطرة ويرافقني أحد غلمان القافلة.

كنت أخشى أن هذا القرار قد لا يوائم الزاهرة أو أنها ستفعل تصرفاً يجعلني غراً أحمق أمامهم. لا أعلم، ولكن يبدو أننا سنمضي الشهور الأولى في نزال ناعم وكر وفر إلى أن نرسم ملامح حياتنا المقبلة.

***

كان هناك سانية ماء هائلة بجوار القنطرة تقلّب المياه في الوادي الكبير،

فتغرف الماء من جهة وتسكبه من جهة أخرى. إنها أيامنا، نظن أنها لنا، ولكن الزمن يعود ويسربها من بين أصابعنا ويسكبها في النهر ليسترجعها. الكون حولي يتبدل ويسلخ ثيابه... أين مزيد الحنفي الغر الأخرق الذي انطلق مع حملة حج من اليمامة مني أنا الآن؟

الحكمة تحضر، ولكنها تختلس معها البراءة وصفاء النفس. أنتظر صلاة العصر كي أُصلي في الجامع الكبير وأبحث عن البهاء لأحييه بتحية أهل العدل والتوحيد...

البهاء الذي لا ينطفئ

الزاهرة تكاد أن تصيبها لوثة الكتب، ومن سواي يعلم بأن من تلدغه أفعى المعرفة فإنه لا ترياق لسمها!

كنت أظن سابقاً أن النساء بعقول لطيفة صغيرة عاجزات عن مدارج الحكمة وأبراج الفلسفة، يقعدهن عنها الحيض والبيض، ولكن هذه المرأة النمرة تلتهم الكتب بشراهة، حتى أنها لليال تعزف عن فراشي وتختلي بكتاب تحت نور شمعة. لم يزعجني هذا، فهو من ناحية سينسيها ضرب الطنبور وسقسقة الدف، أو على الأقل ستؤجل قرارها بشأن هذه الأمور، وأيضاً ستعتني بصناديق الكتب كالجواهر الثمينة، فتبحث لها عن مكان خالٍ من الرطوبة، وتلمع نحاس صناديقها، وتزيل الأتربة ووعثاء السفر عن صفحاتها.

تنغمر في قراءة كتب الإلهيات والحكمة، والكندي، والعلاف المعتزلي، وإخوان الصفا، ثم تقول وهي متأففة: "بدلاً من أن يمنحوني أجوبة قد منحوني ضجيجاً".

أقول لها: "لا تجعلي لك إماماً سوى عقلك".

تقول: "ما عقلي! عقلي تخالطه لوثات عواطفي، وماضيّ، وتقلبات مزاجي، وحنيني إلى بغداد، كيف أصل عقلي؟"

قهقت قائلاً: "لله درك! لقد وصلت بسليقتك إلى قضية الأحوال التي جعلتها معتزلة البصرة شرطاً لحكمنا العادل على الأمور، لا بد أن نستجيب لتغير الأحوال من زمان لزمان ومكان لمكان وآخر. رغم هذا، سيظل العقل قنديلك في الدرب وما يقودك إلى وادي الفضائل".

تقول: "ما الفضيلة؟ مثلاً عندما يتزوج رجل بأرملة مع زوجته ليحصنها ويربي أبنائها هل نحسبها فضيلة؟ إنها أكبر لعنة ورذيلة للزوجة الأولى، لا توجد فضيلة نهائية".

ألتقط جواب أرسطو كي يريحني من لجاجها، فأقول لها: "الفضيلة هي الوسط بين رذيلتين"، وأهرب من جدلها، فما المسؤول أعلم من السائل.

أقول لها: "متى ستذهب بستان بأردية الحرير إلى الأميرات الأمويات؟"، فتقول بلا اكتراث: "لربّما في الغد، فنسوة الحمام أخبرنها بأنه لم تعد الأميرات يقطن الزهراء بعد تخريبها، ومعظمهن عدن إلى قرطبة. قصورهن تقبع في حائط نخيل خاص بها يتصل بسور الجامع الكبير، وبوابته غربية تقابل الإسطبلات الأميرية، وتحفه أشجار نخل طوال يجلها أهل قرطبة، لأنها كما يقولون من بقايا نوى تمور الفاتحين الأوائل".

ناديت عند ذلك بستان وطلبت منها عندما أن تصل القصور غداً، وأن تسأل بهدوء ودون لفت النظر عن... رجل يدعى تمام الصقلبي.

***

رسالة هشام بن الحكم المرواني ما برحت في كمي لا تكاد تفارقني، حتى إذا نضوت عني ملابسي، دسستها في أحد الصناديق وأقفلت عليها بقفل معلق برقبتي. وبانتظار ما تخبرني بستان كي أمررها لتمام أو أحرقها.

لم أخبر الزاهرة عن الرسالة رغم أنها أدمنت تقليب صناديق الكتب والعبث بمحتوياتها. ظلت هذه المنطقة المظلمة بيننا.

يقولون إن الرجل لا بد أن يستبقي حيزاً غامضاً مجهولاً عن أنثاه، يرتب به أموره ويعيد اصطفاف جيوشه أمام دنيا تبقيه في حالة نزال دائم، كما أنني إلى الآن لا أعلم عن نيتها، هل ستعاود الرقص والغناء، وما ظعنت من بغداد إلّا لهذا الأمر! لا أدري عنك يا قمر الدار، ويا مسكة العطار.

بهاء الزمان

الجامع الكبير روح قرطبة وسرة مجدها. يحتضن حنو الحجارة غنج الفسيفساء المذهبة، وهيبة الأقواس ورعشة المقرنصات، ودوائر الأغصان تلاحق زخارف العناقيد في مسيرة الأبد، والماء في سواقي المسجد الخارجية، ولجة ذهبية تلعق جذور النخيل وتسكبها على أشجار البرتقال.

بوابات المسجد الداخلية مشرعة جميعها، وأغلب مرتاديه ممن تأبط كتاباً أو لفافة ورق تحت كمه.

توضأت في ميضأته ودخلت، فشهقت أعمدته أمام ناظري كسرية من العمالقة الأماجد مشرئبة متكاتفة لحماية المصلين، في حين أن أقواسه

سعف نخيل يظل الرؤوس. كان شاسعاً ممتداً ولم أكد أتبين محرابه من موضعي، فيما تعبق رائحة بخور هندي في المكان.

عندما سلمت من صلاتي، تلفت بحثاً عن حلقة علم ألوذ بها وأتقصى من طلبتها موضع بهاء الزمان. أقربها كانت حلقة شيخ يسرد حكاية يتظارف بها، فتذكرت أنها وردت لدى الهمذاني، عن شاب جهزه والده بمال للتجارة، وأوصاه أن يحذر النفس وسلطانها، ولكن الفتى شغف بالعلم، وأنفق ماله في طلبه، وعاد إلى والده فقيراً لا يملك نقيراً وهو يقول: "يا أبتي، لقد جئتك بسلطان الدهر، وعز الدهر، وحياة الخلد: القرآن بتفاسيره، والحديث بأسانيده، والفقه بأبازيره، والكلام بأفانينه، والشعر بغريبه، والنحو بتصاريفه واللغة بأصولها". فما كان من الأب إلا أن أخذه إلى الصراف والبزاز والعطار والخباز والقصاب وانتهى إلى البقال، فساومه على باقة بقل، فقال البقال: "إنما نبيع بالكسرة المكسرة، لا بالسورة المفسرة". وعند ذاك، أخذ الوالد تراباً بيده ووضعه على رأس ابنه وهو يقول: "يا ابن المشؤومة! ذهبت بقناطير وجئت بأساطير لا يبيع بها ذو عقل... بباقة بقل".

هل بات التراب على الرأس هو المقياس الذي تقيس به قرطبة العلوم والآداب؟ بداية بائسة تجلب الغم، وتستقبلني بها حلقات الجامع الكبير، فقد بات البقل يفوق العلم، ورواة المغازي والسير والمقابسات ينتشرون في أركان المسجد، ولم تعد حلقات العلم والفقه تمتلك وقارها وهيبتها.

أستل نفسي من الحلقة وأتنقل بين أعمدة المسجد بحثاً عن مخازن الكتب التي عمت العالم أخبارها فلا أجدها.

***

في أول جمعة صليتها في الجامع الكبير، لمحت رجلين من قومة المسجد يتعاونان على حمل مصحف كبير بين أيديهما، ويتقدمهما رجل بشمعة يمشي مشرئباً بجلال. قالوا إنه مصحف عثمان الجد الأكبر لبني أمية. هل وصل مصحفه هنا أيضاً؟ هل يزعمون أيضاً أن فوق أوراقه قطرات من دماء عثمان، المطلبة الأموية التي لم يهدأ أوراها إلى الآن؟

المصحف له غطاء بديع من الفضة منقوش بآيات وزخارف. وضع على كرسي وقرأ منه الإمام حزباً ثم رده القومة إلى موضعه في الخزانة بكياسة وحرص.

أقلب رأسي بين الأعمدة؛ يجب أن أجد اليوم اثنين: الأول القاضي أبو مطرف الذي قيل لي أن له حلقة في المسجد بعد صلاة الجمعة، وأنه جمع في قرطبة من أنواع الكتب ما لم يجمعه أحد من أهل عصره في الأندلس، وكان له ستة ناسخين دائمين ينسخون له، ومتى علم بكتاب جديد، اشتراه، حتى لو بالغ البائع في ثمنه، والآخر هو بهاء الزمان أحد سراة قرطبة، الذي سيمنحني مفاتيحها وخرائطها.

دروب قرطبة تزدحم بالعسكر والشحاذين معاً لكن جامعها الكبير لا يزال يغصّ بطلبة العلم من العرب، وأولئك العجم شقر الوجوه حمر اللحي.

***

لم أكن بحاجة إلى السؤال عن حلقة القاضي أبي مطرف، فهي توالي المحراب وتلتف عشرة صفوف حولها، والجميع يؤمها، فجلست في أطرفها، وكان أول ما تناهى إلى سمعي من كلامه: "من يقول بكلام المعلم الأول أرسطو هم الملاحدة!"

يا إلهيّ ما بال أندلس قد ناصبت الفلاسفة العداء؟ فها هي قرطبة بعد المرية...

صمت أبو مطرف قليلاً، وحدّق في الوجوه، ثم انتابته نوبة من الحماسة وقال مؤكداً: "الملاحدة"، ثم بلع ريقه وهو ينتظر وقع هذه الكلمة على الوجوه، فعاد يوضحها: "أي الفلاسفة، درجت على أثر المعلم الأول أرسطو إلى معلمهم الثاني أبي نصر الفارابي الذي كان على طريقة سلفه من الكفر بالله - تعالى - وملائكته ورسله واليوم الآخر".

"وإذا كانت الفلسفة تقوم في جوهرها وأصلها على تحرير العقل واستعماله دون قيد، فإنه وفقاً للفقهاء وأهل العلم: كل انحراف وشبهة سببه إعمال العقل، فشبهة إبليس - لعنه الله - مصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختياره الهوى في معارضة الأمر".

أسقط في يدي؛ أبعد كل هذه الكتب التي قرأتها يا أبا مطرف لست إلّا نسخة من شيخي محمد التميمي يجد أن كل انحراف سببه العقل؟ والله يا قرطبة، لست سوى جمرة حمراء تنبض بالغضب والدم وتنتظم في عقد مدن العقيق.

أخذت أتأمل السقف، ولم أعد أنصت إلى ما يثرثر به أبو مطرف. أسلمت نفسي لشجن أعمدة الجامع التي تظل رؤوسنا فجعلها الفاتحون الأوائل كسعف النخيل.

تحشرج الشجن في صدري، فتنهدت، وقمت أبحث عن سبيل أصل به إلى مخازن مكتبة الجامع الكبير إن كان هناك مخازن.

***

صوت امرأة داخل المسجد! نعم، صوت امرأة فيه بعض خنة لكنها

تضخم مخارجها كشأن الفقهاء. كانت تقول: "إن الحمد لله نحمده ونتوب إليه، ونصلي على خاتم الأنبياء والمرسلين، فإن الأدب أدبان: أدب شريعة، وأدب سياسة، فأدب الشريعة ما أدى الفرض، وأدب السياسة ما عمر الأرض".

توجهت مذهولاً إلى مصدر الصوت. كنت قد سمعت أن هناك فقيهات في المسجد الحرام في مكة، والجامع الأموي في دمشق، لكن لم أعلم أن الأندلس تشرع مساجدها للفقيهات.

كنت حذراً في خطواتي خشية أن الصوت يصلني من خلف حاجز مصلى النساء، ولكن لمحتها بين الأعمدة تنتصب على كرسي وحولها طلابها ومريدوها، وهي تقول: "فتنة خلق القرآن فتنة عظيمة، راح بها ولها الكثير، وبعضهم ينسبونها إلى الفلاسفة والمهرطقة، وبعضهم يخصون بها أهل العدل والتوحيد أو من يسمونهم المعتزلة".

وتلفتت حولها بوقار قبل أن تسترسل: "ترجع هذه الفتنة إلى مبدأ لا شيء من لا شيء، ويعني أن العالم قديم وليس محدث، وظهر الخلاف في هذا الموضوع حتى بين الفلاسفة أنفسهم، فالكندي أكد ثوابت الدين الحنيف مثل فكرة خلق الخلق وحدوث العالم، وإن كل ما جاء به الرسول – عليه أفضل الصلاة والسلام – لا يخالف العقل، فالكندي، إذاً، اعتمد الذي لا يتجاوز حدود التجوز".

تغشتني نشوة عجيبة، فلم أعتد أن أسمع هذا الكلام الممنطق الناصع إلّا بحنجرة حرشاء خشنة، ولكن ها هو ينساب بغنة أنثوية لدنة، كصوت ساقية الوادي الكبير.

كانت تجلس في الزاوية الجنوبية من الجامع في نهاية الركن الموازي لحلقة القاضي أبي مطرف، وتفصلهما غابة من نخيل الأعمدة. على

يمينها نافذة مشبكة مزخرفة تمتد بطول الحائط، وتطل على بستان يجاور الجامع، وفي نهايته تبرق مياه الوادي الكبير.

مشرئبة مستقيمة الظهر وقد ثنت ركبتيها كأنها تقرأ التحيات، وأمامها كرسي لكتاب كبير تنظر فيه قد جعلت أسفله قطعة من الحرير المطرز المهدب تنثال إلى الأرض. ملامحها رقيقة منمنة بشرها يومض بالرواء. حسنها ليس فادحاً بل ينوس كضوء نجمة. لطافة تقاسيمها لا تمنع تقطيبة فوق جبينها تظهر صرامة العالِم وجديته. تغطي رأسها بقلنسوة حريرية حمراء ينسدل منها خمار بلون الزعفران ينسجم مع لون قفطانها الذي ينهدل بوقار على كتفيها الضئيلين ثم ينفرش حولها بعناية. يعلو ملامحها وهي تنظر في الكتاب استغراق ونشوة يداخلها ألم، وما تلبث أن ترفع عينيها عن الكتاب لتقول: "التنزيه المطلق لله – سبحانه وتعالى – بمعنى ليس كمثله شيء، لا تشبيه ولا تجسيم، وتنزيه الله عن أن يكون مثلاً للأجسام أو الموجودات الحسية، أما في تفسير آية: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، فيخرج المعنى الظاهر لكلمة وجه، ونقول إن المقصود بها الذات".

اندسست في حلقتها مأخوذاً بما أسمع من كلام السُراة وأهل العدل والتوحيد، تغرد به هذه المرأة بفصاحة وقوة حجة، وهمست للفتى الذي جاورني: "من هذه الفقيهة"، فأجاب دون أن يلتفت إلي وعيناه شاخصتان نحوها: "هي بهاء الزمان المروزية".

أثواب حرير أموية

"إذا كانت المرآة معوجة الشكل، وصورت الأشياء الجسمانية على

غير حقيقتها، وأيضاً إذا كانت المرآة صدئة الوجه، فإنه لا يتراءى فيها شيء البتة"، هذه الجملة هي التي استقبلتني بها الزاهرة عندما دخلت من الباب، فقلت لها وأنا ألثمها وأتشمم شعرها: "دعيكي من هرطقات الفلاسفة، لقد رأيت في المسجد عُجباً، هناك فقيهة جليلة في الجامع الكبير".

أجابتني باستغراب: "أين؟".

قلت لها: "في حلقة علم في الجامع".

قالت بستان كأنها تحاول أن تفسر الموضوع: "تقصد في قسم النساء".

قلت لها مصححاً وقامعاً تطفلها على الحديث: "لا، بل حين سلموا من صلاة الجمعة، استدار حول حلقتها النساء والرجال". وعدت أسأل بستان بحنق: "ماذا كان من أمرك؟ هل وجدت تمام الصقلبي حينما ذهبت بالقفاطين إلى القصر الأموي؟".

أجابتني بحيرة: "يقولون إنهم لا يعرفونه، وبإمكانك أن تبحثي عنه في القصر الكبير".

قلت: "أي قصر كبير؟".

أجابت: "الذي يقطن فيه الخليفة الأموي سليمان، المستعين بالله".

أطرقت: "سليمان المستعين يقال أنه من عشاق الكتاب، ويقرض الشعر، ولكنه في شغل من أمره يحاول أن يسوس الحكم بعد أن ثار عليه أهل قرطبة، فقد أقطع البربر جميع الكور حولها، ولم يبق له إلّا قرطبة".

قالت الزاهرة وقد بدا على وجهها السهوم: "اليوم زارنا درباس".

أحسست العروق تنبض في صدغي بشدة، فصحت بها: "الكهل عين

الذبابة، ماذا جلبه في غيبتي؟".

قالت الزاهرة محاولة أن تبرر: "درباس رفيق درب، ولطالما دافع عني ووقف يحميني، وكيف يتنازل الإنسان عن رفاق دربه ويغلق الأبواب في وجوههم؛ من يخون مرة، سيألف الخيانة".

اختنقت بالغيظ لأن نبرتها كانت تعظني وتذكرني بحقيقة أنها تفوقني عمراً، وأنني غرّ جاهل لم تعركني الدنيا، وأنها لا تزال تعول على درباس لحمايتها، فصحت بها ورذاذ الغضب يتناثر من فمي: "هو كان يحمي أفخاذك وأردافك التي تظهرينها للسكارى فيعتاش من كدك، لم يكن يحميك كسيدة منزل مبجلة، كان ينتزعك من بين أحضان الرجال ليعود يبعثك عارية بينهم كرة أخرى".

لم أعرف قسوة هذه الكلمات عليها إلّا بعد أن ازرق وجهها وبدأت تنشج أمامي بصوت يشبه العويل، فلأول مرة أخاطبها بهذه القسوة والبذاءة.

غادرت المنزل بعدما أغلقت الباب بقسوة زلزلت مفاصله، وفي نيتي البحث عن درباس وتهديده بأنه إن عاد إلى الزيارة، سأنكل به.

لكن لا أعرف أين نزل، ولا أين جحره، ودروب قرطبة تعج بالجند، والبوابات معظمها مقفلة، ولا تستطيع أن تسرف في السؤال حتى لا تستقطب العيون، فالأفئدة ما برحت مكلومة، والجراح لم تجف، والحوانيت لا تعرض سوى كم بسيط من الفواكه المجففة والقمح وبعض قلال زيت الزيتون، فالزاد والبضائع قبل أن تصل إلى قرطبة، يبتاعها الجند كالجراد ويلتهمونها، فلا يبقى لأهل قرطبة سوى الفتات.

رغم هذا، تتمرد قرطبة على قوانين الجند، وتتبرج كعادتها كل

صباح، فما برحت شرفاتها تحمل أصص الورد، ونوافيرها تنشد وهي تسقي أسراب طيور اعتادت أن تستحم برذاذها. دروبها مبلطة بحجارة لامعة، وحماماتها تفوح بواباتها بالعطر والصابون.

ظللت أسير على غير هدى إلى أن أشرفت على البوابة القبلية، فخرجت منها إلى ضفة الوادي الكبير لأتأمل الساقية وهي تغرف من عمري وتسكبه، فوجدت أهل قرطبة قد خرجوا للتنزه على ضفة النهر في يوم عطلتهم رجالاً ونساءً وأطفالاً.

زرعت ضفة النهر بالحرير والأرج وضحكات الصبايا اللواتي يخاتلن نسائم النهر لترفع خمرهن عن شعورهن فيلوحن بها في الهواء بدلال تذوب معه القلوب.

هل ستغفر لي الزاهرة فعلي عندما عرضت بها وشتمتها؟ هل سأعود إلى المنزل الآن وأجدها؟ أم سأجد أن القران القيرواني بيننا قد فسخ؟

ستنزف روحي حتى تجف إن غادرتني هذه المرأة.

لكن يجب أن لا ألين، فالآن تُرسم ملامح دربنا وخرائطه. سأعيد تأجيج فتنتها بالكتب وكلام الفلاسفة، تلك اللوثة التي عبثت بعقلها وبعثرته، فذلك السبيل الوحيد لطمس ماضيها.

مررت بالجامع الكبير. سألت أحد قومة المسجد: متى تعقد حلقة الفقيهة بهاء الزمان؟ فقال: "الثلاثاء والخميس والجمعة والسبت، بعد صلاة الظهر".

لن يطيب خاطر الزاهرة ويسكن حزنها سوى أن تثني الركب بين يدي بهاء الزمان.

***

بكورنا بالحضور وتجاورنا، أنا والزاهرة، في حلقتها، جعلا بهاء الزمان تميزنا، فأشارت إلينا برأسها بإيماءة لطيفة مرحبة. جلسنا بمكان قريب من موضع بهاء الزمان. وكانت الزاهرة مبهوتة تقلب أعينها في أعمدة المسجد وزخارف سقفه والناس حولها. أدنو منها حتى أنني أسمع تنهداتها التي تعقب بكاء طويلاً فينعصر قلبي. تتأمل بهاء الزمان قليلاً ثم تسترق النظر إلى عيني المأخوذتين بهذه الفقيهة التي يومض وجهها كلهب القنديل، فتعود إلى التنهد، فأضغط على أصابعها برفق لأخبرها بأنها أنثاي التي لا يوازيها نساء الكون.

كانت بهاء الزمان تمر على أصول أهل العدل والتوحيد مروراً لطيفاً متقية الفضول والأنوف المترصدة.

فمضت تقول: "الإسلام هيكل يقوم على الأركان الخمسة، أما ما داخل هذا الهيكل، فلك أنت حرية الإرادة، أن تنشئ وتؤثث حياتك بما شئت من الخيارات. وقد قسم القاضي عبد الجبار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتبار القائمين عليه إلى قسمين: أحدهما ما لا يقوم عليه إلّا الأئمة، وذلك كإقامة الحدود، وحفظ بيضة الإسلام، وسد الثغور، وتنفيذ الجيوش وما أشبه ذلك، وثانيهما: ما يقوم عليه غير الأئمة من الناس كافة، وذلك مثل: النهي عن شرب الخمور، والزنا، والسرقة، وما أشبه ذلك، ولكن إذا كان هناك إمام مفترض الطاعة، فالرجوع إليه أولى".

***

يا للهول! بهاء الزمان تستشهد بكبير المعتزلة القاضي عبد الجبار على رؤوس الأشهاد ودهاقنة المالكية، فإما أنهم لا يعرفونه هنا في الأندلس،

وإما أنهم يعرفونه ولكن يتغاضون عن الفتاوى التي كفرته.

كنت أتربص في حديثها ما يجعلني ألوح بمفتاح سر الغرانيق، فيما تستدير الحلقة حولها وتتسع وتتوالى صفوفها.

لا عهد لي بمحادثة النساء خارج الغرف المغلقة، فكيف أحادث هذه الفقيهة التي تحدق في الوجوه بشموخ، وتنظر إلى الرؤوس من علٍ؟ ليس هذا فقط، بل يجب أن أخبرها بأن أحد السراة قد ضرب أكباد الإبل وثنى الركب في حلقتها.

فهمست للزاهرة بجواري: "اسأليها عن حكم الفاسق، من ينهاه عن المنكر ويأمره بالمعروف".

كالطفل الذي لا يتردد في إظهار براعته وتفوقه أمام والديه لم تتردد، بل قالت: "ماذا عن الفاسق؟ يا شيختنا بهاء الزمان".

التقطت هذه الفرصة الذهبية لأقول لها وأنا أضغط على الحروف: "حكمه أنه في منزلة بين المنزلتين".

رغم وجوم بهاء الزمان، فإن التعابير الجادة فوق وجهها لم تتغير، ورفعت حدقتيها اللامعتين إلي بنظرة خاطفة وقد لاح شبح ابتسامة تآمرية على وجهها، لتقول: "هذا هو الأصل الرابع لدى أهل العدل والتوحيد، وهو الأصل الذي فصلنا القول فيه في حلقة سابقة. أما اليوم، فحديث حلقتنا عن أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

***

في طريق العودة، كانت الزاهرة مزقزقة فرحة تكاد خطواتها لا تلامس الأرض، تلتصق بي وتحضن كفي، وتقول لي: "أين أنا عن هذه العلوم والمعارف، والله لو أن أهلي علموني أمراً غير هز أردافي، لانتصبت

فقيهة مكان بهاء الزمان".

قلت لها معابثاً: "ويكون اسمك زاهرة الزمان".

قالت بحسم: "لا، بل سأبقيه الزاهرة تيمناً بأمنا الزهراء – عليها الصلاة والسلام – التي تظلني بحدبها وحنوها"، ثم استرسلت بشجن: "أذكر عندما كنا في كرمان، لربّما كنت في الرابعة، ولكنني لا أزال أذكر أن جدي وجدتي بقيا على ديانتهما القديمة، ولمّا بدأ أهل كرمان يدخلون في الدين الإسلامي بكثرة، فرّ الكثير من أهلها نجاة بدينهم إلى الهند واستقروا هناك، وظل جدي وجدتي يصليان لإلههما ويرفعان صورته في البيت. لا تتخيل كم هي قريبة تلك الديانة من الإسلام، فهم يصليان خمس صلوات، ويتوضآن وضوء المسلمين نفسه، ويؤمنان بالبعث والصراط المستقيم، حتى أن زرادشت نفسه تعرض لقصة الملكين اللذين شقا صدره وأخرجا منه شرور النفس، كنبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم".

أجبتها مندهشاً: "حقاً؟ من تقصدين زرادشت أم ماني؟"، وتذكرت سقاء بغداد المسكين الذي أحرقوا صورة ماني أمامه.

قالت: "لا أذكر، ولكن الذي يرفعون صورته رجل وضيء، بهي الطلعة، شاسع العينين، بلحية مربعة عظيمة".

وسألتها: "ومتى أسلمت؟".

قالت: "الحمد لله، عندما ولدت كان والداي قد دخلا الإسلام وتشيعا لآل البيت المطهرين عليهم أفضل الصلاة والسلام، فولدت مسلمة".

فقلت لها: "لكن أهل العدل والتوحيد يحكمون عقولهم ولا يتشيعون لمسلم دون آخر، ولا نعلم فرقاً جليلاً بينهم، فجدي يقول إنه في زمانه

كان الفرق بين السني والشيعي فقط من يفضل علي على عثمان، فانظري كيف أمسى... الأمر في بغداد".

التفتت إلي بفضول وقد رقصت الشياطين تحت أهدابها: "من هم أهل العدل والتوحيد؟".

ما بالي انزلقت في الحديث: "تمتمت... لربّما سأخبرك عنهم يوماً ما...".

ماذا لو أسلمتُ شعلة العدل والتوحيد في قرطبة للزاهرة، فلن يكون هناك أكثر شغفاً، ووجداً، وصهيلاً جامحاً في دروب المعارف مثلها؟

سأتريث الآن؛ لا بد أنه العشق يتغشى عقلي، فيجعلني أتخبط، وأمرر حكمة السراة لهذه الغرنوقة التي تتقن هز أردافها. سأتريث لأرى ما يكون من أمرها.

ولكن ماذا عن بهاء الزمان، هل تحيض وتبيض؟ والله إن علمها وحكمتها لو قسما على قرطبة وأرباضها وكورها... لفاضت عنها.

وصلنا المنزل وكنت قد أرسلت بستان تتقصى عن تمام الصقلبي خلسة حول القصر الكبير، فلمّا ولجنا الدار، وجدناها في باحة الدار مبهوتة تصيح وتولول بأن هناك ثعباناً يختبئ في جحر تحت نافورة المنزل. تسمرت الزاهرة ورفضت أن تغادر دهليز مدخل المنزل، فيما هرولت مستلاً خنجري أنبش تحت النافورة بحثاً عنه، صائحاً ببستان: "هل أنت واثقة؟".

قالت: "نعم، ثعبان فضي طويل التف صاعداً حول أصص الريحان وشرب من ماء النافورة ثم عاد يندس في جحره هنا"، وأشارت إلى موضع متآكل تحت حوض النافورة أخذت أنبشه برأس الخنجر، فقالت لي بستان: "اتركه يا سيدي، قد يكون هذا داره ونحن تطفلنا عليه، فإذا قتلناه، أصابنا بلاء عظيم".

صاحت بها الزاهرة من الباب: "ماذا تريدين أيتها الحمقاء، هل نساكنه؟".

قالت: "لا، بل نرجوه أن يخرج... في بغداد سمعتهم يقولون إنه إذا رأى أحدكم مثل هذه الدواب في بيته، فلا يقتلها حتى يستحلفها ثلاثاً ويقول: أستحلفك بالله ثلاثاً أن تخرج إن كنت شيطاناً".

فقلت لها: "إذاً، استحلفيه ليخرج".

قالت: "لا أستطيع، فأنت سيد المنزل".

وجمت فلم أستحلفه؛ سيحط هذا سمتي وعقلي أمامهما كمجذوب يحاكي الزواحف والهوام. يكفي أنّهما تعلمان بأنني أسمع صوت الرياح وغناء الشجر.

بدلاً من هذا، ظللت أستحلف الزاهرة لتدخل، فالثعبان سأتكفل بأمره غداً. الآن سأذهب لأحضر طعاماً من السوق، فالثعبان ألهى الجارية بستان عن إعداد طعامنا.

***

كأنني لمحت درباس عين الذبابة يقف عند قصاب يبتاع لحماً. لمحته يرمقني بنظرته الماكرة، ولكن أقلقني التشفي الذي في غوريهما، هل أذهب إليه وأهدده؟

لكن الآن قد برد غضبي، ولن أتعرض له ما دامت النساء يؤكدن أنه لم يزر البيت من جديد أبداً.

قبل أن أصل البيت بخطوات، تذكرت قانون حمدونة في المضاهاة والمشابهة، هل عاد عقلي إلى الخرافة، ولكن ماذا يصنع هذا الثعبان في بيتنا؟

ودخلت عند ذلك البيت عاصفاً لأنادي بستان وأسألها: "هل زارنا أحد في غيابي، هل مر درباس الملعون هنا؟".

رغم نفيها الشديد، فإن وجهها الذي غاض منه الدم، وارتجاف أطرافها، جعلا شكوكي تزداد.

***

أمضينا وقتاً طويلاً نستعطف الثعبان ليغادر بين ضحك وقفز، حتى إن الزاهرة غادرها خوفها وعرضت عليه أن يخرج ليرى رقصاتها الفاتنة، فلم يستجب لنا.

واقترحت بستان اقتراحاً عجيباً للنيل منه، قالت إنها طريقة تستعملها القصور لقتل غير المرغوب فيهم، وهي أن نخلط ألماساً مطحوناً ونضعه طعاماً له قرب جحره، فالألماس ليس سماً بذاته ولكن بسبب صلابته الشديدة وزواية الحادة التي لا تستدير كغيرها من الأحجار إذا نزلت الجوف، فإنها تلتصق بجدران المعدة والأمعاء. فإذا ضغطه الطعام، خرق مكان الموضع ومات آكله من الفور، ولا يوجد من الأحجار الأخرى ما يلتصق التصاق الألماس.

وجمت من هذه الوصفة؛ إنه السم البريء الذي لا يستطيع أحد اكتشافه. ما الأمر الغامض لدى بستان ليجعلها تخفض عينيها عندما أحادثها ولا تريدني أن أراه داخلها؟

صاحت بها الزاهرة: "هل تريدين أن نفرط بالألماس لينتهي في جوف ثعبان، لله درك من حمقاء!".

***

كنت طوال الوقت أبحث عن مكان مناسب أضع فيه صندوقي الكتب حتى تبقى بحفظ وأمان.

اقترحت الزاهرة جزءاً من القبو أعتقد أنه خُصص لحفظ الحبوب، وجُهز لكي يمر فيه تيار هواء علوي وسفلي عبر نافذتين شرقية وغربية يدخل منهما الضوء، فيحميها من التعفن.

قالت وقد راق لي اقتراحها: "أعتقد أنه المكان الأمثل لهما، فهو من ناحية سيبقيهما آمنين بعيداً عن الفضوليين، وفي الوقت نفسه سيظلان قريبين مني كلما احتجت أن أحصل على كتاب منهما".

عند ذلك ضممتها ولثمتها واحتضنتها لصدري حتى تأوهت. ما أشهاها وما أعذب الدنيا بين عينيها! تحسست في تلك اللحظة في كمي خطاب هشام المؤيد، الذي وضعته في جيب قفطاني يرافقني في حلي وترحالي، فسألتني: "ما هذا؟".

قلت لها فوراً: "إنها عقود بيوع بيني وبين بعض تجار الكتب".

وقررت عندئذ أن أدسه في أسفل أحد الصناديق إلى جوار وصايا أهل العدل والتوحيد، فمن الخطر جداً أن يرافقني في غدوي ورواحي، فهو ليس رقعة أحاديث رجل متفيقه، بل رسالة من ملك مغلوب يطمح إلى استعادة عرشه.

صعدنا من القبو لأعود وأستفسر من بستان عن مساعيها في إيجاد تمام الصقلبي.

***

قبيل أذان المغرب بقليل، سمعنا طرقات خفيفة لطيفة على الباب، ظنناه النسيم يحرك مفاصله، فلمّا أصخنا السمع، استمرت طرقات حيية

متتابعة، فقفزت نحو الباب متنمراً ظاناً أنه درباس وفي نيتي أن أفتك به، وجذبت الباب بعنف لأفاجأ بصبية تقهقرت فزعاً من حضوري العاصف.

صوتها رقيق، ندية كأنها مطلع الفجر، عيناها زرقاوان لامعتان، جدائلها ذهبية تلفها بخمار أزرق بلون عينيها. بدت في عجلة من أمرها حذرة تتلفت حولها وقالت بصوت عذب: "سيدتي بهاء الزمان - أطال الله في عمرها - تدعوكما لحلقة العلم التي تقام في دارتها غداً بعد صلاة العصر".

وقفت مبهوتاً من ملاحة الفتاة وسرعة استجابة الفقيهة بهاء الزمان لإشارتي في المسجد، والدرب الذي بات مشرعاً. اختفت الفتاة في أحد الأزقة قبل أن أسألها عن موقع منزل سيدتها... لا بأس، سنجده.

***

أثناء سؤالي سدنة المسجد عن موضع منزلها، تبدى لي أنها تنال احتراماً ومكانة في قرطبة، فقد جاورت في مكة لسبع سنين، ثم عادت لتصبح معلمة لأميرات القصر الأموي، وكانت أثناء ذلك تلزم العلم والدراسة، ولم تتزوج، حتى كثر طلابها وملازموها، وجعل القصر لها حيزاً في الجامع الكبير.

رغم هذا، أمضيت والزاهرة وقتاً طويلاً نلتف في دروب قرطبة بحثاً عن دارتها إلى أن تطوع فتى صغير بمرافقتنا إلى منزل بجدران بيضاء يقع على زاوية دربين، له بوابة خشبية هائلة مغلقة يقف عليه حارس كهل ليفتح الباب الصغير فقط الذي يتوسط البوابة. سألناه: هل هذا منزل البهاء؟ فأومأ برأسه مرحباً كأنه اعتاد الغرباء، وتلفت في الطريق خلفنا

قبل أن يقول: "وصلتم".

شرخ بين الشارع ومنزلها كأنك تلج الجنة، فيطبق رضوان الباب خلفك.

سقف الممر الذي يأخذنا إلى الداخل قمرية من الخشب يعرش عليها مدادة عملاقة تتدلى منها زهور بنفسجية عجيبة كالعناقيد يعبق أرجها في الممر، لنشرف بعدها على باحة واسعة يحفها رواق بأعمدة رخامية التفت حولها المتسلقات المزهرة، في حين أن حوض ماء النافورة التي تتوسط المكان قد تغطى ببتلات وأوراق الورد.

شهقت الزاهرة هامسة: "من يرى ذلك الرونق والحسن وفخامة الثياب، ورقة التفاصيل، في تلك المرأة، سيعي أنها تنبلج من لجة هذا المكان قبل أن تصل المسجد".

كانت البهاء تجلس في ركن من باحة منزلها وفي حجرها كتاب فوق مصطبة صغيرة فرشت بالسجاد ويبدو أنها أعدت لدروسها. انهدلت ستارة مواربة من الديباج بين عمودين يحفانها، وقبع أسفل قدمي البهاء قط كثيف الشعر يرقب الحضور بتعجرف لأنه وحده الذي فاز بمجاورة البهاء.

حينما لمحت حضورنا المبهوت المتردد، أومأت برأسها بلطافة، وأشارت بكفها طالبة منا الجلوس على أحد المقاعد المنتشرة حولها. كان عدد الحضور لا يتجاوز العشرين، بينهما امرأتان. شعرت بالراحة لوجودهما، فلا أود أن تكون الزاهرة نشازاً بيننا.

واسترسلت البهاء في ما كانت قد بدأته: "وقد نقل عن الأشعري أن في النساء عدة نبيات، وحصرهن بعض الفقهاء في ست: حواء، وسارة، وهاجر، وأم موسى، وآسيا، ومريم... ووجدناه - تعالى - قد أرسل

جبريل إلى مريم أم عيسى - عليهما السلام - بخطابها، وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾، فهذه نبوة صحيحة بوحي صحيح، ورسالة من الله تعالى - إليها".

"وردَ بعضهم هذا القول بقولهم إن مقام النبوة يقتضي أن تشهر دعوة النبي بالحق، وأن يناظر أهل الباطل، وهذا المقام ليس من مقامات النساء بل من مقامات الرجال، فرددنا على هؤلاء بقولنا: إن ما ذكروه خاص بالرسالة، وليس النبوة، فمن أوحى له الله منبئاً بأمر الله، فهو نبي، وما سمعته مريم ليس من باب التوهم ولا الكهانة واستراق الشياطين السمع، وقد انقطعت الكهانة بمجيء الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، ولم تكن أيضاً رؤيا تحتمل الصدق والكذب، بل كان الوحي... الذي هو النبوة".

هنا بدأت البهاء تصبح أكثر ارتياحاً وتدفقاً بالحديث عما كانت في المسجد، فها هي تقرأ من كتاب في حجرها بصورة مباشرة في حين أن الحضور مطرقون بصمت وخشوع. لفت نظري أن الحضور جلهم من الفتيان وعدد محدود من الرجال في قفاطين ثمينة وعمائم فاخرة، وفي لفتاتهم وقار وأنفة.

انتهى الدرس قرب المغرب، وتوجه الجمع نحو الباب للمغادرة، فيما أخذ تطوف علينا جواري وضيئات بأكواب شراب الزنجبيل المحلى بعسل. غمزت للزاهرة قائلاً: "يسقون من كأس كان مزاجها زنجبيلاً".

فأجابتني وهي تعض على أسنانها: "تبدو مشدوهاً لم تسقط عيناك عن هذه المرأة، لكن في المنزل سيكون لك شأن آخر، ابق وبت لديهن، فلا مكان لك الليلة جواري".

أبهجتني غيرتها، وأردت أن أعابثها بالمزيد قبل أن ألمح البهاء تتقدم نحونا.

نبرة صوتها وخنتها المموسقة لا تمنعانك من تلمّس الروح الصلبة القوية خلف ذلك الصوت، التي تجعل جملها متكاملة ومفرداتها واضحة المخارج، ويدها حين تصافح ثابتة، وعينها حين تتحدث تحدقان بك بلا رفيف.

حضورها المتدفق يتغشى ما حولها وينثال بهاء ووقاراً، وقبل أن أنبس، قالت: "من أين قدمتما؟".

قلت لها: "أنا قادم من نجد... وهي من بغداد، وجمعتنا المرية كزوجين، ورواء مجلسك أظلنا".

كان في عينيها بعض القلق والحيرة، فهي اعتادت أن يأتيها الغرانيق فرادى، فما بالهم باتوا أزواجاً.

طمأنتها وقلت لها: "لدي مجموعة من الكتب بعضها مترجمات أصلية من بيت الحكمة، وبعضها الآخر ما جمعته على امتداد دربي من بغداد إلى قرطبة، وبما يتناسب مع أهل العدل والتوحيد، ورشيد بن علي في القاهرة يقرؤك السلام".

انبلج وجهها ببسمة رقيقة، وقالت: "كيف هي مصر؟ هل لا تزال الريبة قائمة بين أهل القاهرة والفسطاط؟ هل لا تزال سيوف العسكر هي المُشرع في الطرقات؟".

قلت لها: "مصر تلعق جراحها، ولكنها ما زالت نادرة وثمينة ونازفة كحجر العقيق".

صمت الزاهرة أثار فضولها، فسألتها بتودد: "مرحباً بك في مجالس الغرانيق، فكلما خطت امرأة إلى مجلس علم، أشرعت نافذة ضوء في المدينة".

تلعثمت الزاهرة، واحمر وجهها بشكل لم أره سابقاً وهي من كانت تهز ردفيها بجرأة في مجلس تلتف فيه عشرات الأعين المتشهية لها. لعلها ترى في بهاء الزمان نوعاً آخر من النساء اللواتي لا يحتجن إلى الغنج والتلكع ومضغ الكلمات والطرقعة باللسان عندما يتحدثن مع الرجال.

أردفت البهاء: "في قرطبة، لم يعد الزمان هو الزمان، ويجب أن تكونا حذرين بها، وعليكما التفطن في الخطوات ومسالك الدروب، فالجراح ما برحت تنز بالدماء، وبين سلطان غالب وسلطان متغلب، وباقة من الوعاظ يصطفون خلف الغالب، تغدو الشوارع متربصة ودور العلم واجمة، والرؤوس تتلفت محاولة أن تخمن من أين ستحل عليها المصائب، وهل لمحت كم عيناً كانت تترقب مدخل منزلي؟".

فهززت رأسي وجلاً بـ"لا".

فأجابتني بصوت متيقن: "أنا أعرفهم وأخبرهم، فحيناً يرتدون لباس شحاذ، وحيناً سقاء، بل أحياناً يحضرون بلباس الجند يحدقون في الداخلين إلى منزلي بفضول".

ثم قالت وهي تتنهد: "فلربّما سأصمت عن هذه المحاضرات إلى أن يقضي الله لنا خيراً".

نبست بألم: "كم يسوؤني سماع هذا".

عدلت وضع خمارها على رأسها وهي تقول: "على كل حال، سأرسل في طلبكما عندما نجد موضعاً ملائماً لاستوداع الكتب، وفرغم المكتبات التي أحرقت ونهبت، هناك الكثير ممن يحرص على اقتنائها ويبحث عنها، وعلى رأسهم يهود قرطبة".

ومضت إلى الداخل وثوبها المنفرش يموج حول خطواتها الثابتة.

الوادي الكبير يوقظ قرطبة باكراً من نومها، فينفحها لطائف النسيم وأرج الحقول التي مر بها، وصهيل الخيول فوق قنطرتها.

يوائمني هواؤها، أشعر بالأنس والبهجة، لكن تخيفني دروبها، لا أزال إلى الآن مكبلاً بحذري الذي أشعل جذوته تحذير بهاء الزمان، وتفرس الجند في وجهي، فأكتفي بارتياد حلقتها والتنقيب في السوق وأماكن الوراقين عن كتب، متحرزاً من الثرثرة وإطالة الأحاديث.

وقد ترافقني الزاهرة في جولاتي أحياناً، فمشهد رجل وزوجته أقل إثارة للريبة من غريب يطل في الحوانيت ويتربع في حلقات المساجد.

صادفتنا ذات نهار العوادة التي كانت في فرقة الزاهرة، خمسينية وقورة، ما زال في ملامحها السندية بقايا نضارة. أخبرتنا بأن درباس قد اكترى لهم منزلاً في ربض رصافة قرطبة على الضفة الثانية من الوادي الكبير، وابتدأت الدعوات تصلهن لإحياء بعض مناسبات الزواج والطهور. وبعد تردد، قالت: "لكن الجميع يسأل عن الزاهرة".

أشفقت على تهذيبها واحترمت وقارها، ورفضت أن أتلقفها بلعنة ترفعها من موضعها إلى الرصافة، غادرتها فقط منتفضاً دون تحية، فيما كانت الزاهرة تخب خلفي ولا تكاد تلاحق خطوي.

أنا أعلم بأنني لن أستطيع أن أزيل ماضيها كما تنزع قشرة البيضة، فهو قد خالط وعيها باكراً وتخلل وجدانها، وحتى إن كانت علوم فلاسفة الإغريق وحكماء العرب تصب في جوفها، وتقرضها ليل نهار بلا انقطاع، فهي لم تكن سوى غانية...

وأول من يجب أن يعي هذا الأمر هو أنت يا مزيد الحنفي. اليوم صادفت العوادة، وغداً ستصادف ضاربة الطنبور، والذي بعده ضاربة

الدف: لكنني أترعت قلبها بالتودد والغزل، وفراشها بحمى شاب تبلّ بها، وجهزت دارها بأجمل الفرش والأغطية، ومخازنها بالأطايب والأبازير... فماذا تريد النساء؟

أعود أعب من هواء قرطبة الطيب، يذهب كدر الخاطر ويشفي الهموم. لم أجد إلى الآن تمام الصقلبي، ويجب أن أبادر إلى حرق رسالة المؤيد بلا تأخير، ولكن بستان تعود كل مرة بجواب يترك لي خيطاً لم ينقطع، فحيناً تقول إنهم يقولون أنه ذهب إلى البيرة وسيعود بعد أسبوع، وحيناً آخر يخبرونها جواباً عجيباً بأنه تنسك واعتكف في أحد الكهوف قرب قرطبة فراراً من بطش البربر وسليمان المستعين...

وإلى الآن والخطاب لم يُحرق بعد، وهلّ الهلال الثاني وأنا في قرطبة ولم أحرق الخطاب.

هل تراك، يا مزيد، احتفظت بالخطاب طمعاً في دنياك وفي عودة المؤيد إلى عرشه فيقلدك منصباً أو يخلعك مكرمة تكفيك جلّ الدهر؟ الدنيا المغوية لا تمل شياطينها الرقص، ولا تنفك ترسلهم متخفين في ثياب شهوات متبدلة لا تنقطع.

يستحوذ على فكري سبيل الوصول إلى مكتبة الطبيب الجراح الزهراوي. أخبرني أحد الوراقين بأن ورثته يرفضون بيعها، وكتابه **التصريف لمن عجز عن التأليف** يتكون من ثلاثين مجلداً تحتوي أعاجيب علم الطب.

***

يبدو أننا نبذنا درباس لكنه لم ينبذنا، وكما قالت الزاهرة إنه مُرّ العداوة، فلا يتقهقر عن أرض المعركة بيسر وسهولة، فقد عدت يوماً إلى الدار، فوجدت

بستان تمد لي لفافة قالت لي إن أحد غلمان درباس قد أحضرها إلي.

تناولتها ويداي ترتعدان من الغضب لأفاجأ بأنه كتاب **تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب** لابن المرزبان. هل أذهب إلى منزله في ربض الرصافة فأجلده إلى أن يتقيأ حليب أمه؟ هو لم يكف عنا ولن إلّا إذا عض الأرض.

ولكن دنياي في قرطبة على شفا جرف هار: كتبي وخطابي، ووصايا الغرانيق، وامرأة يجب أن أطوي الركب في حلقة علمها، وأخرى فاتنة لدغتها شهوة المعرفة.

هل هذا القياس ما يسمونه العقل أو الحكمة، أم هو الجبن والخور عن ردع من أسماك بالكلب؟

حسناً! سأتروى لكن لن أنسى ثأري عند الكلب... درباس.

الفارس الشجاع يختار أعداءه بعناية وحرص كاختياره أصحابه، ودرباس ليس كفوءاً لعداوتي. فحيث امتداد بصرك، تكون همتك ويكون عرشك.

صراعي مع درباس لا يتجاوز خربشات القطط المنزلية التي تذب عن طعامها، في حين أن الأفق يبرق بالمخلوقات المجنحة والخيول المطهمة.

ماذا تخبئين لي يا قرطبة، يا شجرة رمان تكتنز ثمارها المرجان؟

أنا مزيد النجدي، ضربت لك أكباد الإبل من قلب نجد، فلم أجدك سوى مدينة أخرى من مدن العقيق تبرق بالثارات والدماء وتنازع السلطان... ماذا لديك، يا قرطبة، لفتى ينهض دائماً من حضيضه ليحلق في البعيد... أي مدينة أروم بعدك، فأنت تقعين فوق كتف العالم؟

لم تنتظر قرطبة طويلاً لترد لي الجواب.

وألقوه في غيابت الجب

اللهم يا مؤنس كل غريب، ويا صاحب كل وحيد، ويا ملجأ كل خائف، ويا كاشف كل كربة، ويا عالم كل نجوى، ويا من تسمع كل شكوى، ويا حاضر كل ملأ... يا حي يا قيوم، أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي حتى لا يكون لي هم ولا شغل غيرك، وأن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، إنك على كل شيء قدير...

دعاء لم يصمت لسان رفيقي في هذه الغريفة الحجرية المصمتة عن ترداده، كأنه يتخيله منشاراً سيقطع قضبان زنزانتنا، ولا يكتفي بهذا، بل يطلب مني ترداده وإياه، فهو الدعاء الذي أخرج يوسف من الجب، وفك أسره، وفرج كربه، وأذهب خوفه، وملكه على خزائن الأرض.

ولكنني لست خائفاً ولا مطمئناً ولا حزيناً ولا مكلوماً ولا يائساً؛ قلبي فارغ فقط كأنه ساحة معركة كبرى قد انسحبت عنها الجيوش وخلفت أسهماً منكسرة وسيوفاً منثلمة في أكف مقطوعة كانت تتأهب لاحتضان حبيب، وعمائم لرؤوس كانت مضمخة بالأحلام، وأحذية داخلها أقدام كانت تبحث عن درب العودة.

لست خائفاً ولا حزيناً ولا مستوحشاً ولا أي شيء... أهكذا تكون مشاعر الموتى، بطعم التراب؟

لا أعلم كم لبثت في هذا المكان. تغدو الأيام حلقة أدور داخلها وأعجز عن الإمساك ببداية لها أو نهاية.

لربّما ميزت بعض الفصول عبر نافذة في أعلى الزنزانة يتبدى منها

شجرة عظيمة وارفة تمد أفرعها وأغصانها لتراقص السماء، وتخبرني بتلاحق المواسم أوراقها.

فإذا سئمت تأمل الشجرة، فتحت نوافذ روحي لأرى ما حل بالفتى الحنفي الذي حمل فوق ظهره حملاً ثقيلاً حتى ناء به وأقعده.

لا أجرؤ على الاقتراب من ذكرياتي في منزل قرطبة، فقد يفتك بي الألم.

فحين أتي الجند لأخذي من هناك، كانت الزاهرة تولول وتصيح وتخمش وجهها وصدرها، وبستان تحاول تهدأتها، وكأنني لمحت عند الباب درباس عين الذبابة، ثم انسرب كل شيء من حولي وبات ماضياً.

قال لي الجند إنهم يرصدونني مذ قدمت إلى قرطبة، وإن من ينشر كتب المهرطقة عقابه شديد، ولكن من أدراهم بأن ما في صناديقي كتب مهرطقة؟ من الذي وشى بي: درباس أم بستان... أم تراها الزاهرة؟

هل كانت خيالاً فقط أم أنني كنت محض أحمق تخطّفه الهوى وضحية جماعة من الحواة والراقصين مهمتها استلاب عقول ودراهم الرجال؟... أم أنهم لمحوني أتردد على حلقات ومنزل بهاء الزمان؟ فقبل القبض علي بيومين، قصدت دارها، فقال لي الحارس العجوز عند بابها وهو يبكي إن جند الخلافة قد أتوا وأخذوها وجميع الكتب التي كانت في مكتبتها.

لكن صناديق الكتب ظلت هناك في القبو، ماذا صنعت بها الزاهرة؟ هل وشت بي؟ هل أعطتها لدرباس يبيعها في سوق الوراقين بأبخس الأثمان أم احتفظت بها؟

لم يزرني أحد قط في زنزانتي عدا يوم موحش من شتاء ممطر قارص، وكان في ذلك اليوم رفيقي السابق في الزنزانة قد مات، وأمضيت شهوراً

طويلة لم أحادث أحداً... عندما قال لي الحارس البربري: هناك رجل يود أن يراك، فارتجفت خوفاً ليس من القادم، لكن خشية أن تكون ملكة الكلام قد فارقتني.

كان غلامي... معين!

حين رأي ثيابي المهلهلة وجسدي النحيل وعظامي الناتئة، بكى، فبكيت معه. لذا، لم نتحدث طويلاً، وأمضينا الوقت المخصص للزيارة في النشيج.

وقبل أن يغادر، قال لي إنه أتى إلى قرطبة وبحث عني طويلاً، وتقصى أخباري إلى أن عرف أنني هنا، ولولا أن آمر السجن صنهاجي من قبيلته، ما سُمح له بزيارتي.

تمتم وهو يغادر بأن بعد عسر يسراً، وأن فرج الله قريب، وأن آل حمود هم من يحكم قرطبة الآن، وهم من آل البيت أهل عدل وحكمة، وعلى يديهم سيحل مأزقي بإذن الله، وغادر وهو يتلفت نحوي وينشج.

بعد ذلك، ظل معين يتردد علي ويمرر إلي بعض الطعام الذي كنت أحبه، وكتيبات يتغاضى عنها الحارس الصنهاجي، وأوراقاً وأقلاماً وأحباراً ألملم فيها عمري المتبدد فوق دروب التيه ومدن العقيق، فكانت مشعلي... ترياقي... نبراسي في غياهب الجب، ودونها كنت سأهلك.

***

لم يبق في قلبي الخاوي سوى وصية السراة السابعة:

الوصية السابعة

أحرق جميع هذه الوصايا حتى لا تتحول إلى لاهوت

يسجنك بين قضبانها. الحياة أعظم من تعاليم ووصايا.
الحياة منزلقة متبدلة سادرة في عالم التحولات لا تستقر
على حال.
الزمن يسيل ولا شيء يبقى. كل مخلوق يغادر مكانه ولا أمر
يبقى ثابتاً... فقط صبوة المعرفة هي أم الفضائل.
أحرق الوصايا وابدأ من جديد

أنا مزيد الحنفي النجدي من بلاد ذات زرع وضرع وينابيع جارية ونعم سارحة. أنا الغرنوق السري، تربصت بي شباك الظلمة وأخذتني إلى غرفة تنوح أحجارها الثقيلة كل ليلة وهي تسرد أحزانَ من مرّوا هنا.

يجب أن أحرق كل شيء، وأعود لأحلق من رمادي...

أنا جنين العتمة، سجين المخاضات الأبدية، أمضي أزماني ودهوري متربصاً بلعبة الضوء والظل، مترقباً تنفس الصبح... عبر النافذة الضيقة أعلى زنزانتي.

من بغداد إلى القدس فالقاهرة ثم قيروان فالأندلس، يسافر مزيد الحنفي من وسط جزيرة العرب ليجد نفسه بين ليلة وضحاها مكلّفاً مهمة خطيرة.

سبع وصايا كان على مزيد أن ينساها بعد قراءتها ويترك لرحلاته أن تكون تجلّياً لها.

لكن شغفه بالكتب ومخالفته بعض الوصايا ختمتا رحلته بنهاية لم يكن يتوقّعها.

أميمة الخميس كاتبة وروائية سعودية. تكتب زاوية شبه يومية في صحيفة 'الرياض'. كُتب عدد من الأطروحات العلمية والدراسات النقدية حول أعمالها ويُدرّس بعضها في جامعات محلية وعالمية. تُرجم بعض أعمالها إلى عدد من اللغات.



ISBN 978-614-03-2065-9